موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء العاشر

الضَّارُ النَّافِعُ النُّورُ الهَادِي البَدِيعُ

البَاقِي الوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

الجزء العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5
الموضوع : عقيدة
العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1
التأليف : أ.د. عقيل حسين عقيل
الورق : كريم
ألوان الطباعة : لونان
عدد الصفحات : 5292
القياس : 17×24
التجليد : فني - كعب لوحة
الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots - بيروت
التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد - بيروت
تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب : 311 - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهــرسُ المَوْضُوعَات

الاسم	رقم الصفحة
الضار	7
النافع	59
النور	109
الهادي	155
البديع	209
الباقي	247
الوارث	291
الرشيد	359
الصبور	411
دعاء الموسوعة	463
الدعاء	475

الضَّارُّ جلَّ جلاله

إنه الضار « لمن فعل الأسباب التي توجب ذلك » (1) .

في أَسماء ٱلله تعالىٰ « النَّافِعُ الضَّارُّ وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلِّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها ، الضَّرُّ والضُّرُّ لغتان ضد النفع ، والضَّرُّ المصدر والضُّرّ الاسم » (2) .

الضَّرّ ضد النفع (3) ، ومع أن الضر ضد النفع من حيث تقريب المعنىٰ للقراء ، إلا أن الضَّار في أسماء ٱلله الحسنىٰ هو النافع ، فهو لا يضر لغاية الضرر ولـٰكنه يضر لغاية المنفعة والفائدة والمصلحة .

ٱلله سبحانه وتعالىٰ « لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين ، وإنما هو النافع الضار » (4) ، ولهـٰذا يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (5) .

الضار : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ وفيه صفة لازمة للذات الإلـٰهية لا تقبل الانفكاك عن مقابلها ولا نقول نقيضها ، لأن المقابلة تحفظ التوازن

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 99 .

(2) لسان العرب ، ج 4 ، ص 482 .

(3) المصدر السابق ، ج 4 ، ص 482 .

(4) كتب العقيدة ، ج 3 ، ص 159 .

(5) الزمر ، 7 .

المنطقي وإن كان ٱلله تعالىٰ غني عن هـٰذا ، فالمقاربة التي نحاول فيها تبسيط معنىٰ هـٰذه الصفة من أجل توضيحها وإظهار الإطلاق فيها للذات الإلـٰهية ، ونسبية هـٰذه الصفة لغير ٱلله تعالىٰ ، فمما لا شك فيه أن كثيراً من الناس لا يفهمون من معنىٰ هـٰذه الصفة إلا سلباً ، وهـٰذا غير صحيح فلا صفة سلبية في صفات ٱلله تعالىٰ ، فكل صفاته كمال وجلال وجمال ؛ وهـٰذا لا يدركه إلا المستخلفون فيها ، أي الذي يُمكِّنه عقله من أن يجمع بالمعنىٰ الفلسفي بين الذاكرة والإرادة والحافظة والاستنتاج والإدراك ، وإلا كيف نفهم قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1]وفي قراءة الإمامين ورش وقالون عن نافع ولولا دفاعُ اللهِ الناسَ أي الحروب والاقتتال من أجل إعمار الأرض وهـٰذا ما يقوم به الخليفة وهو من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها تنفيذاً لأمر ٱلله ومصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] .

وعليه فإن إلحاق الضرر بالضرر هو فعل موجب ، وهو عمل خير ، من

---

(1) البقرة ، 251 .

(2) البقرة ، 30ـ37 .

أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها ، حيث وضَّحَ ٱلله للمستخلفين فيها سبل الهداية والرشاد بتفصيل ذلك بآيات مبصرات ، فلقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (1) . فٱلله سبحانه يوقع الضرر فيمن يريد الضرر والإفساد ؛ لأنه سبحانه يرسل الرسل ويختار الخلفاء لما فيه من الخير للخلق بإبلاغهم الرسالة وأمرهم بالصلاح بما فيه منفعتهم ، فلما رفضوا دعوة الحق وكذبوا بها منكرين لدلالتها وخيرها وصلاحها ، وقد وقع اليقين في قلوبهم ، ولـٰكنهم لم يذعنوا لاستعلائهم بالباطل وطغيانهم ، فكان لابد من إيقاع الضرر بهم حتىٰ لا يتفشىٰ في الأرض الفساد ، وهـٰذه عاقبة الذين دأبوا علىٰ الفساد وإلحاق الضرر بالآخرين وبأنفسهم ، وهـٰذا الضرر الذي حل بهـٰؤلاء الذين كانوا مفسدين مستعلين إنما هو إصلاح للأرض ومن يعمرها ، وعبرة لمن يتعظ فمن قدر علىٰ هلاك فرعون وأمثاله من المفسدين كان قادراً علىٰ إهلاك من هو علىٰ صفته وذلك إلىٰ يوم القيامة فإن ٱلله تعالىٰ دائم الضرر للأعداء كما أن جماله وجلاله باق للأولياء والخلفاء مستمر في كل عصر وزمان ، فعلىٰ العاقل أن يتعظ بحال غيره ويترك الأسباب المؤدية إلىٰ الهلاك مثل الظلم والعلو الذي هو من صفات النفس الأمارة بالسوء ويصلح حاله بالعدل والتواضع وغير ذلك مما هو من ملكات القلب التي يتصف بها الخليفة ، والإشارة في الآية إلىٰ أن الذين أفسدوا استعداد الإنسانية لقبول الفيض الإلـٰهي بلا واسطة كانت عاقبتهم أنهم نزلوا منازل الحيوانات من الأنعام والسباع وقرنوا مع الشياطين في الدرك الأسفل من النار فانظر كيف أن الارتقاء إلىٰ السؤدد في مرضاة ٱلله تعالىٰ من دفع المفاسد وجلب المصالح لا يكون إلا لمن اتبع سبيل الهدىٰ وطريق الرشاد بمعنىٰ أنه يحمل صفة الضار بالإضافة وهـٰذه الصفة يتمتع بها الخليفة ومن سمع وأطاع أمره من رعيته .

(1) النمل ، 13 ـ 14 .

أما الخارج عن هـٰذا الإطار فهو من الذين يلحقهم الضرر الضار لتقويمه أو استئصاله ؛ لأنه لا يرجىٰ خيره ولا يؤمن شره فقد وصل إلىٰ درجة من الهاوية بحيث لا يمكن أن ينتشل نفسه إلا باتباع ما يراه الخليفة من الأمر فيما هو أهل له من الأخذ علىٰ يد المارقين والسمو بهم لما يحبه ٱلله ويرضاه لعباده ، فما أقبح المرء أن يكون حسناً بجسمه وشكله وغير ذلك في دينه وأخلاقه وعمله ، ومثله كمثل رجل له جنة يرعاها ويعمرها ثم يضرم فيها النار ، أو أن يكون اعتباره بكثرة ماله وحسن أثاثه كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [1] ففضّل الإنسان بالهمم العالية اتباع الحق والتحلي بالأدب والعقل الذي يعقله عن الوقوع في المهلكات بارتكاب المنهيات والآثام والفواحش والمعاصي فيكون من المفسدين الذين وجب علىٰ الخليفة إلحاق الضرر بهم .

وذهب كثير من العلماء إلىٰ وجوب عدم إفراد الأسماء المقترنة كالضار والنافع والخافض والرافع ونحن نرىٰ غير ذلك ، لذلك أفردنا هـٰذا الاسم ليتم التبيُّن والوضوح الموجب في هـٰذه الصفة التي لا سالب فيها كما يظن البعض ، ولهـٰذا فكل ما في الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالىٰ ، وما في الوجود من غير ذلك فمن عدله ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه حق وعدل ، فالضار والضرر ليس معناه من ٱلله تعالىٰ هو الأذىٰ والشر ، وإنما هو حكمة العدالة الإلـٰهية في موازنة الخلق والمحافظة علىٰ استمرار الحياة عدلاً ، لذلك منح ٱلله تعالىٰ جزئية من هـٰذه الصفة للخليفة ليقيم بها العدل في استخدام الضرر المباح الذي يعود علىٰ المجتمع بالصلاح وينهي المفاسد والانحرافات الضارة بقيم المجتمع وفضائله .

الضار : هو الذي لا يريد الضرر في الأرض ، ولا يريد سفك الدماء فيها

(1) الجمعة ، 5 .

بغير حق ، ولذا فهو الضار للضرر ومصدره .

الضار للضرر نافع ، ولذا فالنافع هو الذي يلحق الضرر بمن يضر أو بما يضر ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (1) . إذاً الضار جل جلاله هو الذي يبطل السحر ، وذلك لأن السحر مفسدة ، وفي هـٰذا الأمر إحقاق حق .

لذلك أفردنا صفة الضار عن النافع هنا ، لأننا نتكلم عن كل اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ علىٰ انفراد فنقول في معنىٰ الضار أنه المنقص عبده لأشياء كثيرة مما يوضح بيان الحاجة إلىٰ الخالق عز وجل كما في معنىٰ النافع أنه يسدُّ الخلة والنقص ، وقد يجوز أن يُدعىٰ ٱلله جل ثناؤه باسم النافع وحده وكذلك بالضار وحده حتىٰ تظهر إيجابية الضار الذي يلحق الضرر بكل ضار ومضر ، وهـٰكذا يجوز الجمع بين الاسمين كما نجمع في الباسط والقابض ، وفي اجتماع هـٰذين الاسمين وصف لله تعالىٰ بالقدرة علىٰ نفع من يشاء وضر من يشاء وذلك أن من لم يكن علىٰ النفع والضر قادراً لم يكن مرجواً ولا مخوفاً فالنافع هو الضار وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضره حيث هو خالق الأشياء كلها خيرها وشرها ونفعها وضرها ، والضر ضد النفع بمعناه اللغوي ، ولـٰكن عندما نفهم أن الضار جل جلاله يضر الضرر ومصدره ، فيكون ضرره نفعاً في ذاته ونفعاً في الفعل المترتب عليه ، قال رسول ٱلله ﷺ : « لا ضَرَرَ ، وَلا ضِرَارَ ، وَلِلرَّجُلِ أَنْ يَجْعَلَ خَشَبَةً عَلَىٰ حَائِطِ جَارِهِ ، وَإِذَا شَكَكْتُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاجْعَلُوهَا سَبْعَةَ أَذْرُعٍ » (2) . ولكل واحد من اللفظين معنىً غير الآخر فمعنىٰ قوله لا ضرر أي لا يضر الرجل أخاه وهو ضد النفع بأن يلحق به الأذىٰ ،

---

(1) يونس ، 80ـ82 .

(2) المعجم الكبير للطبراني ، 9 ، 498 .

ولا ضرار أي لا يضار كل واحد منهما صاحبه فالضرار منهما معاً وهو فعل مشترك بين اثنين أو أكثر ، والضرر فعل واحد يصدر من شخص بعينه ، ومعنىٰ قوله ولا ضرار أي لا يُدخل الضرر علىٰ الذي ضره ولـٰكن يعفو عنه كقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (1) فلا يضر الرجل أخاه فينقصه شيئاً من حقه ، والضرار أن يجازيه علىٰ إضراره بإدخال الضرر عليه ، والضر هو الهزال وسوء الحال، وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (2) فكل ما كان من سوء حال وفقر أو شدة في بدن فهو ضر وما كان ضداً للنفع فهو ضر ، والضار هو موصل الضرر إلىٰ من أراد من خلقه أن يفسد ، إذاً فالضار هو خالق الألم الذي تقع به الموازنة في معادلة كفتي الميزان حيث لا يخلو الخلق من الضرر والشعور بالألم من هـٰذا الضرر سواء أكان ألماً مادياً في نقصان الملك والمرض الذي يأتي علىٰ الصحة والعافية وفقدان الأحبة من الذرية والقرابة أم ألماً معنوياً مثل الخوف والحرمان والتطلع إلىٰ أمنيات مشروعة لا يسبب فقدانها ألماً مادياً وإنما هي من باب الحرمان الذي يولد شعوراً بالنقص تجاه الآخرين يكون ألمه معنوياً فيدخل من هـٰذا الجانب تحت باب الضر من حيث الظاهر ولـٰكن من حيث الباطن فقد يبتلي الإنسان ليكون خليفة ، لا لأجل أن يضل ويرتكب المفاسد ، وفي هـٰذا الأمر لا يخلو مخلوق من أن يصيبه ألمٌ من هـٰذا النوع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (3) .

---

(1) فصلت ، 34 .

(2) يونس ، 12 .

(3) النساء ، 78 ـ 79 .

أما عدم الإضرار فهو كل ما لا ألم فيه وهو الخير من فضل ٱلله في الدارين ، لذلك عندما يصيب الخليفة في الدار الدنيا من هـٰذا النوع من الألم فهو يعلم أن ٱلله تعالىٰ يقول : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (1) فالابتلاء بالأموال والأنفس ينصب علىٰ الجانب المادي الذي يمتلكه الخلق ، وأما سماع الأذىٰ في القول وكيل التُّهم والافتراء فهو ينال من الجانب المعنوي والنفسي الذي يسبب نوعاً مختلفاً عن ذلك الألم ، ومع هـٰذا فإن الخليفة يدرك بحكم اختياره ، وبنعمة الصفات النسبية التي أسبغها عليه الضار جل شأنه أن هـٰذا الضرر فيه أجر عظيم ، وفيه مديح لمن صبر علىٰ هـٰذا الضرر لأن ذلك من عزم الأمور ، وعزم الأمور هو من الشدائد العظيمة التي تحتاج إلىٰ نوعٍ خاصٍّ من الرجال من أجل احتمالها وذلك لاتصافهم بصفات تختلف كل الاختلاف عن الصفات التي يحملها الآخرون ، والخليفة ليس من هـٰؤلاء الآخرين ، وإنما هو من المصطفين الذين نالوا عناية واختياراً إلـٰهياً فميزه بذلك عن بقية الخلق ، ألا ترىٰ كيف أن ٱلله تعالىٰ خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (2) فٱلله سبحانه يعلم أنَّ الضرر سيلحق جميع الخلق حيث المصلح والمفسد يعيشون جنباً إلىٰ جنب ، والضرر الذي يصدر من بعض المخلوقين للبعض الآخر هو أربعة أنواع :

1 ـ الضرر بقصد الأذىٰ لا لفائدة وإنما لما جبلت عليه بعض النفوس من الطِّباع السيئة التي تتلذذ بألم الآخرين ، وهـٰذا ناتج عن كون هـٰذه النفوس أنها لا تستطيع أن تكون علماً في عالم الخيرات وتريد أن تثبت ذاتها لنفسها

---

(1) آل عمران ، 186 .

(2) الأحقاف ، 35 .

علىٰ الأقل ، أو أنها تفشل في مجاراة الآخرين في عالم الفضيلة ولا تستطيع أن ترقىٰ الأمور عن الدنيئة فتلجأ إلىٰ اختيارِ طريقٍ آخر تتميز به عن الآخرين حتىٰ وإن كان في الاتجاه السلبي لذلك وجدنا (نيرون) وهو أحد القياصرة الرومان قد أحرق روما وهو حاكم لها من أجل التميز والتفرد بعمل لا مثيل له في التاريخ وهـٰذا النوع من الضرر لا مبرر له ، ولا يخرج عن الأذىٰ المقصود لذاته من أجل إشباع رغبة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (1) ، لذلك لما كانت هـٰذه النفوس بهـٰذا المستوىٰ من السوء ولم تجد لها رادعاً يضع حداً لها فظنوا أنهم يحسنون صنعاً ، ولـٰكنهم مخطئون في ظنهم هـٰذا ، فمثل أعمالهم في بطلانها وعدم جدواها كمثل اللمعان الذي يحدث من سقوط أشعة الشمس وقت الظهيرة علىٰ أرض مستوية في بيداء ، فيظنه العطشان ماء وهو السراب ، حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً كما كان يظنه ، فهـٰؤلاء وأمثالهم إن ذُكروا فإنهم لا يذكرون إلا بسوء عملهم ، وهناك نوع آخر من هـٰؤلاء الذين يعمدون إلىٰ الضرر لذاته حسداً للآخرين علىٰ أعمالهم الصالحة التي تكون نبراساً وقدوة يُحتذىٰ بها ، وأمثلة ذلك كثيرة ، حيث نقف علىٰ هـٰذا النوع من الضرر بقصد الحسد في قصة ابني آدم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى

---

(1) النور ، 39 ـ 40 .

فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ (1) وهنا يبرز الحسد كأهم الأسباب الدافعة إلىٰ الضرر الضار الذي يقصد منه الأذىٰ وهو ما نهىٰ عنه العقل والشرع لما له من مساوئ تعود علىٰ المجتمع بالخسران . قال تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (2) .

2 ـ الضرر بالآخرين بقصد السيطرة والاستحواذ علىٰ حقوق الناس بغير وجه حق ، ويحدث هـٰذا النوع من الضرر عندما يجد البعض لديه القوة الكافية للتطاول علىٰ الحقوق دون رادع يردعه ، وهو إلحاق الضرر بالزوجة المطلقة مثلاً من أجل التنازل عن حقوقها أو بعض منها حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، فإذا طلقتم النساء فشارفن انتهاء عدتهن ، فلكم أن تراجعوهن قاصدين إقامة العدل وحسن الصحبة وعدم المضارة ، ولكم أن تتركوهن لتنقضي عدتهن مراعين المعاملة اللائقة عند الفراق من غير جفوة ، ذلك أن بعض الرجال يلجأ إلىٰ استخدام ما خوله ٱلله به من القيام علىٰ المرأة لغير ما أراده ٱلله تعالىٰ من الإنفاق حيث أن ٱلله تعالىٰ أعطىٰ الرجل هـٰذا الحق مشروطاً بقوله

---

(1) المائدة ، 27 ـ 31 .

(2) المائدة ، 32 ـ 33 .

(3) البقرة، 231 .

تعالىٰ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (1) ، فالقيامة مشروطة بشرطين : الأول هو من تفضيل ٱلله في تكوين الخلق والاختلاف القائم بين الذكر والأنثىٰ من جانبين : (البيولوجي) وهو الخلق والتكوين العضوي و(السيكولوجي) : وهو التركيب العقلي والنفسي ، وكذلك الإنفاق من قبل الرجل علىٰ المرأة ، فلا يجوز أن يكون القصد من المراجعة مضارة المرأة وتطويل عدتها من أجل التنازل عن حقها الذي فرضه ٱلله لها ، ومن يفعل ذلك فقد حرم نفسه سعادة الحياة الزوجية وثقة الناس به واستحق سخط ٱلله عليه لما يلحقه بها من ضرر ، ولا تتخذوا أحكام ٱلله في الأسرة التي جاءت بها الآيات وجعلت زمام الأسرة بيد الرجل سبباً في الأذىٰ ، ويكون الطلاق أيضاً لغير سبب وجيه وإنما الغرض منه الحصول علىٰ متاع من الدنيا بغير حق مشروع فيكون ذلك ، مضارة وإيذاء ، إذ لا يجوز أن يكون القصد من المراجعة إلحاق الضرر بالمرأة حتىٰ تدفع إلىٰ التنازل عن حقها وافتداء نفسها ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه في الدنيا باتباعه طريق الإضرار المنهي عنه ، وسلوك طريق الشر وحرمان نفسه سعادة الحياة الزوجية وهو إضرار بالنفس وبالأسرة وبالتالي فهو إضرار بالمجتمع .

3 ـ الضرر الذي يواجه ضرر الآخرين دون فائدة وهو نوع من الانتقام والثأر ، إذ أن هناك حالات من الضرر الخطأ تكون نتيجة أعمال يقصد منها المنفعة فيصدر عن ذلك ضرر خطأ نتيجة السهو أو الإهمال وهـٰذا ما يحدث كثيراً في حياة الناس العامة كأن يسقي إنسان زرعه فيفيض الماء علىٰ بستان جاره فيلحقه ضرر غير مقصود ، فيعمد ذلك الجار إلىٰ الانتقام بضرر مماثل أو زيادة في الأذىٰ ، وكذلك حوادث السيارات التي يؤدي بعضها إلىٰ الموت وهو قتل الخطأ مما يدفع أهل القتيل لأخذ الثأر ضرراً بغير وجه حق وانتقاماً لما أصابهم من ضرر عن طريق الخطأ ، فهـٰذا لا مبرر له ، وإن جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ

(1) النساء ، 34 .

نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [1] ، فالأمر هنا ليس كذلك وما هو انتقام أذىً ، ولٰكنه انتقام عدالة وحساب أوليّ لما قدموا من الأعمال المسيئة بحق ٱلله تعالىٰ وبحق نبيه عليه الصلاة والسلام فتوعدهم ٱلله تعالىٰ بمجازاتهم علىٰ سوء أعمالهم يوم القيامة حين تأتي السماء بدخان واضح يعم الناس ويغطيهم ، فيقولون : ربنا اكشف عنا العذاب قد آمنا بدينك ، فإيمانهم لن ينفعهم في ذلك اليوم ، وقد جاءهم رسول ٱلله بالرسالة الواضحة الصادقة ، فكفروا به ، وقالوا إنه مجنون يعلمه بعض الناس القرآن الذي يتلوه علينا ، لذلك تأخذهم الأخذة الكبرىٰ بعنف وقوة وهٰذا هو الانتقام الحق بسبب سوء أعمالهم فينتقم منهم في ذلك اليوم الرهيب كما انتقم من فرعون وهامان وجنودهما وقوم صالح عليه الصلاة والسلام وأصحاب الأيكة وأقوام كثيرين أهلكوا لارتكابهم المعاصي والموبقات وما كان ذلك إلا بعد الإنذار والتنبيه والدعوة إلىٰ ترك ما هم فيه مما يوقع الضرر بأنفسهم وبالآخرين علىٰ حدٍّ سواء ، فهم أنكروا واستكبروا عن الاستجابة للحق والصلاح والهدىٰ ، فاتضح بهٰذا أن المقصود ليس الانتقام بل هو جزاء ما اقترفوا من الذنوب والآثام والانغماس في المعاصي ، وبسبب الكفر والطغيان واتخاذ آلهة غير ٱلله تعالىٰ وعبادة الأصنام ، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده ، لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وإفراده بها دون جميع خلقه سبحانه وتعالىٰ ، من أنبياء أو ملائكة ، أو صالحين ، أو جن أو غير ذلك ؛ لأن ٱلله سبحانه هو المالك الرازق القادر المحيي المميت الخالق لكل شيء ، المدبر لأمور العباد ، فهو المستحق لأن يعبد جلَّ وعلا ، وهو العليم بأحوالهم سبحانه وتعالىٰ ؛ فلذلك بعث الرسل لدعوة الخلق إلىٰ توحيده والإخلاص له ولبيان أسمائه وصفاته ، وأنه المستحق لأن يعبد ويعظم ، لكمال علمه وكمال قدرته ، وكمال أسمائه وصفاته ولأنه عزَّ وجلَّ النافع الضار العالم بأحوال عباده ، السميع لدعائهم الكفيل

(1) الدخان ، 16 .

بمصالحهم جلَّ وعلا فهو المستحق لأن يعبد دون ما سواه ، فإن كانوا يخشون الضرر من هـٰذه الآلهة فهو جهل منهم ، ولو أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يترك قوماً إلا وأنذرهم وأرسل لهم رسلاً يبينون لهم الحق وطريق الهدىٰ ، فإن أبوا فهو عناد وكبر لذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ (1) فٱلله سبحانه وتعالىٰ منزه عن الظلم ومنزه عن الإضرار ، لأن ذلك من الإفساد في الأرض وٱلله تعالىٰ أمر بإعمارها وإصلاح ما يفسده المفسدون الذين يسعون فيها فساداً وخراباً وتدميراً ، لذلك فإن الضرر الموجه للضرر المقابل دون أن يعود علىٰ المجتمع بفائدة فهو من باب الإفساد وهو منهي عنه لما يترتب علىٰ ردة الفعل من ضغائن وأحقاد تنمو وتكبر كلما تكرر الفعل والفعل المضاد بغية الثأر والانتقام .

4 ـ الضرر من أجل الإصلاح ودفع المخاطر التي تصيب المجتمع أفراداً أو جماعات سواء كان هـٰذا الضرر صادراً من شخص بعينه أو من قبل جماعة تواطأت قصداً علىٰ إلحاق الضرر بالآخرين ، أو ما يصيب المجتمع من كوارث طبيعية من الزلازل والبراكين والأعاصير والطوفان ، أو ما يلحق الناس من الضرر بسبب المعاصي ، فلا يكون الضار جل شأنه ضاراً بصفة فعل الضرر ، وإنما ضرر عدالة لإقامة الحق ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ لما كان من أسمائه الحسنىٰ الضار فلا يمكن أن تُحمل هـٰذه الصفة علىٰ غير الوجه الذي أراده ٱلله تعالىٰ من وصفها بالحسنىٰ ، فإن قيل إن ٱلله أهلك أقواماً كثيرةً وهو من الضرر بهـٰذه الأقوام ، فلا نقول إلا كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ (2) ، لذلك وجب علىٰ العباد حق ٱلله تعالىٰ من إيجادهم وإحيائهم ورزقهم أن يعبدوه ولا يتخذوا آلهة من دون ٱلله ، لذلك قال ٱلله تعالىٰ علىٰ

(1) فاطر ، 24 .

(2) الذاريات ، 56 ـ 58 .

لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (1) فقد وصف آلهتهم بأقذع الأوصاف ؛ لأنها لا تملك أن تضر أو تنفع أو تقدم أي فائدة ترجىٰ ، فكيف يقبل العقل السليم هٰذه الأحجار أو الأخشاب بأن تكون ربّاً وهو محال ، فبهٰذا إنما أراد ٱلله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بصفتها المخلوقة تنبيهاً علىٰ عظيم خطئهم ، وقبح اختيارهم ، فكيف يهدي إلىٰ الرشاد من إن دُعي إلىٰ الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه ، ولم يفهم رشاداً من ضلال ، وكان سواءً دعاء داعيه إلىٰ الرشاد وسكوته عنه ؛ لأنه لا يفهم دعاءه ، ولا يسمع صوته ، ولا يعقل ما يقال له ، وهٰذا يعني عدم التمييز بين ما يضره مما لا يضره ، وإنما الرَّب المعبود هو النافع من يعبده ، الضارّ من يعصيه ، الناصرُ وليَّه ، الخاذل عدوه ، الهادي إلىٰ الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه . وكذلك من براهين أن الضار هو ٱلله تعالىٰ معرفة أوصاف المخلوقين وقدراتهم حتىٰ وإن كانوا آلهة يعبدون مع ٱلله ، فإن جميع ما يعبد من دون ٱلله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلىٰ ٱلله ، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة ، ولا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وٱلله تعالىٰ هو الخالق لكل مخلوق ، وهو الرازق لكل مرزوق ، المدبر للأمور كلها ، الضار النافع ، المعطي المانع ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وإليه يرجع كل شيء ، وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء .

إن الاعتقاد والإقرار بأن الإنسان لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بإرادة ٱلله تعالىٰ هي من متممات الإيمان ، فٱلله رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه ، وهو المحيي المميت النافع الضار ، الذي له الأمر كله ، وبيده الخير ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، ليس له في ذلك شريك ولا يملك مخلوق من الأمر شيئاً ، فقد أطلق ٱلله تعالىٰ العنان للخلق في ملكوته إن

(1) الأنبياء ، 66 .

استطاعوا فعل شيء خارج عن إرادته فليفعلوه حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [1] فٱلله يعلم أن بعض النفوس طبعت علىٰ الأذىٰ والشر فكان هـٰذا موقف التحدي لأمثال هـٰؤلاء إن كانوا يستطيعون الضر لفعلوه من أجل أن يعلو بعضهم علىٰ بعض ، ولا يكون ذلك إلا بعلم ٱلله وإرادته وتقديره لحجم هـٰذا الضرر أو ذاك ، فقد جاء في الحديث أن رسول ٱلله ﷺ قال : « احفظ ٱللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ ٱللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلِ ٱللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِٱللهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجتمعوا علىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ ٱللهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ ٱلله عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » [2] وهو دليل أن الضرر المطلق بيد ٱلله تعالىٰ وليس من أجل الضرر نفسه وإنما من أجل دفع مفسدة أو جلب منفعة ، ودفع المفاسد بالضرر كثيرة أولها وأعلاها رتبةً إعلاء كلمة التوحيد فقد أرسل ٱلله الضرر علىٰ قوم نوح عليه الصلاة والسلام من أجل دفع ضرر الكفر عن الذين آمنوا ، ولا يدفع ذلك إلا ضرر مثله أو أشد منه حيث قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] . لقد صب ٱلله تعالىٰ العذاب أو الضرر ، سمه ما شئت

---

(1) الرحمـٰن ، 33 .

(2) مسند أحمد ، ج 6 ، ص 69 .

(3) هود ، 40 ـ 44 .

علىٰ قوم نوح عليه الصلاة والسلام وخرج الماء وارتفع من الأرض وهطل من السماء ، وحتىٰ يكون هـٰذا الضرر نافعاً للمؤمنين ضاراً للكافرين ، فقد أمر الضار سبحانه وتعالىٰ نوحاً عليه الصلاة والسلام أن يحمل من كل ذكر وأنثىٰ من جميع أنواع المخلوقات من كل زوجين اثنين من أجل تحقيق مصداقية فعل الضرر أنه ليس المقصود منه ذاته لذاته ، وإنما هو الإصلاح بفعل الضرر ، لذلك جاز الفعل وحسن موقعه وتوقيته لإقامته حجة وإبطال باطل وإحقاق حق ونصرة مظلوم من حيث أنه قرر مبدأ تحمل كل إنسان مسؤولية عمله وما جنت يداه ، إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، وأن لا تزر وازرة وزر أخرىٰ ، وكذلك اتقاء الضرر من ٱلله تعالىٰ أنه أمر واجب ؛ لأنه لا سبيل إلىٰ صون الأرواح والنفوس من الهلاك إلا بسبب أو واسطة ، وصون النفس من الهلاك واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، أو أمر مباح شرعاً لأن ٱلله تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) إذاً فهو بمنزلة أن يتخذ الإنسان لنفسه داراً يسكنها ، أو يكون ذلك تعليماً له ولمن بعده في كيفية اتقاء الضرر الواجب ، ولا يكون ذلك من باب ما لا يتم الواجب إلا به ، فإن ٱلله تعالىٰ أعلم نوحاً عليه الصلاة والسلام بالضرر الذي سيقع وأعلمه طريقة اتقائه فمعنىٰ ذلك أنه منجاة للمؤمنين وعبرة للكافرين ، وإضافة إلىٰ ما ذكرنا فإن هـٰذه الآية دلت علىٰ صحة القول بالضرر الواجب الدافع للضرر الحاصل ؛ لأنه تعالىٰ أخبر بأنهم لا يؤمنون بعد ذلك ، فلو حصل إيمانهم مع بقاء ضررهم وامتناع ضرر ٱلله بهم يكون هـٰذا الخبر من وجه النقيض ، وهـٰذا محال ، ولو أنهم آمنوا وامتنع ضررهم ونزل ضرر ٱلله بهم علىٰ تلك الصورة لكان من الظلم وهو محال علىٰ ٱلله أيضاً ، ولما كان الخليفة هو القائم بأمر ٱلله في الأرض فوجب عليه أن يدفع الضرر بالضرر حال وقوعه أو

---

(1) البقرة ، 195 .

استشعاره قبل وقوعه لما في ذلك مصلحة للرعية في دفع المفاسد عنها وجلب المصالح والمنافع لها في المكان والزمان الذي يراه .

وعليه فالضار جل جلاله : هو الذي يضر بالضرر والضار من دونه ، لأجل النفع ، ولهٰذا فالضار هو النافع ، الذي يضر الضرر حتىٰ النهاية ، وهو الذي يقذف بالحق علىٰ الباطل فيدمغ حتىٰ يزهقه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (1) .

ولأن الضار جل جلاله ضرره نفع فهو كائد كيد المكيدين وما كر بمكرهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (3) .

الكيد فعل ضرري ، والمكر كذلك فعل ضرري ، والفرق بين كيد وضرر البشر ، وبين كيد ومكر ٱلله أن البشر يكيدون العمل الصالح ويمكرون به وبمن يقوم به ، وهٰذا العمل الضرري مفسدة ، ولهٰذا جاء ضرر ٱلله ببطلان الكيد والمكر البشري بالآخرين ، مما يجعل الضرر الأول إعاقة للحق ، والضرر الثاني ترسيخاً للحق ، ولهٰذا فإن الضار هو النافع جل جلاله .

إنَّ المعتمد في إثبات اسم الضار لله سبحانه وتعالىٰ وكون ذلك من الأسماء الحسنىٰ وظاهر الاسم يفهم منه غير الصفة الحسنىٰ فسنبسط فيه القول بشيء من التفصيل في هٰذا المكان إن شاء ٱلله فنقول : في إثبات الصفة الحسنىٰ للضار جل شأنه واتصاف الخليفة بنسبية هٰذه الصفة ، أنه لو كان فعل

(1) الأنبياء ، 16ـ18 .

(2) الطارق ، 15ـ17 .

(3) آل عمران ، 54 .

الضرر حسناً أو قبيحاً لذاته فالمفهوم من كونه قبيحاً وحسناً ليس هو نفس ذات الفعل ، وإلا كان من علم حقيقة الفعل علمنا بحسنه وقبحه قبل وقوعه ، وليس الأمر كذلك لجواز عدم علم حقيقة الفعل ، ويتوقف العلم بحسنه وقبحه علىٰ النظر والموقف كقبح الصدق الضار ، مثل الذي يمشي بالنميمة وهو صادق فيما نقل عن القائل وإنما أراد بذلك الفتنة فأصبح الصدق ضاراً ، وحسن الكذب النافع الذي يصدر من شخص ينوي إصلاح ذات البين فيتقول علىٰ شخصين بينهما خصومة كلاماً حسناً لم يقله أحدهما في حق الآخر وبذلك تزول الأضغان فيتحول مفهوم الكذب عن الضرر ، وإن كان مفهوم الصفة زائداً علىٰ مفهوم الفعل الموصوف بهـٰذه الصفة من الضرر فهي صفة معنوية تظهر وجوديتها في وجود الأشياء التي تقع تحت تأثير فعل الضرر لأمر أراده الضار التي تتجلىٰ من خلالها صفته جل شأنه ، لأن الفعل قبل وقوعه ، هو لا حسن ولا قبيح ، ولا يمكن أن يكون صفة للعدم المحض ، لأن فعل الضرر قبل وقوعه بالإرادة هو قائم بالمشيئة ويخرج بالقدرة ، فإن كان عدمياً وجب انتفاء الصفة وهو محال ، ذلك أن النصوص القطعية الدلالة والخبر المتواتر المنقول عن الثقة العدل الضابط والأحداث المشاهدة تبين صفة اتصاف الموصوف بالصفة ، فمثال الأول ما جاء به القرآن الكريم من تلك النصوص الكثيرة في آيات التوحيد والخلق كقوله تعالىٰ : ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (1) فهـٰذه أدلة الخلق حيث يرىٰ المتأمل فيها أن ٱلله تعالىٰ جعل في الأرض جبالاً ثابتة تحفظها أن تضطرب ، وجعل فيها أنهاراً تجري فيها المياه الصالحة للشرب والزرع ، وطرقاً ممهدة لتهتدوا بها في السير إلىٰ مقاصدكم ، وجعل علامات ترشد الناس في أثناء سيرهم في الأرض ،

---

(1) النحل ، 15 ـ 17 .

وهم في ذلك يسترشدون في أثناء سيرهم بالنجوم التي أودعها السماء إذا عميت عليهم السبل والتبست معالم الطرق ، فهل يستوي في نظر العقل السليم التسوية بين القادر والعاجز فيجعل من يخلق هـٰذه الأشياء كمن لا يستطيع خلق أي شيء ، فهـٰذه الآيات من خلق ٱلله ونعمته فهو الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم وهو الذي أنزل المطر من السماء عذباً زلالاً تشربون منه وتسقون الشجر والنبات وهـٰذا الشجر والنبات هو الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم باللبن واللحم والأصواف والأوبار والأشعار والجلود ، إن هـٰذا الماء ينزله ٱلله من السماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات وتجعلونه رزقاً لكم ونعمة وحجة عليكم ، وإن فيما ذكر من الآيات الدالة علىٰ قدرة ٱلله وما فيها من نعم لا تحصىٰ فهي لا تحتاج إلىٰ دليل غيرها ، ومن آيات الخلق التي تدخل تحت مدلول الدلالة القطعية أن جعل لكم الليل لباساً ومهيأً للراحة ، والنهار جعله مناسباً للسعي والحركة والعمل ، والشمس تمد بالدفء والضوء ، والقمر لتعرفوا به عدد السنين والحساب ، والنجوم مسخرات بأمر ٱلله لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات البر والبحر ، إن في كل هـٰذه النعم والدلائل لآيات لقوم لهم عقول تدرك وتتدبر ما وراء هـٰذه الظواهر من قدرة ، ومن آيات الخلق التي لا تحصىٰ ، ما خلق ٱلله في الأرض من أنواع الحيوان والنبات والجماد ، وجعل في جوفها من المعادن المختلفة الألوان والأشكال ، وجعل كل ذلك لمنافعكم ، ومن هـٰذه النعم الكبرىٰ نعمة البحر وما فيه من أنواع الحيوان ، فإن ٱلله تعالىٰ قد أقام الحجة علىٰ الخلق بهـٰذه الأدلة التي لا يحتاج الوقوف علىٰ دلالتها أكثر من النظر والتأمل ، وأما الخبر المتواتر فما جاء عن رسول ٱلله ﷺ من أحاديث عن الغيبيات في العقائد الإسلامية كالجنة والنار والبعث والنشور والحوض والصراط مما جاءت به النصوص القرآنية ، يؤكدها ما أخبر به أصحابه وتحققت في حصولها لهم ، فقد جاء في الحديث أن علياً رضي ٱلله عنه قال : « بعثني رسول ٱلله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال

انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادىٰ بنا خيلنا حتىٰ انتهينا إلىٰ الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول ٱلله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول ٱلله ﷺ »[1] ؛ وأما الخليفة في هـٰذا الجانب فقد أوتي من الفراسة والعلم والكشف ورجاحة العقل وإصابة الرأي وبعد النظر في الأمور الدنيوية والأخروية بما يتناسب مع اختيار ٱلله له ليكون خليفة .

وأما الأحداث المشاهدة فما يقع من كوارث تصيب البشر والتي يعزوها المتتبعون إلىٰ العوامل الطبيعية من تغير أحوال البيئة والتضاريس والأنواء الجوية والتلوث والإخلال بموازين الطبيعة مما يؤدي إلىٰ الزلازل والعواصف والأعاصير التي تفعل الأفاعيل ، ولم ينتبهوا إلىٰ ما جنت أيديهم من الآثام التي توقع الضرر بالآخرين ، فكان حقيقاً علىٰ ٱلله تعالىٰ أن يدفع الضرر بالضرر ، وما إعصار تسونامي إلا من هـٰذا القبيل ، وإن كان البركان والماء والريح هو الذي أدىٰ إلىٰ هـٰذه النتيجة إلا أن ٱلله تعالىٰ يقول : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[2] والضار جل شأنه يظهر في آيات ومعجزات الضرر الحاصل من المشاهدة بالبصر وانطباع صورة الضرر الواقعة علىٰ الأشياء لذلك كان الوجوب بحكم هـٰذه الصفة أنها ضرر مخصوص أي لا يتعلق إلا بالموجود من خلال إدراك الآثار الناتجة عن الفعل ، والموجودات اشتركت في قضايا واختلفت في قضايا من أسباب الفعل ونتائجه ، فإرسال الضرر علىٰ شخص أو جماعة يكون الغرض منه التنبيه والتذكير لمصلحة من يقع عليه هـٰذا الضرر ،

(1) صحيح البخاري ، ج 10 ، ص 194 .
(2) المدثر ، 31 .

فإن أخذ منه الجانب الإيجابي وسخره فيما أراد ٱلله به من الخير فيكون بذلك وقف علىٰ الضرر الحقيقي للصفة الحسنىٰ من الضار وهـٰذا ما يدركه الخليفة ويعلم أن ٱلله تعالىٰ ما أراد به من هـٰذا الضرر إلا الخير سواء بالدعاء من أجل كشف هـٰذا الضر وهو مثاب ومأجور عليه من ٱلله تعالىٰ ، أو برفع هـٰذا الضرر عمن أصابهم من رعيته ويعلم أنه مكلف بذلك فهو خليفة ٱلله في أرضه ، ودفع هـٰذا الضرر ورفعه عن الرعية يكون من واجباته ، وبفعله هـٰذا يكون قد نفذ ما هو مكلف به فهو من باب الطاعة لله تعالىٰ وبذلك يكون قد نال رضي ٱلله في أمره وفيما كلفه به ، غير أن كثيراً من الخلق لا ينظر إلىٰ الضرر بهـٰذه العين الثاقبة في بعد النظر من المراد من الضار جل شأنه في إرادته فيكون كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] وإذا أصاب الإنسان ضر في نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضعفه ودعا ربه علىٰ أي حال من حالاته ، مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً ، أن يكشف ما نزل به من محنته ، فلما استجاب ٱلله له ـ فكشف عنه ضره ـ انصرف عن جانب ٱلله واستمر علىٰ عصيانه ، ونسي فضل ٱلله عليه ، كأنه لم يصبه ضر ولم يدع ٱلله إلىٰ كشفه ، أي إذا أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة ، والمقصود ، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء ، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء ، فإذا مسه الضر أقبل علىٰ التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً مجتهداً في ذلك الدعاء طالباً من ٱلله تعالىٰ إزالة تلك المحنة ، وتبديلها بالنعمة ، فإذا كشف ٱلله تعالىٰ عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر ، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام ، وصار بمنزلة من لم يدع ٱلله تعالىٰ لكشف ضره ، وذلك يدل علىٰ اختلاف الإدراك والنهج والسلوك

---

(1) يونس ، 12 .

والتصرف بين الخليفة وما يعلمه من حكمة إنزال الضرر ، وبين طبيعة الإنسان العادي من الرعية الذي تسيطر عليه شدة استيلاء الغفلة والشهوة وما إلىٰ ذلك من أمور الدنيا ، وإنما ذكر ٱلله تعالىٰ ذلك تنبيهاً علىٰ أن هـٰذه الطريقة مذمومة ، بل الواجب علىٰ الإنسان العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء ، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية ، فالخليفة يدرك تماماً هـٰذه المعاني الجليلة من وقوع الضرر ونزول البلاء فيستبشر بذلك خيراً لمعرفته بعظيم الأجر الذي سيناله للصبر علىٰ هـٰذا الضرر ودفعه عن الآخرين ويدرك بذلك أيضاً أن ٱلله تعالىٰ قد اختاره من بين الخلق جميعاً ليكلفه بما أراد أن ينفذ مشيئته في الأرض علىٰ علم فأسبغ عليه من صفاته النسبية ما هو أهل لها .

إن جميع ما قد ذكرناه من وقوع فعل الضرر واجب علىٰ المسلمين أولاً معرفته من الوجه الذي أراده ٱلله وكما يراه الخليفة ، وثانياً الإيمان به والإذعان لله عز وجل والإقرار له بالعلم والقدرة وأنه ليس شيء كان ولا هو كائن إلا وقد علمه ٱلله عزَّ وجلَّ قبل كونه ثم كان بمشيئة ٱلله وقدرته ، فالضار جل شأنه ينزل الضرر لا للفعل نفسه وإنما للفائدة والإصلاح ودفع الأذىٰ ، فالذين كفروا فإنما فعلوا ذلك باختيار عقولهم فصدوا عن سبيل ٱلله فنزل عليهم الضرر الضار ، والذين آمنوا فإنهم اتبعوا الهدىٰ باختيار عقلهم أيضاً فكان لهم الضرر منفعة بأن درأ عنهم شر من أراد بهم الضر ، ولعلم ٱلله المسبق بما سيحدث قبل حدوثه كتب علىٰ هـٰؤلاء الضر من العذاب والانتقام لما فعلوا ، وكتب علىٰ أولائك الضر الدافع عنهم ضرر الآخرين ، وهنا يأتي دور القدرة التي قدرها ٱلله تعالىٰ علىٰ خلقه بعلمه المسبق من تمسك هـٰؤلاء بباطلهم ، وتوثق أولئك بإيمانهم فكانت مشيئته بأن كتب لخلقه أقدارهم بما سيفعلون بعد خلقهم .

إن الضار سبحانه وتعالىٰ لم يجعل هـٰذا الاسم من أسمائه الحسنىٰ

إلا لما فيه من الخير والرحمة الذي يعود علىٰ الخلق والبلاد والعباد فهو كما يقول تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، فهٰذا الأمر الذي فرضه ٱلله علىٰ المسلمين وفيه شعور بالضرر مثل ما نظر البعض إلىٰ عبادة الزكاة والتي سنأتي عليها ولم يدركوا أن في الإنفاق علىٰ اليتامىٰ والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع من داخله ، فإن القتال حماية له من أعدائه في الخارج ، ولذلك فرض عليكم القتال لحماية دينكم والدفاع عن أنفسكم ، وإن نفوسكم بحكم جبلتها تكره القتال كرهاً شديداً ، ولٰكن ربما كرهتم ما فيه خيركم وأحببتم ما فيه شركم ، وٱلله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم ، وأنتم لا تعلمون فلذلك وجب أن تستجيبوا لما فرض عليكم ، ولو كان شاقاً عليكم مكروهاً منكم ، الكراهة نعت به للمبالغة كأن القتال في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له وهٰذه الكراهة من حيث نفور الطبع منه لما فيه من مؤونة المال ومشقة النفس وخطر الروح لا لأنهم كرهوا أمر ٱلله تعالىٰ ، وكراهة الطبع لا توجب الذم بل تحقق معنىٰ العبودية إذا فعل ذلك اتباعاً للشرع مع نفرة الطبع فأما كراهة الاعتقاد فهي من صفات المنافقين وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التي تكون بمجملها خيراً لكم لأن في الغزو والجهاد إحدىٰ الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة ، ومن هنا نعلم كيف يكون الضرر مخالفاً لمعناه ، ويصبح الكلام في توضيح هٰذه الحقيقة من السهولة بمكان ، إذ أن الأمثلة من الآيات في القرآن الكريم وضحت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك في أن الضرر إنما أراد ٱلله تعالىٰ به الخير من عدة وجوه :

أولها : ردع من قبل الخلق علىٰ بعضهم البعض لما جبلت عليه بعض

---

(1) البقرة ، 216 .

نفوس البشر من الطمع والجشع وحب السيطرة واستعباد الآخرين بغير وجه حق فكان إيقاع الضرر من الضار جل شأنه بهـٰؤلاء من حكمة وعدالة الضار حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [1] إن الضرر الذي أوقعه فرعون جعله يتعاظم في نفسه حتىٰ جاوز الحد في ظلمه ، واستكبر في الأرض وألحق بأهلها الضرر البالغ ، يصطفي بعضهم ويسخِّر بعضهم ، ويستضعف من يشاء ، فيذبح الذكور من أولادهم ، ويستبقي الإناث ، حتىٰ أفسد وطغىٰ وكان من المسرفين فكانت صفة الضار وفعله هو الحد الفاصل بين ما أباحه ٱلله تعالىٰ لخلقه ، وبين من تجاوز علىٰ حقوق الآخرين في العيش والحياة فكان الضرر هو النفع والفائدة التي وضعت الأمور في نصابها الصحيح من المعادلة المنطقية في ترجيح كفة العدالة من استقامة الأمور ووضعها في ميزانها حفاظاً علىٰ توازن الحياة بالنسبة للخلق ، وحتىٰ علىٰ مستوىٰ الحياة العامة بما يخص الأسرة والعائلة الواحدة فإن القيّم علىٰ هـٰذا المجتمع المصغر الأب فهو المسؤول عن تربية الأسرة أو أفرادها حيث يوقع بأحدهم نوعاً من الضرر إذا ما شذّ عن الأخلاق العامة فيمارس علىٰ ضرره الضرر الذي يؤدي إلىٰ الاستقامة والصلاح ، والخليفة هو القيم علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولذا فإنه يلجأ إلىٰ استخدام الضرر النسبي الذي يتصف به من الضار المطلق في أكثر من اتجاه بغاية النفع المترتب عليه ، فمن واجب الخليفة استخدام الضرر للتقويم لأن الخليفة يعلم معنىٰ الضار المطلق فهو بعلمه هـٰذا تقي ورع صالح يخشىٰ ٱلله فهو بذلك يأتي أوامر ٱلله ويجتنب مناهيه ، ولذلك يكون سلطان الضار الذي يمتلكه بمثابة الهيبة في الردع حتىٰ دون اقتراف ذنب وإنما تحسباً

(1) القصص ، 4ـ5 .

فمن ذلك ما جاء عن عمر رضي ٱلله تعالىٰ عنه أن الحسن البصري قال : « كان عمر رضي ٱلله عنه جالساً ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هـٰذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال : ما لي ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما لي ولك أما سمعتها ؟ قال : سمعتها ، قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك »[1] . فهـٰذا يدل علىٰ بعد نظر الخليفة وخوفه علىٰ الرعية من الفتنة فلذلك يستخدم سلطان الضرر في تذكير الناس بأنهم معرضون للفتنة أو الخيلاء فيؤدبهم بالضرر حرصاً عليهم ومحبة لهم ، فهـٰذا الضرر النفسي إنما هو يعود علىٰ المتضرر بخير لا يدركه هو ، وإنما لما كان الخليفة من العلم بما لا يعلمه غيره ومن الحرص علىٰ الرعية أكثر منهم علىٰ أنفسهم لابد أن يكون كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾[2] فالخليفة هنا قام بواجبه اتجاه رعيته ، وصبر الرعية علىٰ هـٰذا الضرر النافع كان سبباً لرضىٰ ٱلله عنهم بتحمله فكان دفع السيئة بالحسنة من كلا الجانبين ، وكذلك لمعرفة الخليفة بأمور تغيب عن معظم الرعية فإنه يتخذ جانب الحيطة والحذر لما يتوقعه هو من إضرار الآخرين من غير رعيته لدفع الضرر عمن هو قائم بأمر ولايته ، لأن الخليفة هو الولي ، وهـٰذا من جانب الحفاظ علىٰ سلطان ٱلله الذي خوله للخليفة بدفع الضرر عن عباده بالأسباب حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(1) إحياء علوم الدين ، ج 2 ، ص 352 .

(2) الرعد ، 22 ـ 23 .

يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [1] ، فهـٰذا الإعداد من قبل الخليفة إنما يكون من باب الإعداد المباح لضرر متوقع فيكون لمواجهة الأعداء ، ويكون الإعداد علىٰ قدر الاستطاعة من قوة حربيةٍ شاملةٍ لجميع أنواع القتال ، من القوة المادية من السلاح والعتاد ومستلزمات ذلك ، وكذلك من القوة العلمية والخبرة والتدريب لتخيفوا بهـٰذا الإعداد والرباط عدو ٱلله وعدوكم من المتربصين بكم الدوائر ، وتخيفوا آخرين لا تعلمونهم الآن وٱلله يعلمهم ؛ لأنه لا يخفىٰ عليه شيء ، فهـٰذا الإعداد الضار إنما هو موجه إلىٰ عدو خارجي يشترك فيه جميع أفراد المجتمع .

وهناك ضرر جزئي يمارسه الخليفة موجه إلىٰ بعض أفراد الرعية صوناً للقسم الأكبر من الرعية في إقامة الحدود والقصاص ، وإن كان هـٰذا يلحق الضرر ، فإنما هو دفع الضرر بمثله وذلك من باب تقوىٰ الخليفة في إقامة الشرع حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [2] ، فهـٰذه الشرائع التي فرضها ٱلله علىٰ عباده في أحكام القتل العمد فإنه من واجب الخليفة إقامة هـٰذه الشرائع ، حيث فرض ٱلله القصاصَ بسبب القتل ، فلا يأخذ الرعية إلا بما أمر ٱلله به ، ويمنع عمل وفعل أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون الحر غير القاتل بالعبد ، والذكر الذي لم يقتل بالأنثىٰ ، والرئيس غير القاتل بالمرءوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه ، ولـٰكن الخليفة يوقع الضرر الذي أمر ٱلله به عباده صوناً للدماء ، فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول ، وكذلك العبد بالعبد والأنثىٰ بالأنثىٰ ،

(1) الأنفال ، 60 .

(2) البقرة ، 178 ـ 179 .

فأساس القصاص هو دفع الاعتداء في القتل بقتل القاتل للتشفي ومنع البغي ، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ودفعوا بالتي هي أحسن فآثروا العفو عن إخوانهم وجب لهم دية قتيلهم ، وعلىٰ أولياء الدم اتباع هـٰذا الحكم بالتسامح دون إجهاد للقاتل أو تعنيفه ، وعلىٰ القاتل أداء الدين دون مماطلة أو بخس وهنا يبرز دور الخليفة علىٰ أكمل وجه في إيقاع الضرر ودفعه وتوجيهه ، فهو يوقع الضرر بالقاتل نفسه ويدفع الضرر عن أهل القاتل ويوجه الضرر إلىٰ فائدة تحقن من خلالها الدماء ، وفي حكم القتل الذي فرضه ٱلله علىٰ هـٰذا الوجه وكلف الخليفة بتنفيذه ، إنما هو تخفيف علىٰ المؤمنين بالنسبة إلىٰ الحكم الذي يوجب القصاص من القاتل ، كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلىٰ الذين يدعون إلىٰ العفو من غير تعرض للقاتل ، فمن جاوز هـٰذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، عذاب في الدنيا بما يراه الخليفة من العقوبة علىٰ من اعتدىٰ ، وعذاب الآخرة وهو الخلود في النار لمن قتل مؤمناً متعمداً ، لذلك كانت رحمة ٱلله عظيمة في فرض القصاص ، فبفضل القصاص الذي هو من صلاحيات الخليفة وضرر هـٰذا القصاص الذي ينزله بالجناة تتحقق للمجتمع حياة آمنة سليمة ، وذلك أن من يهم بالقتل إذا علم أن في ذلك هلاك نفسه لم ينفذ ما هَمَّ به ، وفي ذلك حياته وحياة من هَمَّ بقتله .

ومن هـٰذا الباب أيضاً من أنواع الضرر الذي يقوم به الخليفة ما يقع علىٰ بعض أفراد الرعية دون البعض الآخر وذلك بسبب درء المفاسد لجلب المصالح ، فإذا أصابت آفة من الآفات أو حشرة ضارة بعض الزروع مما لا سبيل لدفع ضرره عن بقية ممتلكات الرعية ومحاصيلهم فمن حقه ممارسة نوع من الضرر يحفظ أموال الآخرين ؛ لأنه يعرف أن درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المنافع ، فيأمر بإحراق وإتلاف ما يمكن أن يصيب المجتمع بالضرر العام فيدفع ذلك بالضرر الخاص ، أو أقل الضررين ، وهـٰكذا كما هو الحال عند مرض الدواجن بالفيروس الضار للبشر ، فحرقها نافع ؛ لأنه قضاء علىٰ ضرر أو ضار .

ولهٰذا فالضار المطلق جل شأنه يدفع بالضرر الأصغر الضرر الأكبر ويكلف بذلك الخليفة فيصبح تنفيذ هٰذا النوع من الضرر طاعة وعبادة فمن ذلك قصة العبد الصالح مع موسىٰ عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (1) فقد قال موسىٰ للعبد الصالح : هل أسير معك علىٰ أن تعلمني مما علمك ٱلله ، فأجابه : إنك لن تستطيع الصبر علىٰ مصاحبتي ؛ لأنه لا علم لك بنتائج الأفعال التي سوف أقوم بها لذلك لا يمكنك الصبر علىٰ شيء لا خبرة لك فيه ، ولٰكن موسىٰ عليه الصلاة والسلام أبدىٰ

---

(1) الكهف ، 65ـ82 .

استعداده للصبر والطاعة ، فطلب منه أن لا ينكر عليه أي شيء من أفعاله ، فانطلقا يمشيان علىٰ ساحل البحر حتىٰ وجدا سفينة ، فركباها ، فخرقها العبد الصالح في أثناء سيرها ، فاعترض موسىٰ عليه الصلاة والسلام قائلا : أخرقتها قاصداً إغراق أهلها ؟ لقد ارتكبت أمراً منكراً وهو ضرر صريح دون سبب ، قال العبد الصالح : إنني قلت لك : إنك لن تستطيع الصبر علىٰ مصاحبتي ، قال له موسىٰ عليه الصلاة والسلام : لا تؤاخذني علىٰ نسيان وصيتك ، ولا تكلفني مشقة في تحصيل العلم منك وتجعله عسيراً ، وبعد أن خرجا من السفينة ذهبا منطلقين ، فلقيا في طريقهما صبياً فقتله العبد الصالح ، فقال موسىٰ عليه الصلاة والسلام مستنكراً : أتقتل نفساً طاهرةً بريئة من الذنوب بغير أن يقتل صاحبها أحداً ؟ لقد أتيت فعلاً مستنكراً ، فأجاب العبد الصالح ، إنك لن تستطيع صبراً علىٰ ما أقوم به من أفعال ، قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إن سألتك عن شيء بعد هـٰذه المرة فلا تصاحبني ، لأنك قد بلغت الغاية التي تعذر بها في فراقي ، فسارا حتىٰ أتيا قرية ، فطلبا من أهلها طعاماً ، فأبوا ضيافتهما ، فوجدا فيها جداراً مائلاً يكاد يسقط ، فنقضه العبد الصالح وبناه من جديد حتىٰ أقامه ، قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : لو شئت طلب أجر علىٰ النقض والبناء لفعلت ، قال العبد الصالح : هـٰذا التعرض منك مراراً لما أفعل سبب الفراق بيني وبينك ، وسأخبرك بحكمة هـٰذه التصرفات التي خفي عليك أمرها ، ولم تستطع صبراً علىٰ ما خفي حتىٰ تعرف حقيقته وسره ، وهي كالآتي :

ـ فأما السفينة التي خرقتها ، فهي لضعفاء محتاجين يعملون بها في البحر لتحصيل رزقهم ، فأردت أن أحدث بها عيباً يُزهد فيها ، لأن خلفهم ملكاً يغتصب كل سفينة صالحة . وأما الغلام الذي قتلته فكان أبواه مؤمنين ، فعلمنا ـ إن عاش ـ أنه سيصير سبباً لكفرهما ، فأردنا بقتله أن يعوِّضهما ٱلله عنه ولداً خيراً منه ديناً وأعظم براً وعطفاً .

ـ وأما الجدار الذي أقمته ـ دون أجر ـ فكان لغلامين يتيمين من أهل

المدينة ، وكان تحته كنز تركه أبوهما لهما ، وكان رجلاً صالحاً ، فأراد ٱلله أن يحفظ لهما الكنز حتىٰ يبلغا رشدهما ، ويستخرجاه ، رحمة بهما وتكريماً لأبيهما في ذريته ، وما فعلت ما فعلت باجتهادي ، إنما فعلته بتوجيه من ٱلله ، فالضار هنا جل شأنه أعلم العبد الصالح بمقدار الفائدة المترتبة علىٰ نتائج أفعال الضرر التي أُمر بتنفيذها ، فٱلله سبحانه يقدر الخير لعباده من حيث لا يعلمون ، لذلك وجب علىٰ العباد أن يرضوا بما كتب ٱلله عليهم وأن يسلموا الأمر كله لله ، وأن يعلموا أنه ما شاء ٱلله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع ، فبعد أن علم الإنسان ذلك وجب عليه أن يعتمد بقلبه علىٰ ربه في جلب مصالح دينه ودنياه ، وفي دفع المضار ، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه ، وهو مع هـٰذا يبذل ما يسعه من جهده في فعل الأسباب النافعة .

ومن مسائل النفع والضرر التي فرضها ٱلله تعالىٰ علىٰ المسلمين هي عبادة الزكاة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (1) فقد وجد البعض أن ضرراً يلحق بهم في أموالهم من عبادة الزكاة علماً أنه ورد الأمر بإيتائها ستّاً وعشرين مرة في القرآن الكريم وقد قرنت جميعها مع إقامة الصلاة للدلالة علىٰ عظم أجرها ، ومع ذلك منع البعض تأديتها شعوراً بالضرر وغاب عنهم جانبان أولهما ما أعد ٱلله للذين ينفقون أموالهم في سبيل ٱلله بقوله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (2) فحال الذين يبذلون أموالهم في طاعة ٱلله ووجوه الخير

(1) البقرة ، 43 .

(2) البقرة ، 261 ـ 262 .

ليس من الضرر في شيء ، وإنما ينالون علىٰ ذلك ثواب ٱلله المضاعف أضعافاً كثيرة ، كحال من يبذر حبة في الأرض طيبة فتنبت منها نبتة فيها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وهـٰذا تصوير لكثرة ما يعطيه ٱلله من جزاء علىٰ الإنفاق في الدنيا ، وٱلله يضاعف عطاءه لمن يشاء فهو واسع الفضل ، عليم بمن يستحق وبمن لا يستحق ، فالذين ينفقون أموالهم في وجوه البر المشروعة دون مَنٍّ أو تفاخر أو تطاول علىٰ المحسن إليه ، لهم أجرهم العظيم الموعود به عند ربهم ، ولا يصيبهم خوف من شيء ولا حزن علىٰ شيء ، وإنما سيلحقهم الضرر في الآخرة بعدم إنفاقهم . وأما الجانب الآخر ، هو الذي يعتبره مانعو الزكاة ضرراً في أموالهم إنما هو حق شرّعه ٱلله للفقراء والمحتاجين ليدفع عنهم الضرر الذي يلحق أفراد المجتمع من تكدس الأموال في يد فئة قليلة تستأثر بهـٰذه الأموال وتستخدمها في إضرار الآخرين ، وهنا يبرز دور الخليفة بصفة الضار لهـٰؤلاء والنافع لأولئك المعوزين ، فيمارس الضرر عنوة لدفع الضرر الأعظم الذي سيصيب المجتمع من امتناع هـٰؤلاء عن تأدية هـٰذه الفريضة التي يدرك الخليفة آثارها ويعلم واجباته المكلف بها من إعمار الأرض والأخذ علىٰ يد المفسدين لعلمه بالمقاصد الضرورية لأحكام الشريعة والغاية من تشريعاتها حفاظاً علىٰ الضروريات التي يعمر بها الأرض من الفساد ، فقوة الخليفة وصفاته النسبية في عقيدته وفي بدنه وفي كل شيء يحتاج إلىٰ العزم والعزيمة والمجالدة ، وذلك من أجل المحافظة علىٰ أفراد المجتمع لتكون أنفسهم صحيحة قوية قادرة علىٰ أداء واجبات الدين والدنيا ، لذلك يكون الخليفة قد أطاع ٱلله فيما أمر به من إلحاق الضرر ببعض رعيته من أجل الحفاظ علىٰ المجتمع علمياً وعقلياً وغذائياً وصحياً بشكل خاص وذلك بسبب انتشار أمراض العصر التي تكلف أموالاً طائلة ، وإذا كان التداوي من المرض مطلوباً ليشفىٰ المريض ، ويصير عضواً نافعاً في مجتمعه ، وإذا كانت أمراض الحضارة قد انتشرت واستشرت ، تقوض بناء الإنسان بعد أن تسري في دمائه وأوصاله ، وإذا كان العلم الذي علمه ٱلله الإنسان ، قد وقف محارباً لهـٰذه الأمراض والأوبئة في صورة معاهد

ومستشفيات متخصصة في نوعيات من المرض في بعض أعضاء الإنسان ، وإذا كان الكثيرون من الناس قد تعجز مواردهم عن مواجهة نفقات العلاج المتخصص ، إذا كان كل ذلك حاصلاً فوجب علىٰ المجتمع أن يتساند ويتكافل ، كما فرضه الإسلام وينفذه الخليفة ، وكما تدعو إليه غريزة حب البقاء مع النقاء والتكافل والتعاون بين الناس في درء المفاسد والأمراض ، وإذا كانت الزكاة قد فرضها ٱلله في أموال الأغنياء لتعود إلىٰ الفقراء ، فإنه لم يترك أمر صرفها وتوزيعها دون تحديد ، وإنما بينها في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [1] وها نحن نجد أن أول الأصناف المستحقين للزكاة بترتيب ٱلله سبحانه الفقراء بمعنىٰ صاحب الحاجة التي لابد منها ولا يستطيع الحصول عليها فأصبح لزاماً علىٰ الخليفة أن ينفق علىٰ علاج هـٰؤلاء مما خوله ٱلله بصفة الضرر النافع في تحصيل تلك الأموال من أجل وضعها في الوجه الذي حدده الشرع ، وفي الجملة إن صفة الضار هي من الوجه الإجمالي للذات الإلـٰهية حكمة لإعمار الأرض والمحافظة علىٰ الإنسان وقد منح ٱلله تعالىٰ الخليفة صفة نسبية من الضار ليخلفه في أرضه بما أراد في خلقه من أمور فيها الخير لهم في الدنيا والآخرة ، ليضر كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بما هو نافع ومفيد .

ومما يدخل في باب الضرر من الأخلاق بصرف النظر عن أنها سامية أو متدنية وإنما هي قيمة أخلاقية ، فالأخذ بالسامية منها يكون من الفضائل ، والمتدنية تكون من الرذائل التي تدخل في باب الضرر ، فالحق والباطل من هـٰذا النوع من القيم الأخلاقية وهما من نتائج المعرفة والنكرة ، لأننا نعرف الحق وننكر الباطل ، وهـٰذا من متممات صفة الضار بالإضافة التي يتصف بها

---

(1) التوبة ، 60 .

الخليفة ، وذلك لأغراض تتبعهما ، ولواحق تلتبس بهما من المنفعة والضرر ، فالخليفة يحق الحق ويزهق الباطل بالإضافة ، وذلك كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [1] . جاء الحق من التوحيد والدين الصحيح والعدل ، وذهب الباطل والشرك والفساد ، فالباطل مضمحل زائل دائماً وذلك بوجود الخليفة وهو نصير الحق الذي يدفع الباطل بالضرر ومن هنا كان استخدام الضرر واجباً لإزهاق الباطل الذي يحمل المفاسد والأضرار للمجتمع بأسره .

وكذلك الرشد والغي فهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة ؛ وللرأي والعقل فيهما مدخل قوي وحظ تام ، وأما الثقة والارتياب فخلقان يغلبان وينفعان ويضران ويحمدان ويذمان ألا ترىٰ أنه يقال : لا تثق بكل أحد ، ولا ترتب بكل إنسان وهٰكذا الطمأنينة والتهمة ؛ لأنهما في طيهما ، وأما الخلاعة والوقار ، فمن باب الضرر ودفعه ، وكذلك التوقي والتهور ، فهما خلقان في جميع الخلق ، ويغلبان علىٰ الإنسان ، لأن العقل يبطل أحدهما ، والحس يغلب الآخر ، وأما الصدق والكذب ، فمن علائق النفس الكاملة والناقصة ، وقد يكونان راسخين فيلحقان بالخلق ، إلا أن الصدق ممدوح لنفعه ، والكذب مذموم لضرره ، هٰذا في الوهلة الأولىٰ ، وقد يعرض ما يوجب المصير إلىٰ الكذب لينجو الإنسان به ؛ فهما إذاً بعد الحقيقة الأولىٰ وقف علىٰ الإضافة ؛ وقد نجد كذباً ينتفع به ، وكما نجد من الصدق ما يكون ضاراً ، وأما الإخلاص والنفاق ، فهما يلحقان بالخلق ، ولٰكنهما يصدران عن عقيدة القلب وضمير النفس ، وأما الإحسان والإساءة ، فهما يعمان الأفعال والأقوال ، فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين ، وأما النصح والغش ، فهما خلقان ، وطرفاهما يتعلقان بالخلق ، وكذلك الطمع واليأس ،

---

(1) الإسراء ، 81 .

والحب والبغض ، واللهج والسلو ، وما شاكل ذلك من الشيء ونقيضه ما يكون أحدهما في النفع والآخر في الضرر ، إلا أن بعض هٰذه القيم ما يمكن تسخيرها بعكس مفهوم التسمية ، ولٰكن كيف يكون ذلك ؟ فالإجابة علىٰ ذلك نعود بها إلىٰ صفة الضار المطلقة لله جل شأنه وللضار بالإضافة وهو الخليفة ، فالكيد والمكر من الأفعال التي تجلب الضرر ولٰكن استخدامها لمكر المكر وكيد الكيد تحول نتائج الفعل إلىٰ فائدة ومنفعة ومصلحة ، فالمكر من العبد هو تدبير سيء خفي ، ومن ٱلله تعالىٰ ومن الخليفة هو إبطال هٰذه التدابير السيئة ، فالذين عتوا ونفروا عن الحق استكباراً في الأرض وأنفة من الخضوع للحق والدين الذي جاء ، فمكروا مكراً سيئاً بتدبيرهم الشر والأذىٰ وقادهم شيطانهم إلىٰ الانصراف عن الدين الحق ، وكان من سنة ٱلله تعالىٰ أن لا يحيط ضرر المكر السيئ إلا بمن دبروه ، فهل ينتظرون إلا ما جرت به سنة ٱلله في الذين سبقوهم ، فلن تجد لطريقة ٱلله في معاملة الأمم تغييراً يُطمِّع هٰؤلاء الماكرين في وضع من سبقهم من الأمم بما كانوا يصنعون ، لذلك لن تجد لسنة ٱلله تحويلاً عن اتجاهها ، فقد أوكل ٱلله تعالىٰ خليفته بإلحاق الضرر بهٰؤلاء دفعاً لأذاهم ومكراً بمكرهم ؛ لأنهم لم يرتدعوا ويتعظوا من الأمم التي سبقتهم وفعلت مثل أفعالهم ، ولم يسيروا في الأرض فينظروا بأعينهم آثار الهلاك الذي أنزل علىٰ من سبقهم من العقاب لتكذيبهم وكان قبلهم من الأمم من هم أشد منهم قوة وبطشاً فأخذهم ٱلله أخذ عزيز مقتدر ، فلم تمنعهم قوتهم من عذاب ٱلله ، وما كان ليعجزه من شيء في السمٰوات ولا في الأرض ، ثم إنك بعد ذلك ترىٰ بعض الخلق لا يكتفي بأن يضل ويصد عن السبيل وإنما يحاول أن يضل الآخرين في تحديه لسنة ٱلله تعالىٰ بإشاعة الضرر وهٰذا ما يحاوله البعض في كل زمان ومكان ونحن نقف علىٰ شواهد كثيرة من هٰذا النوع ، فقد حاول البعض في زمن النبوة وعصر الرسالة أن يصدوا الناس عن طريق الهدىٰ باتخاذهم مسجداً ضراراً حيث قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ

وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [1] ، فمن المنافقين جماعة بنوا مسجداً لا يبتغون به وجه ٱلله ، وإنما يبتغون به الضرار والكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين ، وأنهم سيحلفون علىٰ أنهم ما أرادوا ببناء هـٰذا المسجد إلا الخير والعمل الأحسن ، وٱلله يشهد عليهم أنهم كاذبون في أيمانهم ، لذلك فقد نهىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام عن الصلاة في ذلك المسجد مطلقاً ، أي لا تصلِّ في هـٰذا المسجد أبداً لأن هـٰذا البناء إنما يراد من إقامته إضرار المجتمع بتحريف العقيدة وإفساد الناس ، وإن مسجداً أقيم ابتغاء وجه ٱلله وطلباً لمرضاته من أول أمره كمسجد قُباء لجدير بأن تؤدىٰ فيه شعائر ٱلله ، وفي هـٰذا المسجد رجال يحبون أن يُطهروا أجسادهم وقلوبهم بأداء العبادة الصحيحة فيه ، وٱلله يحب ويثيب الذين يتقربون إليه بالطهارة الجسمية والنفسية لأن طهارة الإيمان إنما هي من باب الصلاح والتقىٰ الذي يهدم الضرر ويدحضه ، وفرقٌ كبيرٌ بين من كان دأبه وعمله إصلاح الأمة وهداها وبين من يريد أن يهوي بها الإضرار ، فلا يمكن أن يستوي في عقيدته ولا في عمله من أقام بنيانه علىٰ الإخلاص في تقوىٰ ٱلله وابتغاء رضائه ، ومن أقام بنيانه علىٰ النفاق والكفر ، فإن عمل المتقي مستقيم ثابت علىٰ أصل متين ، وعمل المنافق كالبناء علىٰ حافة هاوية ، فهو واهٍ ساقط ، يوقع بصاحبه في نار جهنم ، وٱلله لا يهدي إلىٰ طريق الرشاد من أصرَّ علىٰ ظلم نفسه بالكفر ، وسيظل هـٰذا البناء الذي بناه المنافقون المضرون مصدر اضطراب وخوف في قلوبهم لا ينتهي حتىٰ تتقطع قلوبهم

---

(1) التوبة ، 107ـ109 .

بالندم أو التوبة أو بالموت ، وٱلله عليم بكل شيء ، حكيم في أفعاله وجزائه ، ومن الضرر ما يقوم به بعض أفراد المجتمع غلبت عليهم آمال فاسدة ، لا يحصلون منها إلا علىٰ إتعاب النفس عاجلاً ، ثم الهم والإثم آجلاً ، كمن يتمنىٰ غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس ، وكمن يتمنىٰ بعض الأمور التي فيها الضرر لغيره ، وإن كانت له فيها منفعة ، فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له ذلك قبل وقته ، ولا يأتيه من ذلك بما ليس في علم ٱلله تعالىٰ من إرادة ، فلو تمنىٰ الخير والرخاء ، لتعجل الأجر والراحة والفضيلة ، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها ، فهٰؤلاء يتمنون وقوع الضرر في جميع أنحاء المجتمع من أجل فائدة شخصية أو مصلحة أنفسهم ، وما ذلك إلا لفساد أخلاقهم فوجب علىٰ الخليفة تقويم اعوجاجهم بالضرر الذي يردعهم عن أمنياتهم حتىٰ لا تتحول هٰذه الأمنية إلىٰ حقيقة ويترجموها إلىٰ الواقع الذي يضر بالمجتمع .

ويدخل في هٰذا الباب من الضرر نوع من العلم مع أنه من الصفات الحميدة ، ولٰكن هٰذا النوع من العلم فاسد الأصل واضح الضرر مذموم ، وبيان علة ذم العلم المذموم تأتي من الوجهة التي يتوجه بها ، وهو غير العلم النافع الذي هو معرفة الشيء علىٰ ما هو به وهو من صفات ٱلله تعالىٰ فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب كثيرة منها أن يكون مؤدياً إلىٰ ضرر ما ، إما لصاحبه أو لغيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات ، إذ شهد القرآن الكريم له وأنه سبب يتوصل به إلىٰ التفرقة بين العباد ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ

عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) فالشياطين من الإنس والجن يعلِّمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل علىٰ الملكين هاروت وماروت ، مع أن هـٰذين الملكين ما كانا يعلِّمان أحداً حتىٰ يقولا له : إنما نعلمك ما يؤدي إلىٰ الفتنة والكفر فاعرفه واحذره وتوق العمل به ، وهو من باب العلم من أجل الحذر وعدم الوقوع به . ولـٰكن الناس لم ينتصحوا بهـٰذه النصيحة ، فاستخدموا ما تعلموه منهما فيما يفرقون به بين المرء وزوجه ، ونحن نجد من الشياطين الفجرة من الجن والإنس من حمل هـٰذا العلم علىٰ محمل الضرر وجعله جميلاً فاتخذ ذلك ذريعة لتعليم الناس السحر وبهـٰذا يلحق الضرر بهم ، وما هم بضارين بسحرهم هـٰذا من أحد ، ولـٰكن ٱلله هو الذي يأذن بالضرر إن شاء ، وأن ما يؤخذ عنهم من سحر سيضر من تعلمه في دينه ودنياه ولا يفيده شيئاً ، وهم أنفسهم يعلمون حق العلم أن من اتجه هـٰذا الاتجاه لن يكون له حظ في نعيم الآخرة ، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم ، وهـٰذا العلم ضار بطبيعته ؛ لأنه نوع يستفاد من العلم بخواص معينة وبأمور حسابية في مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الخواص مادته ويرصد به وقتاً مخصوصاً من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلىٰ الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء ٱلله تعالىٰ العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور ، ومعرفة هـٰذه الأسباب من حيث أنها معرفة ، ليست مذمومة ، ولـٰكن العمل بها هو المذموم فهي ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق فهي الوسيلة إلىٰ الشر ، فالعمل بهـٰذا النوع من العلم يكون ضرراً ، فكان ذلك هو سبباً في كونه علماً مذموماً لأدائه إلىٰ الضرر ، ومنها ما يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم ،

(1) البقرة ، 102 .

فإنه في نفسه غير مضر لذاته ، إذ هو قسمان : قسم حسابي ، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، حيث قال ٱلله عز وجل : ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ (1) فهما يجريان في بروجهما بحساب وتقدير لا إخلال فيه ، فهو دقيق منتظم بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنون والحساب فالسنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً والشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم وفي ذلك منافع عظيمة للناس منها علم السنين والحساب واختلاف الليل والنهار وفائدة كل منهما وهو لولاه لما حصل النفع والانتفاع ، ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمتهما ، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد ، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء أمر الحركة والدوران علىٰ الفصول ، ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق ، فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء ٱلله ، فالنبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان ، ولولا النبات لما عاش الحيوان ؛ والنبات هو الأصل وهو قسمان : قائم علىٰ ساق كالقمح والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار ومنها ما هو غير قائم كالبقول المنبسطة علىٰ الأرض والحشائش والعشب الذي هو غذاء الحيوان ، فالعلم بهٰذه الأمور ومثيلاتها هو دافع للضرر وجلب للمنفعة ، لذلك اختار ٱلله تعالىٰ من الآفاق آيات منها الشمس والقمر ، وإنما اختارهما للذكر لأن

(1) الرحمـٰن ، 5 .

حركتهما بحسبان تدل علىٰ فاعل مختار سخرهما علىٰ وجه مخصوص ، ولو اجتمع من في العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطؤوا أن يثبتوا حركتهما علىٰ الممر المعين علىٰ الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلىٰ أن يرجع إلىٰ الحق بأن الذي حركهما هو ٱلله تعالىٰ كما أراد ، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلىٰ ما ذكر من الدلائل العقلية ، لذلك كان الأمر من الخليفة بمعرفة هـٰذا الجزء من العلم واجب لدرء الضرر المترتب من عدم معرفته ، وكذلك معرفة الجزء النافع منه لأجل دفع الضرر المترتب من عدم معرفته أيضاً ، لذلك فالخليفة بصفاته النسبية وبعلمه يعرف هـٰذه الحدود ويلحق الضرر بمن يتعداها ، حيث حددها ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ (1) فَعلم النجوم يقتصر علىٰ جانب النفع والفائدة ، فكانوا يتعلمون من النجوم ما يهتدون به في البر والبحر ثم لا يقدمون علىٰ أكثر من ذلك ؛ لأنه منهي عنه ، وإنما زجر عنه ؛ لأنه مضر بأكثر الخلق ، فإنه إذا ألقي إليهم أن هـٰذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب ، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة ، وأنها الآلهة المدبرة ؛ لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها في القلوب فيبقىٰ القلب ملتفتاً إليها ، ويرىٰ الخير والشر محذوراً أو مرجواً من جهتها ، ويذهب ذكر ٱلله سبحانه عن القلب ، فإن الضعيف يقصر نظره علىٰ الوسائط ، والخليفة ؛ لأنه راسخ في العلم هو الذي يطلع علىٰ أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ويعلم أنه لا فائدة من أن يتعدىٰ الإنسان في علم النجوم أكثر ما هو مباح فيه أصلاً ؛ لأنه دخول في المعصية بتناول العلم الضار وإضاعة الوقت والعمر فيما لا طائل من ورائه ، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه ضرر ، وإضاعة النفيس ضرر ، ومنه ما فيه ضرر يزيد علىٰ ما يظن أنه

(1) النحل ، 16 .

يحصل به من قضاء وطر في الدنيا ، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلىٰ الضرر الحاصل عنه ، وكثير من الأمور يجهلها الناس لذلك كان لا بد من الأنبياء والخلفاء ، فالأنبياء هم الذين يبلغون الرسالة إلىٰ أجل مسمىٰ ، والخلفاء بعد ذلك يقومون برعاية الرسالة وصونها والاستمرار بها جيلاً بعد جيل قولاً وتنفيذاً لأوامر ٱلله جل جلاله ، وذلك بإحلال ما أحل ٱلله واجتناب ما حرمه ونهىٰ عنه بسبب الضرر المترتب علىٰ استخدامه أو تناوله وتعاطيه ، فمن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] فٱلله سبحانه وتعالىٰ من لطفه بعباده أحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث الضارة ، ثم أعطىٰ الخليفة هٰذا السلطان الذي يقيم به حدود ٱلله ، فيأمرهم بكل خير وينهاهم عن كل شر ، ويحل لهم الأشياء التي يستطيبها الطبع ، ويُحرم عليهم الأشياء التي يستخبثها الطبع كالدم والميتة التي تشكل الضرر القاتل ، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد التي يكون الضرر فيها غير واضح ، لذلك حددها ٱلله تعالىٰ رحمة بالعباد ، ولو ترك الناس وقوىٰ عقولهم وجماح طبائعهم ، وغلبة شهواتهم ، وكثرة جهلهم ، وشدة نزاعهم إلىٰ ما يرديهم ويطغيهم ، حتىٰ يكونوا هم الذين يحتجزون من كل ما أفسدهم بقدر قواهم ، وحتىٰ يقفوا علىٰ حد الضار والنافع ، ويعرفوا فصل ما بين الداء والدواء ، والأغذية والسموم ، كان قد كلفهم شططاً ، وأسلمهم إلىٰ عدوهم ، وشغلهم عن طاعته التي هي أجدىٰ الأمور عليهم وأنفعها لهم ، ومن أجلها عدل تركيب الإنسان وسوىٰ بنيته ، وأخرجه من حد الطفولة والجهل إلىٰ

---

(1) الأعراف ، 157 .

البلوغ والاعتدال والصحة ، وتمام الأداة والهيئة والخلق ، ولو أن الناس تركهم ٱلله تعالىٰ والتجربة ، وخلاهم في تجربة الأمور وامتحان السموم ، واختبار الأغذية ، وهم علىٰ ضعف الحيلة وقلة المعرفة وغلبة الشهوة ، وتسلط الطبيعة ، مع كثرة الحاجة ، والجهل بالعاقبة ، لأثرت عليهم السموم ، ولأفناهم الخطأ ولأجهز عليهم اختلاط الأمور ، ولتولدت الأدواء وترادفت الأسقام ، حتىٰ تصير منايا قاتلة ، وحتوفاً متلفة ، إذ لم يكن عندهم إلا أخذها ، والجهل بحدودها ومنتهىٰ ما يجوز منها والزيادة فيها ، وقلة الاحتراس من توليدها . فلما كان ذلك كذلك علمنا أن ٱلله تعالىٰ حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم إلا لصلاحهم ، ولا يجوز صلاحهم إلا بتبقيتهم ولولا الأمر والنهي ما كان للتبقية وتعديل الفطرة من معنىٰ ، ولما أن كان لا بد للعباد من أن يكونوا مأمورين منهيين ، بين عدو عاص ومطيع ولي ، علمنا أن الناس لا يستطيعون مدافعة طبائعهم ، ومخالفة أهوائهم ، إلا بالزجر الشديد ، والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل ، بعد التنكيل في العاجل ، إذ كان لا بد من أن يكونوا منهيين بالتنكيل معجلاً والجزاء الأكبر مؤجلاً ، وكان شأنهم إيثار الأدنىٰ وتسويف الأقصىٰ ، وإذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز ، إذ كان علم الدين مستنبطاً من علم الدنيا . وإذا كان العلم مباشرة أو سبباً للمباشرة وعلم الدنيا غامض ، فلا يتخلص إلىٰ معرفته إلا بالطبيعة الفائقة ، والعناية الشديدة ، مع تلقين الخليفة ورعايته لهم وعنايته بهم ، ولأن الناس لو كانوا يبلغون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم كان إرسال الرسل قليل النفع ، يسير الفضل ، وإذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحبهم للبقاء ، ورغبتهم في النماء ، وحاجتهم إلىٰ الكفاية ، ومعرفتهم بما فيها من السلامة لا يبلغون لأنفسهم معرفة ذلك وإصلاحه ، وعلم ذلك جليل ظاهر سببه بعضه ببعض ، كدرك الحواس وما لاقته ، فهم عن التعديل وتفصيل التأويل ، والكلام في مجيء الأخبار وأصول الأديان أعجز ، وأجدر ألا يبلغوا منه الغاية ، ولا يدركوا منه

الحاجة ؛ لأن علم الدنيا أمران : إما شيء يلي الحواس ، وإما شيء يلي علم الحواس ، وليس الدين كذلك ، فلما كان ذلك علمنا أنه لا بد للناس من خليفة يعرِّفهم جميع مصالحهم ، فعلىٰ سبيل المثال : إن معظم الخلق ينظرون إلىٰ الموت علىٰ أنه ضرر يلحق بالأحياء من حيث يأتي علىٰ حياتهم ، ويتركون خلفهم أزواجاً وأطفالاً بحاجة إلىٰ من يعينهم ، ناهيك عن تمسك الإنسان بالحياة والعيش ، قال تعالىٰ : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (1) إنَّ معظم الخلق ينظرون إلىٰ الموت علىٰ أنه ضار من جوانب عديدة ليس للميت وإنما لأسرة الميت وصغاره وأنهم أصبحوا أيتاماً ، وفعل الموت وقع بإرادة الضار سبحانه وتعالىٰ ، وليس الأمر كذلك ، وإنما فيه من الصلاح والعبرة والرحمة ما يغيب عن كثيرٍ من الناس وأمور كثيرة لا يدركها إلا أولو الألباب وأوّلها أنها قمة العدالة الإلـٰهية وأن البشر متساوون في هـٰذا كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم وسيدهم ومسودهم وذكرهم وأنثاهم ، ورسولهم وحكيمهم ، وأجمل ذلك كله عز وجل حيث قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (2) فما من نفس إلا ويأتي الموت عليها وهي علىٰ ما نرىٰ أعلىٰ درجات الديمقراطية علىٰ مستوىٰ الخلق .

الجانب الثاني : فلو ترك الإنسان دون موت وبلغ من العمر عتياً فهو محتاج إلىٰ من يقضي له جميع حوائجه ، فإذا قال قائل : إن أبناءه وأحفاده

(1) النساء ، 78 ـ 79 .

(2) آل عمران ، 185 .

ملزمون به ، فنقول له إلىٰ متىٰ يستطيعون القيام علىٰ خدمته ومن ثم فالجيل الرابع بعد الأحفاد وما يلي ذلك من أجيال من يتعامل معهم ويؤدي تلك الخدمات للأجيال المتراكمة ، إذاً فالموت من الضار جل شأنه أصبح من باب الرحمة .

الجانب الثالث : حيث أن بعض المتوفين يتركون أبناءً قصراً وليس لهم راعٍ فهنا يأتي دور الولي للأمر أو يأتي دور الدولة بمؤسساتها العاملة ، في رعاية من استخلفه ٱلله بدفع ضرر اليتم والفقر والعوز ، وفي هٰذا الأمر تسود الصفات الحسان بين المستخلفين فيها ، من الرحمة والعدل وما إلىٰ ذلك مما أسبغه ٱلله عليهم وجعلهم خلفاء في أرضه ، لذلك ضرر الموت إن كان ضرراً فإن الخليفة المكلف يقوم بدفع هٰذا الضرر ، وأما الذين يحاولون الفرار من الموت اتقاء ضرره فقد غابت عنهم هٰذه الأمور ، في الوقت الذي لا مفر منه ، إنه حق من ٱلله تعالىٰ أنعم به علىٰ عباده ، فلا مفر ولا خوف منه ، الخوف فقط يكون إذا جاء الموت والعباد لم يكونوا علىٰ الطاعة والشهادة ، فالموت الذي تفرون منه ملاقيكم أينما كنتم وهو حق ، ولو كانت إقامتكم في حصون مشيدة ، وإن هٰؤلاء الخائرين لضعف إيمانهم يقولون : إن أصابهم فوز وغنيمة هي من عند ٱلله ، وإن أصابهم جدب أو هزيمة يقولون هٰذا من عندك وكان بشؤمك ، ولٰكن كل ما يصيبكم مما تحبون أو تكرهون هو من تقدير ٱلله ومن عنده اختبار وابتلاء ، فما لهٰؤلاء الضعفاء لا يدركون النفع والفائدة من وجه الضرر ، إذ أن بعض الخلق عندما تصيبهم مصيبة يقولون دفع ٱلله ما كان أعظم ، أي ما كان أعظم من المصيبة التي حلت بهم ، وهو من باب دفع الضرر بضرر مثله ، فما يصيبك من رخاء ونعمة وعافية وسلامة فمن فضل ٱلله عليك ، يتفضل به إحساناً منه إليك ، وما أصابك من شدة ومشقة وأذىً ومكروه فمن نفسك بسبب تقصير أو ذنب ارتكبته ، فما أصابك من حسنة يعني من خير ونعمة فهي من ٱلله و من فضل ٱلله عليك يتفضل به إحساناً منه

إليك وما أصابكم من سيئات و من شدة ومكروه ومشقة وأذىً فمن نفسك يعني فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به ، فمعنىٰ قوله فمن نفسك أي عقوبة لذنبك وما هو من باب الضرر في شيء ، وما أصابك من خير فٱلله هداك له وأعانك فيه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب والمراد من الحسنة والسيئة في ذلك ما يصيب الإنسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعله كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ (1) إن الذي أصابكم أيها المؤمنون يوم التقىٰ جمعكم وجمع المشركين واقع بقضاء ٱلله ، وليظهر للناس ما علمه من إيمان المؤمن حقاً ، فهنا يبرز الضرر كأحد مقاييس الإيمان والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وهـٰذا الضرر وإن ترتب عليه مقتل البعض واستشهادهم ، فإن خيره أكثر من ضرره ، إذ أن الشهداء نالوا رضوان ٱلله والجنة ، ومن جانب آخر انكشف للخليفة وللمؤمنين أولئك المنافقون الذين هم أشد خطراً من الأعداء ، فظهر نفاق الذين نافقوا ، وهم الذين قيل لهم حين انصرفوا عن القتال تعالوا قاتلوا لأجل طاعة ٱلله ، أو قاتلوا دفاعاً عن أنفسكم ، قالوا : لو نعلم أنكم ستلقون قتالاً لذهبنا معكم ، وهم حين قالوا هـٰذا القول كانوا أقرب للكفر منهم للإيمان ؛ لأنهم ينفون وقوع الحرب مع علمهم بها مخافة الضرر ، مع أنهم يعتقدون في قلوبهم أنها واقعة ، وٱلله يعلم بما يضمرون من النفاق لذلك أظهر ما يضمرون بتخليهم عن مناصرة المؤمنين ، ولم يكن ذلك ضرراً للذين آمنوا وإنما هو فائدة كبيرة بأن كشف ٱلله لهم أعداء كانوا يظنونهم إخواناً لهم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ

(1) آل عمران ، 166 ـ 167 .

فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [1] وإن يصبك ٱلله بسوء فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمنحك خيراً فلا راد لفضله ؛ لأنه علىٰ كل شيء قدير ، فإذا أصاب ٱلله الإنسانَ بأي نوع من الألم والحزن وغيره فلا صارف يصرفه عنه إلا ٱلله وإن يمنحه خيراً كصحة وعافية وغنىً وقوة وجاه فلا راد لفضله ، وهو القادر علىٰ حفظه ؛ لأنه القدير علىٰ كل شيء ، وإثبات الضرر من ٱلله تعالىٰ كونه الضار ، أنه أثبت تعالىٰ لنفسه كمال القدرة ، كما أثبت كمال السلطان والقوة ، مع كمال الحكمة والعلم والإرادة ، والضرر من ٱلله سبحانه وتعالىٰ إنما يكون لخير يريده بعباده الصالحين ، لذلك قال ﷺ : « من لم يرض بقضاء ٱلله ويؤمن بقدر ٱلله فليلتمس إلـٰهاً غير ٱلله » [2] فعلىٰ العبد الرضىٰ بقضائه ٱلله وقدره ؛ لأنه من لم يطع ٱلله في امتثال أمره بالشكر علىٰ المصائب التي تكون وسائط في إيصال نعم ٱلله عليه فقد أخل بشرط من شروط الإيمان ، وإنما يتم الإيمان بالرضا بما قسمه ٱلله تعالىٰ لعبده ، وٱلله سبحانه وتعالىٰ نفىٰ الظلم عن نفسه وحرمه ، فالإنسان لا يعلم ما هو مقدر له وما مقدر عليه ، وإن لحق الضرر بالإنسان من الضار عزَّ وجلَّ بمفهوم قدر عقل الإنسان وعلمه ، فهو ليس ضرراً أراده الضار بأن يلحقه بعبده ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أننا نحن بني البشر إنما نحاول إلحاق الضرر بمن نخافه خشية علىٰ مصالحنا وما يتعلق بها من حرص علىٰ الأموال والأولاد وما يتهدد مستقبلنا وحياتنا وحياة من نقوم برعايتهم ومن هم في ولايتنا وكفالتنا ، فالأمر مع الضار جل شأنه لا يستوي بهـٰذه المقاييس ، إذ لا يخشىٰ الضار جل شأنه خلقه علىٰ ملكه ، ولا أن يلحق به أحد الضرر حتىٰ يبادره ويكون سابقاً إلىٰ إلحاق الضرر بالخلق لتلافي الضرر الناتج عن الخلق له بالمفهوم والعرف الإنساني ، وهـٰذا يعني أن المفاهيم الإنسانية قاصرة عن

---

(1) الأنعام ، 17 .

(2) فيض القدير ، ج 6 ، 296 .

إدراك القضاء بالضرر علىٰ الخلق ، وهنا يجب أن نوضح أن الضرر من الضار للخلق علىٰ نوعين :

النوع الأول : ضرر انتقام : وهو الضرر النافع لأهل الابتلاء ، لأن الضار عز وجل يضر من يضرهم بانتقامه لهم ، وشواهد هـٰذا النوع كثيرة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) لقد أرسل ٱلله تعالىٰ رسلاً إلىٰ أقوامهم ، فجاء كل رسول قومه بالحجج الواضحة الدالة علىٰ صدقه فكذَّبه قومه وظلموا الذين آمنوا بالرسل بالاعتداء والأذىٰ ، فأهلك ٱلله الذين أذنبوا وعصوا وظلموا انتقاماً لكفرهم بٱلله ورسله ولعدوانهم علىٰ الذين آمنوا ، فقد أوجب ٱلله علىٰ نفسه أن ينصر عباده المؤمنين .

والضرر الثاني : ضرر ابتلاء : وهو امتحان صبر المؤمنين علىٰ هـٰذا الضرر لأن الضار تبارك وتعالىٰ أحبهم لإيمانهم ويريد أن يزيد في أجرهم ، وإذا أحب ٱلله عبده ابتلاه ، وزيادة الأجر لا تكون بدون سبب حيث قال تعالىٰ : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (2) فمن هنا كان الضار نافعاً لهم في صبرهم علىٰ هـٰذا الضرر ، لذلك فإن الأجر كان علىٰ قدر المصيبة فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « إذا مات ولد العبد قال ٱلله لملائكته قبضتم ولد عبدي فيقولون نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم ، فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول ٱلله ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد » (3) . فالحمد لله تعالىٰ علىٰ الإيمان والطاعة ، ولذا فإذا مات ولد العبد فإنما هو يشعر بضرر ، لأن الإنسان لا يدري مغزىٰ الحكمة من الضرر ،

---

(1) الروم ، 47 .

(2) الرعد ، 24 .

(3) سنن الترمذي ، ج 4 ، ص 154 .

وإنما هو يتفكر بمصيبته وبهـٰذا البلاء الذي نزل به ، حيث أن بعض الذين ينزل بهم الضرر وتصيبهم مصيبة ، يبدأ يفكر بزمن ما قبل المصيبة أو البلاء الذي ينتج عنه الضرر ، ويبدأ بالدخول فيما هو منهي عنه من الأماني التي يعارض فيها قضاء ٱلله وقدره والحكمة الإلـٰهية ، حيث قال رسول ٱلله ﷺ : « إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولـٰكن قل قدَّر ٱلله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] وعمل الشيطان يتعارض مع المشيئة ، ولا يكون الصبر علىٰ ما يشعر به أنه ضرر إلا بالحمد والاسترجاع ، لذلك قال ٱلله لملائكته الموكلين بقبض الأرواح : قبضتم ولد عبدي ، أي روحه (فيقولون نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده) أي أنه كالثمرة من الشجرة لأن الثمر أجمل ما في الشجر وأنفعه (فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع) أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون . وبناء بيت الحمد هو تنبيه الملائكة علىٰ ما أراد ٱلله من التفضل علىٰ عبده الحامد لأجل تصبره علىٰ المصائب وعدم اعتبار ذلك من الضرر ، بل عدّه إياها من النعم الموجبة للشكر ثم استرجاعه وأنه هو نفسه ملك لله وإليه مصيره ، وليس شيء يُضر به الإنسان أغلىٰ عليه من الولد ، لذلك فإن ٱلله تعالىٰ جعله فرع شجرة الإنسان ، ثم ترقىٰ إلىٰ ثمرة فؤاده أي نقاوة خلاصته ، فإن خلاصة المرء الفؤاد ، فحقيق لمن أصابه هـٰذا الضرر وفقد تلك النعمة فتلقاها بالحمد ، أن يكون هو محموداً وحتىٰ المكان الذي يسكنه في الآخرة هو بيت اسمه بيت الحمد ، فهـٰذه الأضرار والأسقام والمصائب لا يثاب عليها ؛ لأنها ليست بفعل اختياري كعمل الخير والتطوع في النوافل والصدقات وما إلىٰ ذلك من غير العبادات المكلف بها ، بل هو من الصبر علىٰ الضرر ، فهو إنما نال ذلك البيت بحمده واسترجاعه لا بمصيبته ، وإنما ثواب المصيبة يكفر الخطايا ، وظاهر ترتيب

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 143 .

الأمر ببناء البيت علىٰ الحمد والاسترجاع معاً أنه لو أتىٰ بأحدهما دون الآخر لا يبنىٰ له شيء وعليه فكان القياس في وجه التسمية أن يقال سموه بيت الحمد والاسترجاع ، لـٰكن الأقرب أن الخصلة التي يستحق بها ذلك إنما هي الحمد علىٰ الضرر الذي أصابه ، وذلك أن « موت الأولاد فلذ الأكباد ومصابهم من أعظم مصاب وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب ، يا له من صدع لا يشعب يوهي القوي ويقوي الوهي ويوهن العظم ويعظم الوهن مر المذاق صعب لا يطاق يضيق عنه النطاق شديد علىٰ الإطلاق لا جرم أن ٱلله تعالىٰ حث فيه علىٰ الصبر الجميل ووعد عليه بالأجر الجزيل وبنىٰ له في الجنة ذاك البناء الجليل »[1] وأما تقوية الصبر علىٰ المصيبة التي تنزل بالإنسان من الضار جل شأنه فهي إطماع النفس في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا بالصبر علىٰ الضرر ، وذلك بأن يكثر فكره فيما أعد الضار جل جلاله للصابرين المتبصرين في حسن عواقبه في الدنيا والآخرة ، لذلك فالخليفة بما أوتي من علم وما اتصف به من صفات فهو أعظم الناس صبراً وأكثرهم جلداً وأبعدهم نظراً وخيرهم روية لما يحمل من الحلم في التعامل مع الضرر لعلمه بالنفع الذي يعود عليه من هـٰذا الضرر لأن ثواب الصبر علىٰ المصيبة أعظم مما تحدثه من الضرر في عاجل الدنيا وآجل الآخرة ، لذلك فإن الخليفة لا يراوده شك ، ولا ينتابه قلق من أي ضرر يلحق وذلك لعلمه بأن ما ادخره الضار له في الآخرة خير مما فاته في الدنيا ، وهـٰذا من باب المعارف وهو من الإيمان وقوته ، وقوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ما أوتي الناس من النعم هو اليقين وعزيمة الصبر علىٰ الشدائد وتحمل نزول الضرر ، وأعظم الناس إيماناً ومعرفة بأن الضار لا يريد بعباده إلا خيراً هم أهل اليقين ، وهـٰذا لا يتأتىٰ إلا بالتسليم بالقضاء والقدر والطاعة التامة للضار بما يضر به من ضرر

(1) فيض القدير ، ج 1 ، ص 564 .

لكل ضار ومضر سبحانه جل جلاله ، فهو بما يضر نافع ، لذلك وصف ٱلله تعالىٰ هـٰؤلاء وأولهم الخليفة ومن سار علىٰ نهجه بأنهم أصحاب حظ عظيم حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [1] وذلك أن الخليفة صارت الهموم عنده هماً واحداً وهو ٱلله تعالىٰ ، ثم غلب ذلك علىٰ قلبه ، حتىٰ أصبح له مجال في الفكر والتأمل بالباطن في ملكوت السمـٰوات والأرض وعجائب صنع ٱلله تعالىٰ وسائر أبواب معرفة ٱلله تعالىٰ ما ليس لغيره ، ولو سؤل الخليفة ما الصبر علىٰ المصيبة ؟ لأجاب علىٰ البديهة بأن لا تبث ، أي لا تبث شكواك لأحد وإنما تصبر وتحتسب وهـٰذا منتهىٰ الصبر علىٰ الضرر النازل بك من ٱلله تعالىٰ ، ألا ترىٰ يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما عوتب من أبنائه في حزنه علىٰ يوسف عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] ، وهـٰذا دليلٌ علىٰ أن الخليفة لا يشكو لأحد ، ولا يطلب من أحد تخفيف لوعه إلا لله تعالىٰ ، فهو يعلم أنه ليس له إلا ٱلله يتضرع إليه ويشكو له همومه صعبها وسهلها وصغيرها وكبيرها وعظيمها وجليلها ، وما يستطيع كتمانه منها وما لا يستطيع ؛ لأنه يدرك من حسن ضرر ٱلله وابتلائه لعباده ، سعة الرحمة والمغفرة ما لا يدركه غيره ، فالثقة باللّٰه تحيي الأمل وتبعث علىٰ الطمأنينة التي تحول الضرر إلىٰ نفع والمصائب إلىٰ نعم ، ولا شيء يقوىٰ علىٰ الضرر مثل الصبر ، وهو علىٰ ثلاثة أوجه : الوجه الأول : صبر علىٰ أداء الفرائض لله تعالىٰ .

الثاني : صبر عن محارم اللّٰه تعالىٰ .

الثالث : صبر في المصيبة عند الصدمة الأولىٰ ، والصبر علىٰ المصيبة

(1) فصلت ، 35 .

(2) يوسف ، 86 .

أفضل من الصبر عن المحارم وعلىٰ الفرائض ، لأن الصبر علىٰ الفرائض والمحارم من أحوال المسلمين ، والصبر علىٰ المصيبة من مقامات اليقين ، وإنما فضل المقام في اليقين علىٰ مقام الإسلام للعموم والخصوص وذلك أن أهل اليقين من عموم المسلمين ، وليس جميع المسلمين من أهل اليقين الذين يصبرون علىٰ الضرر ، ويدلل علىٰ ما نقول دعاء النبي ﷺ : « اللهُمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، اللهُمَّ ارزقني من طاعتك ما يحول بيني وبين معصيتك ، وارزقني من خشيتك ما تبلغني به رحمتك ، وارزقني من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا »[1] . فأحسن الناس صبراً عند المصائب أكثرهم يقيناً وأكثر الناس جزعاً وسخطاً في المصائب أقلهم يقيناً ، فلا يصبر علىٰ هـٰذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين الذين تمكن اليقين في قلوبهم ، فصار هـٰذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين ، فالصبر علىٰ ضرر الأوجاع والمصائب وإخفاء ذلك من الذخائر النفيسة عند ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ومن الصبر علىٰ الضرر هو ضرر الفقر وإخفاؤه وصونه وعدم التشكي لغير ٱلله ، والصبر علىٰ بلاء ٱلله تعالىٰ في طوارق الفاقات وهي من ضر الامتحان ، وصفة القول أن الذي يبتغي أعظم الأجر من الضار عندما ينزل به الضرر يتمسك بأنواع الصبر ، فصبر علىٰ المصيبة ، وصبر علىٰ الطاعة ، وصبر علىٰ المعصية ، وأعظم الضرر ما جاء من مصيبة لأن كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة ، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر ، فاشترط لعظم الثواب لها عند أول كبرها قبل أن تصغر وهي في صدمة القلب أول ما تبتغيه المصيبة ، لذلك فإن الضار جل جلاله أعطىٰ الأجر لمن صبر علىٰ الضرر .

وعليه ، فالضار هو النافع جل جلاله ، فهو الضار بما يضر وبمن يضر ،

(1) المستدرك للحاكم ، ج 4 ، ص 482 .

وفي هـٰذا نفع لمن يريد إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، والخليفة الضار هو الذي يؤكد الحق ويعمل علىٰ إحقاقه ، وهو الذي يقدِم علىٰ كل ضرر ليضره في مهده قبل أن يلحق ضرره الآخرين ، ولهـٰذا فالخليفة يصلح ، والذي يريد للأضرار أن تتفشىٰ بين الناس هو المفسد في الأرض ، وهنا تكون المواجهة بين من يريد ضرراً بالعباد وبين من يريد إلحاق الضرر بما يضر العباد ، قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾[1] . فالحمد لله الضار الذي أنقذ الكعبة قبلة الموحدين ، بضره لمن أتوا من الحبشة برئاسة أبرهة الحبشي الأشرم ليخرب قبلة المستخلفين فيها بالحق ، محاولة منه وظناً بأنه سيطفئ نور ٱلله ولـٰكن أتم ٱلله نوره بالرغم من كره الكافرين ، قال تعالىٰ : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾[2] .

اللهُمَّ يا الضار اجعلنا بضرك ضارين لمن يريد إلحاق الضرر بالأرض والعباد ، واجعلنا من مبطلي السحر الذي يفرق بين المرء وزوجه ، واحفظنا وأولادنا وزوجاتنا وأخوتنا من كل ضر وكيد ومكر وحسد ، وأنر عقولنا

(1) الفيل ، 1ـ5 .
(2) الصف ، 8ـ14 .

بما ينفع يا النافع يا ذا الجلال والإكرام ، فأنت بضرك يا ضار لما يضر ولمن يضر تُمكِّن عبادك المستخلفين فيها من الإصلاح والفلاح ، اللهُمَّ اجعلنا من المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق ، اللهُمَّ إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك فهب لنا القدرة والقوة التي بها نُحفظ من كل ضرر ، ونتمكن من إلحاق الضر بكل مارد ضار ، يا ألله يا الضار يا عزيز يا غفار يا عالم الأسرار والأجهار يا خالق الليل والنهار والشجر والثمار وكل ما يعد ويحصىٰ وكل ما لا يعد ولا يحصىٰ فبرحمتك ارحمنا بالقوة والقدرة والحكمة والعلم النافع يا نافع يا لله ، واحفظنا يا الضار من كل ضرر ، ومن كل الشرور في البحار والبراري ، إنك أنت النافع ولا نافع سواك سبحانك لا إلـٰه إلا أنت الضَّار جل جلالك .

النَّافِعُ جلّ جلاله

في أَسماء ٱلله تعالىٰ « النَّافِعُ الضَّارُّ وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلِّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها » [1] .

النافع : هو « الرب المعبود النافع من يعبده ، الضارّ من يعصيه ، الناصرُ وليّه ، الخاذل عدوه ، الهادي إلىٰ الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه » [2] .

النافع هو : « ٱلله تعالىٰ فلا نافع إلا هو » [3] .

النافع : هو « المتصرف في خلقه بما يشاء » [4]

من أسماء ٱلله تعالىٰ النافع وهو الذي يوصل النفع إلىٰ من يشاء من خلقه حيث هو خالق النفع والضر والخير والشر ، والنفع ضد الضر نفعه ينفعه نفعاً ومنفعة ، فما من اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ الحسنىٰ وصفاته جل شأنه إلا وتدخل فيه صفة النافع التي تعود بالخير والنفع علىٰ خلقه جل شأنه ، إنها الصفة المطلقة في كل صفة من صفاته جل جلاله ، فبعلمه وحكمته وإحسانه

---

(1) لسان العرب ، ج 4 ، ص 482 .

(2) تفسير الطبري ، ج 13 ، ص 320 .

(3) تفسير الآلوسي ، ج 8 ، ص 113 .

(4) تفسير البحر المحيط ، ج 7 ، ص 374 .

وفضله كان نافعاً للخلق ، ولذا فهو النافع في كل حين وكل مكان ومتىٰ ما شاء مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (1) .

فالإنسان لا يملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضر إلا إن شاء اللَّه من ذلك فيمكنه منه ويمنحه إياه ، ولو كان أحد يعلم الغيب لا ستكثر من كل خير لنفسه ، فلا يوجد أحد يملك جلب نفع ولا دفع ضر إلا ٱلله النافع الذي يتفضل به علىٰ عباده ، فالفضل من ٱلله تعالىٰ نفع تدعو إليه الحكمة وهو تعالىٰ يفضل عباده ويتفضل عليهم بنفعه لا محالة لأن الحكيم لا يخالف ما تدعو إليه الحكمة ، ولهـٰذا وجب شكر النعم التي تقع في أصل النفع الذي هو الزيادة في الإحسان والتفضل والتخصص بالنفع الذي يوليه القادر عليه وهو ٱلله تعالىٰ حيث إنَّه متفضل بكل نفع يعطيه من نعمة أو صحة وعافية أو طاعة أو ثواب أو غيره مما يدخل في باب النفع ، فالثواب أوجبه ٱلله تعالىٰ من جهة أنه جزاء علىٰ الطاعة ، والشكر واجب علىٰ العبد اعترافاً بجميل النعم ويدخل فيها نفع الصلاح والاستقامة علىٰ ما تدعو إليه الحكمة ويكون في الضر والنفع كالمرض يكون صلاحاً للإنسان في وقت دون الصحة مما يذكر بنعمة ٱلله تعالىٰ من العافية النافعة للبدن ، مما يدفع إلىٰ التوبة والاستغفار الذي يكون سبباً في الأجر وزيادة الحسنات وذلك أنه يؤدي إلىٰ النفع في باب الدين وليس في أمور الدنيا ، ومن هنا فإن المرض يؤدي إلىٰ الصلاح والنفع واستقامة الحال ، والصالح هو المتغير إلىٰ استقامة الحال ، ولهـٰذا لا يقال لله تعالىٰ صالح ، وإنما الصالح من علم مكمن الصلاح واستخرجه وعمل به حتىٰ ينتفع به وينفع الآخرين ، وهـٰذا لا يأتي إلا بالعمل الدؤوب الصالح والهمة العالية والطلب المستمر في تحصيل أشرف الأشياء النافعة بالنسبة للبشر ألا وهو العلم النافع

---

(1) الأعراف ، 188 .

علىٰ كثرة اتجاهاته ومعانيه لما جعل ٱلله له من فضيلة ، ذلك أن العقل وحده لا يكفي لأن يرشد إلىٰ الخير والمنفعة إلا إذا اتصف بصفة العلم النافع .

وأما العلم فمنافعه لا تحصىٰ ولا تعد ولذلك كان العليم من الأسماء الحسنىٰ لله تعالىٰ : ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (1) .

فقد ظهر للملائكة عجزهم وعدم إدراكهم لحكمة ٱلله فيما يشاء من خلقه وما يريد من هـٰذا الخلق من خلافته في الأرض ، وما هـٰذه الخلافة إلا لنفع كان الملائكة عنه جاهلين ، لذلك استدركوا بقولهم : إننا ننزهك يا ربَّنا التنزيه اللائق بك ، ونقر بعجزنا وعدم اعتراضنا ، فلا علم عندنا إلا ما وهبتنا إياه ، وأنت العالم بكل شيء ، الحكيم في كل أمر تفعله ، ولذلك فإن ٱلله تبارك وتعالىٰ أعلم الخلق بفضل العلم حيث قال : ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (2) أي من هو خاشع لله أثناء الليل يقضيه ساجداً وقائماً ، يخشىٰ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، كمن يدعو ربه في الضراء وينساه في السراء فلا يستوي الذين يعلمون حقوق ٱلله فيوحدونه ، والذين لا يعلمون ، لإهمالهم النظر في الأدلة ، إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة ، وربما ينسب من لا يدرك حقيقة العلم النافع إلىٰ العلماء الجهلَ والغفلةَ والسهوَ فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها إحسان ظنه بها وإساءة ظنه بغيره ، وأهل العلم النافع علىٰ ضد هـٰذا يسيؤون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بغيرهم من العلماء ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل العلماء ؛ لأنهم بلغوا مراتبهم في الوصول إليها بالجد والجهد والتقىٰ والورع ، ومن علمه غير النافع إذا رأىٰ لنفسه فضلاً علىٰ من تقدمه في المقال وتشقق الكلام ظن لنفسه عليهم فضلاً في

---

(1) البقرة ، 32 .

(2) الزمر ، 9 .

العلوم أو الدرجة عند ٱلله لفضل خص به عمن سبق فاحتقر غيره واجترأ عليه بقلة العلم ولا يعلم أن قلة كلام هـٰؤلاء إنما كان ورعاً وخشية لله ولو أراد الكلام وإطالته لما عجز عن ذلك وأنهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام ٱلله غير أنهم إذا تذكروا عظمة ٱلله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتىٰ إذا استفاقوا من ذلك يسارعون إلىٰ ٱلله بالأعمال الزاكية التي تعود بالنفع علىٰ غيرهم وذلك لفرط علمهم بأنهم يعلمون ويعملون فكان عملهم ترجمة لعلمهم ، ولذلك فإن الخليفة من باب العلم النافع كان عمله أكثر من قوله لعلمه فهو القدوة الحسنة المحتذىٰ .

لهـٰذا فإن ٱلله تعالىٰ شهد لنفسه بأنه نافع ، وشهد له من خصهم بالنفع أنه قائم بالقسط والعدل الذي يعود علىٰ خلقه بالخير حيث قال تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) فقد شهد ٱلله أولاً أنه المتفرد بالألوهية وبيَّن ذلك بما بث في الكون من دلائل وآيات لا ينكرها ذو عقل ، وأنه واحد لا شريك له ، قائم علىٰ شئون خلقه بالعدل ، وأقرَّ بذلك ملائكته الأطهار ، وَعَلِمَهُ أهل العلم موقنين به ، وأنه جل شأنه المتفرد بالألوهية الذي لا يغلبه أحد علىٰ أمره .

وشملت حكمته كل شيء فقد ذكر ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز العلم في مقام المدح وهو العلم النافع حيث قال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (2) وما كان أمر ٱلله تعالىٰ بطلب زيادة العلم لعبده إلا لما فيه من المنافع والفوائد فهو أنفس بضاعة ، وطلبه أفضل تجارة ، ولزوم العلماء ومصاحبتهم من أفضل الأعمال ، ولما كانت صفات ٱلله تعالىٰ المطلقة كلها تحمل معنىٰ النفع لأن ٱلله سبحانه لا يريد لعباده إلا الخير ، وأن الخليفة يتصف بها نسبياً فهو أدرك

(1) آل عمران ، 18 .

(2) طه ، 114 .

بما حباه ٱلله من فضل نعمه من هـٰذه الصفات قيمة العلم ونفعه فقد ألزم نفسه في جمعه ، وشغل ذهنه بحفظه ، وحوىٰ خطيره ونال رفيعه وروىٰ جليله وعرف دقيقه وعلم غامضه ، ووعىٰ واضحه ، ثم صانه بالكتمان عمن لا يعرف مقداره ، ونزهه عن الإذاعة عند من يجهل مكانه وجعل غرضه أن يودعه من يستحقه ، ويبديه لمن يعلم فضله ، ويؤتيه إلىٰ من يعرف محله ، وينشره عند من يشرفه ، ويودعه أفضل مكان لأن العلم النافع يذكر بالرجاحة طالبه ، وينعت بالنباهة صاحبه ويستحق الحمد عند كل العقلاء حاويه ، ويستوجب الثناء من جميع الفضلاء واعيه ، ويفيد أسنىٰ الشرف مشرفه ويكتسب أبقىٰ الفخر ، وما يمتلك هـٰذه الصفات إلا الخليفة الفاضل العادل ، حيث يعلم أين يضع علمه ويحدد الجهة التي يوجهها إليه ليعود بالنفع علىٰ من يقتدي به .

أولاً : في تعليمه العلم النافع .

وثانياً : في استثمار هـٰذا العلم ليكون لهم عوناً في الحياة الدنيا ومنجاة لهم في الآخرة ، ومن هـٰذا الفهم العميق للمسؤولية إن صح التعبير كان العلماء والخلفاء في الأرض ورثة الأنبياء ، ولذا فالخليفة هو أعظم رهبة وأشد خشية من ٱلله تعالىٰ لما علم مما لا يعلمه غيره بوضع علمه في مجالات النفع والفائدة التي تعود علىٰ الآخرين بخير الدارين خشية من ٱلله تعالىٰ ورحمة ، لذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (1) .

وهـٰذه الخشية هي التي يكمن فيها النفع ويكون بها ويتصف الخليفة بنسبية النافع وليس كل العلماء يخشون ٱلله ، وإن كانوا جميعهم يخشونه فإنما بدرجات متفاوتة حسب مراتب النفع ، فمراتب الإنسان في النفع ثلاث تظهر في ثلاثة أشخاص ، فأحدهم نافع مُلهم ويعمل ، ويصير مبدأ للمقتبسين منه ، المقتدين به والآخذين عنه ، السائرين علىٰ خطاه ، المارين

(1) فاطر ، 28 .

علىٰ غراره ، القافين علىٰ آثاره ، والآخر نافع ولا يُلهم فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية ، ونعني ينفع نفسه فقط ، وواحد نافع ويلهم بنفع الآخرين وهـٰذا في أعلىٰ درجة حيث تجتمع له تلك الخلتان ، فيصير بقليل ما يملك من وسائل النفع مكثراً للعمل به وينفع بقوة ما يلهم من النصيحة والمشورة والعمل ويعود بكثرة ما يلهم من النفع علىٰ الآخرين وهـٰذه صفة الخليفة .

ولهـٰذه الصفة قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام للعبد الصالح : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [1] فهـٰذا هو أحد أبواب النفع إن لم نقل أعظمها وهو العلم النافع الذي نفع حامله بعلمه وعمله ، ونفع موسىٰ عليه الصلاة والسلام بما تعلمه من حامل العلم ، ونفع من انعكست عليه نتائج العمل بذلك العلم ، لذلك نرىٰ الخليفة الحامل للعلم ، لا يحمله للعلم ذاته ، ولا لنفسه ، وإنما يحمل علمه لما يعود بالنفع علىٰ الجميع ، بمعنىٰ نقل ما يحمل من العلم أو جزء منه إلىٰ الآخرين علىٰ قدر ما يستطيعون وعيه ، وعودة نفع هـٰذا العلم علىٰ الجميع بالعمل به ، وعندما يحقق هـٰذين الشرطين بالعمل بهما يكون قد وصل إلىٰ مرضاة ٱلله تعالىٰ فتتحقق الغاية من هـٰذا الجانب وهو أجر العاملين به علىٰ الوجه الذي أراده ٱلله من الخليفة .

ومما لا شك فيه أن الخليفة ، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة ، والتمام في الحلم والسعة في العلم ، والكمال في الحزم والعزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة والرياسة والسيادة ، والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة ، والتأييد وحسن المعونة ، أن ٱلله جل اسمه لم يكن ليجله باسم الخلافة ، ويحبوه بتاج الإيمان ، وبأعظم نعمة وأسبغها ، وأفضل كرامة وأسناها ، ثم وصل طاعته بطاعة الخليفة ، ومعصيته بمعصيته ، ورضاه برضاه ، إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم ، والعفو في موضع العفو ،

(1) الكهف ، 66 .

والتغافل في موضع التغافل ، ما لا يبلغه فضل ذي فضل ولا حلم ذي حلم إلا الخليفة وهـٰذه الصفات هي أقصىٰ درجات النفع . وقد يؤتىٰ أُناس علماً فلا ينفعهم علمهم ، ويكون هـٰذا علماً نافعاً في نفسه لـٰكن صاحبه لم ينتفع به ولم ينفع به أحداً كما قال تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (1) .

فإن ٱلله تعالىٰ العليم الحكيم يؤتي العلم لعباده ، والخير بيده يفيضه علىٰ خلقه في أرضه لذلك وجب علىٰ العباد أن يسخّروا هـٰذا العلم للخير ونصرة الحق ووضع هـٰذا العلم في الموضع الذي يرضي ٱلله تبارك وتعالىٰ في نشر الفضيلة ودحر الرذيلة ودفع الأذىٰ ، فلما ترك هـٰؤلاء ما أمر ٱلله به من حق العلم النافع ، ولىٰ عليهم خيارهم ، ليذهب عنهم الضرر ويزيل عنهم البأس ، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، وينصف المظلوم من الظالم ويقيم منار الشرع المطهر بهـٰذا العلم الذي آتاه ٱلله إياه . ومن صفات العلماء الذين ينتفع بعلمهم السكينة والوقار والحلم والتواضع ، فالسكينة تبعث الراحة والطمأنينة في النفوس ، والوقار يحافظ علىٰ هيبة العلم والعلماء ، والحلم هو سعة الصدر لتوضيح كل شاردة وواردة للسائلين ، والتواضع يكسب المحبة في قلوب الناس للعلماء ، و ما آتىٰ ٱلله عبداً علماً إلا آتاه معه حلماً وتواضعاً وحسن خلق ورفقاً ، فذلك هو العلم النافع ، ومن آتاه ٱلله علماً وزهداً وتواضعاً وحسن خلق وعملاً صالحاً فهو الخليفة . وحتىٰ يكون العلم نافعاً يجب أن يجمع العالم ثلاث صفات تتم له نعمة العلم النافع ألا وهي الصبر والتواضع وحسن الخلق ، وكذلك العقل والأدب وحسن الفهم .

وعلىٰ الجملة فالأخلاق التي وردت إنما تكون مجتمعة في الخليفة ، فٱلله

---

(1) الجمعة ، 5 .

سبحانه وتعالىٰ ينزل علمه ويلهمه لمن يختار من عباده كي ينتفع به كما ينتفع من الماء الذي ينزله من السماء حيث قال تعالىٰ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [1] .

وهـٰذا الماء لا يقف توضيحه عند حدود التفسير المادي من إغاثة الأرض وإنبات الزرع وإنما ينسحب أيضاً علىٰ ماء الغيب وهو العلم النازل من صفاء بحار الجبروت إلىٰ حياض رياض الملكوت فتغرقه سحائب الرحمة وتثيره رياح الهداية فتسوقه إلىٰ أرض النفوس الطيبة فتملأ منه أودية القلوب المنورة وخلجان الأرواح المطهرة ، وهو الطرف المقابل أو المعادل الموضوعي في الجانب العلمي لما أنزل من السماء من ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً حيث شبه الحق تعالىٰ العلم النافع بالمطر النازل من السماء فكما أن المطر تعمر منه الأودية والغدران وتجري منه العيون والأنهار كل علىٰ قدر سعته وكبره كذلك العلم النافع نزل من سماء عالم الغيب إلىٰ أرض عالم الشهادة فسالت به أودية القلوب كل علىٰ قدر طاقته وحسب استعداده ، وكما أن المطر يطهر الأرض من الأدران وهو معنىٰ قوله تعالىٰ فاحتمل السيل زبداً رابياً أي مرتفعاً علىٰ وجه الماء كذلك العلم النافع يطهِّر النفوس من الأدناس والقلوب من الضغائنِ والأرواح من الأكدار والأسرار من الوساوس ، فقد تبقىٰ في القلب بقية من حب شيء فيكون العلم بمثابة الدافع إلىٰ التسامي عن الدنيا من أجل الانتقال إلىٰ ما هو أبعد من هـٰذا العالم المادي إلىٰ عالم الفضيلة فإذا تحقق ذلك فيستوي عنده الحلو والمر والعز والذل والغنىٰ والفقر ؛ لأنه تحقق أن كلاً من عند ٱلله وما في الوجود سواه .

---

(1) الرعد ، 17 .

وهـٰذا هو العلم الحقيقي الذي هو العلم النافع وهو الذي ينبسط في الصدر شعاعه وينكشف به عن القلب قناعه وهو علم القلوب ومرجعه إلىٰ تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل ويبدأ بعد ذلك فيبحث عن عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الروح وعيوب السر فيطهِّر كل واحد من عيوبه فإذا تطهر من الجميع تحلىٰ بصفات الكمال كالإيمان واليقين والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة وتحلىٰ أيضاً بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة ، فشعاع العلم النافع الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين وبرد الرضىٰ والتسليم وحلاوة الإيمان ، وينشأ عن ذلك مخافة ٱلله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة التي يتصف بها الخليفة لاتصافه بالعلم النافع . وإن من النفع أيضاً ما يكون من العدالة بين البشر علىٰ حدٍّ سواء ، فالتفويض الإلـٰهي للخليفة بإعمار الأرض هو من النفع الدنيوي ، ودعوتهم إلىٰ الحق والخير وطريق الهداية لإصلاح دينهم هو من النفع في الآخرة برضا ٱلله عنهم وإدخالهم في رحمته وإدخالهم جنته .

أما الذين يظهرون غير ما يبطنون فإن الخليفة يدعوهم إلىٰ ما هو خير لهم وما تكمن فيه منفعتهم فإن أبوا فإنه يأخذ علىٰ أيديهم في الدنيا من أجل مصلحتهم ونفعهم ثم بعد ذلك أمرهم في الآخرة يعود إلىٰ ٱلله حيث يعلم خائنة الأعين وما تخفي صدورهم فيكون مصيرهم كما قال تعالىٰ : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ (1) .

يُعرف المجرمون من الإنس والجن بعلامة يتميزون بها ، فتأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعر مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار أو تسحبهم الملائكة إلىٰ النار وتأخذ بالنواصي وتجرهم علىٰ وجوههم أو تجمع

---

(1) الرحمـٰن ، 41.

بين نواصيهم وأقدامهم في سلسة من وراء ظهورهم فيلقون في النار ويسحبون فيها ، وإنما يسألهم تعالىٰ سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم ، وهو أعلم به منهم ، ولٰكنه تعالىٰ يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة ، وحكمته الجليلة ، وهـٰذا ليس من الضرر في شيء وإنما هو جزاء بما كانوا يعملون ، وهـٰذا العقاب اختص به ٱلله سبحانه وتعالىٰ في الآخرة .

وأما ما كان يعمله هـٰؤلاء في الدنيا فأمره لدفع ضررهم من أجل المنفعة العامة ، بما كان من خروجهم علىٰ سلطان ٱلله تعالىٰ الذي خوله للخليفة بإقامة الحق والعدل لامتلاكه الصفات النسبية من الصفات المطلقة ، لذلك لا يكون نفع الخليفة محضاً دون عقاب حتىٰ لا تذهب الهيبة لذلك قال تعالىٰ : ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ [1] .

وهـٰذه الآية حجةٌ واضحةٌ في تفويض الخليفة لما فيه النفع باستخدام ما فوضه ٱلله به من النفع الضار فإن ظهرتم علىٰ الشرك كانوا معكم ، وإن ظهر المشركون علىٰ الإسلام كانوا مع المشركين ، فهم يريدون أن يأمنوا المسلمين ويأمنوا قومهم من المشركين ، وهـٰؤلاء في ضلال مستمر ونفاق ، فإن لم يكفوا عن قتالكم ويعلنوا لكم الأمن والسلام فاقتلوهم حيث وجدتموهم حتىٰ لا تكون في الأرض فتنة منهم بعد ذلك فيعاقب هـٰؤلاء المسيئين ويكافئ المحسنين ، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، ويقتل في موضع القتل ، ويحيي في موضع الإحياء ، ويعفو في موضع العفو ، ويعاقب في موضع العقوبة ، ويمنع ساعة المنع ، ويعطي ساعة الإعطاء ، خالف ٱلله تعالىٰ في سنته في الخلق وتدبيره في الكون ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ، فبعض

---

(1) النساء ، 91 .

القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء للآخرين في التوبة ، كما أن بعض المنع نفع ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشر منه من كان شره صرفاً .

ولٰكن خلط الوعد بالوعيد مدعاة للهيبة والرهبة ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فهٰذا مما يعود بالنفع علىٰ المجتمع ، لأن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا علىٰ الثواب والعقاب ، والإطماع والإخافة ، ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ، فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً ، وربما ينفر من هٰذا بعض الذين لا يعلمون أن الجنة حفّت بالمكاره وحفّت النار بالشهوات ، ولا يعلمون الأمور علىٰ حقيقتها وأن الخير والنفع يكمن في المكروه إن لم يكن كلّه فجلّه كما قال تعالىٰ : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (1) .

ولو كان الناس يصلحون علىٰ الخير وحده لكان ٱلله عز وجل أولىٰ بذلك الحكم ، وفي سنن الخلق والأمم والأقطار والأزمان جميعاً ، كان استعمال المكروه والمحبوب دليل علىٰ أن الصواب فيه دون غيره وهو مجلبة للنفع ، وإذا كان الناس إنما يصلحون علىٰ الشدة واللين ، وعلىٰ العفو والانتقام وعلىٰ البذل والمنع ، وعلىٰ الخير والشر ، عاد بذلك الشر خيراً وذلك المنع نفعاً وذلك المكروه محبوباً ، وإنما الشأن في العواقب ، وفيما يدوم ولا ينقطع ، لذلك فإن الخليفة يجعل العدل والإنصاف في الثواب والعقاب حاكماً بينه وبين غيره ، فمن يقدمه منهم فإنما يقدمه علىٰ الاستحقاق ، وبصحة النية في مودته ، وخلوص نصيحته لما يحمل من أخلاق وشيم تكمن فيها المنفعة ، وهو مع ذلك يحمل من العطف والشفقة والرحمة علىٰ الناس ما لا يحمله غيره وذلك لمعرفته بما يضرهم وما ينفعهم ، فينأىٰ بهم عما يضرهم وينجو بهم إلىٰ

---

(1) النساء ، 19 .

ما ينفعهم بالرفق واللين والخطاب المؤثر في النفوس وبهٰذا الأسلوب الرقيق من أجل النفع ودفع الضرر .

جاء خطاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ (1) .

فهٰذا كلام يهز أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد والمنافع ما لا يخفىٰ علىٰ عاقل ، وهو لما أراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصىٰ به أمر ربه ، رتب الكلام معه في أحسن نظام ، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن ، مستنصحاً في ذلك بنصيحة ربه من أجل نفعه ، وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطيئته طلب منبه علىٰ تماديه كي يوقظ غفلته بسؤاله لمَ تعبد الشيطان ، ثم ثنىٰ بعد ذلك بدعوته إلىٰ الحق مترفقاً به ، فلم يصف أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولٰكنه قال : إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ، وذلك علم الدلالة علىٰ سلوك الطريق فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بهداية الطرق دونك ، فاتبعني أنجك من أن تضل ، ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه .

فقال : إن الشيطان الذي عصىٰ ربك إنما هو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذي دعاك إلىٰ الخروج علىٰ طاعة ٱلله ، وألقاك في هٰذه الضلالة ، وإنما ألغىٰ

---

(1) مريم ، 41 ـ 47 .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذكر معاداة الشيطان إلا التي تختص بالله ، وهي عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلىٰ ذكر معاداته آدم وذريته ، ثم بعد ذلك بدأ بتخويفه أبيه سوء العاقبة ، فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ، ولـٰكنه قال : إني أخاف أن يمسك عذاب ملاطفة لأبيه ، وصدّر كل نصيحة من هـٰذه النصائح بقوله : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾ توسلاً إليه واستعظاماً لشأنه ، وهـٰذا بخلاف ما أجابه به أبوه ، فإنه قال : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ ﴾ فأقبل عليه بفظاظة الكفر ، وغلظ العناد ، فناداه باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بني ، ونحن نجد أن الخليفة قد حمل هـٰذه الصفات واستخدمها صوناً للناس وحرصاً عليهم ، وطاعةً لله ، ومحبةً لهم بأنه يتصف بصفة النافع بالإضافة فهو يدرك بما يحمل من علم كيف يكون نافعاً في امتثاله لقول الله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [1] .

فالدعوة هنا إلىٰ طريق الحق الذي شرعه الله تعالىٰ من أجل فائدة الخلق ومصالحهم ومنافعهم في الدنيا والآخرة ، إنما تكون بسلوك الطريق الذي يناسب كل واحد منهم حسب مقامه ومنزلته وقدرته العقلية علىٰ استيعابه للأمور ، وتكون مخاطبتهم علىٰ قدر عقولهم فدعوة خواصهم ذوي الأفهام بما يرقىٰ إلىٰ مداركهم العالية بالقول الحكيم المناسب لقولهم ، ودعوة بقيتهم علىٰ حسب ما يستطيعون إدراكه من إيراد المواعظ وضرب الأمثال التي توجههم إلىٰ الحق وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم ، ويكون جدال أصحاب الملل والمعتقدات بالمنطق السليم والقول اللين ، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سِبَاب حتىٰ يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وكل ذلك لأنه نافع ويريد نفع الآخرين .

---

(1) النحل ، 125 .

هـٰذا هو الطريق لدعوة الناس إلىٰ ٱلله علىٰ اختلاف ميولهم ، فسلوك هـٰذا الطريق هو الذي يؤدي إلىٰ منفعة ما أراده النافع جل شأنه ، وبعد ذلك يكون أمرهم إلىٰ ٱلله تعالىٰ الذي يعلم من غرق في الضلال منهم وابتعد عن طريق النجاة ، ومن سلم طبعه فاهتدىٰ وآمن بما جاء به الحق ، فالذين اهتدوا وصلح أمرهم فقد نالوا من النفع حظاً وافراً ونصيباً وافياً والذين ابتعدوا عن الحق والهداية وجب علىٰ الخليفة إعادتهم إلىٰ الطاعة بالقوة النافعة التي تعود عليهم بالخير ، إذ أن تركهم يعني مكافأة لهم علىٰ عصيانهم وهـٰذه إساءة للمجتمع ، وليس من العقل في شيء أن يُكافأ المسيء علىٰ إساءته ، فمن قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف سنة ٱلله في التدبير ، وظن أن رحمته فوق رحمة ٱلله تعالىٰ ، والناس لا يصلحون إلا علىٰ الثواب والعقاب ، فمن باب الحكمة استخدام القوة النافعة كلما اقتضىٰ الأمر في هـٰذه المواقف ، وهـٰذا ما يلجأ إليه الخليفة بصفته نافعاً بالإضافة ، والحكمة أوفىٰ منحة وأوفر نعمة يسبغها ٱلله تعالىٰ علىٰ خليفته لينفع بها خلق ٱلله وقد قال تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (1) .

فٱلله تعالىٰ يعطي صفة الحكمة من إصابة الحق في القول والعمل من يشاء من عباده ، ومن أُعْطِي ذلك فقد نال خيراً كثيراً ونفعاً كبيراً لأن به انتظام أمر الدنيا والآخرة ، وما ينتفع بالعظة الحسنة والاعتبار والحكمة إلا ذوو العقول السليمة التي تدرك الحقائق من غير طغيان الأهواء الفاسدة ، ولا يتعظ بالعلم ويتأثر به إلا ذوو العقول السليمة والنفوس الطاهرة التي تدرك الحقائق وتستخرج منها ما هو نافع في هـٰذه الحياة .

وهنا يتجلىٰ النافع سبحانه وتعالىٰ في رحمته بالعباد أن آتىٰ بعضهم هـٰذه الحكمة ليكونوا خلفاء في أرضه وشهوداً علىٰ خلقه ، لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ

---

(1) البقرة ، 269 .

لا يريد بعباده إلا ما ينفعهم باسمه النافع ، وإضافة إلىٰ الحكمة التي لا يدركها كثير من الخلق ، وعلمه المسبق بذلك فقد اختار من العباد قيّما علىٰ هـٰذه الحكمة يعرف معناها ويدرك مغزاها ويؤدي حقاها ويسعىٰ في نفعها ليوصلها إلىٰ الذين هم بحاجة إليها وإلىٰ نفعها في الدين والدنيا فكان الخليفة مكلفاً بذلك ؛ لأنه هو النافع بالإضافة ، وكذلك من المنافع التي يؤتيها النافع جل شأنه ، هي حكمة مواعظ القرآن ومعاني آياته وتبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها ، فهو يبينها ويوفق للعمل بها من يشاء من عباده ، ويؤتيها بموجب سعة فضله وإحاطة علمه بما تحمله من المنافع العظيمة والعبر البالغة التي يدور عليها فلك منافع الخلق وهي أيضاً دعوة إلىٰ اغتنامها والمسارعة إلىٰ العمل بها ، فمن وصل إلىٰ هـٰذه الدرجة وأعطي العلم والعمل فقد أوتي خيراً كثيراً ؛ لأنه قد حاز خير الدارين ، وما يتعظ بما أوتي من الحكمة إلا أصحاب العقول النيرة والخالصة من شوائب الوهم ولا يركنون إلىٰ متابعة الهوىٰ .

والمراد هنا الحكماء العلماء الذين يعملون بما علموا وأول هـٰؤلاء هو الخليفة ، ولا يتناول كل مكلف وإن كان ذا عقل لأن من لا يغلب عقله علىٰ هواه فلا ينتفع به فكأنه لا عقل له ، ومن أعطي علماً نافعاً ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لأن ما أعطي له من خير كثير ، والدنيا متاع قليل .

وأما الذين يدعون إلىٰ ترك ما ينتفع به من الحكمة فإنما هي دعوة للفحشاء التي هي اسم جامع لكل سوء ؛ لأنها تتضمن معاني البخل والحرص واليأس من الحق والشك في مواعيد الحق للخلق بالرزق والخلف للمنفق ومضاعفة الحسنات وسوء الظن بٱلله وترك التوكل عليه وتكذيب قول الحق ونسيان فضله وكرمه وكفران النعمة والإعراض عن الحق والإقبال علىٰ الخلق وانقطاع الرجاء من ٱلله تعالىٰ وتعلق القلب بغيره ومتابعة الشهوات وإيثار الحظوظ الدنيوية وترك العفة والقناعة والتمسك بحب الدنيا وهو رأس كل خطيئة ، فمن فتح علىٰ نفسه باب الوساوس فسوف يبتلىٰ بهـٰذه الآفات ومن سد

هـٰذا الباب فإن ٱلله يكرمه بأنواع الكرامات ورفعة الدرجات وٱلله واسع عليم يؤتي الحكمة من اجتنب الوساوس ، لأن الحكمة من مواهبه ترد علىٰ قلوب الأنبياء والأولياء والخلفاء عند تجلي صفات الجلال والجمال وفناء أوصاف الخلقية بشواهد صفات الخالقية فيكاشف الأسرار بحقائق معان أورثتها تلك الأنوار سراً وإضماراً . فحقيقة الحكمة نور من أنوار صفات الحق يؤيد ٱلله بها عقل من يشاء من عباده فهـٰذه ليست مما تدرك بالعقول والبراهين العقلية والنقلية .

وأما المعقولات فهي مشتركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، فالمعقول ما يحكم العقل عليه ببرهان عقلي وهـٰذا ميسر لكل عاقل بالدراية وعالم بالقراءة فمن صفىٰ عقله عن شوائب الوهم والخيال فيدرك عقله المعقول بالبرهان دراية عقلية ومن لم يصفُ عقله عن هـٰذه الآفات فهو يدرك المعقول قراءة بتفهيم معلم مرشد ، فأما الحكمة فليست من هـٰذا القبيل وما يذكر إلا أولو الألباب وهم الذين لم يقنعوا بقشور العقول الإنسانية بل سعوا في طلب لبها بمتابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فأخرجوهم من ظلمات قشور العقول الإنسانية إلىٰ نور لب المواهب الربانية لنوال أعلىٰ درجات المنافع ، فتحقق لهم أن من لم يجعل ٱلله له نوراً فما له من نور ، وكان الخليفة ممن خصهم ٱلله بهـٰذه السجية وهو نوع من الاصطفاء وسنأتي عليه إن شاء ٱلله في مستهل كلامنا .
إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ رحمة منه في العباد ولطفاً بهم وشفقة عليهم لأن الإنسان خلق ضعيفاً ولأن ٱلله غني عن العالمين فقد سخر لهم ما في جميع الأرض من منافع حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) .

لقد ذلل لكم من أجل الانتفاع كل ما في السمـٰوات من نجوم مضيئة

(1) الجاثية ، 13 .

وكواكب ، وكل ما في الأرض من زرع وضرع وخصب وماء ونار وهواء وصحراء جميعاً ، ليوفر لكم منافع الحياة ، وإن فيما ذكر من نعم لآيات دالة علىٰ قدرته لقوم يتدبرون الآيات بأنه وحده الذي ذلل البحر تجري السفن فيه بأمره ، وتحمل الناس وجميع ما يحتاجون ، وبفضله يمكنكم أن تطلبوا من خيرات البحر بالتجارة والصيد واستخراج ما فيه من لآلئ وتشكروه علىٰ ما أفاض عليكم من هـٰذه النعم ، وكل هـٰذه النعم آيات تدل علىٰ قدرته تعالىٰ لقوم يتفكرون في صنائع ٱلله القدير ، وأنَّه بيده الملك وهو النافع القادر علىٰ النفع ، وإن الآيات توضح القدرة الإلـٰهية من جانب الخلق والإبداع ولـٰكنها تدل المتأملين والمتفكرين علىٰ النافع وعظمته في الخلق والتمييز بين أنواع هـٰذه المخلوقات وجواهرها ومعادنها وما لهـٰذه المخلوقات من تباين في هـٰذا الكون مما يدل عل اختلاف أنواع المنفعة ، فالسمـٰوات والأرض من جنسين مختلفين ولـٰكن كل منهما يؤدي منفعة لا يعوضها غيره علىٰ الرغم من البعد والمسافات والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب وهـٰذا الاختلاف تكمن فيه الفوائد والمنافع ، وكذلك اختلاف الليل والنهار ، أي في تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما ترك الآخر خلفه أي بعده وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور ، كل ذلك من أجل منفعة الإنسان حيث سخر النافع عز وجل هـٰذه المخلوقات لاستمرار الحياة .

وهـٰذه الفلك التي تجري في البحر لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف وتقبل وتدبر بريح واحدة تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع الناس فإنهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة فهي تنفع الحامل ؛ لأنه يربح والمحمول إليه ؛ لأنه ينتفع بما حمل إليه ، فهـٰذه المخلوقات الكونية كلها ، أوجدها النافع خدمة لنفع الإنسان ، ومن هنا كانت صفة النافع التي اتصف بها ٱلله تعالىٰ ، حيث خلق الجن والإنس للعبادة وسخر بقية مخلوقاته منافع للإنسان حيث قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [1] .

ٱلله هو الذي أنشأ السمٰوات وما فيها ، والأرض وما فيها وما عليها ، وأنزل منِ السحاب ماء مدراراً ، فأخرج بسببه رزقاً لكم هو ثمرات الزرع والشجر ، وسخر لكم السفن لتجري في البحر تحمل أرزاقكم وتجارتكم بإذنه ومشيئته ، وسخر لكم الأنهار العذبة لتنتفعوا بها في ري الأنفس والزروع ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، للإضاءة وإصلاح النبات والحيوان ، وسخر لكم الليل للراحة ، والنهار للسعي والعمل وقضاء الحاجات ، فهو النافع لكم ، والخليفة الذي يختاره ٱلله لإعمار الأرض فهو أيضاً نافع بالإضافة ويأخذ بأسبابِ الفائدة والنفع من أجل الحق وإقامة العدل فإن خالفه مخالف أو عارضه معارض أو عانده معاند كان معذوراً إن انتفض لإعادة الأمور إلىٰ نصابها ووضع الموازين في أقساطها إذ أنَّ الخروج علىٰ النافع بالإضافة هو ضرر يلحق المجتمع ، لذلك كان من حق الخليفة أن يستنهض جميع الأسباب لأن يردع كل من خرج عن طاعة ٱلله سبحانه ولو بإعلان الحرب دفعاً للضرر وجلباً للمنفعة التي منحها ٱلله تعالىٰ للخليفة من أجل إقامة العدل وبسط سلطانه ، ودحر الظلم والجور وإزهاقه .

وبهـٰذا يكون الخليفة قد أدىٰ ما عليه من حق ٱلله تعالىٰ في إطاعة أوامره باستخدام ما خوله ٱلله من قوة تصب في مجال النفع وإن كانت ضارة من وجهة نظر الأعداء ، إلا أن ٱلله تعالىٰ ليردع بالسلطان ما لا يردع بالقرآن ، والردع من أعظم أسباب جلب المنافع ودرء المفاسد ، وبهـٰذا تتجلىٰ صفة النافع في الخليفة بدفع الظلم وإقامة العدل وإعمار الأرض وإصلاح العباد ونشر الأمن

---

(1) إبراهيم ، 32 ـ 33 .

والطمأنينة في نفوس البشر في ديارهم وبلدانهم ، وبهـٰذا يكون أدىٰ ما عليه من حق هـٰذا النفع المستمد من قوة النافع جل شأنه بالكلمة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجلب المنافع ودفع المفاسد ودحر الضرر فمن نعم النافع علىٰ خلقه بصفته نافعاً أنه مُصطفٍ ، يَصطفي من يشاء من عباده ويصطفيهم برسالاته ليبينوا للناس سننه جل جلاله في خلقه وما يريد تعالىٰ من خير ونفع للخلق حيث قال سبحانه جل جلاله : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

فمن رحمة ٱلله تعالىٰ ونفعه لخلقه وعباده أنَّه اصطفىٰ محمداً عليه الصلاة والسلام لتبليغ رسالته الخاتمة للكافة ، وجعل اتباعه وسيلة لحب ٱلله ومغفرته ورحمته التي يترتب عليها جميع المنافع في الدنيا والآخرة ، كذلك من قبل قد اصطفىٰ آدم عليه الصلاة والسلام وجعله من صفوة العالمين فهو أول هـٰؤلاء الصفوة المختارة من النافع لنفع الخلق وإرشادهم إلىٰ الخيرِ والهدىٰ والصلاح فاصطفاه ربه واجتباه وأسكنه فسيح جناته وسخر له كل ما فيها لينتفع من نعيمها إلا تلك الشجرة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ أمر آدم عليه الصلاة والسلام أن يسكن هو وزوجه دار الكرامة والخلود ، وهي الجنة ، ويتنعما بما فيها ، يأكلان من أي طعام أراداه ؛ لأنه سيعود عليهما بالفائدة والانتفاع حيث أن كل ما في الجنة نافع ، إلا هـٰذه الشجرة ، فلا يقرباها حتىٰ لا يكونا من الظالمين لأنفسهما ، وما كان النهي عن تلك الشجرة إلا لمنفعة لم يدركها آدم عليه الصلاة والسلام ، ولـٰكن الشيطان زين لهم الإقدام علىٰ الأكل منها فكان العقاب المترتب علىٰ المخالفة

(1) آل عمران ، 33 ـ 34 .

(2) الأعراف ، 19 .

هو الخروج من الجنة ، وعلىٰ هـٰذا يمكن القول أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ كما اصطفىٰ الأنبياء لنفع البشر بإرشادهم إلىٰ طريق الخير والسداد ، كذلك اختار لهم خلفاء يقومون بأمورهم بما يعود عليهم بالنفع من الخير والرشاد . واصطفىٰ نوحاً عليه الصلاة والسلام بالرسالة ، واصطفىٰ إبراهيم وآله إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام والأنبياء من أولادهم ، ومنهم موسىٰ عليهم الصلاة والسلام ، واختار من آل عمران عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وأمه الصديقة ، اختارهم ذرية طاهرة ، فهم يتوارثون الطهر والفضيلة والخير ، فهـٰؤلاء جميعاً إنما جاء اصطفاؤهم من النافع عز وجل من أجل انتفاع الناس بهم وبما يحملون من العلم والفضيلة والخير والرشاد ليصلوا بالناس إلىٰ الهدىٰ والحق والعدل الذي أمر به ٱلله تعالىٰ وجعل انتفاع خلقه باتباع هداه .

والهدىٰ الذي يبينه هـٰؤلاء الأخيار لأن الفلاح والنفع منوط باتباع من اختارهم وجعل منهم الرسل الذين يبيّنون للناس طريق ٱلله ومحبته ، فقد اختار ٱلله هـٰؤلاء وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوة والرسالة فيهم كما اصطفىٰ محمداً عليه الصلاة والسلام لتبليغ رسالته للكافة ، والاصطفاء أخذ ماصفا من الشيء ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ اختار آدم بالنفس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة في نفس المصطفىٰ كما في كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو فيمن يلده وينشأ في رعايته كما في مريم أو اصطفاه بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة له وإسكانه الجنة ، واصطفىٰ نوحاً بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراماً ، فقد نسخ ذلك وحرَّمه ، وجعل ٱلله ذريته هم الباقين استجابة لدعوته في حق الكفار والمؤمنين حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (1) .

---

(1) نوح ، 26 .

وهـٰذه الدعوة من نوح عليه الصلاة والسلام علىٰ الكافرين إنما كانت من أجل منفعة ، وقد حمله علىٰ متن الماء حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ (1) ، فأدىٰ ٱلله تعالىٰ إليه منفعة بدفع ضرر الطوفان ، فمن اصطفاه ٱلله فقد جعل فيه الخير والنفع وصافاه وكان له ولياً منتخباً مكرماً مواصلاً ، يورثه عزائم الأنبياء ، ويزيده في التقريب زلفىٰ ، ويثبت في محاضر النجوىٰ ، ويصطنعه للخلة والاصطفاء ، ويرفعه إلىٰ الغاية القصوىٰ ، ويبلغه في الرفعة إلىٰ المنتهىٰ ، ويشرف به من ذروة الذرىٰ علىٰ مواطن الرشد والهدىٰ ، وعلىٰ درجات البررة الأتقياء ، وعلىٰ منازل الصفوة والأولياء ، فيكون كله منتظماً وعليه بالتمكين محتوياً ، وبأنبائه خبيراً عالماً ، وعليه بالقوة والاستظهار حاكماً ، وبإرشاد الطالبين له إليه قائماً ، وعليهم بالفوائد والعوائد والمنافع دائماً ، ومن كانت هـٰذه صفاته وأحاطه ٱلله بهـٰذه العناية ومنحه هـٰذه الرعاية فهو إمام الهداة العظماء والأجلة الكبراء الذين جعلهم للدين عماداً وللأرض أوتاداً ، فهـٰذا هو الخليفة الذي أمر ٱلله باتباعه وجعل فيه الخير وعلىٰ يديه النفع ، فكان هو النافع للعباد بحيث يقوم بقضاء حاجات الناس التي ينتفعون بها إما بعلمه وعقله وإما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم علىٰ سبيل الواجب ابتغاء مرضاة ٱلله .

فقد قال ﷺ : « من مشىٰ في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه ٱلله جعل ٱلله بينه وبين النار ثلاث خنادق ، كل خندق أبعد مما بين الخافقين » (2) ، وإضافة إلىٰ كونه الخليفة المفوض ، ففي النهوض بقضاء حوائج الناس ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة من أجل التوجيه والتصويب وإبداء الرأي والأمر بالمعروف

---

(1) القمر ، 13 .

(2) المعجم الأوسط للطبراني ، ج 16 ، ص 113 .

والنهي عن المنكر وكل ذلك من النفع للخلق في دينهم ودنياهم مع القيام بحدود الشرع ، ومع ذلك فهو ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام الذكر والتفكر فذلك لا يعدله شيء . وأما النافع تبارك وتعالىٰ فقد سخر كل مخلوقاته خدمة للإنسان ، وكل ما في الوجود من شيء ما خلقه ٱلله تعالىٰ إلا وجعل فيه منفعة وفائدة لخلقه دون استثناء ولعباده علىٰ وجه الخصوص ، فإن لم تكن فائدة مباشرة فإنها فائدة ومنفعة غير مباشرة لا محال ، إذ ما من شيء في السمـٰوات والأرض وما فيهما من مخلوقات إلا وهي مسخرة لمنفعة الإنسان بصرف النظر عن طاعته أو عصيانه أو إيمانه أو كفره في هـٰذه الدنيا ، وأما في الآخرة فكل نفس بما كسبت رهينة ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ خلق هـٰذا الكون للمنفعة والاعتبار حيث قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] .

ألم يبصر الذين كفروا أن السمـٰوات والأرض كانتا في بدء خلقهما ملتصقتين ، فبقدرتنا فصلنا كلاً منهما عن الأخرىٰ ، وجعلنا من الماء الذي لا حياة فيه كل شيء حي ، فهل بعد كل هـٰذا يُعرضون ، فلا يؤمنون بأنه لا إلـٰه غيرنا . ومن دلائل النفع أن ٱلله جعل في الأرض جبالاً ثوابت ، لئلا تضطرب بهم ، وجعل فيها طرقاً فسيحة ، ومسالك واسعة ، لكي يهتدوا بها في سيرهم إلىٰ أغراضهم وحاجاتهم ومنافعهم وجعل السماء فوقهم كالسقف المرفوع ، وحفظها من أن تقع أو يقع ما فيها عليهم ، وهم مع ذلك منصرفون عن النظر والاعتبار بآياته الدالة علىٰ القدرة والحكمة والرحمة . وهو الذي خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلٌّ يجري في مجاله الذي

(1) الأنبياء ، 30 ـ 33 .

قدَّره ٱلله له تقديراً ، ويسبح في فلكه لا يحيد عنه ، فإبداع السمٰوات والكواكب التي تسير فيها بانتظام دون أن تتزاحم أو تصدم ، بل تبعث الحرارة والنور لهٰذا الكون ، والأرض وما فيها من البر والبحر ، وتعاقب الليل والنهار ، كل ذلك من المنافع للناس ، كذلك ما يجري في البحر من السفن التي تحمل الناس والمتاع بقدرته ، كذلك فهو الذي يرسل الرياح لواقح وتبعث المطر ، فيحيي الإنسان والحيوان والنبات ، ومن خلقه أيضاً ما ترونه من السحاب المعلّق بين السماء والأرض وكل ذلك منفعة وفائدة لهم ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ يظهر الدلائل الدالة علىٰ وجود النافع ، وهٰذه الدلائل أيضاً دالة علىٰ كونه منزهاً عن الحاجة ، وكذلك دالة علىٰ حصول الترتيب العجيب في العالم ، فهٰذه الدلائل تدل من هٰذه الجهة علىٰ التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم . وفيها أيضاً رد علىٰ اليهود بقولهم في أن ٱلله سبحانه بحاجة لخلقه حيث قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [1] .

فكيف يجوز في العقل أن يعدل الخالق بالمخلوق الذي لا يضر ولا ينفع ، فهٰذه الأرض وما أقلت والسماء وما أظلت فقد خلقهما النافع جل شأنه لمنفعة المخلوقين دون استثناء ، وخص منهم الإنسان علىٰ وجه التحديد لما ميزه بالعقل وفرض عليه العبادات وشرّع له الشرائع كل ذلك من أجل منفعة وفائدة تعود عليه بالخير والسعادة والهناء في الدنيا والآخرة ، فالنافع سبحانه وتعالىٰ جعل المنافع أيضاً بما فرضه من عبادات حيث قال تعالىٰ : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [2] .

ففي المشهد العظيم يوم الحج عندما يؤدي الحجاج هٰذه الفريضة

---

(1) آل عمران ، 181 .

(2) الحج ، 28 .

يحصلون علىٰ منافع دينية من خلال أداء فريضة الحج ، ومنافع دنيوية بالتعارف مع إخوانهم المسلمين (المستخلفين فيها) ، والتشاور معهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، وذكر اسم ٱلله في يوم عيد النحر والأيام الثلاثة بعده علىٰ ذَبْح ما رزقهم ويسَّر لهم من هـٰذه النعم التي يكون فيها منافع مادية ومنافع روحية ، فكلوا منها ما شئتم وأطعموا الذي أصابه الفقر والبؤس ، فالبائس الشديد الفقر والفقير المحتاج الذي أضعفه الإعسار ليس له غنىً ، فهـٰؤلاء تعود عليهم المنافع من هـٰذه العبادة التي فرضها ٱلله علىٰ العباد لمنفعة كانوا يجهلونها ، فاتضح خيرها ونفعها في ممارستها وتطبقها ، ومن المنافع الدينية والدنيوية التي يصيبها الحاج من هـٰذه العبادة ألا وهي العفو والمغفرة والتجارة والكسب في أيام الحج وهو نوع من المنافع مخصوص بهـٰذه العبادة لا يوجد في غيرها من العبادات ، وهي منافع عظيمة الخطر كثيرة العدد ، ويجوز أن يكون أي نوع من المنافع الدينية والدنيوية .

وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان ٱلله تعالىٰ وأما منافع الدنيا فما يصيبون من مكاسب معرفية وفضائل حسان بمعرفة الآخر الذي زاد علىٰ قوته قوة مما جعل مظهر الإسلام في الحج استعراضاً للقوة المادية والمعنوية والروحية ، وهـٰكذا كانت لهم مكاسب البيع والشراء وما يستبدلون ، وللسائل أن يسأل أين يكمن دور الخليفة فيما فرضه ٱلله من هـٰذه العبادة وكيف تتضح صفة النافع النسبية في هـٰذا المجال ؟ وللإجابة علىٰ هـٰذه التساؤلات لابد من أن نُذَكِّرَ بصفة الخليفة النافع في عبادة الزكاة التي يجمعها من الأغنياء ويردها علىٰ الفقراء وهو أعلم بذلك حيث جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (1) .

---

(1) التوبة ، 60 .

وكون الخليفة علىٰ ما ذكرنا من صفات العلم والورع والتقىٰ والفقه وما إلىٰ ذلك فهنا يكون نافعاً في تقديم نفقات الحج لمن ليس لديه استطاعة ، وتأمين المواصلات وسبل النقل وأمن الطريق في الحفاظ علىٰ أرواح حجاج بيت ٱلله الحرام وتأمين مستلزمات المسافر وما يحتاجه ، والاستعداد إذا داهم الحجاج مرض أو وباء بتأمين الأدوية والأطباء للعلاج والشفاء فإذا عددنا المنافع التي يقدمها الخليفة في هـٰذه الشعيرة من الشعائر والأجر الذي يناله من ٱلله لا يسعنا أن نقول إلا ما جاء عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن حجّ : « أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حج فضل الحج علىٰ العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص » [1] ويدل ذلك علىٰ حجم النفع ومقداره الذي يحصل من عبادة الحج مادياً ومعنوياً وروحياً في الجانب الإيماني ، وهـٰذا يبين لنا أن النافع جل شأنه جعل النفع متدرجاً من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ نافع مطلقاً وتأتي النسبية بالتدرج إلىٰ الأدنىٰ فالأدنىٰ ، حيث الأنبياء والخلفاء ، ثم بعد ذلك تتفاوت العباد فيما بينها ، ولا يقف أمر النفع من هـٰذا الجانب عند هـٰذا الحد ، ولـٰكنه قبل ذلك يعود عليهم من الأضاحي والنذور حيث قال تعالىٰ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [2] .

لقد ذكر النافع عزَّ وجلَّ في هـٰذه العبادة منافع إلىٰ أجلٍ مسمىً وهي أيام الحج إلا أن هـٰذا النفع مسجل في ميزان حسنات كل واحد منهم يوفي أجره يوم القيامة ، وهـٰذا غير النفع المباشر الذي يحصل عليه أثناء حجه من التعارف الاطلاع والتجارة والراحة النفسية حين يصرفون ما نذروه لله إن كانوا قد نذروا شيئاً غير الأضاحي ، وعندما يطوفون بالبيت الحرام ليس لهم دعاء غير التوحيد

(1) تفسير حقي ، ج 7 ، 397 .
(2) الحج ، 33 .

وإعلان الطاعة والتوبة ، وطلب الرضا من النافع جل جلاله لينفعهم في الدارين استخلافاً ووراثة ، فمن يلتزم أوامر ٱلله ونواهيه في حجه تعظيماً في نفسه كان ذلك خيراً له في دنياه وآخرته وحصل له أعظم النفع ، ولأجل الحصول علىٰ النفع العظيم والخير الوفير أمروا أن يكونوا مخلصين لله حريصين علىٰ اتباع الحق غير متخذين أي شريك لله في العبادة .

فإن من يشرك بٱلله فقد سقط من حصن الإيمان ، وتنازعته الضلالات ، وعرض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك ، وكان حاله حينئذ كحال الذي سقط من السماء فتمزق قطعاً فتخاطفته الطيور فلم يبق له أثر ، أو عصفت به الريح العاتية فشتتت أجزاءه ، وهوت بكل جزء منه في مكان بعيد ، والذي يكون هـٰذا حاله ، فإنه لم يفقد النفع فقط ، وإنما خسر الدنيا والآخرة ، فلذلك كان أمر ٱلله بتعظيم شعائر الحج لما فيها من منافع يعود علىٰ أهل الإيمان ، لأن من يعظم دين ٱلله وفرائض الحج وأعماله والهدايا التي يسوقها إلىٰ فقراء الحرم ، فيختارها عظيمة لا عيب فيها فقد اتقىٰ ٱلله ، لأن تعظيمها أثر من آثار تقوىٰ القلوب المؤمنة ، وعلامة من علامات الإخلاص ، ودليل علىٰ المنفعة التي تعود عليه ، ففي هـٰذه الهدايا منافع دنيوية ومنافع دينية ، وفي كل ذلك يكون التقرب إلىٰ ٱلله والاتصال به جل جلاله .

ولذا فلم يقصر النافع عزَّ وجلَّ نفعه علىٰ شيء دون شيء مما خلق خدمة للإنسان ، ولـٰكنه جعل النفع عاماً شاملاً في كل مخلوقاته بشكل متكامل من حيث المنفعة الخاصة للذات المنتفعة بتلك المنافع ، وكذلك تبادل المنافع بين تلك الذوات المنتفعة بما سخره النافع عزَّ وجلَّ ، فقد جعل ٱلله تعالىٰ الأرض بساطاً لخلقه وتفضل عليهم بصفة النافع الذي هو من أسمائه الحسنىٰ ، بأن أودع فيها من المنافع ما لا حصر له ، حيث أنه سبحانه وتعالىٰ لم يطلب منهم العبادة والطاعة إلا وأمّن لهم مستلزمات هـٰذه العبادة من الرزق والخير الذي يعود عليهم بالنفع وتكفل بكل ما له خير ومنفعة لهم في دينهم ودنياهم حيث

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (1) .

فألله جلَّ جلاله هو النافع فما خلق الجن والإنس لشيء يعود عليه بالنفع منهم ، وإنما خلقهم للعبادة ، والعبادة كلها بما فيها من صلاة وزكاة وصوم وحج تعود عليهم بالنفع لما فيها من الفوائد العظيمة . فألله تعالىٰ فجر منابع النفع من الأرض وصبّها من السماء علىٰ الخلق ، فهو لا يريد منهم من رزق ؛ لأنه غني عن العالمين ، وهو وحده المتكفل برزق عباده ، لذلك خلقهم لعبادته تعالىٰ وهم مستعدون لها أتم استعداد ومتمكنون منها أشد التمكين بأكمل وجه ؛ لأنه جل شأنه أمّن لهم جميع أسباب النفع ، فألله سبحانه وتعالىٰ ليس شأنه مع عباده كشأن السادة مع عبيدهم أو الأجراء مع من استأجروهم ؛ لأنهم إنما يملكونهم أو يستأجرونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، والمالك النافع عز وجل نفىٰ أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه : ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ، وهو توضيح لدفع توهم الحاجة من خلقهم ، أي انتفاء حاجة النافع جل شأنه لخلقه أو كونهم مخلوقين لحاجة ، وهـٰذا النفي حتىٰ لا يتوهم أحد مما وقع في العرف العام أن الذي يملك لا بد له من منفعة ، فالذين يملكون العبيد أو يستأجرون الأجراء علىٰ قسمين :

القسم الأول : يتخذونهم لإظهار العظمة بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك .

القسم الثاني : يتخذونهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها ، فكأنه قال سبحانه : إني خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة لأنفسهم فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق لمن

(1) الذاريات ، 56 ـ 58 .

خلقهم ؟ ! فهم ليسوا كذلك ، فما أريد منهم من رزق ، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت أو طعام وتقديمه لمن يصنع ؟ فالنافع ليس كذلك ، وهم ليسوا كذلك أيضاً ؛ لأنه ما يريد منهم أن يطعموه ، فٱلله سبحانه كرر نفي الإرادتين لأن السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب إذا كان له مال وافر ، لـٰكنه يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه ، فنفي الإرادة الأولىٰ لا يستلزم نفي الإرادة الثانية فكرر النهي علىٰ معنىٰ لا أريد هـٰذا ولا أريد ذاك ، وهـٰذا النفي من باب الترقي في بيان غناه عز وجل وكأنه قال سبحانه : لا أطلب منهم رزقاً ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدي السيد فإن ذلك أمرٌ كثيراً ما يطلب من العبد أو الأجير إن كان التكسب لا يطلب منه .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الغني عن ذلك المغني بذلك ، ولكونه النافع أبداً فقد أغنىٰ واستغنىٰ ، فبث في هـٰذه الأرض كل حاجات الإنسان التي هي منفعة له سواء ما ينبت فيها من الشجر والفواكه والغذاء كقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (1) ، فمن أجل النفع الذي يعود عليكم خلق جنات وحدائق من الكرم ، منها ما يغرس ويرفع علىٰ دعائم ، ومنها ما لا يقوم علىٰ دعائم ، وخلق النخل والزرع الذي يخرج ثمراً مختلفاً في اللون والطعم والشكل والرائحة وغير ذلك كثير ، وخلق الزيتون والرمان متشابهاً في بعض الصفات وغير متشابه في بعضها الآخر ، مع أن التربة قد تكون واحدة وتسقىٰ جميعها بماء واحد ، فكلوا من ثمرها إذا طاب لكم لتنتفعوا به ، وأخرجوا منها الصدقة عند نضجها وجمعها لنفع الآخرين ، ولا تسرفوا في

---

(1) الأنعام ، 141 .

الأكل فتضروا أنفسكم وتضروا الفقراء في حقهم ، لأن ٱلله لا يرضىٰ عن المسرفين في تصرفاتهم وأعمالهم ، ذلك أن النافع جل شأنه لم يخصص خلقاً دون خلق بالفائدة والنفع .

وإنما كان أمر ٱلله بالنفع عاماً ، ولذلك جعل خلقه منهم نافعاً لنفسه ونافعاً لغيره ، ومنهم منتفع بغيره نافع لنفسه ، وذلك من أجل أن تستمر الحياة وتعمر الأرض علىٰ الوجه الذي أمر به النافع عز وجل ، إذ لا يكمن أن يكون البشر كلهم متساوين وفي درجة واحدة من العلم والفهم والحكمة والحزم والعزم والغنىٰ والفقر والحاجة والاكتفاء ، فلو كان الأمر كذلك لتوقفت الحياة ، فكانت حكمة النافع جل شأنه أن يجعل هـٰذا التفاوت بين الناس حتىٰ في الأشكال والألوان والألسنة حاجة ومنفعة متبادلة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (1) .

فمن الدلائل علىٰ كمال قدرته وحكمته خلق السمـٰوات والأرض علىٰ هـٰذا النظام البديع ، واختلاف الألسنة في اللغات واللهجات ، وتباين الألوان في السواد والبياض والصفرة والحمرة وغيرها ، إن في ذلك لدلائل ينتفع بها أهل العلم والفهم ، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت المصالح والمنافع ، ولم يقتصر نفع ٱلله تعالىٰ لعباده علىٰ النبات والزرع ، وإنما سخر مخلوقات أخرىٰ لمصلحة الإنسان تدرّ عليه من المنافع ما لا حصر لها ، فكل ما يدبّ علىٰ ظهر الأرض فيه منفعة للإنسان وإذا ذكرنا قسماً منها فهـٰذا لا يعني أن الذي لم نذكره خارج دائرة النفع ، وإنما نختار بعض ذلك لتوضيح النفع من النافع لخلقه في خلقه ، وقد جاء ذكر بعض هـٰذا النفع في القرآن الكريم مجملاً متداخلاً وبعضه منفرداً مفصلاً .

---

(1) الروم ، 22 .

فمثال الأول كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1] حيث ذكر تعالىٰ منافع هٰذه المخلوقات جملة لبيان التكثير في النفع وليس لبيان جزئيات ذلك النفع ، فذكر هٰذه الأنواع من الأنعام لفائدتها الجليلة ومنفعتها الكبيرة وللموعظة والاعتبار لما في الإبل والبقر والنعم من المنافع دون تفصيل جزئيات المنافع التي تعود منها ، ولو أنَّه ذكر التنقل والارتحال عليها ، إلا أنَّ الصورة التي تظهر إبداع النافع في استخراج النفع بالقدرة الإلٰهية ما تحار به الألباب من تدبير الخالق المبدع الحكيم ، حيث يكون الانتفاع بالسقيا من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام والدَّم لبناً صافياً سهل التناول كامل الغذاء والفائدة والنفع سائغاً للشاربين .

وكذلك من ثمرات النخيل والأعناب التي أنعم بها علىٰ الخلق فمنها ما يكون عصيراً مسكراً غير حسن ، ومنها ما يكون طعاماً طيباً حسناً ، إنَّ في ذلك لعلامة دالة علىٰ القدرة والرحمة لقوم ينتفعون بها وينتفعون بعقولهم علىٰ إدراك حسن صنعها وإبداعها ، وكذلك ألهم ربك النحل أسباب حياتها ، ووسائل معيشتها ، فأوحىٰ إليها بأن تتخذ من الجبال بيوتاً في كهوفها ، ومن فجوات الشجر ، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتاً ، ثم هداها النافع سبحانه وتعالىٰ ، لتنتفع بالأكلِ من كل ثمرات الشجر والنبات ، وسهَّل لها أن تسلك لذلك طرقاً هيأها لها ربها مذللة سهلة ، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية علىٰ وجود صانعٍ قادرٍ

(1) النحل ، 66 ـ 69 .

حكيم ، وهـٰذا الشراب جعله ٱلله تعالىٰ عاماً في النفع ، ينتفع به البشر جميعاً ولم يأت علىٰ التخصيص ، لأنَّ هناك نفعاً خاصّاً بالمؤمنين كما قال ٱلله تعالىٰ في نفع القرآن الكريم : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [1] فهو شفاء لما في الصدور من الشك والريب ، وسبب رحمة وعفو وغفران لمن آمن به .

أما الطعام والشراب فلم يخص منفعته علىٰ المؤمن دون الكافر ، وإنما جاء النفع عاماً دون استثناء أحد ، وأما ما جاء مفصلاً في فائدته ونفعه والذي سخره ٱلله لخلقه فهو كثير فقد جاء في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [2]
فٱلله سبحانه وتعالىٰ ؛ لأنه نافع جعل لكم هـٰذه النعم التي تنتفعون بها وجعلكم قادرين علىٰ إنشاء بيوت تتخذون منها مساكن ، فجعل لكم من جلود الإبل والبقر والغنم وغيرها منازل تسكنون فيها وتنقلونها في حلكم وترحالكم بخفة وسرعة في أسفاركم ، وتتخذون من صوفها وشعرها ووبرها فرشاً تتمتعون بها في هـٰذه الدنيا إلىٰ حين آجالكم ، وكذلك من نفعه لكم أن منحكم الصحة والعافية التي تنتفعون بها لتكونوا قادرين علىٰ استخدام هـٰذه المنافع في تحويلها إلىٰ بيوت و مساكن تطمئنون فيها بأمن وسلام ، فكان التنوع في المنافع بما جعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثاً و متاعاً لكم ولبيوتكم من الملابس والفرش وغيرها ، وكذلك من المنافع التي سخرها

(1) الإسراء ، 82 .
(2) النحل ، 80 ـ 81 .

لكم النافع جل شأنه هـٰذه الأشجار التي خلقها فكانت ظلالاً تقيكم شر الحر ، ومن المنافع أيضاً هـٰذه الجبال التي تتخذون منها كهوفاً ومغارات تسكنون فيها كالبيوت ، ومن الصوف والوبر والشعر والقطن والكتان وغيرها تصونكم من حرارة الشمس ، أو تلجئون إلىٰ ظل تستظلون به من الحرِّ كالغمام والشجر والجبل وغيرها ، وكذلك تقيكم ألم البرد علىٰ اختلاف مصادرها ومنابتها من الحيوانات أو من الزراعة فكلها منافع لكم من النافع جل جلاله ، وكذلك المعادن فالذهب والفضة تتخذون منها الحلي والزينة والحديد تصنعون منه دروعاً تصونكم من قسوة حروب أعدائكم ، فجعل لكم هـٰذه الأشياء كلها منافع ، ليتم عليكم نعمته وتقروا بفضله ، لتنقادوا لأمره وتخلصوا عبادتكم له دون غيره شكراً علىٰ تلك المنافع التي حباكم بها ، وتتجلىٰ صفة النافع فيما منح ٱلله لخلقه من أشياء ينتفعون بها ، في أعظم نعمة وهو الماء الذي جعل منه كل شيء حي .

وقد خص النافع جلَّ شأنه الماء بمنافع لا يضاهيها أي شيء آخر مما خلق ، وذلك نوع من التكريم لهـٰذا المخلوق حيث قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) وأجلُّ من هـٰذا وأعظم في تكريمه قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (2) .

وأول ما يتبادر للذهن عند ما يذكر الماء أنَّه الحياة ، فبدون الماء ينعدم وجود الأحياء ، وهـٰذا يعني أنه ما من حي تدبّ فيه الحياة إلا والماء هو سبب لحياته ، فهـٰذا النفع لا يخفىٰ علىٰ أحد ، ولا يمكن لأحد أن يقرنه بنفع آخر

---

(1) الأنبياء ، 30 .

(2) هود ، 7 .

من أي شيء ، أما أنه سبب في المنافع فهي مما لا يكاد يحصيها عدد ، ولـٰكن لا بدّ مما ليس منه بدّ ، إذ أننا نأخذ بعض وجوه منافع الماء وأولها قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (1) .

فعلىٰ الرغم من اختلاف البحرين في الملوحة والعذوبة إلا أنهما يشتركان في منافعهما ، فهـٰذا ماؤه عذب فرات بالغ العذوبة بحيث يكسر العطش ويقطعه لشدة عذوبته وحلاوته وسهولة تناوله وسائغ شرابه لسهولة انحدار مائه في الحلق فإن العذب لكونه ملائماً للطبع تتقبله النفس وتستهويه وتجذبه لشعورها بالراحة والطمأنينة ، وهـٰذا ملح شديد الملوحة ، ومن كل منهما تأخذون مما فيهما من منافع حيث تأكلون لحماً طرياً مما تصيدون من الأسماك وتستخرجون ما تتخذونه زينة كاللؤلؤ والمرجان ، وهـٰذه أولىٰ المنافع التي ينتفع بها الناس ، وأما البحر الأجاج الشديد الملوحة وهو نقيض الفرات .

فالحكمة في كون ماء البحر ملحاً أجاجاً لا يذاق ولا يساغ لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان وعلىٰ ممرّ الأحقاب والأحيان فتهلك من نتنه وتعفنه المخلوقات ، ولو كان عذباً لكانت انتفت منه الفائدة والمنفعة ، بل علىٰ العكس لو كان عذباً لأصبح ضرره لا يحتمل بحيث يؤدي إلىٰ الهلاك وينتفي نفعه ، وأما الأنهار العظيمة العذبة فبسبب جريانها دائماً لم يتغير طعمها ورائحتها فإن التغير إنَّما يحصل من الوقوف في مكان ، و من كل واحد من البحرين المختلفين في الطعم ، تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية وزينة من اللؤلؤ والمرجان ، ورب قائل يقول إن النساء هن اللواتي يتحلين بالزينة فلماذا كان الخطاب يشمل الرجال والنساء ؟ فنقول لأن النفع في هـٰذا الاتجاه يشمل

(1) فاطر ، 12 .

كلاً من الرجل والمرأة ، ذلك أن المرأة التي تلبس الزينة فإنها تشبع حاجة في أنوثتها وهو جانب يصب في النفع النفسي ، والرَّجل الذي ينظر إلىٰ امرأته وهي متحلية بتلك الزينة فإنه أيضاً يحصل علىٰ النفع النفسي من جانب المتعة النفسية أيضاً ، فلما كان تزينهن بها لأجل الرجال فكأنها زينة ولباس لهم ولذا أسند إليهم . وأما ما يطلب من ركوب البحر من أجل التجارة والسفر والانتقال فهو أكبر من أن تحصىٰ منافعه فترىٰ السفن تجري فيه شاقة الماء بسرعتها طلباً للمنافع .

فالنفع من النافع سبحانه وتعالىٰ ، لم يتوقف علىٰ شيءٍ دون شيء أو علىٰ زمن دون غيره ولـٰكنه يكمن فيما خلق ٱلله تعالىٰ من منافع خلقها وسخرها للناس بما شاء أن يكون ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] وقبل أن نتناول النفع من ٱلله النافع سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا النفع الناتج عن فعل الكينونة ، لا بد من الكلام عن الفعل نفسه ، فٱلله تعالىٰ إنما شأنه في الخلق إذا أراد إيجاد شيء أن يقول له : (كن) ، فيكون في الحال ، فأمره سبحانه بين الكاف والنون ، فإن قال قائل إنما أمره أن يقول له كن فهو يحدث من غير توقف علىٰ أي شيء آخر أصلاً ، فإذا كان المقصود هو تمثيل لتأثير قدرته تعالىٰ فيما أراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقف علىٰ شيء ما ، فلا وجه لحمل الكلام علىٰ الحقيقة ، إذ ليس هناك قول ولا آمر ولا مأمور ، لأن الأمر إن كان واقعاً حال وجود المراد تكوينه ، فلا وجه للأمر ، وإن كان حال عدمه ، فالأمر كذلك ، إذ لا معنىً لأن يؤمر المعدوم بأن يوجه نفسه ، والتعقيب والتأخير في فعل الكينونة إنما نشأ من العبارة ، وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه وهنا إشارة إلىٰ أن الإرادة الأزلية كما تعلقت بإيجاد المكونات تعلقت القدرة

---

(1) يس ، 82 .

الأزلية علىٰ وفق الحكمة الأزلية بالمقدورات إلىٰ الأبد علىٰ وفق الإرادة بإشارة أمركن فيكون إلىٰ الأبد ما شاء في الأزل ، وبما أن النفع من النافع وهو خاضع لفعل الكينونة ينسحب عليه ما انسحب علىٰ الفعل نفسه ، ولتوضيح ذلك فقد قال تعالىٰ : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [1] .

وهنا لا بد من الاستفاضة بشيء من الكلام لتوضيح العلاقة بين الإرادة والكينونة والنفع ، فالإبداع إظهار الشيء لا عن مادة ولا في زمان ولاعن مثال يحتذىٰ ، وذلك في إيجاده تعالىٰ للمبادئ وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر ، من وجوه ترجع كلها إلىٰ إتمام الشيء قولاً أو فعلاً وإطلاقه علىٰ الإرادة من استعمال اللفظ المسبب في السبب فإن الإيجاد الذي هو إتمام الشيء مسبب عن تعلق الإرادة لأنَّه موجب في قضىٰ المتعلق بالإرادة ، وأما قوله : قضىٰ أي أراد الذي جاء بصيغة الفعل الماضي والذي نتج عنه فعل الكينونة المتضمن للنفع هو ممكن ، وعلىٰ هـٰذا فإن كل ما سوىٰ الموجود الواجب ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته محدث ، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود ، والمخلوق لخالقه لا يملك له ضراً ولا نفعاً ، ولبيان أن ٱلله تعالىٰ نافع غير منتفع نقول : إن كل ما سوىٰ الموجود الواجب ممكن لذاته ، فلو وجد أكثر من واجب لاشتركوا في وجوب الوجود ، ولامتاز كل واحد منهم عن الآخر بميزات التعين والصفات المختلفة ، ولكانوا اشتركوا ببعض الصفات التي لا تقبل المشاركة ، كالخلق مثلاً وهنا يقع التضارب في الإرادة ، فالذي يُشترك به من الصفات غير التي لا تقبل التمايز ، فيلزم من صفات الاشتراك ، أن تكون مركبة ، وكل مُرَكب متشكل من أجزاء ، وكل جزء مفتقر إلىٰ غيره ، إذاً كل مركب محتاج لسواه ، وكل محتاج هو مفتقر لغيره ، وكل مفتقر لغيره فهو ممكن الحدوث ، وكل محدث يحتاج إلىٰ حادث يحدثه والحادث الذي

---

(1) البقرة ، 117 .

أحدث المحدثات انتفت عنه علاقة المنفعة المتبادلة بين المركبات ، وبهٰذا ثبت لله تعالىٰ صفة النافع أبداً ، وانتفت عنه المنفعة مطلقاً لأن كل ما سوىٰ ٱلله محدث مخلوق ، وأن وجوده إنَّما حصل بخلق ٱلله تعالىٰ وإيجاده وإبداعه ، فثبت أن كل ما سواه فهو خلقه وملكه فيستحيل أن يكون شيء من خلقه نافعاً له ، وهٰذا يعني أن له كل ما سواه علىٰ سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع . ويتجلىٰ هٰذا التسلسل من النافع عز وجل بتدرج المنفعة وانتقالها في خلقه حسب مشيئته من الخصوص إلىٰ العموم في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

إن هٰذه البشرىٰ التي بشرت الملائكة بها مريم بمولود يخلقه ٱلله بكلمة منه علىٰ غير السنة العادية في التوالد ، لم تكن مريم عليها السلام تدرك النفع الحاصل من الضرر الذي سيلحق بها من الناس جرّاء هٰذه البشرىٰ ، فاستنكرت ذلك متعجبة من وجود الولد علىٰ غير نظام التوالد بقولها : من أين يكون لي ولد ولم يمسسني رجل ؟ فذكر ٱلله تعالىٰ لها أنَّه يخلق ما يشاء بقدرته غير مقيد بالأسباب العادية ، فإنه إذا أراد شيئاً أوجده بتأثير قدرته في مراده من غير افتقار إلىٰ موجب آخر ، وما جعله إلا رحمة والرحمة لا تكون إلا في مجال النفع ، لذلك صبرت واحتسبت أمرها إلىٰ ٱلله ، لأن دلالة البشرىٰ لا تكون إلا في خير

---

(1) آل عمران ، 45 ـ 49 .

ونفع ، وقد خلقه ٱلله ذا مكانة في الدنيا بالنبوة والبراءة من العيوب وهو أعظم خير لحمل النفع ولمن ينتفع منه في الدنيا ، وفي الآخرة بعلو درجته مع الصفوة المقربين إلىٰ ٱلله من النبيين وهـٰذا أعلىٰ درجات النفع .

وأما ما ميزه ٱلله به من خصائص حيث كان يكلم الناس وهو طفل في مهده كلاماً مفهوماً حكيماً ، كما كلمهم وهو رجل سوي ، من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والكهولة فكان نفعه في مهده وطفولته كنفعه في رجولته ، وهـٰذا النفع المتدلي نزولاً من النافع إلىٰ المنتفعين هو من طرق إثبات الصفات الدالة علىٰ المتصف بالصفة ، فإذا كان النافع جل شأنه أسبغ علىٰ المنتفع المخلوق من النعم ما يكون به أهلاً لنفع الآخرين ، فإن المخلوق يدل علىٰ وجود خالقه ، وعلىٰ حياته ، وعلىٰ قدرته وقوته ، وعلىٰ علمه وحكمته ومشيئته باختياره . فالفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاماً ضرورياً . لأن ما فيه من الإتقان ، والإحكام ، ووقوعه علىٰ أكمل الوجوه يدل علىٰ حكمة فاعله وعنايته وما فيه من الإحسان والنفع ، ووصول المنافع العظيمة إلىٰ المخلوق يدل علىٰ رحمة خالقه ، وإحسانه وجوده ، وما فيه من آثار الكمال يدل علىٰ أن خالقه أكمل منه ، فمعطي الكمال أحق بأن يكون كاملاً وواهب النفع مستغنٍ عنه بالضرورة .

فقد وهب النافع للإنسان الفطرة ، ورفده بالعقل ومنحه التفكر ، وجمع له هـٰذه الخصال وما هو أكثر منها في نفسه ، وبسبب هـٰذه الميزة الظاهرة فضل جميع المخلوقات حتىٰ صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراك الحاجات بها وهـٰذه الميزة التي له مستفادة بالعقل ، لأن العقل ينبوع العلم ، والعلم أداة وسيلة للتفكر ، والعلم والفكر يشد بعضه بعضاً ، فصواب بديهة الفكرة من سلامة العقل ، وصواب روية الفكرة من صحة الطباع ، وصحة الطباع من طمأنينة النفس لأن النفس المطمئنة هي أعظم الأنفس نفعاً من ٱلله النافع ولذلك خاطبها عز وجل حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا

ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [1]
إن النفس المطمئنة هي التي نالت أعلىٰ درجات النفع من النافع ، والمنتفع هو الذي أشبع حاجاته فوصل إلىٰ السعادة لذلك وضح ٱلله تعالىٰ بيان سعادة النفس المطمئنة . والاطمئنان السكون بعد الانزعاج وسكون النفس إنما هو بالوصول إلىٰ غاية الغايات في اليقين والمعرفة والشهود ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [2] تنبيه علىٰ أنه بمعرفته تعالىٰ والإكثار من عبادته يكتب اطمئنان النفس الذي فيه أعلىٰ درجات النفع ، وإذا وصلت النفس إلىٰ مقام الاطمئنان بذكر ٱلله صار صاحبها في مقام التمكين آمناً من الرجوع إلىٰ الأحكام الطبيعية والآثار البشرية .

وعليه ، فالذي يعرف مكامن النفع إنما هو الخليفة النافع بالإضافة المهتدي إليه بعقله وقلبه ، لأن العقل بالضرورة يعرف أسباب النفع ومسبباته ، وفي القلب تكمن السكينة ، وهما القوة العاقلة والضامرة التي تستطيع الترقي ، وأن القوة العاقلة إذا أخذت تترقىٰ في سلسلة الأسباب والمسببات ، فكلما وصل إلىٰ سبب يكون هو ممكناً لذاته طلب العقل له سبباً آخر ، هٰكذا تطمئن القلوب والنفس بذكر ٱلله ، فكلما ذكر الذاكرون ربهم جلَّ جلاله ازدادوا اطمئناناً ، وهٰكذا ينتقل العقل من كل شيء إلىٰ ما هو أعلىٰ منه معرفة ، حتىٰ ينتهي في ذلك الترقي إلىٰ واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات ومنتهىٰ الضرورات ، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه القلب والنفس ، ولم ينتقل عنه إلىٰ غيره ، فإذًا كلما كانت القوة العاقلة ناظرة إلىٰ شيء من الممكنات ملتفتة إليه استحال أن تستقر عنده ، وإذا نظرت إلىٰ النافع جل جلاله ، وعرفت أن الكل منه استحال أن تنتقل عنه ، فثبت أن الاطمئنان

(1) الفجر ، 27 ـ 30 .
(2) الرعد ، 28 .

لا يحصل إلا بذكره تعالىٰ ، وأن حاجات العبد متنوعة ومتعددة ومتطورة إلىٰ النهاية ، ولا بقاء ولا قوة ولا قدرة إلا من النافع تعالىٰ ، فالاطمئنان في الحياة الدنيا هو شعور نفسي بالرضا غير الذي سبق ذكره من اطمئنان الآخرة ، ويعود علىٰ المطمئن بمنافع كثيرة من الشعور بالارتياح والرضا عما يقول ويعمل ، مما يولد السكينة والوقار ، الأمر الذي يجعله أكثر نفعاً ، وأكثر الناس اطمئناناً هو الخليفة لذلك يحمل من الشعور بالارتياح والرضا ومن الهيبة والسكينة والوقار ما يجعله أكثر الناس نفعاً ، ومن هنا كان نافعاً بالإضافة ، ولو لم يكن ٱلله هو النافع ما كان الخليفة ، ولهـٰذا الخليفة هو النافع بالإضافة ، حيث استمداده قيمة النفع من النافع المطلق جلَّ جلاله ، ولما كان الخليفة بما حباه ٱلله من النعم وما أسبغ عليه من الصفات النسبية ، فهو إذاً نافع بالإضافة لما استخلف فيه من أمور الخلق ، ونفع الخليفة هو جزء من التكليف المفوض به حيث أنه يسهم في إشباع حاجات المجتمع علىٰ اختلاف منافعها سواء أكانت دنيوية أم أخروية ، فالخليفة يكون نافعاً بالأمر والنهي والمشورة والرأي الصائب الذي يسهم في الإصلاح أو يؤدي إليه ، وهو بهـٰذا يكون نافعاً بالإضافة لأن ٱلله تعالىٰ قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (1) .

والمراد بسوق السحاب الحامل للماء أن ٱلله النافع يجري المطر إلىٰ الأرض التي قطع نباتها فيخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم ، ويأكلون حبه وثمره ؛ لأنه هو الذي ينسب إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، وأما السقي بالأنهار فمنسوب إلىٰ العبد وإن كان الإنبات من ٱلله تعالىٰ ، فالنافع هو الذي يسوق الماء إلىٰ الأرض الميتة فتسقىٰ وتنبت حدائق وبساتين بعد جفاف عودها وزوال المأنوس منها ، فيعود عودها مورقاً بعد ذبوله فيخرج به زرعاً ونباتاً ينتفع به ، فهـٰذا النافع

(1) السجدة ، 27 .

وهـٰذه قدرته جلَّ شأنه ، وأما الخليفة فإنه نافع بالإضافة حيث يأمر بشق الترع وحفر الآبار ونصب السواني ومدِّ الأنابيب وما إلىٰ ذلك من وسائل النفع التي بها تعمر الأرض ويتم إصلاحها ، ولهـٰذا الخليفة مصلح لا مفسد فهو الذي ينفق في أوجه الإصلاح والعمار ، ولا يتأخر عن ذلك ، وذلك لأنه يعلم أن نتيجة ما ينفقه علىٰ الآخرين الذين هم في حاجة يعود عليه يوم الحساب رحمة ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [1] ولأن ما تبذلونه من معونة لغيركم ففائدته عائدة عليكم ومنفعته تكون لكم ، وٱلله مثيبكم عليه ، ويكون الخليفة نافعاً في صونه أرواح الناس وأعراضهم والحفاظ علىٰ مصالحهم وتعليم أبنائهم القول الحق ، ذلك أنَّ العلم هو مفتاح المنافع لما يعود به علىٰ المجتمع بأسره ، فالمعلم والطبيب والمهندس والعامل كل واحد من هـٰؤلاء يؤدي منافع متنوعة ، وهنا يقوم الخليفة النافع بتوجيه منافع ٱلله تعالىٰ لأن لله عباداً يختصهم بالنفع لمنافع العباد ، فنعم ٱلله في أرضه وافرة المنافع .

وبما أنَّ العباد لا يصلح حالهم إلا بالتقوىٰ ، فقد أوكل ٱلله الخليفة كونه نافعاً بالإضافة في توجيه هـٰذا النفع بما يعود علىٰ جميع أفراد المجتمع بالخير الوفير ، وأول توجيه للخليفة النافع في هـٰذا المجال يكون في توزيع ملكية الأرض ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [2] فالأرض ليست ملكاً خاصاً لأفراد أو جموع معينة ،

---

(1) البقرة ، 272 .

(2) الأنبياء ، 105 ـ 108 .

ولا ملكاً حكومياً لحكومة معينة أو مجموعة حكومات ، الأرض لله تعالىٰ ، ولذا فهي ملك لكل مصلح ، ولهـٰذا فالخليفة مصلح لا يسمح بأن يستأثر عدد قليل من الأفراد بأكبر مساحة من الأرض علىٰ حساب حاجات الآخرين ، وذلك كي لا ينقلب النفع ضرراً ، ولهـٰذا يكون توجيه النفع من قبل الخليفة بالتوزيع العادل للأرض التي استخلفه ٱلله فيها بشكل يناسب إصلاح الناس جميعاً ، ثم يوجه استخدام الملكية حسب حاجة المجتمع في زراعتها مراعياً سدّ الحاجة ومشبعاتها المتطورة والمتنوعة ، فالخليفة يتصف بصفة النافع النسبية ويؤدي النفع ويقدمه في جميع مرافق الحياة ، فٱلله لم يترك الخلق غفلة ولا هملاً لا في دينهم ولا في دنياهم لشدة ما حباهم به من منافع حيث قال تعالىٰ : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (1) ، أي لا تستطيعون أن تحصروا وتحصوا ما أنعم عليكم من المنافع التي سخرها خدمة للناس إلا أننا سنذكر عشر دلائل تتجلىٰ من خلالها المنافع التي شمل بها النافع عز وجل خلقه بها ، فٱلله الذي خلق السمـٰوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وعلىٰ الرغم من جزيل هـٰذه النعم والمنافع ، فإن كثيراً من العباد لا يشكرون النافع علىٰ ما أكرمهم به ، ومع ذلك فإن ٱلله تعالىٰ كونه حليماً رحيماً فهو نافع بحلمه ورحمته الواسعة ، إذ أجل عنهم الحساب والجزاء في الثواب والعقاب بصفته مؤخراً ؛ لأنه نافع حتىٰ وإن تمادىٰ بعض الخلق في الطغيان علىٰ سبيل التحدي بقولهم : ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ (2) وذلك عند سماعهم

---

(1) إبراهيم ، 34 .

(2) ص ، 16 .

بتأخير عقاب ٱلله تعالىٰ إلىٰ الآخرة فقالوا ذلك بطريق الاستهزاء والسخرية ربنا عجل لنا قسطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره إلىٰ يوم الحساب ، إلا أنَّ ٱلله الحليم الرحيم النافع يؤخر الحساب لتكون الفرصة سانحة أمام من يتوب لتكون المغفرة رحمة واسعة من النافع علىٰ المنتفع ، قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] .

فالذين عملوا السوء تحت تأثير طيش وغفلة عن تدبر العواقب ، ثم تابوا من ذلك الذنب ، وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم ، فإنَّ ربك يغفر لهم ذنوبهم ، فالتوبة لا تكون إلا من بعد الانغماس في السيئات والزلات والغفلات ، ولهٰذا فهي تأتي بعد الصحوة من الغفلة والالتفات إلىٰ الطاعات والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله أصلح ٱلله شأنه ، ولهٰذا ينال التائب نفع النافع من تأخير العقوبة في فسح المجال أمامه ومنحه فرصة العودة إلىٰ الطاعة وطريق الهدىٰ وسبيل الرشاد ، وبذلك تعود عليه أفضل المنافع رحمة وشفاء من ضلال ، إنَّه نافع وخير النفع من النافع ما كان في الآخرة حيث قال تعالىٰ : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [2] فقد وعدهم ٱلله الجنة خالدين في نعيمها وأعد لهم مساكن تطيب بها نفوسهم في دار الإقامة والخلود ، ولهم مع ذلك رضا اللَّه عنهم يستشعرون به ، وهو النعيم الأكبر ، وذلك هو الفوز العظيم ، وكذلك فٱلله النافع في الدنيا فإن نفعه في الآخرة كونه المؤخر أكبر فائدة وأعظم نفعاً فقد قال تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

(1) النحل ، 119 .
(2) التوبة ، 72 .

فَأَدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَـالُواْ ٱلْحَـمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ (1) .

فكانت مكافأتهم عظيمة من النفع الدائم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبلىٰ ، وكما كانوا منتفعين من الأرض في الدنيا والتصرف والتمكين مما هو يعود عليهم بالنفع ، كذلك كان جزاؤهم من النافع في الآخرة بأن أورثهم الجنة ، حيث دخل المتقون إلىٰ الجنة جماعات جماعات ، وأفواجاً أفواجاً ، حتىٰ إذا بلغوها ، وقد فتحت أبوابها ، وقال لهم حفظتها : أمان عظيم عليكم ، طبتم في الدنيا من دنس المعاصي ، وطبتم في الآخرة بما نلتم من النعيم ، فادخلوها مقدراً لكم الخلود ، فإن لكم من النعيم ما لا يخطر علىٰ بال وهـٰذا هو منتهىٰ النفع ، غير أن بعض الناس يصرف وقته وجهده وعمله فيما يسخط ٱلله لكي يرضي بعض الناس ظنّاً منه أن أعماله هـٰذه نافعة ، مثل الذين يمشون بالنميمة أو يحلفون بٱلله كذباً ليرضىٰ الناس عنهم ويشعر أنه انتفع بهـٰذه الأعمال فقد قال تعالىٰ : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، فيعتذرون ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم ، وبذلك يعتقدون أنهم نالوا النفع . غير أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فالذي يكون هـٰذا دأبه لكسب المنافع بما يسخط ٱلله تعالىٰ فقد عاد عمله عليه ضرراً ، فبكسب منافع الدنيا يخسر الآخرة ويسخط ٱلله عليه ويسخط عليه الناس أيضاً ، مع العلم أن رضا الناس غاية لا تدرك ، وما أرضىٰ أحد قوماً إلا أغضب آخرين ، ولهـٰذا رضا ٱلله أيسر ، فلماذا الغفلة ؟ ! فهو المستحق لأن يقصد وحده إذ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء فلا رازق ولا معطي ولا ضار

(1) الزمر ، 73 ـ 74 .
(2) التوبة ، 62 .

ولا نافع إلا هو تبارك وتعالىٰ ، فكيف يترك ٱلله تعالىٰ ونفعه برجاء كاذب ووهم فاسد ناقص يصيب ويخطئ ، وهـٰذا الواهم المنافق الكاذب لو اطلع الناس علىٰ ما في قلبه من الرياء لطردوه ومقتوه .

فمن أراد أن ينتفع وينفع الآخرين فعليه أن يتخلق بالفضائل ويترك الرذائل لأن ٱلله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ، وبهـٰذا تكون منه المجاهدة في التوجه إلىٰ النافع جل شأنه لأن ٱلله لا يضيع أجر المحسنين حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ (1) . فٱلله لا يظلم أحداً شيئاً ولا ينقص من أجر عمله ولا يزيد في عذابه شيئاً ، ويضاعف للمحسن ثواب حسناته مهما قلت ، ويعطي من فضله عطاء كبيراً غير مقابل بالحسنات التي يضاعفها وهـٰذا هو النفع المرتجىٰ .

لـٰكن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم بظنه أنهم يقدمون له نفعاً أو يدفعون عنه ضرراً فهو مغرور ؛ لأنه لو عرف اللّه حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه شيئاً ، وأنه لا نافع إلا هو جل جلاله ، ولهـٰذا رضا الناس صعب لا ينال ، ورضا ٱلله النافع ميسّر لا صعوبة فيه ، إنه سهل المنال ، فمثل هـٰؤلاء كمن يستبدل ما هو أدنىٰ بما هو خير ، ولهـٰذا فالخليفة فاز بنيل رضا ٱلله النافع جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (2) . فذلك اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقُهم ، لهم حدائق تجري تحت أشجارها الأنهار ، وهم مقيمون فيها لا يخرجون منها أبداً ، يتمتعون فيها برضوان ٱلله عنهم ورضاهم بثوابه ، وذلك النعيم هو الفوز العظيم وهو أعلىٰ درجات النفع . غير أن الأخذ بالأسباب في الدنيا هو الذي يؤدي إلىٰ نفع

(1) النساء ، 40 .

(2) المائدة ، 119 .

الآخرة ، والعمل النافع ما كان حال التكليف ، فالجاني المعترف يوم القيامة بجنايته لا ينفعه اعترافه وصدقه وكذلك الجاني المعترف في الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه ، فإنه ليس المراد كل من صدق في أي شيء نال النفع .

إن الأمور كلها تنقسم إلىٰ ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً كالعلم وحسن الخلق برحمة من ٱلله وفضله حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] فلولا فضل ٱلله ورحمته عليهم في الدنيا بعدم التعجيل بالعقوبة ، وفي الآخرة بالمغفرة لنزل بهم عذاب عظيم ، وإلىٰ ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق الذي يؤدي إلىٰ الكفر ، لذلك قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [2] فهو لن ينفعهم أبداً إن استطاعوا أن يملكوه ، وإلىٰ ما ينفع في الدنيا ويضر في الآخرة ، كالتلذذ باتباع الشهوة ، وإلىٰ ما يضر في الدنيا ويؤلم ولـٰكن ينفع في الآخرة كقمع الشهوات ومخالفة النفس الهامعة والضالة ، فالنافع في الدنيا والآخرة هو النعمة وما شملت مادية كالمال والبنين إذا وجهت وفق ما أراده النافع جلَّ شأنه فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [3] ، أي بنفس سليمة من الكفر والمعاصي وإنما أضاف السلامة إلىٰ القلب لأن الجوارح تابعة للقلب فتسلم بسلامته وتفسد بفساده حيث قال ﷺ : « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ » [4] . فالذين يقولون نحن أكثر

---

(1) النور ، 14 .

(2) المائدة ، 36 .

(3) الشعراء ، 88 ـ 89 .

(4) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 290 .

أموالاً وأولاداً فأخبر ٱلله أنه لا ينفعهم ذلك اليوم لا المال ولا البنون لعدم سلامة قلوبهم في الدنيا ، وأما المستخلفون فيها فتنفعهم خيراتهم وينفعهم ما عملوا من عمل صالح . والقلب السليم الذي ينفع صاحبه له ثلاث علامات :

أولاها : أن لا يؤذي أحداً .

والثانية : أن لا يتأذىٰ من أحد .

والثالثة : إذا اصطنع مع أحد معروفاً لم يتوقع منه المكافأة ، فإذا هو لم يؤذ أحداً فقد جاء بالورع ، وإذا لم يتأذَّ من أحد فقد جاء بالوفاء ، وإذا لم يتوقع المكافأة باصطناع المعروف فقد جاء بالإخلاص ، وهٰذا ما يعود عليه بالنفع في الآخرة . والمنفعة معنوية هي كالعلم وحسن الخلق .

والنفع يندرج تحت باب الخير والنعم ، والخيرات تنقسم إلىٰ نافع ولذيذ وجميل ، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المآل ، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال ، فالخير كالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ومفضلة عند أهل العلم والحكمة ، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم ، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرىٰ غيره عالماً ، ويرىٰ نفسه جاهلاً ، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة بحيث يشعر بحاجة الانتفاع من العلم ، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه ، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل وأدرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم فيكون قد بادر إلىٰ النفع ، وضروب النفع وأنواعه مختلفة ، فرب نافع مؤلم كقطع العضو الضار من الجسد ، ورب نافع قبيح كالأحمق الذي لا يستغنىٰ عنه ، وفقدان العقل نافع لمن فقد عقله ؛ لأنه رُفع عنه القلم ، ورب نافع من وجه ضار ، كإتلاف المال لإنقاذ النفس أو إتلاف بعض المال لإنقاذ بعضه ، فإنه ضار للمال نافع للنفس

في نجاتها . والنافع الضروري كالإيمان وحسن الخلق فهما يوصلان إلىٰ سعادة الآخرة وهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما شيء ، ثم إن العلم نافع وجميل في كل حال أبداً ، والمال تارة يجذب إلىٰ الهلاك وتارة يجذب إلىٰ النجاة ، ولذلك ذم ٱلله تعالىٰ المال في القرآن في مواضع حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] وإن سماه خيراً في مواضع أخرىٰ حيث قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [2] ، وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم كونه نافعاً ، فإما لعدم الذوق وإما لعدم الشوق ، إذ الشوق تبع للذوق ، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مراً فلا يرىٰ فيه نفعاً ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الفطنة التي بها يعرف نفع العلم ، كالطفل الرضيع الذي لا يميز بين التمر والجمر ، فلكل منهما منافع ولـٰكنه لا يملك توجيه المنفعة ، فالقاصرون عن إدراك منفعة العلم والحكمة ثلاثة ، إما من لم يحي فطنته كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وكان في قلبه مرض كما قال تعالىٰ : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [3] إشارة إلىٰ مرض العقل وهـٰذا إنذار من ٱلله لمن كان حياً ؛ لأنه لم يحيَ حياة ينتفع بها ، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند ٱلله من الموتىٰ وإن كان عند الجهال من الأحياء ، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتىٰ بالأبدان ، غير أن ٱلله تعالىٰ أحياهم حياة لا نعرفها ولم نألفها ، لأننا نحن أحياء

---

(1) الأنفال ، 28 .

(2) الكهف ، 46 .

(3) البقرة ، 10 .

في الحياة الدنيا وما يحكمها من القوانين الطبيعية والفيزيائية وفق الغذاء والزمان والمكان ، ولـٰكن النافع جلَّ شأنه عندما أراد (وهو مريد) مكافأة من يقتل في سبيله نفعه بما لم ينتفع به أحد فجعلهم أحياء عنده جلَّ جلاله حيث قال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) ، فهـٰؤلاء الذين قُتِلوا في سبيل ٱلله ليسوا أمواتاً بل هم أحياء حياة استأثر ٱلله بعلمها ، يرزقون عند ربهم رزقاً حسناً لا يعلمه إلا هو ، يتألق السرور بالبشر من وجوههم بما أعطاهم ٱلله بسبب فضله من المزايا ، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم في الدنيا أحياء مقيمين علىٰ منهجهم وبأنه لا خوف عليهم في شيء ولا من شيء ، ولا هم يحزنون لفوات شيء يندمون عليه ، وبالنتيجة إن هـٰؤلاء قتلوا وماتوا . وصفوة القول في هـٰذا أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ كونه النافع ، فكل ما خلقه من شيء إن هو إلا نفع للبشر لأن ٱلله كان بخلقه رحيماً ، فما من شيء من المأمور بأخذه أو فعله إلا وبه خير ومنفعة للإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (2) وما من شيء منهي عنه إلا لمصلحة الإنسان ولعلم ٱلله أن في النهي والمنع منفعة للإنسان حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ

---

(1) آل عمران ، 169 ـ 171 .

(2) البقرة ، 168 .

﴿تَعۡقِلُونَ﴾ [1] فهٰذه المنهيات التي أمر ٱلله تعالىٰ باجتنابها والابتعاد عنها إنما هي من المحرمات التي ينبغي أن لا تقربوها وتبتعدوا عنها لأن الضرر يكمن فيها ، والنفع يأتي من اجتنابها وتركها ، فلا تجعلوا لله شريكاً ، بأيِّ نوع كان من أنواع الشرك وهٰذا أعظم الضرر وأبعد ما يكون عن النفع ، ولا تسيئوا إلىٰ الوالدين ، بل أحسنوا إليهما إحساناً بالغاً حتىٰ تبلغوا مرضاة ٱلله التي تنالون بها أعظم المنافع ، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم ، أو تخشون نزوله في المستقبل ، فلستم أنتم الرازقين لأن الرزاق هو ٱلله النافع الذي ينفعهم برزقه ، بل هو الذي يرزقكم ويرزقهم ، ولا تقربوا الفواحش من الزنا والربا والخمر التي تؤدي إلىٰ انتشار الرذيلة التي تجلب الأضرار ، وتدحر الفضيلة التي تحمل لكم جميع المنافع فهٰذه الأمور متناهية في القبح والسوء ، سواء ما ظهر منها للناس حين إتيانها أو ما لم يطلع عليه إلا ٱلله ، ولا تقتلوا النفس التي حرم ٱلله قتلها لعدم موجبه ، إلا إذا كان القتل بحق تنفيذاً لحكم قضاء يجلب المنفعة ، فبديهة العقل وفطرة الإنسان التي جبلت علىٰ الخير تقتضي اجتناب ما ذُكر جلباً للمنافع . وبالنتيجة فإن أمور العباد وتصرفاتهم رجعها ومآلها إلىٰ مولاهم ونفعهم وضرهم إلىٰ ٱلله النافع ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، حيث لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء من محاسن الدنيا وملكها إلا إذا أراد ٱلله أن ينفعه بأن ينال العفو والمغفرة وتشمله رحمة ٱلله تعالىٰ ليكون من الذين انتفع في الآخرة بأسباب ما قدم في حياته الدنيا علىٰ الرغم من قلته نسبة إلىٰ الخيرات والنعم والمنافع التي سخرها له النافع عز وجل ، فٱلله سبحانه نافعٌ ؛ لأنه هو خالق المنافع وهو مصدرها ، أي : لو لم يكن النافع ما كانت المنافع ، وجميع خلقه تحت رعايته وفي عنايته ، وجميع خلقه محتاجون إلىٰ نفعه ، وهو غني عن المنافع ومغنٍ بها لما خلق ، وإن عمَّ جميع

---

(1) الأنعام ، 151 .

الأحياء إلا أنه خص الإنسان دون غيره ؛ لأنه نفعه وميزه عن بقية المخلوقات بنعمة (أحسن تقويم) وبذلك استخلفه في الأرض وهيأ له أسباب الخلافة وإمكاناتها بما يعود عليه بكسب النفع الذي يؤدي إلىٰ حسن الخاتمة .

وعليه فالنافع هو الذي بيده الأمر والنهي ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، وهو مالك الملك ، ولذا فهو ينفع بما يملك من أمر وقوة وقدرة وعلم وحكمة ، إنه عالم الغيب والشهادة وهو الرحمـٰن الرحيم .

النافع ، هو من يملك المطلق الذي به يتم النفع ، ولذا فهو النافع في الظاهر والباطن ، وهو الذي بيده المشيئة ، الحياة ومعاشها بضيائها ونورها ، والممات وراحته وسكونه ، والبعث وسرمديته ونعيمه . ولهـٰذا النافع هو من لا حاجة تلاحقه وهو بمشبعاته يمد حاجات المخلوقين رزقاً .

اللهُمَّ يا النافع انفعنا في الدارين نعمة ويقيناً ، ومغفرة وجنة نعيم ، وأرضَ عنا أجمعين ، اللهُمَّ إنك في السماء أنت ربٌّ نافع ، وفي الأرض أنت ربٌّ نافعٌ ، وفي أنفسنا ربٌّ نافعٌ ، وفي الظاهر أنت ربٌّ نافعٌ وفي الباطن أنت ربٌّ نافعٌ ، أنت في سمعنا الحق ، وفي بصرنا الحق ، وأنت في حواسنا التامة حركة وسكون الفعل الحق ، لا تشرق الشمس ضياء إلا بك ، ولا تظهر القمر نوراً إلا بك ، وأنت النافع لا يهدأ الليل ويسكن إلا بك ، فأنت جل جلالك مَالِكُ الْمُلْكِ وأنت النافع تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، وأنت النافع بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فأنت النافع الذي تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وأنت النافع تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، سبحانك جل جلالك أنت في الدارين أنت النافع لا ملجأ منك إلا إليك ، سبحانك أستغفرك وأتوب إليك .

النُّورُ جَلَّ جَلَالُهُ

النور اسم ضياء وجمال تستبشر به الخلائق وترضىٰ ، تشد إليه ولا تطمئن إلا به سبحانه ينير الأنفس كما ينير الدروب ، من نوره تشرق الشمس وتتلألأ السماء بنوره وتضيء القمر ، وبالنور يهتدي العباد إلىٰ التي هي أحسن ، والنور حُسن يستمد من الكلمة التي تنير القلوب ومن الآيات العظام للنور المطلق جل جلاله ، والنور المطلق لا يُرىٰ في ذاته ولـٰكن يستمد من آياته ، فالنور ليس كمثله شيء ، ولهـٰذا فٱلله الذي ليس كمثله شيء هو نور السمـٰوات والأرض ﴿ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1] .

وعليه « النُّور يُظْهِر مَا يُنْسَب إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْتَلِف بِحَسَبِهِ ، فَنُور السَّمْع مُظْهِر لِلْمَسْمُوعَاتِ ، وَنُور الْبَصَر كَاشِف لِلْمُبْصِرَاتِ ، وَنُور الْقَلْب كَاشِف عَنِ الْمَعْلُومَات ، وَنُور الْجَوَارِح مَا يَبْدُو عَلَيْهَا مِنْ أَعْمَال الطَّاعَات » [2] .

من فضائل ونعمة ٱلله علىٰ عباده نعمة الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة للتحلي بهـٰذه النعمة إلا بانشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا نقمة أعظم من الكفر والجهل والمعصية ، لذا يتأتىٰ عمىٰ القلب بظلمة الجهالة ، فالعقلاء وأرباب البصائر قلوبهم ، ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ

(1) النور ، 35 .

(2) عون المعبود ، ج 3 ، ص 292 .

نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ ﴾ (1) . ولأن ٱلله هو النور جل جلاله وهو الذي جعل في الأرض خليفة فهو الذي بث نوره في المستخلفين فيها ليصلوا ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدماء بغير حق .

وهـٰؤلاء هم خلفاء النور بالنسبية لا علىٰ الإطلاق ، فالعلم نوّر بصائرهم التي بها عرفوا الحق بالحق فأشرق نور ٱلله بعلمه فيهم ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (2) .

وفي مقابل الذين أطمأنت قلوبهم بذكر ٱلله ، الكافرون الجاهلون الذين اسودت قلوبهم بما يكفرون ويجهلون ، ﴿ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (3) . فأصحاب العقول الواعية والقلوب البصيرة هم الذين أراد ٱلله أن يهديهم فشرح صدورهم لنور الإسلام ، والكافرون الجاهلون بحقيقة الإيمان هم الذين أراد ٱلله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، فالجاهل مظلم القلب هو الذي لم تنفتح بصيرته وبقي في العمىٰ فاتخذ الهوىٰ قائداً والشيطان دليلاً ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ (4) ، وعليه فالجهل أصل الظلمة والكفر والبعد عن مصدر النور .

وحتىٰ نتدرَّج في الرقي لنقتبس من النور المحض علينا أن ننظر في اللغة لنرىٰ ما النور ؟

---

(1) النور ، 35 .

(2) الرعد ، 28 .

(3) النور ، 40 .

(4) الإسراء ، 72 .

إن (ٱلله نور ، وله نور) نور ذاتي مهلك لا سبيل للوصول إليه ، ونور مخلوق كنور الشمس والقمر وكالذي سيتحلىٰ به علىٰ عباده ليريهم من جماله يوم القيامة وفي الجنة ، وهـٰذا النور من وراء حجاب الصورة .

النور : هو الحق ، الذي يتجلىٰ في سماه ، وهو الذي يُدرك بذاته وهو ينير البصر والبصيرة ، يُهتَدىٰ به ويُهتدىٰ إليه ، به يرشد الضال سبيله إذا اهتدىٰ ، وبدونه يَضلُّ ضلالاً ، ولذا فبه تزاح الظلمة والغمة وتُنار الدروب .

وعليه ٱلله جل جلاله هو النور ، وهو القوة الخارقة لكل قوة ، وهو القدرة النافذة لأي ظلمة ، وبه يتم التبيُّن دون زيف . ولأن النور هو ٱلله ، فالنور هو القوة والقدرة التي تنير الإبصار والبصائر ، كما تنير الدروب والسُّبل ، ولأن النور هو ٱلله فهو لا يُرىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] . موسىٰ عليه الصلاة والسلام يرىٰ الجبل كما نحن نراه ، أي بأمهات عينيه يرىٰ الجبل جبلاً ، ولـٰكن هل العينان لوحدهما كافيتان لرؤية الجبل ؟ بالطبع لا . أي لو لم يكن النور الذي هو من نور ٱلله مبثوثاً ومنتشراً بين السمـٰوات والأرض ، ما كان للعينين من نور ، وإذا فقدت العينان نور ٱلله فيهما فقدت الرؤية حتىٰ وإن كانت العينان سليمتين . ولننظر ، إذا أغلقت عليك غرفة بالتمام ومعك في الغرفة فأر أو جمل هل لك أن ترىٰ الفأر أو الجمل إذا لم ينفذ فيها نور ؟ بالتأكيد لا . ولهـٰذا علينا بإدراك ٱلله بنوره الذي به رأينا الجبل ، ونحن علىٰ سبيل المثال : إذا نظرنا إلىٰ الشمس لزمن قصير قد نفقد بصرنا ولهـٰذا ينهانا الطبيب عن النظر إلىٰ مصادر النور ، فهي قوة خارقة للبصر ، ولذا فما بالكم بالنور المطلق . أي إذا

---

(1) الأعراف ، 143 .

كانت مصادر النور المخلوقة قوة لا يطاق النظر إليها فما بالكم بقوة خالقها ؟ ولهـٰذا عندما تمركزت قوة نور ٱلله علىٰ الجبل جعلته دكاً ، وهـٰكذا لو تمركزت قوة نور ٱلله علىٰ الأرض والسمـٰوات لجعلتها كما جعلت الجبل .

وعليه فمن يدرك نور ٱلله لا يشك في وجوده ، ومن له في نفسه بعد ذلك ظن فإن بعض الظن إثم ، ولذا فمن أدرك نور ٱلله أدركه يقيناً ، ولهـٰذا قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

إن ٱلله نور في ذاته ، ونور في خلقه ، ونور في علمه ، ونور في بصره وسمعه ، ونور في الحركة والسكون . ولذا في الشروق ضياء وفي الغروب نور ، ضياء الشمس في النهار ، وضوءها في كبد السماء ليلاً نجوماً تتلألأ وقمراً منيراً ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ (1) .

وهـٰكذا (الأنبياء نور ، ولهم نور) ، فهم نور المنير جل جلاله في أرضه ، وكتبه معهم نور تنير الأرض التي استخلفهم فيها مبشرين ومنذرين ومحرضين علىٰ الحق وإحقاقه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (2) .

و(للمؤمنين نور) يسعون به في الدنيا والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

(1) يونس ، 5 ـ 6 .
(2) الأحزاب ، 45 ـ 46 .

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (2) .

النور في اللغة : في أَسماء ٱلله تعالىٰ النُّورُ « هو الذي يُبْصِرُ بنوره ذو العَمَاية ويَرْشُدُ بهداه ذو الغَوايَةِ » (3) .

وهـٰذا المعنىٰ فيه الهداية التي تستمد من نوره بمعنىٰ إرشاده للطريق الصحيح للوصول إلىٰ الحقيقة ولا بأس من هـٰذا المعنىٰ ، فاللغة قد أحالتنا إلىٰ معنىً مستفاد من النور لا إلىٰ معنىٰ النور في حد ذاته ، مع التأكيد في الوقت نفسه أن الأثر المعنوي للنور وهو الهداية لاشك مطلب من أعز المطالب التي يرجوها الخليفة الذي يسعىٰ ليصلح في الأرض ولا إصلاح إلا بنور الهداية قال ٱلله تعالىٰ :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (4) .

نعم ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فهو سبحانه محبهم ومعينهم ومتولي أمورهم

---

(1) الحديد ، 12 ـ 13 .

(2) التحريم ، 8 .

(3) لسان العرب ، ج 5 ، ص 240 .

(4) البقرة ، 257 .

لا يكلهم إلىٰ غيره ، فالولي يكون بالمحبة والنصرة فيقال للمحب ولي ؛ لأنه يتقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة ولا يفارقه ، والولي الناصح المحب يكون بحسن ونفع التدبير ، وبصحة الأمر ، وبنفع النهي ، لذلك ٱلله ولي الذين أراد أن يهديهم للإيمان ويخرجهم بالهداية من الظلمات ، وهي ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه والشك في قدرة ٱلله ﴿إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ نور الإيمان ، فيخرج ٱلله سبحانه وتعالىٰ بهدايته وتوفيقه كل مؤمن من الظلمة التي وقع فيها إلىٰ ما يقابلها من النور ، والظلمات جمع تدل علىٰ أنواع الضلالة المتعددة من أنواع الكفر علىٰ جميع ملله ، والنور مفرد فيدل علىٰ أن الإسلام دين واحد وسمىٰ الكفر ظلمة لالتباس طريقه وسمىٰ الإسلام نوراً لوضوح طريقه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ الذين ثبت في علمه الأزلي كفرهم هـٰؤلاء ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ ﴾ الشيطان وأعوانه من المضلين عن طريق الحق من الكهنة و السحرة وقادة الشر والمفسدين في الأرض ومن يقفون عائقاً أمام تحقيق الخلافة المثلىٰ في الأرض الذين يعتقدون في الأصنام التي هي جماد لا ينفع ولا يضر ، فالولاية هنا ولاية اعتقاد لأن المفسدين الضالين المضلين أهل الظلمات يعتقدون ويتوجهون إليهم من دون ٱلله فهم بذلك تنحوا عن طريق النور إلىٰ طريق الظلمات . والطاغوت وأعوان الظلام يخرجونهم من نور الإيمان الفطري الذي خلقهم ٱلله عليه إلىٰ ظلمات الكفر والفساد والانهماك في الشهوات ، والخروج من نور اليقين إلىٰ ظلمات الشك والشبهات ، وإسناد القدرة المطلقة إلىٰ الطاغوت مع أن ٱلله مخرج العباد إلىٰ الوجود ومرشدهم لطريق النور .

فٱلله (النور) وبنور هدايته يخرج المؤمنون من ظلمة المعصية إلىٰ نور الطاعة والهداية ؛ لأنه يصلي علىٰ الذين آمنوا به وصلاته رحمة لأن صلاته لنا لا تعني أن فيها ركوعاً أو سجوداً أو قياماً حاشا لله ولـٰكنها كما قلنا إرادة رحمة ، واستجابة للملائكة الذين يستغفرون للمؤمنين ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي

يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (1) فألله هو الذي يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضاً للمؤمنين علىٰ الذكر والتسبيح ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ يعني يهديكم برحمته ، والصلاة من ٱلله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، واللفظ المشترك يجوز استعماله في معنيين معاً وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هـٰذا القول إلىٰ الشافعي رضي ٱلله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب فالرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ .

والسؤال هل الملائكة وهي الكائنات النورانية تستغفر للمؤمنين ؟

نعم الملائكة تستغفر للمؤمنين وليس الأمر كذلك فقط بل أكثر فإن كائنات البحر تستغفر لطالب العلم ، ولأن العلم نور فهو يهدي إلىٰ الحق بالاتباع ، فنبي النور ﷺ يقول : « وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السمـٰوات وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ » (2) .

ولأن نور العلم يفوق أي نور فإن النبي ﷺ جعل فضل العالم الذي يعبد ٱلله علىٰ علم أعلىٰ من العابد الذي انقطع للعبادة وفاته الأخذ بالعلم ، والعلماء الذين استناروا بنور العلم قد فازوا بميراثهم للأنبياء لأن الأنبياء هم مصابيح الهدىٰ والعلم ، والميراث المادي يفنىٰ ونور العلم باق ما دامت السمـٰوات والأرض ، فالعلم نافع في الدنيا لصاحبه ولمن يحيط به ونافع في الآخرة ببقاء أثره الحسن ؛ لأنه يرجح ميزان العبد لما ناله من ثواب متصل

---

(1) الأحزاب ، 41 ـ 43 .

(2) سنن أبي داود ، ج 10 ، ص 49 .

لقوله ﷺ : « إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ إلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » (1) .

والثلاثة ـ أرىٰ ـ أنها تجتمع في العلم فإن العلم لا يوفيه أجر فهو في عمومه صدقة ، يأخذ العالم ثوابه بفضل ما نقله أبناؤه في العلم ، ومن المؤكد أن خير ولد هو ولد العلم الذي يحفظ علم أبيه وينميه ، لذا فالعلم نور متصل لا ينقطع بحيلة صاحبه .

وٱلله (النور) فهو الظاهر الذي به كل ظهور والظاهر في نفسه المُظْهِر لغيره يسمىٰ نوراً (2) .

فلو لم يكن هو الظاهر كل الظهور ما ظهر من خلقه شيء ، وظهور الأشياء به ؛ لأنه أوجدها من لاشيء ، فبه ظهرت وجوداً وبه ظهرت بصراً وبه ظهرت بصيرة لأولي البصائر لذا بيَّن سبحانه وتعالىٰ أن العبرة لا يعتبر بها إلا ألو الأبصار والعظة لا يتعظ بها إلا ألو الأبصار : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (3) .

وأولو الأبصار هم الناظرون في بهاء صنع ٱلله عز وجل السائرون في طريق طاعته وهـٰذه الطاعة عبرة لأولىٰ الأبصار .

لذلك نور البصر لا يساوي قيمة بما يعوَّل عليه من نور البصيرة التي تبصر الحق ، أما من عميت بصيرته فهو أعمىٰ البصر لأن النور المظهر للتبصر انقطع من بين البصيرة والبصر فانعدم عنده البصر الثاقب الذي يغوص في عمق المبصر فيدرك منه ما لا يدركه غيره من ذوي الأبصار الكليلة العاجزة التي لم تدرك

---

(1) صحيح مسلم ، ج 8 ، ص 405 .
(2) لسان العرب ، ج 5 ، ص240 .
(3) آل عمران ، 13 .

موقعها الحقيقي في الحياة فلم تبصر لا بالبصر ولا بالبصيرة .

إن الدور الأول للإنسان في الكون هو خلافة ٱلله في أرضه ، فأما إذا غفل ذو البصر عن إبصار دوره فقد أخطأ في حق ذاته وأهمل في واجبه بل تنازل عن حقه في الخلافة لانعدام النور المتصل من البصيرة إلىٰ البصر فلم تظهر له حقيقة وجوده ولا حقيقة ما حوله ، وصدق ٱلله في قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [1] .

وفي تفسير الألوسي : « وهـٰذا حث علىٰ النظر والاعتبار فلا يعتد بعمىٰ الأبصار وإنما يعتد بعمىٰ القلوب فكأن عمىٰ الأبصار ليس بعمىً بالإضافة إلىٰ عمىٰ القلوب ، فالكلام تذييل لتهويل ما بهم من عدم فقه القلب وأنه العمىٰ الذي لا عمىً بعده بل لا عمىً إلا هو أو المعنىٰ أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمىً بها وإنما العمىٰ بقلوبهم فكأنه قيل : أفلم يسيروا فتكون لهم قلوب ذات بصائر فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم وهي الآفة التي كل آفة دونها كأنه يحثهم علىٰ إزالة المرض وينعي عليهم تقاعدهم عنها » [2] .

وٱلله (النور) الظاهر المظهر بنوره لغيره هو الرب الذي يدبر الكون وهو الخالق لكل شيء المستحق للعبادة وهو المتصرف في كل شيء ؛ لأنه الذي أظهر الموجودات بنوره ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [3] وهو سبحانه وتعالىٰ لشدة ظهوره لا يدرك

(1) الحج ، 46 .

(2) تفسير الآلوسي ، ج 13 ، ص 83 . بتصرف .

(3) الأنعام ، 102 ـ 104 .

لا بالأبصار ولا بالبصائر وإنما يدرك في خلقه الظاهر من خلال الاعتبار والعظة فهو ، ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ والأبصار جمع البصر الذي هو حاسةُ النظرِ وتطلق علىٰ العين من حيث أنها محلُّها ، وإدراكُ الشيءِ عبارةٌ عن الوصول إليه والإحاطةِ به فلا تصِل إليه الأبصارُ ولا تُحيط به ، وقد كلّتْ أبصارُ المخلوقين عن الإحاطة به . وعن ابن عباس ومقاتل رضي ٱلله عنهم : لا تدركه الأبصارُ في الدنيا وهو يُرىٰ في الآخرة ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ ﴾ أي يحيطُ بها علمُه إذ لا تخفىٰ عليه خافيةٌ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصارُ ، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكمين السابقين أي لا تدركه الأبصارُ ؛ لأنه اللطيفُ وهو يدرك الأبصارَ ؛ لأنه الخبيرُ فيكون اللطيفُ مستفاداً من مقابل الكثيفِ لما لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها .

وقوله تعالىٰ : ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ ﴾ استئنافٌ وارد علىٰ لسان النبي عليه الصلاة والسلام ، والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ وهي النورُ الذي به تستبصِرُ النفسُ كما أن البصرَ نورٌ به تبصِرُ العين ، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلىٰ ضمير المخاطبين لإظهار كمالِ اللطفِ بهم أي قد جاءكم من جهة مالككم ومبلِّغِكم إلىٰ كمالكم اللائقِ بكم من الوحي الناطقِ بالحق والصوابِ ما هو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائرُ كائنةٌ من ربكم ﴿ فَمَنۡ أَبۡصَرَ ﴾ أي الحقَّ بتلك البصائرِ وآمن به ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ ﴾ أي فلنفسه أبصر ، أو فإبصارُه لنفسه لأن نفعَه مخصوصٌ بها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (1) ، ﴿ وَمَنۡ عَمِيَ ﴾ أي ومن لم يبصر الحقَّ بعد ما ظهر له بتلك البصائرِ ظهوراً بيِّناً وضلَّ عنه ، فعبّر عنه بالعمىٰ تقبيحاً له وتنفيراً عنه ﴿فَعَلَيۡهَاۚ ﴾ أي فعليها عمِي أو فعَماهُ عليها أو وبالُ عملِه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ ﴾ فالحفيظ ٱلله جل جلاله .

---

(1) الذاريات ، 21 .

وقيل أيضاً في تفسير البصر والبصيرة والإدراك : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ الأبصار جمع بصر يطلق علىٰ الجارحة الناظرة ، وعلىٰ القوة التي فيها وعلىٰ البصيرة وهي قوة القلب المدركة ، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إلىٰ غايته والإحاطة به ، (وبهٰذا نقول لا إدراك لنور ٱلله) أي لا بلوغ لنوره ، من حيث الرؤية ، بل من حيث الهداية ممكن ، ولهٰذا فبنور ٱلله تدرك الأشياء والحقائق التي هي عليها ، وبه تتم رؤية الأشياء المخلوقة بنوره وفقاً لدائرة الممكن . وأكثر المتكلمين علىٰ حمل البصر هنا علىٰ الجارحة من حيث إنها محل القوة . وتقرير ذلك علىٰ أن الإدراك المضاف إلىٰ الأبصار إنما هو الرؤية ولا فرق بين أدركته ببصري ورأيته إلا في اللفظ أو هما متلازمان لا يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر فلا يجوز رأيته وما أدركته ببصري ولا عكسه ، فالآية نفت أن تراه الأبصار ، وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة في جميع الأوقات لأن قولك : فلان تدركه الأبصار لا يفيد عموم الأوقات فلا بد أن يفيده ما يقابله فلا يراه شيء من الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة لما ذكر ولأنه تعالىٰ تمدح بكونه لا يرىٰ حيث ذكره في أثناء المدائح وما كان من الصفات عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً يجب تنزيه ٱلله تعالىٰ عنه فظهر أنه يمتنع رؤيته سبحانه .

وعليه فالمراد بالإدراك الرؤية المطلقة لا الرؤية علىٰ وجه الإحاطة ، وأن ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ سالبة كلية دائمة وهٰذا أقوىٰ الأدلة النقلية في هٰذا المطلب كما ذكره (الكوراني) والجواب عنه : « إن الإدراك ليس هو الرؤية المطلقة وإن اختاره علىٰ ما نقله الآمدي أبو الحسن الأشعري وإنما هو الرؤية علىٰ نعت الإحاطة بجوانب المرئي كما فسره ابن عباس رضي ٱلله تعالىٰ عنهما ، وعن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ لا يحيط بصر أحد بٱلله تعالىٰ . وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة وغيرهم . والرؤية المكيفة بكيفية الإحاطة أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة ولا يلزم من نفي

الأخص نفي الأعم ، فظهر صحة أن يقال : رأيته وما أدركه بصري أي ما أحاط به من جوانبه وإن لم يصح عكسه [1] .

وبما أن ٱلله نور ومصير المؤمن إلىٰ النور ، فهنا يبرز التساؤل هل يرىٰ نور ٱلله رؤية إدراكية ؟ أم رؤية غير إدراكية ؟

هناك مجموعة من النصوص التي تثبت الرؤية أو تنفيها ، كما أنه من الواجب علينا تتبعها لإيضاح الأمر وبيان تعلق ذلك بالنور ، ومن هـٰذه النصوص :

عدم إثبات الرؤية :

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ قَامَ فِينَا رسول ٱلله ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ : « إِنَّ ٱللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » [2] .

وعَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ » [3] ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عُبَيْدَةَ قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [4] .

عَنِ السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا قَالَتْ : « مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَىٰ رَبَّهُ

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 5 ، ص 463 .

(2) سنن ابن ماجه ، ج 1 ، ص 227 .

(3) مسند عبد بن حميد ، ج 2 ، ص 156 .

(4) النمل ، 7 ـ 8 .

فَقَدْ أَعْظَمَ وَلَـٰكِنْ قَدْ رَأَىٰ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ » (1) .

ولانعدام رؤية ٱلله إلا آيات عظام ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (2) .

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ : « يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ ٱللهِ الْفِرْيَةَ قُلْتُ : مَا هُنَّ قَالَتْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ ٱللهِ الْفِرْيَةَ قَالَ : وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلا تَعْجَلِينِي أَلَمْ يَقُلِ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ ، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ ، فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رسول ٱلله ﷺ فَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَىٰ صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ فَقَالَتْ : أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ ٱللهَ يَقُولُ : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ وقالت : أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ ٱللهَ يَقُولُ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ . ثم قالت : وَمَنْ زَعَمَ : أَنَّ رسول ٱلله ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ ٱللهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ ٱللهِ الْفِرْيَةَ وَٱللهُ يَقُولُ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ ، ثم قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ ٱللهِ الْفِرْيَةَ وَٱللهُ يَقُولُ : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ ، وقَالَتْ : وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَـٰذِهِ الآيَةَ ، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ

(1) صحيح البخاري ، ج 11 ، ص 11 .

(2) الشورىٰ ، 51 .

مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [1] .

أحاديث إثبات الرؤية :

عَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ : « قُلْتُ لأبِي ذَرٍّ : لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ ٱلله ﷺ لَسَأَلْتُهُ . قَالَ : وَمَا كُنْتَ تَسْأَلُهُ قَالَ : كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَىٰ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَأَلْتُهُ فَقَالَ : قَدْ رَأَيْتُهُ نُورًا أَنَّىٰ أَرَاهُ . قَالَ عَفَّانُ : وَبَلَغَنِي عَنِ ابْنِ هِشَامٍ يَعْنِي مُعَاذاً : أَنَّهُ رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ كَمَا قَالَ هَمَّامٌ : (قَدْ رَأَيْتُهُ) » [2] .

ومن الآيات التي تشير إلىٰ الرؤية قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [3] ، في هـٰذه الآية الكريمة علينا أن نفرق بين الناضرة ، والناظرة ، فالأولىٰ : نضر الحسن والجمال والكمال ، وهـٰذه نضرة ذوق ، والنضرة الذوقية توقُّف عند الآيات العظام التي فيها يظهر الحُسن والجمال والكمال الإلـٰهي جل جلاله . والثانية : نظر بصري ، وهـٰذا الأمر لن يتحقق في الدنيا ، ولـٰكن يومئذٍ (يوم القيامة) وفي هـٰذه الحالة يكون النظر في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) .

فجمهور أهل السنة يتمسكون بهـٰذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون ٱلله تعالىٰ يوم القيامة . أما المعتزلة فلهم هـٰهنا مقامان أحدهما : بيان أن ظاهره لا يدل علىٰ رؤية ٱلله تعالىٰ ، والثاني : بيان التأويل .

ومن المفسرين من يجعل الرؤية في الوجه لا للعين ، وأن هـٰذه الرؤية مخلوقة عندما يمن ٱلله علىٰ العباد بالرؤية .

فقوله جلّ ذكره : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ النَّاضِرَةُ ،

---

(1) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 413 .
(2) مسند أحمد ، ج 43 ، ص 317 .
(3) القيامة ، 22 ـ 23 .

المشرقة الحسنة ، وهي مشرقة ؛ لأنها إلىٰ ربها ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ رائية لله ، والنظر المقرون بـ : ﴿ إِلَىٰ ﴾ مضافاً إلىٰ الوجه لا يكون إلاَّ الرؤية ، فٱلله تعالىٰ يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة علىٰ قَلْبِ العادة ، فالوجوه ناظرة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، ويقال : العين من جملة الوجه ، فاسم الوجه يتناوله [1] .

ويقال : الوجهُ لا ينظر ولكنَّ العينَ في الوجهِ هي التي تنظر ؛ كما أنَّ النهرَ لا يجري ولكنَّ الماءَ في النهر هو الذي يجري ، قال تعالىٰ : ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [2] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ ، وجوه كثيرة ، وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم تقوم القيامة ، بهية متهللة مستبشرة ، يشاهَدُ عليها نَضْرة النعيم والسرور ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ مستغرِقة في مشاهدة جماله متأملة مع تدبر استقرائي ، فلا تلتفت إلىٰ ما سواه .

النور ظاهر وباطن ، ظاهر في الحق ، وكامن في الحقيقة ، فأما الحق فهو بيِّن لا حجاب عليه ، كالشمس ظاهرة لا تغطىٰ بفتحات الغربال ، والحقيقة كامنة كالزيت في حبة الزيتون وكالشجرة في النواة ، ولذا فالحقيقة تحتاج لمن يبحث ويكتشف فهي حقيقة لمن يريد المعرفة ، والحق هو الذي به يتم البحث الموضوعي ، حيث لا انحياز إلا للحق ، ولا اعتراف إلا به .

النور الحق مهيمن علىٰ الظاهر والباطن ، ولذا فهو الحق في الظاهر والحق في الباطن ، ومن مظاهر الحق ومكامنه الآتي :

1 ـ **ظاهر في النهار** : حيث التجلي والوضوح الذي به يتم الاسترشاد إلىٰ السبيل الحق ، فهو الظاهر ضياءً في الشروق والغروب وما بينهما من

(1) تفسير القشيري ، ج 8 ، ص 4 .
(2) البقرة ، 25 .

مواقيت ممتدة من ضحىً وظهيرة وعصرية . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ (1).

2 ـ **ظاهر في الليل** : في مصابيح الكواكب والنجوم والقمر التي تنير الليل وتزين سماءه في تحديد الحركة والاتجاهات وفي ذلك أسرار ظاهرة وعلامات دالة علىٰ معرفة النور (الحقيقة) قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (2).

3 ـ **ظاهر في القول الحق** : الذي به يُدمغ الباطل فيزهق ، قال تعالىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (4).

4 ـ **ظاهر في العمل الصالح** : الصلاح أساس الاستخلاف في الأرض ، والفساد خروج عن الطاعة ، ولهـٰذا الإصلاح نور ، والفساد ضلال وظلمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ

---

(1) يونس ، 5 ـ 6 .

(2) الملك ، 1 ـ 5 .

(3) البقرة ، 146 ـ 147 .

(4) الأنبياء ، 18 .

قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] .

5 ـ **ظاهر في الطاعة** : الطاعة هداية بعد تبيُّن ، ولا تبيُّن ولا هداية إلا بنور ، ولذا فالنور هو الحق الذي به يتم التبيُّن والتعرف على الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ

---

(1) البقرة ، 30 ـ 37 .

(2) النساء ، 94 .

أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (1) .

6 ـ **ظاهر في الروح** : الروح نور من ٱلله مبثوث في الجسد ليمده بالحياة والحركة ، فبدونها تكون العودة للأصل وهو الطين اللازب حيث كان الخلق الأولي لأبينا آدم عليه الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (2) ، ولأن أمر الروح أمر عجيب ، فأسرارها لا يعلمها إلا هو ، كيف هي ؟ وكيف تكون ؟ هٰذا من علم الغيب ، أما أين تكون ؟ فهٰذا الأمر معروف ، وذلك كونها مَبعَثَ الحياة في المخلوقات ، أما أمرها فمن علم ربي جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (3) ، ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ (4) . كلمة يلقي الروح ، تعني إلقاء نورانياً ، أي يلقي النور علىٰ من يشاء من عباده وحياً أو كتاباً منزلاً ، لتبث الحياة الفاعلة بالقوة والقدرة والمعجزات الكريمة .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا

(1) الحجرات ، 7 ـ 11 .

(2) آل عمران ، 59 ـ 60 .

(3) الإسراء ، 85 .

(4) غافر ، 15 .

كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ (1) . ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ تعود على القرآن الذي نزل به جبريل من عند ٱلله تعالىٰ علىٰ سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، ولهٰذا قلنا إن الروح هو النور الذي به تُبعث الحياة ويستقيم المرء .

7 ـ **ظاهر في النفس** : النفس متنوعة الطباع فمنها ما يملؤه النور فتكون المطمئنة ، ومنها ما يسودها الظن فتكون من الآثمين ، ومنها ما يسودها السوء فتكون الأمَّارة به ، ولهٰذا النفس المطمئنة تعود إلىٰ ربها بنور الهداية الذي استمدته منه جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (2) . أما النفس التي تضل تفقد نور ربها فيها مما يجعلها تأمر بالسوء إن لم يرحمها ٱلله بنور من نوره جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) .

8 ـ **ظاهر في البدن** : نور ٱلله لا تخفيه خافية ، وعلامات السرور والفرحة والابتهاج في مرضاة ٱلله نور يُبث علىٰ الوجوه ، ويجعل الحركة والفعل والعمل صالح علىٰ الهداية والصراط المستقيم ، قال تعالىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي

(1) الشعراء ، 192ـ206 .

(2) الفجر ، 27ـ30 .

(3) يوسف ، 53 .

ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ (1) .

9 ـ **ظاهر في الصدور (القلوب والبصيرة)** : النور هو محيي البصيرة ، وباعث اليقظة والفطنة فيها ، ولهٰذا تصحو القلوب من غفلتها بنور اليقين الذي نزل به الروح الأمين علىٰ سيدنا محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) ، وفي دعاء المؤمن تضرُّع لأن يشرح ٱلله قلبه بالإسلام كما جاء علىٰ لسان سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ (3) .

10 ـ **ظاهر في العقل** : النور كما سبق القول ، هو الحق ، الذي به تُنار الدروب والسبل ، وبه تتم الهداية حتىٰ بلوغ الحقيقة ، التي ببلوغها يستوجب التوحيد ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (4) . العقل هو مركز استقبال النور ، ومركز بثه للآخرين ، وبه

---

(1) الفتح ، 29 .
(2) الحج ، 46 .
(3) طه ، 25ـ28 .
(4) الأنعام ، 151 .

تميَّز الإنسان في خلقه في أحسن تقويم ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (1) .

11 ـ **ظاهر في البصر** : البصر حاسة للرصد المشاهد ، وهـٰذه لا تتم إلا بالعينين ، التي تعكس الأشعة النورانية مع الأضواء المتجمعة علىٰ قاعها ، لتكون الحركة المرشدة بنور من النور المطلق جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) . وعليه لا رؤية إلا بنور ضوئي أو نور يقيني ، وفي كلتا الحالتين لا نور إلا من النور المطلق عز وجل . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (3) . لو جعل ٱلله النهار سرمداً لا نور فيه ، هل لنا بأن نبصر ؟ بالطبع لا ، ولهـٰذا النور هو

---

(1) التين ، 4 .

(2) مريم ، 26 ـ 38 .

(3) القصص ، 72 .

الذي به تبصر العين ، فالحمد لله رب العالمين الذي جعل النور في قلوبنا وعيوننا حتىٰ اهتدينا إلىٰ السبيل الحق ، اللهُمَّ اجعلنا من الثابتين علىٰ الحق واجعل الحق لنا نصيراً ، ولا تجعلنا من الضالين والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حق ، اللهُمَّ نوّر عقولنا وقلوبنا وأبصارنا وأسماعنا بما ينيرها في الدارين ، ويجعلنا من الوارثين فيها ونحن بحمدك نسبح لا إلـٰه إلا أنت جل جلالك .

قال تعالىٰ : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [1] ، الذي به نبصر هو النور الحسي المستمد من النور المطلق ، وهو أمر عظيم ، ولهـٰذا كان القسم بعظمته جل جلاله ، حيث لولا النور ما كان لنا بصر به نهتدي إلىٰ السبيل دون ميل أو انحراف ، وهـٰذا لا يعني أن ٱلله جل جلاله ، لم يقسم بما عرفنا وبما لا نعرف ، فهو علام الغيوب ، ولذا جاء القسم مطلقاً بكل ما نعلم وكل ما نبصر ، وكذلك بما لم نعلم وما لم نبصر ، والآيتان بينهما تكامل ، ففي الآية الأولىٰ : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فبما تبصرون ، جاءت جامعة لا مانعة ، فهي تحتوي جميع ما به نبصر من النور إلىٰ العينين إلىٰ القلوب والعقول والبصائر وغيرها كثير حيث نعم ٱلله التي بها نبصر لا تحصىٰ ، فله الحمد .

أمَّا الآية الثانية : ﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فالذي لا نبصره هو العظيم الذي يفوق مقدرتنا علىٰ إبصاره وهو المطلق الذي لا تحده الحدود ولا يحصره حيز ، وهو ما لم نعلمه وٱلله به عليم سبحانه جل جلاله .

12 ـ **ظاهر في السمع** : نور ٱلله علىٰ عباده هداية ، والهداية قيمة مرضية لمن آمن ، وهي الشاهد علىٰ القول والفعل والعمل ، ولذا فالنور دائماً في الكلمة الحق والفعل الحق والعمل الحق ، أي هو في كل ما من شأنه أن

(1) الحاقة ، 38 ـ 39 .

يصلح ولا يُفسد ، ومن نعمه علىٰ الذين استخلفهم في الأرض بعد أن خلقهم في أحسن تقويم هي نعمة السمع والإنصات إلىٰ الحق ، حتىٰ الأخذ به ، فسبحانه جل جلاله قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [1] أمَّا الذين ضلوا فقولهم لا يحزن أصحاب الحق ومتبعيه ، بل سيكــون حــزنــاً علــىٰ أصحــابــه يــوم لا ينفعهــم مــال ولا بنــون ، قــال تعالىٰ : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [2] .

وعليه ، فالحق لا يقبل التغيير فهو ليس كمثله شيء فلو تغير في ذاته لم يصدق وهو صدق فاستحال أن يتغير في ذاته والحق يقول إن ٱلله قال علىٰ لسان عبده سمع ٱلله لمن حمده ، وقال كنت سمعه وبصره ، فالصور التي تقع عليها الأبصار والصور التي تدركها العقول والصور التي تمثلها القوة المتخيلة كلها حُجُب يرىٰ الحق من ورائها وينسب ما يكون من هـٰذه الصور من الأعمال

(1) الأنفال ، 20ـ25 .

(2) المائدة ، 41 .

إلىٰ ٱلله تعالىٰ كما قال : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [1] فلم يزل الحق غيباً فيما ظهر من الصور في الوجود وأعيان الممكنات في شيئية ثبوتها علىٰ تنوعات أحوالها مشهودة للحق غيباً أيضاً وأعيان هـٰذه الصور الظاهرة في الوجود الذي هو عين الحق أحكام أعيان الممكنات من حيث ما هي عليه في ثبوتها من الأحوال والتنوع والتغيير والتبديل تظهر في هـٰذه الصور المشهودة في عين الوجود الحق وما تغير الحق عما هو عليه في نفسه كما أن الهباء ما تغير عن كونه هباءً .

وفي نور ٱلله تعالىٰ والمثل الذي ضرب للنور ولا نقول لنور ٱلله لأن ٱلله ليس له مثل قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] .

والنُّور من صفات ٱلله قال ٱلله عز وجل ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ لا غيره ، فهو النور الذي ملأ الوجود خلقاً ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، ولأنه هو خالق السمـٰوات والأرض ، فلا نور فيهما إلا من خلقه ، أي من نوره جل جلاله ، لقد بعث نوره فيهما وفينا فأدركنا السمـٰوات العلا والأرض بنوره ، ولهـٰذا فإن ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ وقيل مَثل نوره كمشكاة فيها مصباح أَي مثل نور هداه في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح كما جاء وصفه في الآية الكريمة .

والنُّورُ الضياء والنور ضد الظلمة وفي المحكم النُّور الضَّوْءُ أَيًّا كان وقيل هو شعاعه وسطوعه . وقوله عز وجل ومن لم يجعل ٱلله له نُوراً فما له من

---

(1) الصافات ، 96 .

(2) النور ، 35 .

نُورٍ ، هـٰذه بالنسبة للمسلم والمؤمن مسلَّمة ، حيث لا شك في أن النور لا يستمد إلا من النور ، ولهـٰذا من لا يسترشد بالنور المطلق لن يجد ما يرشده سواه ، مما يجعله في الظلمة .

من معاني الاسم النور كما ورد في آية النور :

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ، قال الإمام الغزالي قَدُسَ سره في شرح الاسم النور هو الظاهر الذي به كل ظهور فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمىٰ نوراً ، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود ولا ظلام أظلم من العدم فالبارئ بظهور الوجود وإبداع الخلق من لا شيء وإظهاره للرؤية ، جاءت صفته الحسنىٰ (النور) ولهـٰذا فالوجود نور فائض علىٰ الأشياء كلها من نور ذاته فهو نور السمـٰوات والأرض ، فكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة علىٰ وجود الشمس النيرة فلا ذرة من وجود السمـٰوات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة علىٰ وجوب وجود موجدها .

و ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي مظهرهما من لا شيء الىٰ الشيء (الوجود) فإن معنىٰ النور في اللغة الضياء وهو الذي يبيِّن الأشياء ويظهرها للأبصار .

فقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ من باب التشبيه البليغ أي كالنور بالنسبة إليهما من حيث كونه مظهراً لهما أي موجداً ، فإن أصل الظهور هو الظهور من لا شيء الىٰ الوجود .

والنور علىٰ أربعة أوجه :

أولها : نور يظهر الأشياء للأبصار وهو لا يراها كنور الشمس وأمثالها فهو يظهر الأشياء المخفية في الظلمة ولا يراها .

وثانيها : نور البصر وهو يظهر الأشياء للأبصار ولـٰكنه يراها وهـٰذا النور أشرف من الأول .

وثالثها : نور العقل وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية في ظلمة الجهل للبصائر وهو يدركها ويراها .

ورابعها : نور الحق تعالىٰ وهو يظهر الأشياء من لا شيء للشيء أي للأبصار والبصائر من الملك والملكوت وهو يراها في الوجود كما هي في قدرته وقوته قبل الخلق ؛ لأنها كانت موجودة في علم ٱلله وإن كانت معدومة في ذواتها فما تغير علم ٱلله ورؤيته بإظهارها في الوجود بل كان التغير راجعاً الىٰ ذوات الأشياء وصفاتها عند الإيجاد والتكوين فتحقيق قوله تعالىٰ ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ مظهرهما ومبديهما وموجدهما من العدم بكمال القدرة الأزلية [(1)] .

ونور ٱلله الذاتي الذي لا يقف له مخلوق لو تجلىٰ ٱلله به عليه لدكه كما دك الجبل أمام أنظار موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ولأن ٱلله قال : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ فمن لطفه وخبرته بصنعته أي بعباده فهو يتجلىٰ عليهم بنور جماله وجلاله ، فيريهم من أنواره بالقدر الذي لا يهلكهم وذلك لأنه اللطيف الخبير ، وعليه ، فوجهة نظرنا أن ٱلله علىٰ كل شيء قدير ، ولذا فما نعلمه ونجتهد بشأنه لا عليم به بالمطلق إلا هو جل جلاله ، ولهـٰذا لا مستحيل بالنسبة للنور المطلق ، بل كل شيء ممكن ، فإذا أراد ٱلله شيئاً يقول له كن فيكون ، ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، وبالمنطق ملكات عقولنا وسعة مدركات بصائرنا ، في الحياة الدنيا هي أقل من أن توصف برؤية ٱلله جل جلاله ، وكيف نراه وبصائرنا لا تطيق رؤية جزءٍ من النور الذي لا يذكر في المقارنة مع نوره المطلق ؟

---

(1) تفسير حقي ، ج 9 ، ص 135 .

و﴿ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الحسي والمعنوي ، وذلك أنه تعالىٰ بذاته نور ، وحجابه نور ، وبه استنار العرش ، والكرسي ، والشمس ، والقمر ، والنور ، وبه استنارت الجنة . وكذلك النور المعنوي يرجع إلىٰ ٱلله ، فكتابه نور ، وشرعه نور ، والإيمان والمعرفة في قلوب خلفائه من الرسل والصالحين المصلحين نور . فلولا نوره تعالىٰ ، لتراكمت الظلمات ، ولهـٰذا : كل محل يفقد نوره فثم الظلمة ، ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي يهدي إليه ، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ، ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ أي : كوة ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ أي : مضيء إضاءة الدر . يُوقَدُ ذلك المصباح ، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون ، وهي من حيث الأصل لا تنتمي لغيره خلقاً ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ زيتونة مباركة متميزة بنوعها وخاصيتها ، ومن زيتها الشفاء ، تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فتحسن وتطيب ، ويكون أصفىٰ لزيتها ، ولهـٰذا قال : ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ فإذا مسته النار ، أضاء إضاءة بليغة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ نور الزيت الذي يكاد أن يضيء ، فالنور هنا في تكوين الزيت ، وليس في إيقاده ، ولهـٰذا جاء الوصف لنقاء الزيت وصفائه وكأنه مصباح في زجاجة والزجاجة في المشكاة ، منظر جميل لمن يعرف المشكاة والمصباح والزجاجة التي فيها المصباح ينير .

فهنا لا مثال لنور ٱلله لأن نور ٱلله الذاتي لا مثال له ، وعليه فلمن هـٰذا النور ؟

والخليفة هو النور بتخلقه ببهاء ٱلله الذي يبعث النور في قلوب العباد فيجعلهم مهتدين يصلحون ولا يفسدون . ووجه المثل الذي ضربه ٱلله بالزيتونة المتميزة ، وتطبيقه علىٰ حالة المؤمن ، ونور ٱلله في قلبه ، أن فطرته التي فطر

عليها ، بمنزلة الزيت الصافي ، ففطرته صافية ، مستعدة لتقبل التعاليم الإلـٰهية ، والعمل المشروع ، فإذا وصل إليه العلم والإيمان ، اشتعل ذلك النور في قلبه ، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح ، وهو صافي القلب من سوء القصد ، وسوء الفهم عن ٱلله ، إذا وصل إليه الإيمان ، أضاء إضاءة عظيمة ، لصفائه من كل شائبة ، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية ، فيجتمع له نور الفطرة ، ونور الإيمان ، ونور العلم ، وصفاء المعرفة ، فهو نور علىٰ نور في قوله للحق وعمله به .

ولما كان هـٰذا من نور ٱلله تعالىٰ ، ولا يصلح كل إنسان له لذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ممن يعلم صفاء سريرته وطهارته ، وأن النور معه يزيد وينمو ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ ليعقلوا عنه ويفهموا ، لطفاً منه بهم ، وإحساناً إليهم ، وليتضح الحق من الباطل ، فإن الأمثال تقرِّب المعاني المعقولة من المحسوسة ، فيعلمها العباد علماً واضحاً ، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء ، فلتعلموا أن ضربه الأمثال ، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها ، وأنها مصلحة للعباد ، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها ، لا بالاعتراض عليها ، ولا بمعارضتها ، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد يكون معنىٰ النور (الإيجاد والإظهار) أي الإخراج من حال لا شيء إلىٰ حال الشيء ، أو من الظلمة إلىٰ الضياء ، أو من الباطن إلىٰ الظاهر ، وهـٰذا ما يتفق مع ما قلناه سالفاً أن النور إظهار والظلمة إبطان .

ونور ٱلله هداه للمؤمن فهو نور الهدىٰ علىٰ نور الإيمان ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ إلىٰ دين الإسلام الذي به يُحق الحق ويُزهق الباطل ، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ تقريباً لإفهامهم حتىٰ يعتبروا فيؤمنوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ومنه ضرب الأمثال وعلم الإحاطة الكاملة .

وبما أن نور ٱلله الذاتي لا مجال لوصفه ، فلننتقل إلىٰ لمحة أخرىٰ من

لمحات النور فنرىٰ أن الناس جميعاً عليهم من النور ، فالكل متساوون إلا من رحم ربي وزاده من نوره أي فضله ورحمته إنه واسع المغفرة والرحمة .

قال النبي ﷺ : « إن ٱلله خلق خلقه في ظلمة وألقىٰ عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضل » [1] .

وليس النور الملقىٰ علىٰ الخلق من النور الذاتي لأن (من) تفيد التبعيض والتجزئة وٱلله لا تتجزأ صفاته ولا يبعض نوره ، لذا فهـٰذا النور الذي رش علىٰ الخلق هو نور مخلوق . كما في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [2] فأي نور ينيرها في ذلك الوقت ؟ بنور ربها الذي خلقه لينير الأرض والسمـٰوات العلا .

النور في الدنيا عدل وفي الآخرة عدل ، أي لم تعتدل الدنيا إلا به ، ولن تعتدل الآخرة إلا به ، ولأنه نور فهو المدخل للجنة ، والخليفة هو الذي في نظره نور وفي سمعه نور وفي نفسه نور وقلبه نور وفي قوله نور وفي فعله نور ، به يهتدي للحق في الحركة والسكون .

ولهـٰذا قد استعار ٱلله عزّ وجلّ النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ بما أظهر فيها من حق وعدل ، وبما بسطه من القسط في الحساب ووزن للحسنات والسيئات ، وإشراق الأرض بنور ربها الخالق البارئ جل جلاله ، فهي التي أشرقت بوجودها أي ظهورها من لا شيء إلىٰ الشيء الذي هي عليه . وأشرقت بضياء الشمس عليها وذلك بتجلي الظلمة عنها ، وأشرقت بنور القمر والنجوم في سمائها ليلاً ، وأشرقت بحمْل الأمانة فيها من قبل الخليفة الذي خلقه ٱلله في أحسن تقويم ، وأشرقت باصطفاء الأنبياء والمرسلين فيها مبشرين ومحرضين ومنذرين ،

---

(1) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة ، ج 3 ، ص 437 .

(2) إبراهيم ، 48.

وأشرقت بالإسلام ديناً خاتماً لكل الديانات السماوية التي أنزلت من عند ٱلله تعالىٰ ، وأشرقت باهتداء العباد بها وإليها وهم مؤمنون بخالقها وخالقهم منها لأجل إحقاق الحق فيها وإزهاق الباطل عنها .

﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾النور الضوء المنتشر المعين علىٰ الإبصار أي بما أقام فيها من العدل استعير له النور ؛ لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمي الظلم ظلمة وفي الحديث « الظلم ظلمات يوم القيامة » يعني شدائده يعني الظلم سبب لبقاء الظالم في الظلمة حقيقة فلا يهتدي الىٰ السبيل حين يسعىٰ نور المؤمنين بين أيديهم ولكون المراد بالنور العدل أضيف الاسم الجليل الىٰ ضمير الأرض فإن تلك الإضافة إنما تحسن إذا أريد به تزين الأرض بما ينشر فيها من الحكم والعدل أو المعنىٰ أشرقت بنور خَلقهُ ٱلله في الأرض وفي الآخرة مجالان واسعان :

المجال الأول : **الجنة** : مجال امتداد النور طولها وعرضها مع فائض في الخيرات الحسان والثواب الواسع ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [1] .

المجال الثاني : **النار** : مجال امتداد الظلمة طولها وعرضها مع وفرة العذاب الشديد ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦

(1) آل عمران ، 133 ـ 136 .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (1) .

وعليه كما يستمد الغنىٰ من الغني المطلق والعدل من العدل المطلق ، والحق من الحق المطلق كذلك يستمد النور من النور المطلق جل جلاله ، ولهٰذا فالنور جل جلاله خالق ونور الموجودات مخلوق ، الخالق لا مادة ، المادة تُخلق من اللا مادة ، والمادة تتنوع وتتعدد ، منها ما هو من التراب والطين اللازب ، ومنها ما هو من نور ، ومنها ما هو من نار ، ومنها ما هو هواء ، وجميعها خالقها الخالق الذي لا تدرك ماهيته إلا بذاته جل جلاله ، أي يدرك هو كما هو واحد أحد لا شريك له ، له الملك وله الأمر والنهي وهو علىٰ كل شيء قدير لم يلد ولم يولد سبحانه جل جلاله .

لذا قال ٱلله لسيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام لن تراني ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (2) فلم ير سيدنا موسىٰ إلا النور المخلوق ، وخر منه صعقاً لعدم قدرته علىٰ تحمله ، فسيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ ، بأن تكشف الحجب عني ، حتىٰ أنظر إلىٰ ذاتك المقدسة من غير واسطة ، كما أسمعتني كلامك من غير واسطة . فكان الرد ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ باعتباره لم يره من قبل ، وكذلك بعد طلب الرؤية جاء القرار بنفي رؤيته جل جلاله حاضراً زمن الطلب ، ومستقبلاً إجابة مترتبة علىٰ فعل الطلب .

وعليه ، فإن رؤيته تعالىٰ برداء الكبرياء وهي أنوار الصفات جائزة واقعة ، وأما رؤية أسرار الذات وهي المعاني الأزلية ، التي هي كنه الربوبية فغير جائزة

---

(1) التحريم ، 6 ـ 7 .

(2) الأعراف ، 143 .

إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلت ، وهـٰذا الأمر يتعارض مع القاعدة التي تنص علىٰ أن : (الخالق يرىٰ ما خلق والمخلوق لا يرىٰ خالقه) ولهـٰذا جاءت الإجابة الحق : ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ مدكوكًا مفتتًا كأن لم يكن ، والدك لا يحدث إلا بقوة شديدة ، والدك استواء بالأرض ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ مغشيًا عليه من هول ما رأىٰ ، ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ ﴾ تعظيمًا لما رأىٰ ، ﴿ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ .

فلا مانع أن يتجلىٰ ٱلله بنور الصفات علىٰ قدر الرائي لا علىٰ قدر المرئي ، فالكل كانوا في ظلمة ثم رش ٱلله عليهم من نوره الذي خلقه لهم فهم في نور من ربهم ، وتصديق ذلك قول رسول ٱلله ﷺ : « إن ٱلله تعالىٰ خلق خلقه في ظلمة ثم ألقىٰ عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول جف القلم علىٰ علم ٱلله »(1) . ولهـٰذا جعل الظلمات والنور أي النور المخلوق الذي خلق منه الملائكة وألقىٰ منه علىٰ الخلق ليهديهم إن كانوا في علمه ممن يستحقون الهداية . قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾(2) .

وهـٰذا هو نور الهداية للإسلام وللعمل الصالح وهو يدخل في صميم دور الخليفة الذي هداه ٱلله وتولىٰ هو بدوره إنارة الطريق أمام الناس ليهتدوا إلىٰ النور الذي أرسله ٱلله في كتابه النور لأن القرآن نور وهديه نور ومن أرسله نور ومن أرسل به نور ومن اتبعه وعمل به فهو نور علىٰ نور .

---

(1) سنن الترمذي ، ج 5 ، ص 26 .
(2) الزمر ، 22 ـ 23 ،

ولذا فمن آمن واهتدىٰ بالحق للحق وعمل به هو الخليفة الذي قال عنه النور جل جلاله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] ، ولهٰذا فالخليفة هو الذي ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ وهو الذي حمَل مسؤولية الخلافة ليخرج بالناس من ظلمات الجهل إلىٰ نور العلم من قهر الفقر إلىٰ بسطة العيش بتدبير الأمور تدبيراً عاقلاً مستنيراً انطلاقاً من رؤية نورانية اقتبسها من انشراح صدره للإسلام الدين الخاتم للكافة ، فكانت حياته لنشر الحق وإحقاقه وتعميم العدل بين الناس حكماً بلا مظالم . أما أولئك الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم والذين أشركوا ولم يصلحوا في الأرض التي استخلفهم فيها ٱلله تعالىٰ ليصلحوا فيها ولا يفسدوا ولا يسفكوا دماء بغير حق ، فأولئك هم القاسية قلوبهم ، في النار هم خالدون ، ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ قلوب هٰؤلاء قاسية لا تلين لنور كتابه ، ولا تنشرح بتذكر آياته ، ولا تطمئن بذكره ، بل هي معرضة عن ربها ، ملتفتة إلىٰ غيره ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن نور ربه عملاً واتباعاً وذكراً وقسا قلبه ،

---

(1) البقرة ، 30ـ37 .

وأقبل علىٰ كل ما يضره من ظلم وظلمات ؟

قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

فعلامة سعادة العبد وهدايته انشراح الصدر بنور الهداية بفضل من ٱلله تعالىٰ ، وعلامة شقاوته وضلاله ضيق الصدر وإعراضه عن نور الهداية ، ولذا فمن انشرح صدره للإسلام ، اتسع فاستنار بنور الإيمان ، فاطمأنت بذلك نفسه ، وأحب الخير له ولغيره ، وتطوعت نفسه لفعله ، وهٰذه علامة علىٰ أن ٱلله قد هداه ، ومَنَّ عليه بالتوفيق ، وسلوك أقوم الطريق ، واستحق الخلافة عن جدارة ؛ لأنه اتبع مصدرها فارتشف منه وارتوىٰ حتىٰ فاض خيراً علىٰ من يحيط به خيراً .

وعلامة من يرد ٱلله أن يضله ، أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً في غاية الضيق فينصرف عن نور الإيمان والعلم واليقين ، ويلطخ قلبه في الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء ، فينصرف عن نور الخلافة إلىٰ ظلم وظلمات الفساد ، وهٰذا سببه عدم إيمانه وإعراضه عن نور الهداية .

وهٰذا ما يؤكده النبي ﷺ ، فعن ابن مسعود رضي ٱلله عنه قال : تلا رسول ٱلله ﷺ قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ وقال : « إن النور إذا دخل الصدر انفسح » فقيل : يا رسول ٱلله هل لذلك من علم يعرف ؟ قال : نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلىٰ دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » (2) .

---

(1) الأنعام ، 125 .

(2) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، ج 18 ، ص 233 .

وعن عبد ٱلله بن المسور ، قال : تلا رسول ٱلله ﷺ هـٰذه الآية : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ قالوا : يا رسول ٱلله ، ما هـٰذا الشرح ؟ قال : « نور يقذف به في القلب ينفسح له القلب . قالوا : يا رسول ٱلله ، فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : نعم . قالوا : وما هي ؟ قال : الإنابة إلىٰ دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت » (1) . ولأن النور المطلق هو ٱلله جل جلاله ، والنور المقتبس هو من خلق النور المطلق ، لذا فللنور المطلق معطيات ، منها :

ـ أن ٱلله له نور ذاتي وهو النور الفائق الذي لا يُدرك بمشاهدة أبصارنا ، ولا تطيقه عقولنا كما حدث مع سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين قال كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) .

ـ وله سبحانه نور الصفات الذي يمكن أن يرىٰ بلا إدراك ولا إحاطة ويتجلىٰ ٱلله به علىٰ قدر الرائي لا علىٰ قدره هو ، فلا يعلم قدره إلا هو سبحانه وتعالىٰ .

ـ له سبحانه وتعالىٰ نور مخلوق ينير به الأرض والسمـٰوات عندما تبليان فتشرق الأرض بنور ربها .

ـ وللمهتدي إلىٰ الإيمان به ممن شرح ٱلله صدره للإسلام نور يهتدي به ويهدي به ؛ لأنه علىٰ نور من ربه .

(1) تفسير ابن أبي حاتم ، ج 27 ، ص 170 .

(2) الأعراف ، 143 .

وعليه من يقتبس نور ٱلله بالهداية يشرح صدره للإسلام ومن يضق صدره بالإسلام يضل ، ولن يجد للحق سبيلاً ، وأما المنافقون فهم مذبذبون لا قرار لهم مرة يميلون للصدق ومرة أخرىٰ يرفضونه فلم يصدقوا أنفسهم ولا أنفس الآخرين وهم الذين يقولون ما لا يفعلون أي يظهرون ما لا يبطنون ، ولذا فهم المخادعون الذين لم تتطهر قلوبهم ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (1) . ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ فهم يظنون أنفسهم أنهم يخادعون ٱلله فيما يقولونه لرسوله وللمؤمنين ، فيما يتعلق بالهداية والإسلام دين الكافة ، ولـٰكن ٱلله تعالىٰ علام الغيوب ، يعلم الظاهر والباطن ، وبالتالي فهو يعلم الحق من الحقيقة ، فيكشف الأمر لرسوله الكريم فيما نافقوه ، أي يكشف له الحقيقة التي عليها حال المنافقين ، ولهـٰذا فٱلله خادعهم ، تدل علىٰ علمه التام والكامل بما يبطنون ، فيكشفهم بكشف سرهم الذي يظنون أنه لن يعلمه ، وهنا تكون مخادعة ٱلله لهم ، بالكشف والبطلان ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو جل جلاله . وعليه يمكن أن تكون المنافقة بين الناس ومن المستحيل أن تكون أمام كاشف الأسرار ٱلله تعالىٰ ، وفي هـٰذا الأمر هم يعرفون مخادعتهم ونفاقهم للرسول ومن معه من المسلمين الكرام ، ولـٰكنهم لا يعلمون علم ٱلله تعالىٰ به ، ومقدرته علىٰ كشفه لرسوله الكريم ، وهنا تكمن دلالة المخادعة ، ولأن ٱلله يمهل ولا يهمل فقد يظن البعض أنه لم يعلم بسرهم ونجواهم ، فالحمد لله رب العالمين عالم الغيب والشهادة الرحمـٰن الرحيم .

فٱلله لا يخدع فهم يخادعون رسول ٱلله وحتىٰ رسول ٱلله ﷺ لا يخدع ؛ لأنه يتلقىٰ القرآن من لدن حكيم خبير فيطلعه ٱلله علىٰ خداعهم ، فهم يظهرون

---

(1) النساء ، 142 ـ 143 .

له ﷺ الإيمان ويبطنون الكفر كما قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ (1) ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ فهو سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولهـٰذا لا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة ، ظاهرة أو باطنة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ (3) ، إذاً من يعلم ويحيط بكل شيء علماً لا تخفىٰ عليه خافية ، ولهـٰذا من يظن أنه خافٍ ما في نفسه عنه فهو جاهل بأمر حاله الذي يعتقد أنه يعلمه .

﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ يعني وإذا قاموا إلىٰ الصلاة مع المسلمين قاموا كسالىٰ متثاقلين متباطئين لعدم بلوغ الإيمان ربوع قلوبهم ، فهم خوفاً فقط يأتون للصلاة ، فيحرمون من نورها الذي يسلك في قلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

قال ﷺ : « الصَّلاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالنَّاسُ غَادِيَانِ : فَغَادٍ مُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقٌ رَقَبَتَهُ ، وَغَادٍ بَائِعٌ نَفْسَهُ وَمُوبِقٌ رَقَبَتَهُ » (4) . فعن أنس ، أن رسول ٱلله ﷺ قال : « الصلاة نور ، والصيام جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (5) ، والصلاة نور ؛ لأنها علامة دالة علىٰ بلوغ الهداية ، والتقرب

---

(1) الفتح ، 10 .

(2) آل عمران ، 29 .

(3) لقمان ، 16 .

(4) المعجم الكبير للطبراني ، ج 14 ، ص 9 .

(5) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 14 ، ص 124 .

إلىٰ ٱلله وإشهار للإيمان ، ولهٰذا فالصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [1] ، ولهٰذا يقتبس المصلي نوره من النور المطلق . وعن أنس ، قال رسول ٱلله ﷺ : « الصلاة نور المؤمن » [2] .

أما المنافق الذي لا يخلص النية في إيمانه فلا نور له وإن صلّىٰ ؛ لأنه أراد أن يخدع فخدع ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] .

قوله تعالىٰ : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ المنافق دائماً في حالة ظن ، حيث بعض الظن إثم ، ولهٰذا فهو دائماً في حالة خوف وقلق ، حتىٰ إذا زهر الرعد بقوة تلاطم أكوام السحب العالية تولد البرق ، فظن أن الضربة قد أتت وأن أمره قد انكشف ، وأنه سيفقد بصره من البرق ، الذي به يستبشر المؤمنون ؛ لأنه علامة رحمة وغيث ، ولهٰذا كلما اطمأنت قلوب المستخلفين فيها ضاقت قلوب المنافقين ، ولهٰذا كأن البرق بنوره سيتخطف أبصارهم ، وفي هٰذا الأمر تشبيه مادي لتقريب المعنىٰ ، بما هو إيمان في القلوب ، حيث يكاد نور القرآن لشدة تجليه بالحق يعمي بصائرهم ، قال الشاعر :

مثل النهار يزيد أبصار الورىٰ نوراً ويعمي أعينَ الخفّاش

وقال الآخر :

---

(1) العنكبوت ، 45 .

(2) مسند أبي يعلىٰ الموصلي ، ج 8 ، ص 177 .

(3) البقرة ، 20 .

خفـافيـش أعمـاهـا النهـار بضـوئـه ووافقهـا قطـع مـن الليـلِ مظلـم [1]

ولهـٰذا فالنتيجة بالنسبة للمنافقين لا تختلف عما يحمله مضمون الآية الآتية : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [2] .

وهـٰذا مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً ، وكان في ظلمة عظيمة ، وحاجة إلىٰ النار الشديدة فاستوقدها من غيره ، ولم تكن عنده معدّة ، بل هي خارجة عنه ، فلما أضاءت النار ما حوله ، ونظر المحل الذي هو فيه ، وما فيه من المخاوف وأمنها ، وانتفع بتلك النار ، وقرت بها عينه ، وظن أنه قادر عليها ، فبينما هو كذلك ، إذ ذهب ٱلله بنوره ، فذهب عنه النور ، وذهب معه السرور ، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة ، فذهب ما فيها من الإشراق ، وبقي ما فيها من الإحراق ، فبقي في ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، والظلمة الحاصلة بعدم النور ، فكيف يكون حال هـٰذا الموصوف ؟ فكذلك هـٰؤلاء المنافقون ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ، ولم تكن صفة لهم ، فانتفعوا بها وحقنت بذلك دماؤهم ، وسلمت أموالهم ، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا ، فبينما هم علىٰ ذلك إذ هجم عليهم الموت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب ، وحصل لهم ظلمة القبر ، وظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة المعاصي علىٰ اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار [3] .

فلهـٰذا قال تعالىٰ عنهم : ﴿ صُمٌّ ﴾ عن سماع الخير ، ﴿ بُكْمٌ ﴾ عن النطق

---

(1) أضواء البيان ، ج 1 ، ص 15 .

(2) البقرة ، 17 - 18 .

(3) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 44 .

به ﴿ عُمۡيٞ ﴾ عن رؤية الحق ﴿ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ ﴾ ؛ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه ، فلا يرجعون إليه ، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال ، فإنه لا يعقل ، وهو أقرب رجوعاً منهم ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني : أو مثلهم كصيب : وهو المطر الذي يصب وينهمر بقوة وبكثرة .

قال الشاعر :

فَلَسْتُ لإِنْسِيٍّ وَلَٰكِنْ لَمَلأَكٍ   تَنَزَّلَ مِن جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وكما قال علقمة بن عَبَدَة :

كَأَنَّهمُ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ   صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ [1]

﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ ﴾ ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمات المطر ﴿ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ ﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿ مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ ﴾ وقفوا ، فهٰكذا حال المنافقين إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ، جعلوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فيروعهم وعيده وتزعجهم وعوده ، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد ، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت ، فبهٰذا كما يتخيلون تحصل لهم السلامة ، وأما المنافقون فأنىٰ لهم السلامة ، وهو تعالىٰ محيط بهم ، قدرة وعلماً ، بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويكون لهم عليها العقاب والعذاب الشديد .

ولما كانوا مبتلين بالصمم ، والبكم ، والعمىٰ المعنوي ، ومسدودة عليهم طرق الإيمان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ ﴾ الحسية ، ففيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية ، ليحذروا ، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾ فلا يعجزه شيء

---

(1) تفسير الطبري ، مجلد 1 ، ص 333 .

بالمطلق ، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض ، إنه فعال لما يريد .

والمؤمن نور ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [1] . فنور المؤمن يسعىٰ بين يديه ، وله هيبة بها يخشاه المنافقون والمخالفون ، وحتىٰ الأتباع الموافقين له فيعظمه الموافق ويعظم شأنه ، ويهابه المخالف ويخافه ، وهٰذا النور الذي جعله ٱلله تعالىٰ لأوليائه الذين قبلوا بالإسلام وحققوا الخلافة في الأرض ، ولا يظهر ذلك النور لأحد إلا إن انقاد له وخضع ، وهو من نور الإيمان ، ثم وصف ٱلله المنافقين أنهم يقولون للمؤمنين الذين لهم نور : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ معكم علىٰ الصراط فإنا في الظلمة ، فتقول لهم الملائكة : ﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ بعقولكم التي كنتم تدبرون بها أموركم في الدنيا ، فيرجعون إلىٰ ورائهم ، فيضرب ٱلله بين أنفسهم وبين عقولهم سوراً فلا يصلون إلىٰ طريق هدىٰ ، حتىٰ إذا انتهوا في السير علىٰ الصراط سقطوا في جهنم خالدين فيها والحمد لله رب العالمين .

يقول ٱلله تعالىٰ مبيناً فضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [2] أي : إذا كان يوم القيامة ، وكورت الشمس ، وخسف القمر ، وصار الناس في الظلمة ، ونصب الصراط علىٰ متن جهنم ، فحينئذ ترىٰ المؤمنين والمؤمنات ، يسعىٰ نورهم بين أيديهم

---

(1) الحديد ، 12 ـ 13 .

(2) الحديد ، 12 .

وبأيمانهم ، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب ، كل علىٰ قدر إيمانه ، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة ، فيقال : ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ ما أحلىٰ هـٰذه البشارة العظيمة ، حيث حصل لهم كل مطلوب ونجوا من كل شر ونفاق وضلال ، فإذا رأىٰ المنافقون نور المؤمنين يمشون به وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين ، قالوا للمؤمنين : ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به ، لننجو من العذاب ، فـ ﴿قِيلَ﴾ لهم : ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ إن كان ذلك ممكناً ، والحقيقة فذلك غير ممكن ، بل هو محال ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ﴾ حاجز مانع بما يشبه الحائط المنيع ، والحصن الحصين ، ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ وهو للمؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ وهو للمنافقين ، فينادي المنافقون المؤمنين ، فيقولون لهم تضرعاً وترحماً : ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا نقول : (لا إلـٰه إلا ٱلله) ونصلي ونصوم ونجاهد ، ونعمل مثل عملكم ؟ فكانت الحقيقة بالقول : ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في الدنيا ، وعملتم في الظاهر مثل عملنا ، ولـٰكن أعمالكم من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة .

وهـٰذا هو جل الفرق بين من يتحقق بأسمائه الحسان فيعمل بنية صادقة مخلصة لتحقيق الخلافة في الأرض بنشر نور العلم والمعرفة ومحو ظلام الجهل وعبث الظلم في مقابل فريق الفساد الذين رضوا بالفتنة وتربصوا ليطفئوا نور الحق ، وهم الذين يصدق فيهم قول ٱلله : ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ في نور ٱلله الذي لا يقبل شكاً ، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الباطلة ، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين ، وأنتم غير موقنين ، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فجاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة ، وقد ضاعت الفرصة التي أعطيت لكم ، واليوم لا ينفع ندم النادمين .

قال تعالىٰ : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ (1) فالمنافقون أرادوا ﴿ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ ليطفئوا وهـٰذه اللام فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنىٰ الإرادة يدل علىٰ إصرارهم محو نور ٱلله بمحاربة الإسلام وتعاليم القرآن والإساءة للنبي ﷺ وتعطيل كل إصلاح يقوم به المتحقق بنور الرحمـٰن ليهدي البشرية وينقذها من الجهل والعبودية والظلم ، والمنافقون في الظلام يريدون إطفاء نور ٱلله ، فأنىٰ لهم ذلك والحمد لله رب العالمين ، وإطفاء نور ٱلله تعالىٰ بأفواههم ، فيه تهكم من ٱلله بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم كما جاء في القرآن : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ (3) .

فحالهم مثل من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ فسيظهر دينه . والنور بلا شك هو دين ٱلله ، وكتاب ٱلله ، ورسول ٱلله ، وكل واحد من

---

(1) الصف ، 8 ـ 9 .
(2) النمل ، 13 .
(3) الصف ، 6 ـ 14 .

هـٰذه الثلاثة بهـٰذه الصفة ؛ لأنه يظهر عليهم من الآثار النورانية التي تبعث الهدىٰ في الآخرين .

كما أن نور ٱلله مشرق أبداً لا يمكن زواله أصلاً ؛ لأنه من الذات الإلـٰهية الباقية يوم أن يطرح السؤال : لمن الملك اليوم ؟ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (1) ، وعليه فكل واحد من الثلاثة أنوار الكتاب والإسلام والنبي ﷺ فهم يستمدون النور من الأصل من ٱلله الذي لا يستطيع كائن من كان أن يطفئ نوره سواء أحب أو كره ، ولذا فمن النور يستمد العلم واليقين وإحقاق الحق ، والظلمة تؤدي إلىٰ الجهل ، نور الإيمان يخرج من الظلمات إلىٰ النور ، لهـٰذا فالإسلام هو النور ، والكتاب هو النور ، والرسول هو النور ، نعم إنه النور وإلا لما وصفه ٱلله سبحانه وتعالىٰ بصفة كونه رحمة للعالمين ، وعليه فالنور المطلق هو ٱلله ، والأنوار المستمدة منه ، هي الرسل والأنبياء والمؤمنون والكتب التي جاءوا بها مبشرين ومنذرين ومحرضين بها علىٰ الحق وإحقاقه قولاً وفعلاً .

فبالنور اهتدىٰ الخلق وبلغ سبل الحق ، ولكونه رسول الكافة ، فهو رسول إلىٰ جميع الخلائق ، وصدق ٱلله إذ وصف حبيبه ﷺ بقوله تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (2) وفي هـٰذا بشرىٰ عظيمة للمسلمين الذين اتبعوا النور فٱلله

---

(1) غافر ، 13ـ16 .

(2) الأحزاب ، 45ـ46 .

يطلب من حبيبه ﷺ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [1] ، ولأن المنافقين أذىً وظلمة فٱلله أمر نبيه ومن خلال هـٰذا الأمر يتأسىٰ كل من سار علىٰ نهج النور بالابتعاد عن ظلمة المنافقين فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [2] .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [3]، وفيه أقوال :

الأول : أن المراد بالنور محمد شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلىٰ ٱلله بإذنه وسراجاً منيراً .

الثاني : الحل لجميع مشاكلكم في الدار الدنيا .

الثالث : أن المراد بالنور الإسلام الذي هو دين ٱلله في أرضه وهو مبعث جميع الأنبياء والرسل .

الرابع : الكتاب المبين الذي هو نور للهداية وهو الرسالة الخاتمة ، فلا فتنة بعد ذلك فهو كتاب الكافة . والنور القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز .

فالمؤمن هو النور والكافر هو الظلمة ، فعن أبي بن كعب ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « المؤمن بين أربع : إن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، وإن قال صدق ، وإن حكم عدل ، فهو يتقلب في خمسة من النور ، وهو الذي يقول ٱلله : (نور علىٰ نور) كلامه نور ، وعلمه نور ، ومدخله في نور ، ومخرجه من نور ، ومصيره إلىٰ النور يوم القيامة ، والكافر يتقلب في خمسة

---

(1) الأحزاب ، 47 .

(2) الأحزاب ، 48 .

(3) المائدة ، 15 .

من الظلم ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه في ظلمة ، ومصيره إلىٰ الظلمات يوم القيامة » (1) .

والنبي ﷺ دعا ٱلله أن يكون نوراً ودعاء النبي ﷺ مستجاب لا محالة فعَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رسول ٱلله ﷺ فَاسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ : بعد أن قرأ ما تيسر من القرآن وبعد ما صلىٰ لله تطوعاً ، « اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي لِسَانِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا وَمِنْ أَمَامِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا » (2) .

اللهُمَّ يا النور أنر عقولنا وقلوبنا بالقرآن ، وبكل قول حق وفعل حق ، وأنر أبصارنا بنور من نورك ، وأسماعنا بنور من نورك ، وأنر دروبنا وسبلنا في الدارين ، واجعلنا من المستخلفين الوارثين ، واجعل النور في أنفُسنا .

اللهُمَّ يا النور في السمٰوات والأرض نوّر عقولنا بنور وجهك الكريم ، ونوّر قلوبنا بالإيمان وحفظ الأمانة والصدق والوفاء بالعهود ومحبة العباد في محبتك ، ونوّر نفوسنا بالطمأنينة وطموحاتنا بالعلم الذي يؤدي للتي هي أحسن وبالرزق الحلال والزوجات الصالحات والأبناء الصالحين ، اللهُمَّ يا النور اهدنا بنور الصراط المستقيم ، وتغمدنا بنور رحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهُمَّ اجعل لنا نوراً في ألسنتنا ، ونوراً في أسماعنا ، ونوراً في أبصارنا ، ونوراً في أجسادنا ، ونوراً يسعىٰ أمامنا ، ونوراً من بين أيدينا ، ونوراً من خلفنا ، ونوراً عن أيماننا ، ونوراً عن شمائلنا ، ونوراً من فوقنا ، ونوراً من تحتنا . اللهُمَّ زدنا نوراً ، وأعطنا نوراً ، واجعلنا علىٰ اليقين بكل سرور .

---

(1) حلية الأولياء ، ج 1 ، ص 136 .
(2) صحيح مسلم ، ج 4 ، ص 159 .

الهادي جل جلاله

الهادي : هو الذي بيده الأمر وهو مالك الملك الذي به يَهدي ويُهدىٰ به إليه ، وهو علام الغيوب ، إنه الهادي إلىٰ ما يجب اتباعه .

الهادي : « مبين الرشد من الغي » (1) .

الهادي هو « ٱلله سبحانه وتعالىٰ الهادي إلىٰ الصواب » (2) .

الهادي مالك الحق ، والمرشد إليه ، ومالك القوة والمرشد بها ، ومالك القدرة والتسيير بها ؛ ولأنه الهادي فلا يهدي إلا للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأجود وأقوم .

الهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدىٰ إلىٰ ما يُهدىٰ إليه ، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه ، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّاً بالفعل الحق بالقوة والقدرة الحق .

الهادي هو مغير الأحوال من حال إلىٰ حال أفضل ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين ، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ (3) وهو منزِّل نصوص وحِكم وكَلِم الهداية إليهم حتىٰ لا يضلوا وإن

---

(1) التيسير بشرح الجامع الصغير ـ للمناوي ، ج 1 ، ص 679 .

(2) فتح الباري لابن حجر ، ج 13 ، ص 344 .

(3) الإسراء ، 97 .

ضل بعضهم فإن الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتىٰ بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين .

ولأن الهادي صفته الكمال ، والمخلوق صفته النقص ، فالمنقوص دائماً في حاجة للكامل الذي يهديه إلىٰ ما يجب .

وهو ٱلله الهادي إلىٰ سواء السبيل ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ وليس كهديه هدي ، فهو المنزه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات .

والهادي من أسماء ٱلله عز وجل قال : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ ﴾ [1] ، أي الصِّراط الذي دَعا إِليه هو طَرِيقُ الحقّ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [2] ، أَي إِنَّ علينا أَنْ نُبَيِّنَ طريقَ الهُدَىٰ من طَرِيق الضَّلال .

وجاء في كتب اللغة إن الهادي سبحانه هو الذي بَصَّرَ عِبادَه وعرَّفَهم طَريقَ معرفته حتىٰ أَقَرُّوا برُبُوبيَّته وهَدىٰ كل مخلوق إِلىٰ ما لا بُدَّ له منه في بَقائه ودَوام وجُوده ، وهـٰذا لأن هداية كل مخلوق لبقائه ولدوام وجوده ، وهـٰذا هو المعنىٰ الذي يدور عليه بحثنا في أسماء ٱلله الحسنىٰ ودور الخليفة المتخلق بأسمائه ، لأن كل ما في ملك ٱلله عبيد له كرهاً وطوعاً ، وعليه فإن الهادي سبحانه وتعالىٰ تكرم وتفضل فهدانا إلىٰ الصراط المستقيم ، وهو سبحانه وتعالىٰ فعل ذلك جوداً وكرماً منه ، ومن استجاب لهدايته فقد عرف طريق البقاء الأبدي ، وضمن لنفسه دوام الوجود في جنة الخلد هداية من ٱلله الهادي جل جلاله .

وٱلله خلق خلقاً من خلقه جبلهم علىٰ الطاعة ، فهداية هـٰؤلاء هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر ٱلله وينفذون ما أمرهم دون تقصير ، قال تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ

---

(1) البقرة ، 120 .

(2) الليل ، 12 .

مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (1) ، فيسبح لله كلّ ما في السمٰوات السبع ، وكل ما في الأرضين من خلقه ، ويعظمونه طوعًا وكرهًا ، فهو ﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ﴾ الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما ، النافذ أمره في السمٰوات والأرض وما فيهما ، القدوس : وهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون به ويصفونه به مما ليس من صفاته ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الشديد في انتقامه من أعدائه ﴿ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾ في تدبيره لأمور خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم ، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة .

الهادي هو الذي أرسل الرسل للهداية ، ولٰكن أهل الضلال استحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (2)وحب العمىٰ علىٰ الهدىٰ انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلىٰ طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلىٰ طريق الغواية ، ومن ارتضىٰ هـٰذا المسلك أوجب علىٰ نفسه الضلال ، وابتعد عن نعمة ٱلله التي أوجبها علىٰ نفسه في هداية خلقه إلىٰ ما فيه خيرهم وبقاؤهم .

وللهداية أربعة أنواع :

1 ـ هداية دلالة .

2 ـ هداية معونة .

3 ـ هداية تسديد .

4 ـ هداية تأييد .

1 ـ **هداية الدلالة** : بمعنىٰ أن ٱلله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا ، وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم علىٰ تقبل الهداية من عقل

---

(1) الجمعة ، 1 .

(2) فصلت ، 17 .

يربط بين الأشياء قياساً ومنطقاً واستدلالاً ونتيجةً واقتناعاً وسلوكاً واقتداء وتأثيراً وتأثراً ، فمن قبل وعمل استحق النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة .

2 ـ هداية المعونة بأن يعينه ٱلله ويثبته علىٰ الهداية .

3 ـ هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدي الصحيح ، ويدخل في ذلك النوع الخليفة .

4 ـ هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم .

الهادي وأدوات الهداية الدلالية :

الإسلام العظيم هو الدين الخاتم الذي ارتضاه ٱلله منهجاً للهداية والإصلاح حاكىٰ عقول الناس بما يتناسب معها في أدوات الهداية فكانت من أساليب الهداية منها ما هو بصري يقيني وقتي ومن ذلك المعجزات البصرية التي تؤدي بمن يراها إلىٰ عبادة ٱلله وسلوك مسلك الحق وهـٰذا النوع من الهدي موجه للأنبياء والناس علىٰ السواء ، فمن هدي الأنبياء البصري الملموس المحسوس ما قال ٱلله تعالىٰ عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1) وهـٰذه الآية تتعلق بالحياة والموت وهما من الأحوال المشاهدة يومياً ولكي تكون مثل هـٰذه الأشياء من الدلائل الهادية أنزلها ٱلله في كتابه ليذكرنا بها النبي ﷺ اقتداء بقوله تعالىٰ : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) فاذكر يا محمد قصة إبراهيم يوم قال لربه : أرني بعيني

(1) البقرة ، 260 .

(2) الذاريات ، 55 .

كيف يكون إحياء الموتىٰ ، فقال له تعالىٰ : أَوَلمْ تؤمن بأني قادر علىٰ إحياء الموتىٰ ؟ قال : بلىٰ ، علمت وصدّقت ، ولـٰكن ليزداد إيماني ويطمئن قلبي . قال ٱلله تعالىٰ : خذ أربعة من الطير فضمها إليك ثم جزِّئهنّ بعد ذبحهن واجعل علىٰ كل جبل من الجبال المجاورة جزءاً ، ثم نادهن فسيأتِينَك مسرعات وفيهن الحياة كما كانت ، واعلم أن ٱلله لا يعجز عن شيء وهو ذو حكمة بالغة في كل شيء ، وهـٰذه الأمور من المعجزات التي لا تحدث إلا علىٰ أيدي الأنبياء . ولو أننا دققنا النظر يومياً فيما حولنا لرأينا كثيراً من المعجزات في أنفسنا وفي نظام الكون والحياة ، لكان الإحياء والموت لنا شيئاً عادياً وأصبحت مثل هـٰذه المعجزات عندنا أموراً عادية . فإن كثيراً من المخترعات الحديثة لو أخبرنا عنها أحدٌ قبل مدة من الزمن ؛ لما صدقناه ، مع أنها من صنع الإنسان ، فكيف بقدرة ٱلله العظيم جل جلاله . فهو بهـٰذه الاختراعات قد وفَّر لنا أدلة جديدة علىٰ وجوب الاهتداء إليه والإيمان به .

ـ ومن أدوات الهداية الدلالية : الآيات الكونية ومنه الشمس والقمر والنجوم والبحار والسماء والأرض والنبات وغير ذلك تدل كلها علىٰ أنه الواحد الأحد جل جلاله ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) .

ٱلله هو الخالق بلا منازع ولا شريك وقد أوجد في الخلق مبدأ الفطرةِ

---

(1) الأعراف ، 54 ـ 57 .

ليعلم الناس المؤمن والكافر أن الخالقَ والمالكَ الذي خلق الأجرامَ العلوية والسفليةَ في ستة أيام في مقدار ستةِ أيامٍ والمتعارف أن اليومَ زمانُ طلوعِ الشمسِ إلىٰ غروبها ، ولم تكن المواقيت هـٰكذا يوم خلق ٱلله الخلق ، فمقدار الوقت الفعلي للخلق يعلمه ٱلله أو هو شيء تقريبي للأذهان حتىٰ تستوعب ، والعلم الكامل يعلمه ٱلله ، مع القدرة علىٰ إبداعها دفعةً واحدة ، وهـٰذا الزمن المذكور في الآية دليل علىٰ الاختيار والعظة ، وحثٌّ علىٰ التأني في الأمور ، ثم استوىٰ علىٰ العرش والاستواء كما سبق أن أشرنا في الاسم العلي صفة لله تعالىٰ بلا كيفية ، فقد استوىٰ علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن ، والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملِك ، ومن الآيات ذات الدلالة الهادية علىٰ أنه ٱلله رب العالمين قوله تعالىٰ : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ يغطّيه به ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ يعقُبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء ، والحثيثُ من الحث أي السرعة ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ فهو سبحانه القادر الخالق خلقهن حال كونهِن مسخراتٍ بقضائه وتصريفِه ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فإنه الموجدُ للكل والمتصرِّفُ فيه علىٰ الإطلاق ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ تفرد تعالىٰ بالوحدانية في الألوهية وتعظّم بالتفرد في الربوبية ، فلا إلـٰه غيره ولا رب سواه .

وهو ٱلله الهادي الذي في هديه طريق النجاة للفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة ، فمن آيات هدايته إنزال المطر بمقدار معين حتىٰ تستفيد الأرض والخلق الذي عليها بالماء فيشربون ويزرعون و يصلحون الأرض ، وحتىٰ إن هم أهملوا تلك الأرض فٱلله ينبت منها النبات الطيب مثل الزيتون والنخيل والأعناب ، وغير ذلك من الثمار التي فيها لاشك فائدة عظيمة لخلق ٱلله علىٰ الأرض ، ومن آيات هدايته الليل والنهار والشمس والقمر تلك الدلائل الباهرة التي لابد لكل متأمل لها أن يدرك أنه ٱلله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد

ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وغير ذلك من دلائل شاهدة علىٰ أنه الواحد الهادي للتي هي أحسن ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) وهٰذه آيات أخرىٰ علىٰ دقيق صنع ٱلله تعالىٰ وعلمه ممزوجة بامتنان ، وهٰذا انتقال للاستدلال والاهتداء بإتقان الصنع علىٰ وحدانية الصانع وعلمه ، وإدماج بين الاستدلال والامتنان . ونيطت الدلالات بوصف العقل لأن أصل العقل كاف في الاستدلال والاسترشاد بها علىٰ الوحدانية والقدرة، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة .

الهداية التأملية في الكون وفي النفس :

ومن الشواهد التي تصل بالمرء إلىٰ الهداية عن طريق التأمل الخارجي للوصول إلىٰ الحق من كلام ٱلله تعالىٰ ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) . فقوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ ٱلله سبحانه وتعالىٰ أخرج الناس من بطون الأمهات واستثنىٰ من ذلك آدم عليه الصلاة والسلام ، وقد فطر ٱلله الإنسان علىٰ الفطرة التي هي

(1) النحل ، 10 ـ 14 .

(2) النحل ، 78 ـ 79 .

كما أسلفنا الهداية الدلالية ، وفي مرحلة الفطرة جعل ٱلله الإنسان خالياً من العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلاً ثم وضع له أدوات للهداية الذاتية التي لا يفترق فيها إنسان عن آخر فقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ فٱلله سبحانه وتعالىٰ إنما أعطاكم أيها الناس هٰذه الحواس لتهتدوا بها من الجهل إلىٰ العلم ، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب وقوله الحق ، والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها وتهتدوا إلىٰ ما يصلحكم في أمر دينكم ، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته ومعجزاته ، وغرائب مخلوقاته ، فتستدلوا بها علىٰ وحدانيته وتهتدوا إليه طائعين غير عاصين . وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتدركوا القول الحق والفعل الحق ، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته ، فٱلله الهادي خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ، ثم أخرجكم من الضيق إلىٰ السعة ، من ضيق الأحشاء إلىٰ سعة الأنحاء ، وجعل الحواس أدوات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به ، ومن آمن به واهتدىٰ إلىٰ سبيله كان من المستخلفين فيها .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٱلله سبحانه وتعالىٰ خلق هٰذه الحواس للوصول إلىٰ الهداية الحقيقية إلىٰ ٱلله وإنعام ٱلله علىٰ الإنسان بهٰذه الحواس ليستعملها في شكر من أنعم بها عليه ، ثم نجد دليلاً كونياً ليهتدي به المتأمل في خلق ٱلله ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ مذللات طائعات لله الذي هداها لسر الطيران بأبسط الوسائل التي تفوق قدرة الإنسان ، وإن حاول أن يحاكيها فلا شك أنه لن يصل إلىٰ قدراتها التي ذللها ٱلله لها ﴿ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ في الجو وفي الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء المعد كميدان مناسب لطيرانها ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها في جو السماء ، وهٰذا حث علىٰ الاستدلال بها علىٰ أن لها مسخراً سخرها ، ومذللاً ذللها ، وممسكاً أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في

الهواء ، وهو ٱلله تعالىٰ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ وقد أفرد وخصص المؤمنين بالذكر ؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم فيهتدون .

ومن الشواهد التأملية التي تؤدي إلىٰ الهداية والإيمان بٱلله موقف سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهٰذا ما يبينه قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (1) .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ ويقال : إنما قال ذلك علىٰ سبيل الاستفهام أهٰذا ربي ؟ ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ يعني : غاب الكوكب ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ يعني : لا أحب رباً يتغير عن حاله ويزول ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا ﴾ يعني : طالعاً . ويقال : إن ذلك كان في وقت السحر ، وكان ذلك في آخر الشهر . فرأىٰ كوكباً : فلما ارتفع ذلك الكوكب وطلع الفجر نقص ضوءه ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ لا أحب ربنا يتغير . فلما رأىٰ القمر فرأىٰ ضوءه أكثر ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ علىٰ سبيل الاستفهام ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ يعني : نقص ضوءه حين أسفر الصبح ﴿ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(1) الأنعام ، 75 ـ 81 .

يعني : لئن لم يحفظ ربي قلبي . لقد كنت اتخذت إلـٰهاً ما لم يكن إلـٰهاً ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ يعني : طالعة قد ملأت كل شيء ضوءاً : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ يعني : أعظم وأكثر نوراً ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ يعني : غربت . علم أنه ليس برب دائم . فجاءته أمه فقال لها : من ربي ؟ قالت : أنا . قال : ومن ربك ؟ قالت : أبوك . قال : ومن رب أبي ؟ قالت : نمرود بن كنعان . قال : ومن ربه ؟ قالت له : اسكت . فقال لها : كيف هو ؟ هل يأكل ويشرب وينام ؟ قالت : نعم . قال : هـٰذا لا يصلح أن يكون ربًا وإلـٰهاً . فرجعت الأم إلىٰ أبي إبراهيم ، فأخبرته بالقصة فخرج إليه فسأله مثل ذلك . ثم قال له في آخره : تعال حتىٰ تعبد الذي خلقني وخلقك وخلق نمرود . فغضب أبوه ، فرجع عنه ، ثم دخلت عليه رأفة الوالد لولده ، فرجع إليه . وقال له : ادخل المِصْر لتكون معنا ، فدخل فرأىٰ القوم يعبدون الأصنام . فدعوه إلىٰ عبادة الأصنام فقَالَ لهم حينئذٍ : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ فقيل له من تَعْبُد أنت يا إبراهيم ؟ فقال أعبد الله الذي خلقني وخلق السمـٰوات والأرض فذلك قوله : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ يعني : أخلصت ديني وعملي ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ خلق السمـٰوات ﴿ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ يقول : إني وجهت وجهي مخلصاً مستقيماً ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ علىٰ دينكم . ويقال : إن قوله ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ قال ذلك لقومه علىٰ جهة الاستهزاء بهم [1] . كما قال : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [2] ويقال : أراد بهـٰذا أن يستدرجهم فيظهر قبيح فعلهم ، وخطأ مذهبهم وجهلهم ؛ لأنهم كانوا يعبدون النجوم ، والشمس ، والقمر .

و أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان رأىٰ رؤيا وعبرها المعبرون

---

(1) سنن ابن ماجه ، ج 1 ، ص 84 .

(2) الأنبياء ، 63 .

بأنه يولد غلام ينازعه في ملكه ، فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد ، فحبلت أم إبراهيم به وما أظهرت حبلها للناس ، فلما جاءها الطلق ذهبت إلىٰ كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر ، فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمصه فخرج منه رزقه وكان يتعهده جبريل عليه السلام ، فكانت الأم تأتيه أحياناً وترضعه وبقي علىٰ هٰذه الصفة حتىٰ كبر وعقل وعرف أن له رباً ، فسأل الأم فقال لها : من ربي ؟ فقالت أنا ، فقال : ومن ربك ؟ قالت أبوك ، فقال للأب : ومن ربك ؟ فقال : ملك البلد . فعرف إبراهيم عليه الصلاة والسلام جهلهما بربهما فنظر من باب ذلك الغار ليرىٰ شيئاً يستدل به علىٰ وجود الرب سبحانه فرأىٰ النجم الذي هو أضوأ النجوم في السماء فقال : هٰذا ربي إلىٰ آخر القصة [(1)] .

إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد عرف ربه قبل هٰذه الواقعة بالدليل . والدليل علىٰ صحة ما ذكرناه أنه تعالىٰ أخبر عنه أنه قال قبل هٰذه الواقعة لأبيه آزر : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [(2)] .

فقال تعالىٰ مخبراً عنه أنه دعا أباه إلىٰ التوحيد وترك عبادة الأصنام حيث قال : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [(3)] .

قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ يعني أنه لما أثبت إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالدليل القطعي أن هٰذه النجوم ليست بالله تعالىٰ ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه أنه برى مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ يعني إني صرفت وجه عبادتي وقصرت توحيدي ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ

(1) سنن ابن ماجه ، ج 1 ، ص 85 .
(2) الأنعام ، 74 .
(3) مريم ، 42 .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ يعني للذي خلقهما وأبدعهما ﴿حَنِيفًاۖ ﴾ يعني مائلاً عن عبادة كل شيء سوىٰ ٱلله تعالىٰ . وأصل الحنف : الميل ، وهو ميل عن طريق الضلالة إلىٰ طريق الاستقامة والهداية . وقوله : ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه .

وقوله عز وجل : ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ ﴾ خاصمه قومه وذلك لما أظهر إبراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه في ذلك فقال : أتحاجونني في ٱلله ، يعني تجادلونني في توحيدي لله وقد هداني وقد بين لي طريق الهداية إلىٰ توحيده ومعرفته . وجادله قومه في دينه فقال إبراهيم﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ﴾ إلىٰ توحيده ومعرفته ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ وذلك أنهم قالوا له : احذر ، الأصنام فإنا نخاف أن تمسَّك بخبل أو جنون لعيبك إياها فأجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فإنها جمادات لا تضر ولا تنفع وإنما يكون الخوف ممن يقدر علىٰ النفع والضر وهو قوله ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ ﴾ يعني لـٰكن إن يشأ ربي شيئاً كان ما يشاء ؛ لأنه قادر علىٰ النفع والضر وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال أن الإنسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلىٰ الأصنام فنفىٰ هـٰذه الشبهة بقوله ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ ﴾ وهـٰذا استثناء منقطع وليس هو من الأول في شيء . والمعنىٰ ولـٰكن إن شاء ربي شيئاً كان ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ ﴾ .

الهادي اسم من الأسماء الحسنىٰ ، والهادي « هو الذي بصّر عباده وعرّفهم طريق معرفته حتىٰ أقروا بربوبيته وهدىٰ كل مخلوق إلىٰ ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده ، والهدىٰ ضد الضلال وهو الرشاد والدلالة ، وقوله عز وجل : قل إن هدىٰ ٱلله هو الهدىٰ ، أي الصراط الذي دعا إليه » [1] والهدىٰ

(1) لسان العرب ، ج 15 ، ص 353 .

من الهادي هو الطريق الحق كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [1] أي أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ بمقتضىٰ حكمته بين طريق الهدىٰ من طريق الضلال ، وأعطىٰ كل خلق رشده وهداه كما أعطاه خلقه ورزقه ، فما كان لله تعالىٰ أن يخلق خلقه دون المتممات التي أوجد من أجلها هـٰذا الخلق الذي وجد أصلاً للعبادة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [2] فالعبادة بالضرورة تحتاج إلىٰ هداية من أجل التعرف عليها وعلىٰ كيفيتها وشروطها وأوقاتها ومواقيتها ، فالذي يهدي إليها هو الهادي تبارك وتعالىٰ ، وحيث إنه خلق الخلق للعبادة فالضرورة تقتضي أن يبين لهم طريق الهدىٰ وما يؤدي إليه من صلاح ورشاد ، وبهداه أيضاً يبين لهم نقيض ذلك من طريق الغي والضلال وما يؤدي إليه من الهلاك ، وقد فعل ذلك بما تقتضيه الحكمة الإلـٰهية رحمة بالعباد من جهة ، وحتىٰ يقيم عليهم الحجة من جهة أخرىٰ ، وقد بين ٱلله تعالىٰ حال من سلك كلاً من الطريقين رغبة أو رهبة ، ومن هنا يظهر لنا أن الهداية هي مظهر من مظاهر الدلالة علىٰ الحق بما يتوصل به إلىٰ البغية والمنال ، فٱلله الهادي ضمن الهدىٰ لعباده بوسائل أمّنها لهم في خلقهم وتكوينهم من أجل أن يستدلوا علىٰ الهادي ، فهدىٰ الإنسان بالإرشاد إليه عن طريق وسائل حسية وإدراكية ، خارجية من حيث الآيات المبثوثة في هـٰذا الكون الرحيب ، أو داخلية مما يتمتع به الإنسان من قدرات خَلقية ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة هي الجوارح من الحواس ، والباطنة هي الإدراكات النفسية والعقلية والذهنية ، والجمع بين هـٰذه وتلك يكون الإنسان قد استوفىٰ حقه من الهادي من وسائل الهدىٰ ، وبالتالي لأن الهادي عز وجل منح وأعطىٰ فيكون قد أقام الحجة علىٰ الذين لا يهتدون لذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ

---

(1) الليل ، 12 .

(2) الذاريات ، 56 .

ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ [1] فبنور العقل وإدراك الحس والجمع بين الدلالة العقلية التي تأتي عن طريق الفكر والتأمل ، والدلالة السمعية التي جاء بها الخبر الصادق والجمع بينهما يؤدي إلىٰ التمكين من جانبي الدلالة وصولاً إلىٰ الهدىٰ من أجل الاستدلال علىٰ الهادي واستبصاره .

ونحن بداية نسلم في ما جاء به الخبر الصادق المتواتر من القرآن الكريم ، والخبر المنقول أيضاً من العدل الضابط عن العدل الضابط عن رسول ٱلله ﷺ من الأحاديث النبوية الشريفة ، في الهدىٰ والرزق والأجل وما إلىٰ هنالك من هٰذه الأمور المتعلقة بخلق البشر ورزقهم وهداهم وإضلالهم وشقائهم وسعادتهم ومدىٰ آجالهم ، كل ذلك كان عند ٱلله مكتوباً قبل أن يخلق الخلق ، والهدىٰ والضلال يدخل ضمن هٰذا الحيز ممن كتب عليه شقي هو أم سعيد ، وبمعنىٰ أوضح أمهتدٍ هو أم ضال ، وقد قال تعالىٰ في محكم التنزيل : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [2] فمهما تكن شديد الحرص علىٰ هداية أحد تحبه ، فإنك لا تستطيع أن تُدْخل الهدىٰ إلىٰ عقله أو الإيمان إلىٰ قلبه ، ولٰكن ٱلله يهدي للإيمان من علم فيه قبول الهداية واختيارها ، وهو الذي يعلم علماً ليس فوقه علم من سيدخل في صفوف المهتدين ، فالبعيدون عن الهدىٰ يتأولون ذلك بأن ٱلله تعالىٰ وهو الهادي إلىٰ سبيل الرشاد لم يرد لهم الهداية وأن الضلال والغي مكتوب عليهم ، والأمر هنا من وجهين ، أما الأول فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ ما أراد شراً بالعباد وحاشا لله وتعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً ، ذلك أن الخالق عز وجل أعطىٰ الإنسان عقلاً مميزاً ، وبين له الخير والشر والهدىٰ والضلال ، وبين كذلك المسالك والمعابر والطرق والدروب التي تؤدي إلىٰ كل واحد مما ذكرنا ، وبهٰذا

---

(1) البلد ، 8 ـ 10 .

(2) القصص ، 56 .

فإن ٱلله تعالىٰ أقام الحجَّة علىٰ الخلق وتبرأ من الظلم حيث قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (1) ومن هـٰذه الآية يتضح لنا الوجه الثاني وهي قضية العلم ، فإن هـٰذا الإنسان مع عقله ووضوح رؤيته وتمييزه بين الصالح والطالح فقد ترك طريق الهدىٰ واتخذ الغي سبيلاً ، وأما الآخر فبعقله وتمييزه ووضوح رؤيته أيضاً اختار الهدىٰ واتخذه سبيلاً ، فبعلم ٱلله المسبق لما سيقع قبل وقوعه كتب هـٰذا من الأشقياء الضالين ، وكتب ذاك من السعداء المهتدين ، وعلىٰ هـٰذا فالعلم سابق علىٰ القدر بما ستكسب أيدي الناس ، وبما أن ٱلله تعالىٰ هو خالق الخلق ، فهو أعلم بهم وبما سيفعلون وبما سيعملون قبل أن يفعلوه وقبل أن يعملوه ؛ ولأن علم ٱلله بهم سبق أفعالهم وأعمالهم لذلك سبق علىٰ خلق كل واحد منهم كتابه الذي كتبه عليه ، وهـٰذا مصداق لقوله ﷺ : « يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث ٱلله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقول : اكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (2) ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يرد ظلماً بالعباد ، ولذلك بث آياته الدالة علىٰ وجوده ليهتدي إليها الخلق ومن خلالها يهتدون إلىٰ الخالق ، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح ٱلله بها الحق ، ويدفع بها الباطل من بعثه الأنبياء والمرسلين ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ أمّن ضرورات الهداية لخلقه من الأسباب التي عن طريقها تتم معرفة الهدىٰ وصولاً إلىٰ الهادي ، وضرورة

---

(1) آل عمران ، 182 .

(2) سنن ابن ماجه ، ج 1 ، ص 84 .

الخلق إلىٰ معرفة الحق عن طريق الهدىٰ ودين الحق فوق كل ضرورة ، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة ، فإنه لا سبيل إلىٰ معرفة الطيب من الخبيث ، والصحيح من السقيم ، من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال علىٰ التفصيل إلا من جهة الهداية ، ولا سبيل إلىٰ الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من النبوة والرسالات وما جاء به الأنبياء والرسل من الكتب التي تحمل الهداية كما قال رسول ٱلله ﷺ : « مثل ما بعثني ٱلله به من الهدىٰ والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب فأمسكت الماء فنفع ٱلله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرىٰ إنما هي قيعان ، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين ٱلله ونفعه ما بعثني ٱلله به فعلم وعمل ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدىٰ ٱلله الذي أرسلت به »[1] وبالإضافة إلىٰ آيات الهادي المبثوثة في هٰذا الكون التي تهدي الخلق إلىٰ الصراط المستقيم ، فقد أرسل ٱلله الأنبياء والرسل دعاة إلىٰ سبيل رشاده وهداه مبيناً لهم بما آتىٰ أنبياءه من الكتب ، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح ٱلله بها الحق ، ويدفع بها الباطل ، فأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه البيان والهدىٰ والإيضاح ، وأنزل معهم الميزان ، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم ، ويقام به الحق وينشر به الهدىٰ ويعامل الناس علىٰ ضوئه بالحق والقسطاس المستقيم ، وبهٰذا فإن ٱلله تعالىٰ قد أوجد ضرورات الهدىٰ لخلقه عن طريق الرسالات والأنبياء ، إضافة إلىٰ آيات الكون المبثوثة أمام أعين الخلق ، ذلك أن ضرورة الخلق إلىٰ معرفة ما جاء به الرسل والأنبياء من الهدىٰ ودين الحق فوق كل ضرورة ، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة ، فإنه لا سبيل إلىٰ معرفة الطيب من الخبيث ، والصحيح من السقيم من

(1) صحيح البخاري ، ج 1 ، ص 170

الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال علىٰ التفصيل إلا من هـٰذه الجهات ، ولا سبيل إلىٰ الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من هـٰذا الطريق ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ كما أوجد ضرورات العيش من الرزق ، كذلك أوجد ضرورات السبل من الهداية ، فأي حاجة فرضت ، وأي ضرورة عرضت ، فحاجة الخلق وضرورتهم إلىٰ معرفة سبل الرشاد وطرق الخير إلىٰ الهُدىٰ ودين الحق فوقها بكثير وهـٰذه المعرفة الضرورية لا تتحقق إلا بأخذ الأسباب المبثوثة والآيات المنتشرة والرسل المبلغة ، ولـٰكن لا تؤتىٰ إلا لمن ألقىٰ السمع ودقق النظر وأجال الفكر حتىٰ يصل إلىٰ طريق الهداية الذي بينه الهادي تبارك وتعالىٰ فيما ذكرنا وبالوسائل التي أشرنا إليها .

ومن الخلق من تتوفر له الوسيلة لكي يرىٰ نور الهدىٰ والإيمان ويقتنع بذلك في عقله ولـٰكن قلبه غير مطمئن ، وهـٰؤلاء أصحاب الأهواء أو من الذين يستعلون علىٰ الآخرين كونهم علىٰ هدىً فيفعلون بعد ذلك ما يبدو لهم أنه الصواب لذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ (1) فدل ذلك علىٰ أن عدم التكلم والهداية نقص ، وأن الذي يتكلم ويهدي أكمل ممن لا يتكلم ولا يهدي ، غير أن المهتدي الذي يقف علىٰ حقيقة الهادي يعمل بحقيقة الهدىٰ علىٰ الوجه الأكمل ، فيؤثر بعمله الخيرات ، ولا يدع الشهوات تتسرب إلىٰ رشاده ، ويكون عقله معيناً له ، فهو الذي يدعوه إلىٰ الهدىٰ ، ويعصمه من الردىٰ ، ويلجم هواه عن الفواحش ، ويطلق سجيته في المكارم حتىٰ يبرّ نفسه ويكون من المهتدين ، فمن استظهر اليقظة انتفع بها ونال ما أراد ، ومن استهدىٰ الأعمىٰ عمي عن الهدىٰ ، ونقصد به عمىٰ البصيرة الذي يبعد الإنسان عن الهدىٰ والرشاد ، كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ شَرَّ

(1) الأعراف ، 148 .

ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [1] والمقصود في هـٰذه الآية الكريمة حقيقة الإنسان نفسه لسببين :

أولهما : أنه من الذين يدبون علىٰ الأرض .

وثانيهما : أن الدواب هم من البكم حقيقة ، ولهـٰذا فالخطاب موجه لبني البشر ، أو لبعض منهم ؛ لأنهم يتصاممون ويتباكمون عن الحق والهدىٰ ، ولو كانوا صماً بكماً وكانوا هم لا يعقلون ، لما غيرهم بذلك ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يُعير من خلقه معتوهاً لم يعقل ، ومن خلقه أعمىٰ لم يبصر ، وكما لم يَلُمِ الدواب ، ولم يعاقب السباع ، ولـٰكنه سمىٰ البصير المتعامي أعمىٰ ، والسميع المتصامم أصم ، والعاقل المتجاهل جاهلاً . ونحن لا نقول إن طريق الهداية إلىٰ الهادي مقتصر علىٰ العقل فحسب ، ودليلنا علىٰ ذلك أننا نرىٰ أُناساً من أعقل الناس وعباقرة البشرية بعيدين كل البعد عن الهدىٰ ، وذلك لاعتمادهم علىٰ قدرة القوة العقلية الخالصة ، وهـٰذا يعني استنارة العقل وفراغ القلب كما قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [2] فموجبات الهدىٰ إلىٰ الهادي إضافة إلىٰ العقل ، هي القلوب التي في الصدور حيث يصل بها الإنسان إلىٰ يقين ما يؤمن به ، وعلىٰ هـٰذا يكون يقين الإيمان العامر في القلب هو دليل العقل إلىٰ الهدىٰ ، ولو لجأنا نلتمس الهدىٰ عن طريق قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ، ومنتهىٰ تجاربنا ، بما أدركته حواسنا ، وشاهدته نفوسنا ، إذاً لقلّت المعرفة بالهادي ، وقصرت الهمة عن إدراكه ، وضعف الاجتهاد في كنهه ، فيعتقم بنا الرأي ويموت الخاطر ، ويتبلد العقل ، ويستبد بنا سوء الظن ، ولذلك كانت رحمة ٱلله الواسعة أن أنعم علىٰ عباده بالتبليغ عن طريق الرسل والأنبياء وما آتاهم من الرسالات التي فيها الهدىٰ

---

(1) الأنفال ، 22 .

(2) الحج ، 46 .

والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة ، وبث آيات الهدىٰ للإنسان من المخلوقات علىٰ اختلاف أنواعها من الحيوانات والنباتات والجمادات التي ترشد إلىٰ الهادي ، وإلىٰ هـٰذه الآيات في ما يمتلكه الإنسان نفسه من الوسائل الدالة علىٰ الهدىٰ والمؤدية إلىٰ الهادي حيث قال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1] فهـٰذه الآيات دلائل صدق في أقطار السمـٰوات والأرض وفي أنفس البشر من السمع والبصر والعقل والإدراك والجوارح وبقية الحواس ، فهـٰذه بعض أدوات الهداية التي توصل الإنسان إلىٰ الهادي في نفس خلق الإنسان ، هـٰذا في جانب المخلوق العاقل بمعنىٰ أنها الدلالات الداخلية التي يمتلكها كل إنسان وهي مرافقة له في حلّه وترحاله ، ونومه ويقظته ، ومسيره وإقامته ، أي أنها هي الدلائل اللازمة والضرورية الملازمة الموصلة إلىٰ الهادي ، وهي وسائل الهداية التي يقيم ٱلله بها الحجة علىٰ من ابتعد عن الهدىٰ اختياراً بما سخره ٱلله له من الوسائل والأدوات ، ومن خلال هـٰذه الوسائل والأدوات يتوصل الإنسان إلىٰ الهدىٰ الضروري البسيط الذي يدخل في باب التكليف ، بمعنىٰ أن من امتلك هـٰذه الوسائل أصبح بالضرورة مكلفاً بالبحث عن الهداية والوصول إليها علىٰ قدر ما أوتي من وسائل البحث ، لذلك رفع ٱلله القلم عن المعتوه وهو المجنون والصبي والنائم لأن هـٰؤلاء فقدوا تلك الوسائل أو بعضاً منها جزئياً أو كلياً ، أي إما مدىٰ الحياة أو لفترة زمنية محددة متصلة أو منفصلة فقد قال ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتىٰ يستيقظ ، وعن الصبي حتىٰ يحتلم ، وعن المجنون حتىٰ يعقل » [2] ويدخل ضمن هـٰؤلاء أيضاً من أكره علىٰ ما يخالف سنة ٱلله في خلقه

---

(1) فصلت ، 53 .

(2) سنن أبي داود ، ج 11 ، ص 481 .

من الوصول إلىٰ الهدىٰ مؤقتاً أو الابتعاد عنه لسبب طارئ خارج عن الاستطاعة والقدرة البشرية حيث يزول السبب بزوال المسبب كما قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (1) فوجود الإكراه سبب لرفع الذنب والإثم ، وبزوال المسبب يزول السبب ، وهٰذا يعني أن كل إكراه مرهون بوقت ، وهو من باب تغيير المسار من أجل المحافظة علىٰ النفس من أجل الهدف الأسمىٰ والغاية الأعلىٰ فيما ينشده الإنسان من الهدىٰ .

فالأدوات الداخلية التي تهدي إلىٰ الهادي مما يمتلكه الإنسان هي التي تعرفه الطريق ، وبها يأخذ في سبيل الرشاد ويستنير عقله ويستوعب قلبه الدلائل الهادية ، وأول هٰذه الدلائل هي السمع التي نراها أرفع درجة من البصر ، ذلك أن السمع يرسم صورة المعاني ويحللها ويقارن بينها عن طريق العقل ، وهٰذه الخاصية لا يمتلكها البصر وإن كان ينقل صورة ذات أبعاد ثلاثية ، إلا أن الصورة المعنوية أشد تأثيراً وأعظم وقعاً علىٰ العقل الذي بصور المعاني ويستطيع أن يستنتج منها صوراً مركبة غير تلك التي ينقلها البصر ، فالصورة المعنوية التي تأتي عن طريق السمع هي مدعاة للتأمل أضعاف ما ترسمه صورة البصر ، لذلك يكون الوصول إلىٰ الهداية عن طريق السمع أسرع والتمسك بها أوثق والحجة بالسمع أشد إقناعاً لذلك قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (2) فإنما يجيب دعوة الحق مقبلين عليه ، الذين يسمعون سماع فهم وتدبر وتحليل وتأمل ، وأما الذين لا ينتفعون بسمعهم فهم في حكم الأموات ، والذين يسمعون سماع وعي وتدبير وتأمل ، فإنما أطاعوا في ما دُعوا إليه واستجابوا للهادي ، والاستجابة من ٱلله يعبر بها عن الأمور التي تقع في المستقبل ، ودليلنا أيضاً علىٰ أن السمع أدعىٰ إلىٰ

---

(1) النحل ، 106 .

(2) الأنعام ، 36 .

الهدىٰ من البصر قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [1] فمعرفة الحق والهدىٰ الذي عن طريقه يتوصل الإنسان إلىٰ الهادي ، إنما تأتي عن طريق سمعه ووعيه لما يسمع ، ولٰكن الذين لا يذعنون فهم غير سامعين عن طريق المجاز لا عن حقيقة السمع ، أي أنهم سمعوا كلاماً ولم يدركوا المعاني والصور التي يحملها هـٰذا الكلام ، فمثل هـٰؤلاء أنهم أشد شراً من الدواب التي أصيبت بالصمم فلا تسمع ، وبالبكم فلا تتكلم ، فهم صمُّوا عن الحق ، فلم يسمعوه ولم ينطقوا به ولم يعقلوه ، وصمُّوا عن الهداية فلم يقربوا إليها ، فهم لا يفهمون عن ٱلله أمره ونهيه ولا يقبلون دلائل الهدىٰ ، لذلك سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم عن طريق ما يسمعون ، وتتجلىٰ الهداية عن طريق السمع أكثر دقة في المشاهد التي أصل الاعتبار فيها إنما هو بصري الرؤية والهدىٰ فيه عن طريق السمع بقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [2] إن سياق الآية في الصور التي أوردتها وجميعها يندرج تحت المشاهدة البصرية التي هي من مهام العين المبصرة في مشاهدة الليل والنهار والآيات الأخرىٰ التي وردت في الآية ، غير أن طريق الهداية مرهون بالسمع الذي ينقل صورة غير الصورة المادية الحسية مما ينتاب الإنسان من شعور عميق يؤدي به إلىٰ تحسس الهدىٰ في داخل نفسه لا عن طريق المشاهدة الحسية ، وإنما بطريق الشعور والإدراك الذي يولده السمع في النفس الإنسانية ، فذكر السمـٰوات والأرض وخلق الليل والنهار بما في ذلك من منافع للسعي والعمل في النهار ، وبعد ذلك الهدوء والراحة والسكينة في الليل ، وهـٰذا مضيء وذاك مظلم ، إنما هي دلائل لمن يسمع

(1) الأنفال ، 21 ـ 22 .

(2) يونس ، 67 .

ما يقال في ذلك من الآيات من أجل العظة والاعتبار الذي يؤدي إلىٰ الهدىٰ وهو بينة لمن يسمعون ويتدبرون ويعتبرون بذلك .

وأما مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كل الاختلاف عن قضية السمع ، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [1] فإنك إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلىٰ ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلاً عن إرشادك إياهم ، وإنك لتراهم كأنما ينظرون إليك ، وهم في الحقيقة لا يرون شيئاً ، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع ، فهم غير قادرين علىٰ الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع ، ونعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهٰذه الجوارح ، فإنها آلات يستعين بها الإنسان في جميع أموره ويسيرها العقل المدرك ، والمخلوقات الأخرىٰ وإن امتلكت هٰذه الأعضاء والجوارح فهي تفتقد إلىٰ العقل المدبر للاختيار ، فالإنسان له الفضل عليها بامتلاكه العقل المسيطر علىٰ هٰذه الأعضاء ؛ لأن الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهٰذا البيان أن الإنسان أفضل من هٰذه المخلوقات بكثير ، ومن هنا تأتي أهمية البصر في اختيار طريق الهدىٰ .

إن الهادي تبارك وتعالىٰ أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسله ، وبين لهم الطرق ووضح لهم السبل حتىٰ يتبين الخلق الرشد من الغي والهدىٰ من الضلال والإصلاح من الإفساد ، وميز الصديق الصالح من قرين السوء فقد قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ

(1) الأعراف ، 198 .

أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (1)

فٱلله سبحانه وتعالىٰ ينص في هـٰذه الآية علىٰ أنه هو الهادي ، لا عن طريق المباشرة ، وإنما من خلال الدلائل التي بثها في هـٰذا الكون والمعجزات الدالة علىٰ الخالق ، والهداية هنا هداية التوحيد والانصياع لأوامر ٱلله تعالىٰ فيما أوجب علىٰ الخلق من العبادة ، لذلك أنكر علىٰ الذين اتخذوا غير ٱلله آلهة أو جعلوا له شريكاً هـٰذا العمل ، إذ ليس من معبودات هـٰؤلاء التي جعلوها شركاء لله مَن يستطيع التمييز بين الهدىٰ والضلال ، فيرشد سواه إلىٰ السبيل الحق ، فهل القادر علىٰ الهداية إلىٰ الحق أولىٰ بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهتدي في نفسه ، وهو لا يهدي غيره ، اللهُمَّ إلا إذا هداه غيره ، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه فإن أدنىٰ مراتب العبودية هداية المعبود لعباده إلىٰ ما فيه صلاح أمرهم ، ٱلله يهدي من يشاء للحق دون غيره بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبر الصائب فإن العقول مضطربة والأفكار مختلطة وتعيين الحق صعب ولا يسلم من الغلط إلا الأقل من القليل فالاهتداء لإدراك الحقائق لا يكون إلا بإعانة ٱلله وهدايته وإرشاده ، فالذي يهدي إلىٰ الحق بإعطاء العقل وبعثة الرسل وإنزال الكتب والتوفيق إلىٰ النظر والتدبر بما نصب في الآفاق والأنفس إلىٰ غير ذلك هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فبين سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلىٰ الحق أحق بالاتباع ممن لا يهدي ، إلا أن يهديه غيره ، فلزم أن يكون الهادي بنفسه له الكمال دون الذي لا يهتدي إلا بغيره ، وإذا كان لا بد من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وهو أحق أن يتبع ، ولما كان كمال العبد في كونه عالماً بالهدىٰ متبعاً للحق ومعلماً لغيره ، فهو من الهداة المهتدين ، فالهادي من الخلق بالضرورة أن يكون مهتدياً ، لأن الهادي إذا لم

(1) يونس ، 35 .

يكن مهتدياً في نفسه لم يصلح كونه هادياً لغيره ؛ لأنه يوقع الناس في الضلال من حيث لا يشعر ، وأما الهادي بالإضافة فهو خليفة ٱلله في أرضه ومنه اكتسب صفة الهدىٰ ، فلذلك وجب عليه أن يبصّر عباد ٱلله ويعرفهم طريق معرفته حتىٰ يقروا بالهادي وصولاً إلىٰ الهدىٰ ، ذلك أن الهادي بالإضافة هو الدليل إلىٰ الخيرات والمرشد إلىٰ الطاعات .

إن مسألة الهداية والعصمة والتوفيق والإرشاد إلىٰ الهادي جل شأنه أخذت اتجاهات شتىٰ في كلام أهل الجدل وأصحاب التفسير وأقوال المتكلمين ، وإن لم يشر البعض إلىٰ اللفظة صراحة ، وإنما في قضية الجبر والاختيار بالنسبة للمخلوقين من أصحاب العقول من الجنة والإنس ، ونحن نقول : إن الهداية هي حق وجب لكل مخلوق ممن ذكرنا ، فمن منع ذلك فقد ظلم وأساء ، وإن كانت الهداية والإرشاد والعصمة والتوفيق هي حق من حقوق ٱلله تعالىٰ فإنه يختص برحمته من يشاء ، وهنا يجدر القول أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ كتب الهداية لمن علم أنه سوف يأخذ بأسبابها ويتوصل بتلك الأسباب إلىٰ الهادي ، فكتبه من المهتدين لعلمه بأنه سوف يفعل ذلك ، وأما الذين اتخذوا طريق الغي سبيلاً ، فينسحب عليهم ما انسحب علىٰ أصحاب الهدىٰ من علم ٱلله المسبق بما سوف يعملون قبل أن يعملوه فكتبهم من الضالين البعيدين عن طرق الهدىٰ وسبل الرشاد ، وعلىٰ هـٰذا فيكون خلق فعل الضلال من ٱلله تعالىٰ ، كما أن خلق فعل الهدىٰ منه سبحانه ، وعلىٰ هـٰذا فإن خلق الفعلين من ٱلله تعالىٰ ، وأما اختيار أحد الفعلين والسير في طريق أحدهما دون الآخر فهو اختيار المخلوقين ؛ لأن ٱلله تعالىٰ ما كان ظلاماً للعبيد ، وبعبارة واضحة ومثال بسيط نقول : من بين عدد من طلابك مثلاً قلّ العدد أو كثر ، تعرف طالباً منهم أنه مجتهد ومتابع وحريص علىٰ علمه ، فعندما تسأل عنه تقول إنه ناجح علىٰ الرغم من أن بينه وبين الامتحان أياماً وشهوراً ، فأنت أصدرت حكماً صادقاً قبل زمن وقوع فعل النجاح لعلمك المسبق بما سيكون عليه مستقبلاً ، وعلىٰ

العكس من هـٰذا يكون طالب مهمل ، ويقال لك هل هـٰذا ناجح ، فتجيب بكل بساطة : أتريد أن ينجح من هو راسب ، وهـٰذا الحكم أيضاً قبل وقوع الفعل ، والآن نستطيع أن نفهم قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (1) فٱلله تعالىٰ أركسهم ولـٰكن بما كسبوا ، وهنا لا يسوغ الاختلاف في شأن هـٰؤلاء أهم مهتدون أم ضالون ، وهم قابلون لأن يكونوا مهتدين أو لا ترجىٰ منهم هداية ، إنهم قلبت مداركهم بما اكتسبوا من أعمال ، جعلت الشر يتحكم فيهم وما كان لك أن تتوقع هداية من قَدَّر ٱلله في علمه الأزلي أنه لن يهتدي ، فإن من يُكتب في علم ٱلله الأزلي ضلاله ، فلن تجد طريقاً لهدايته ، وبهـٰذا المفهوم علىٰ ما نعتقد وإن شاء ٱلله نكون من أصحاب السداد فيما نقول : إن ٱلله تعالىٰ بعلمه الأزلي حكم علىٰ مجريات الأبد بما كان وبما سيكون ، ومن هنا لا أحد يستطيع أن يفعل حيال نفسه شيئاً مما قدر عليه بفعل نفسه وتم به القضاء ولا أحد أيضاً يضل نفسه ولا يضله غيره من المخلوقين وإنما المضل الهادي هو ٱلله وحده دون جميع خلقه من الإنس والجن والملائكة والشياطين وسائر الخلق أجمعين ، ومن نسب إليه منهم ضلال فإنما نسب إليه مجازاً لا حقيقة إذ كان هو السبب الظاهر للخلق كما قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (2) فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ حيث كان هو المدبر في الفتنة والداعي إلىٰ الضلال بعبادة العجل الذي أبعدهم في هـٰذا الفعل عن طريق الهدىٰ الذي كانوا عليه ، فأضاف الإضلال إلىٰ السامري ؛ لأنه كان حصل بتقريره ودعوته ، وأضاف الفتنة إلىٰ نفسه عز وجل لحصولها بفعله وقدرته وإرادته وخلقه ، وعلىٰ هـٰذا يكون إضافة الأشياء إلىٰ أسبابها

---

(1) النساء ، 88 .

(2) طه ، 85 .

ومسبباتها ، فلا يجوز أن يكون المراد أن ٱلله تعالىٰ خلق فيهم الضلال وأبعدهم عن الهدىٰ ، لأن الدلائل العقلية والمنطق السليم يعارض ذلك ، فلا يجوز من ٱلله هـٰذا الفعل من الجانب العقلي ، ولو كان ٱلله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ وأيضاً فلأن موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة فقال : ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (1) فلو حصل ذلك بخلق ٱلله تعالىٰ لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أن ٱلله خلقه فينا لا ما ذكرت ، فكان يبطل تقسيم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأيضاً فقال ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له ، ولذلك قال فتنّا قومك وأضلهم السامري ، وذلك لأن الفتنة هنا بمعنىٰ الامتحان ، فهنا شدد ٱلله التكليف عليهم وذلك لأن السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا علىٰ الهداية بأنفسهم بما امتلكوا من أسباب تلك الهداية وقد كانوا عليها قبل الفتنة ، إذ أن جميع المسببات العادية تضاف إلىٰ أسبابها المؤثرة فيها في الظاهر ، ومثل هـٰذا أيضاً ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (2) وهنا تتجلىٰ هداية التأييد من الهادي التي تمثلت بالفضل ، فلولا أن ٱلله تفضل علىٰ نبيه بالوحي ورحمه بالإدراك النافذ ، لأرادت طائفة منهم السعي إلىٰ الإضلال ، ولـٰكنهم لا يضلون إلا أنفسهم ، لأن ٱلله أطلع نبيه عليه الصلاة والسلام علىٰ تدبيرهم ، وجعل بصيرته نافذة إلىٰ الحق ، فلا ضرر عليه من تدبيرهم وتضليلهم ، وقد أيده ٱلله تعالىٰ بنور الهداية بما أوحىٰ إليه من القرآن الكريم الذي هو ميزان

---

(1) طه ، 86 .

(2) النساء ، 113 .

الحق ومصباح الهدىٰ وسبيل الرشاد ، وأودع قلبه الحكمة وعلمه من الشرائع والأحكام ما لم يعلمه إلا بوحي منه ، حيث كان ضمان الهداية من ٱلله تعالىٰ مخاطباً نبيه : إن فضل ٱلله عليك عظيم بما أنعم عليك من مصابيح الهدىٰ في توخي طريق العدل ، وأن وبال ذلك الإضلال يرجع عليهم بسبب تعاونهم علىٰ الإثم ، ومردُّ ذلك إلىٰ هداية ٱلله تعالىٰ وحكمته في أنه يعصم المؤيدين بالهدىٰ ممن يحاول إضلالهم ، فمن تولاه ٱلله بفضله وشمله بإحسانه وكفاه غائلة من أراده بسوء فلا سبيل إلىٰ فتنته أو إبعاده عن الهداية التي قضاها الهادي جل شأنه له .

ومثل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ (1) وإرادة الفتنة من ٱلله تعالىٰ هنا لا تدخل في المشيئة ، وإنما تدخل في باب العلم من ٱلله تعالىٰ أن هـٰؤلاء لن يهتدوا أبداً بما تقدم أيديهم من باب الاختيار بين الخير والشر والهدىٰ والضلال والغي والرشاد ، فترك الخير والهدىٰ والرشاد ، واتباع الشر والضلال والغي ، هو من قبيل التمسك بالجهل الموفي بأهله علىٰ المهالك ، فهـٰؤلاء لا يؤسف عليهم بصنيع أفعالهم من تركهم طريق الهدىٰ الموصل إلىٰ الهادي ، فهم ينتقلون في مراتب الضلال من أدناها إلىٰ أعلاها مسارعين فيها ، من هـٰؤلاء المخادعين الذين قالوا : آمنا بألسنتهم ولم تذعن للحق قلوبهم فمن يرد ٱلله ضلاله لانغلاق قلبه فلن تستطيع أن تهديه أو أن تنفعه بشيء لم يرده ٱلله له ، وأولئك هم الذين أسرفوا في الضلال والعناد لم يرد ٱلله أن يطهر قلوبهم من دنس الحقد والعناد والجهل والضلال ، ولهم في الدنيا ذل بالفضيحة والهزيمة ولهم في الآخرة عذاب شديد عظيم .

---

(1) المائدة ، 41 .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الهادي ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك بخلق أفعال الهدىٰ وأفعال الضلال ، وعلىٰ هـٰذا يكون الخلق من ٱلله وممارسة الفعل من الإنسان ، سواء أفعال الهدىٰ والرشاد أم أفعال الغي ، قال ٱلله جل ذكره إخباراً عن كليمه موسىٰ عليه الصلاة والسلام في مناجاته له : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ (1) ، والهداية تكون علىٰ معنيين أحدهما بمعنىٰ الإيضاح والإرشاد يقال : أهديت فلاناً الطريق أي أرشدته إليه ، والآخر بمعنىٰ التوفيق قال ٱلله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (2) أي أنك لا تستطيع أن توفق للهداية من أحببت ، ولـٰكن ٱلله يوفق من يشاء ، ولا يجوز أن يريد به هـٰهنا الإرشاد والإيضاح ؛ لأنه لا خلاف بين المسلمين أن النبي ﷺ أرشد وبين وأوضح وبلغ من يحب ومن لا يحب ، فبين بذلك هدي الرسالات السماوية التي قبله ، والرسالة التي جاء بها ﷺ ، إذ لا خلاف أن الدين عند ٱلله الإسلام ، وجميع الرسالات السماوية كلها مصدرها الهادي جل جلاله ، وهنا نستطيع أن نقول : إن هدي النبي عليه الصلاة والسلام هدي تكليف ، وأما بالنسبة للمبلغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو الخليفة وهو الهادي بالإضافة ، ولأن الهادي هادي الطريق ، والهدىٰ واحد من الطرق التي تؤدي إلىٰ النجاة ، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين به إلىٰ نجاتهم وفوزهم ، وأما الفتنة فمعناها الامتحان والاختبار إلا أنها مستعملة في عرف التخاطب بمعنىٰ الخذلان ، يقال : فُتن فلان إذا أخذل وضل ، ويدل علىٰ صحة هـٰذا التأويل أنه قال الهادي بمعنىٰ الموفق فمعناه وٱلله أعلم أنه الموفق بفضله ، والخاذل

---

(1) الأعراف ، 155 .

(2) القصص ، 56 .

لمن شاء بعدله لا إلـٰه إلا هو الفعال لما يريد .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الهادي في أسمائه والهادي في خلقه ، وهداية الأسماء تختلف عن هداية الخلق ، إذ أن هدىٰ الأسماء يحمل دلالات معنوية لا حسية ولا مشاهدة ، غير أن حصول هـٰذا النوع من هدي الأسماء للذات الإلـٰهية إنما يرتبط بالإنسان عن الامتناع عن نوعين من الأفعال ، والإقبال علىٰ نوعين آخرين ، وقبل أن نذكر تلك الأفعال لا بدّ من معرفة كيفية هداية الأسماء ، فللّه الأسماء الحسنىٰ ، ونذكر منها علىٰ سبيل المثال لا علىٰ سبيل الحصر كيفية الوصول إلىٰ الهدىٰ من خلال الأسماء ، فالغفور والرحيم والتواب والعفو ، كل هـٰذه الأسماء يتوصل بها إلىٰ الهداية ، ولأجل الوصول إلىٰ هداية الاسم وجب علىٰ الإنسان ترك الأفعال المادية التي تؤدي إلىٰ الغواية والضلال ، ويدخل ضمنها أفعال الأذىٰ قولاً أو عملاً ، والإقدام علىٰ نوع آخر من الأفعال قولاً وعملاً أيضاً ، وقد جمع الأمر والنهي في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) فٱلله سبحانه وتعالىٰ من أجل هداية خلقه يأمرهم بأن يعدلوا في أقوالهم وأفعالهم ، ويقصدوا إلىٰ الأحسن في كل الأمور ، فيفضلوه علىٰ غيره ، كما يأمر بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه لدعم روابط المحبة بين الأسر وصلة الرحم ، وينهىٰ عن فعل كل خطيئة ، خصوصاً الذنوب المفرطة في القبح والسوء والرذيلة ، وكل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة ، كالاعتداء علىٰ الآخرين ، واللَّه سبحانه بهـٰذا يذكرهم ويوجههم إلىٰ الصالح من أمورهم ، لعلهم يتذكرون فضله في حسن توجيهه لهم ، فيمتثلوا كلامه من أجل هدايتهم ، فالأمر بالعدل هو بحد ذاته نهي عن الظلم ، ومن انتهىٰ عن الظلم فقد اهتدىٰ إلىٰ الحق ، وليس الظلم

(1) النحل ، 90 .

هو ظلم الآخرين فقط ، وإنما هو أيضاً ظلم النفس ، لذلك كان الأمر بالعدل بأن لا تظلموا أنفسكم ولا غيركم ولا تجوروا بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وترك الظلم ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وكذلك هو أمر بمراعاة التوسط بين الأمور ، والعدل أيضاً هو صرف ما أعطاك ٱلله من الجوارح البدنية والأدوات الروحية ومن الأموال الدنيوية وما وهب ٱلله خلقه من صحة وعافية وسمع وبصر كل ذلك يجب إعماله في طلب الهداية والسير في طريقها إليه ؛ لأن صرفه في طلب غير هـٰذا الاتجاه ضلال مبين ، ومن هنا نتبيَّن الهادي في أسمائه كيف يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ العدل وهو الحق العدل جل جلاله .

ونقف علىٰ دلالة الهادي لخلقه في أسمائه أيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] فالذين أكثروا علىٰ أنفسهم من المعاصي وأسرفوا فيها لم تغلق أمامهم أبواب التوبة والرحمة والمغفرة ، لأن ٱلله تعالىٰ يهدي إلىٰ الغفور ، فلا تيأسوا من رحمة ٱلله ، لأن ٱلله يتجاوز عن الذنوب جميعاً بعظيم رحمته فالإسراف تجاوز الحد في كل ما يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق وغيره من الأعمال ، وتعدية الإسراف تعني تضمين معنىٰ الجناية والإفراط في المعاصي وارتكاب الكبائر والفواحش ، فخصوص السبب لا ينافي عموم اللفظ فدخل فيه كل مسرف ، « واعلم أن القنوط من رحمة ٱلله علامة زوال الاستعداد ، والسقوط عن الفطرة بانقطاع الوصلة بين الحق والعبد إذ لو بقي شيء في العبد من نوره الأصلي لأدرك أثر رحمته الواسعة السابقة علىٰ غضبه ، فرجاء وصول ذلك الأثر إليه لاتصاله بعالم النور بتلك البقية وإن أسرف وفرط في جنب ٱلله وأما اليأس فدليل الاحتجاب الكلي واسوداد الوجه ، فٱلله تعالىٰ يغفر الذنوب جميعاً بشرط بقاء نور التوحيد في القلب فإذا لم يبق دخل في

---

(1) الزمر ، 53 .

قوله »[1] ، وكذلك من الهادي في الأسماء ما فيه هدي توبة ورحمة ، وليس بالضرورة أن يكون الإنسان قد اقترف ذنباً وإنما هي هدي هداية للهادي كما يتضح ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] وهـٰذا دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بعد أن رفعا القواعد من بيت ٱلله الحرام ، والتوبة إلىٰ الهادي هنا هي توبة عصمة وإخلاص ، لا توبة عن ذنب قد مضىٰ ، ربنا وفقنا واجعلنا مخلصين لك واجعل من ذريتنا جماعة مخلصة لك ، وعلمنا طريقة عبادتنا التي ترضىٰ بها عنا أي اهدنا إلىٰ طريقة عبادتك علىٰ الوجه الذي يرضيك في بيتك الحرام وما حوله ، وطلب التوبة وقبول المغفرة برحمتك عن خطأ أو نسيان وحاشا لأنبياء ٱلله ، ولـٰكن مع ذلك قال عليه الصلاة والسلام وتب علينا إن نسينا أو أخطأنا إنك أنت كثير القبول لتوبة عبادك ، الغافر لهم بفضلك ورحمتك والهادي لهم لما تحبه وترضاه ، فالإخلاص طريق الهداية ، والمراد من المسلم أن يجعل نفسه وذاته خالصاً لله تعالىٰ بأن يجعل التذلل والتعظيم الواقع منه للسان والأركان والجنان خالصاً له تعالىٰ ولا يعظم معه تعالىٰ غيره ويعتقد بأن ذاته وصفاته وأفعاله خالصة له تعالىٰ خلقاً وملكاً لا مدخل في شيء منها لأحد سواه ، وكذلك اجعلنا مستسلمين لك منقادين بالرضا بكل ما قدرت وبترك المنازعة في أحكامك ، بمعنىٰ الاستسلام والانقياد والرضا بالقضاء وهـٰذا أعلىٰ درجات الهدىٰ ، وعلىٰ الرغم أنهما كانا مخلصين ومستسلمين في زمان صدور هـٰذا الدعاء منهما ، إلا أن المراد هو طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان والثبات عليه ، فهـٰذا تعليم منهما للناس الدعاء للتثبيت علىٰ الهدىٰ ، فإنهما لما سألا ذلك مع أمنهما من زواله عنهما

---

(1) تفسير حقي ، ج 12 ، ص 308 .

(2) البقرة ، 128 .

فكيف غيرهما مع خوفه ، وسألا أيضاً الثبات علىٰ الانقياد فأجيبا إلىٰ ذلك حتىٰ أسلم إبراهيم للإلقاء في النار وإسماعيل للأمر بالذبح . ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ ﴾ أي : واجعل بعض ذريتنا جماعة مخلصة لك بالعبادة والطاعة ، وإنما خص الذرية بالدعاء مع أن الأنسب بحال أصحاب الهمم وخاصة الأنبياء أن لا يخصوا ذريتهم بالدعاء لـٰكنهما خصاهم لوجهين : الأول كونهم أحق بالشفقة كما في قوله تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ (1) .

فدعوا لأولادهما ليكثر ثوابهما بهم ؛ لأنه ما من رجل من المسلمين يخلف من بعده ذرية يعبدون ٱلله تعالىٰ إلا جعل ٱلله له مثل أجورهم ما عبد ٱلله منهم عابد حتىٰ تقوم الساعة ، والثاني أنه وإن كان تخصيصاً صورة إلا أنه تعميم معنىً لأن هدىٰ أولاد الأنبياء سبب وطريق لهدي الناس فكأنهما قالا واهدِ عامة عبادك بهدي بعض ذريتنا وخصا البعض من ذريتهما لما علما أن من ذريتهما محسن وظالم لنفسه ، وربما يفهم البعض أن طلب الهداية والتوبة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من باب تجوز الذنوب علىٰ الأنبياء ، قياساً علىٰ أن التوبة لا تطلب من ٱلله إلاّ بعد تقدم الذنب ، فلو لا تقدم الذنب لم يكن لطلب التوبة مبرر ، إلا أننا نقول : إن أيوب عليه الصلاة والسلام خلال مدة ابتلائه لم ينفك عن التوبة والاستغفار ، ومعنىٰ ذلك : أن الإنسان وإن اجتهد في طاعة ربه عز وجل فإنه لا ينفك عن تقصير في بعض الأوقات ، إما علىٰ سبيل السهو أو انشغاله بعمل ، فكان هـٰذا الدعاء لأجل ذلك ، ونحن نعتقد أن ٱلله تعالىٰ لما أعلم إبراهيم أن في ذريته منهم ظالماً لنفسه سأل ربه التوبة لأولـٰئك الظلمة ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ

(1) التحريم ، 6 .

عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [1] طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ربه أن يجعل البلد الذي سينشأ حول البيت بلداً آمناً ، وأن يرزق من ثمرات الأرض وخيراتها من آمن من أهله بٱلله واليوم الآخر ، فأجابه ٱلله بأنه لن يضنَّ حتىٰ علىٰ الكافر نفسه بالرزق في أثناء حياته القصيرة ، ثم يلجئه يوم القيامة إلىٰ عذاب جهنم ، والمعنىٰ المقصود بجملته هو طلب التوبة للظلمة من أولادنا حتىٰ يرجعوا إلىٰ طاعتك فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما والمراد به ذريتهما ، أنهما لما رفعا قواعد البيت وكان ذلك أحرىٰ الأماكن بالإجابة دعوا ٱلله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليُقتدىٰ من بعدهما في ذلك الدعاء ؛ لأن ذلك المكان هو موضع التنصل من الذنوب وسؤال التوبة والمغفرة والهدىٰ إلىٰ سبيل ٱلله تعالىٰ .

وأما الهادي عز وجل من خلال التواب ، فإن أول عباد ٱلله وأول خلقه من الإنس من اهتدىٰ بالاسم هو آدم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالىٰ : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] فعندما أحس آدم عليه الصلاة والسلام هو وزوجته بخطئهما وظلمهما لأنفسهما ، طلب التوبة ليهتدي إلىٰ الصراط الحق الذي يرضىٰ به ٱلله تعالىٰ عنه ، فألهم ٱلله تعالىٰ آدم عليه الصلاة والسلام كلمات يقولها للتوبة والاستغفار ، فقالها : فتقبَّل ٱلله منه وغفر له وهٰذه الهداية من اسم التواب ، وبصرف النظر عما قال العلماء والفقهاء والمفسرون مما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة في الكلمات التي تلقاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه ، فإنما هي العهود الإنسانية والمواثيق الآدمية والمناجاة الربانية من الخليفة إلىٰ الحق تعالىٰ جل جلاله ، فهي كلمات هداية أوصلته إلىٰ الرشد ليتوب ٱلله تعالىٰ عليه ، فتاب آدم عليه الصلاة والسلام

---

(1) البقرة ، 126 .

(2) البقرة ، 37 .

إلىٰ ٱلله بالرجوع عن المعصية والاعتراف بذنبه والاعتذار عن خطئه وسهوه ، فتاب ٱلله تعالىٰ عليه أي فرجع ٱلله سبحانه عليه بالرحمة وقبول التوبة ، وبذلك عاد إلىٰ الهدىٰ ، لأن أصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية إلىٰ الطاعة ، وإذا وصف به ٱلله سبحانه أريد به الرجوع عن العقوبة إلىٰ المغفرة لفتح باب الهداية ، وتمام التوبة من العبد بالندم علىٰ ما كان وبترك الذنب الذي هو فيه ، وبالعزم علىٰ أن لا يعود إليه في مستأنف الزمان ، وبردّ مظالم العباد وبإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه باليد والاعتذار منه باللسان ، وهـٰذا كله من باب العودة إلىٰ ما كان عليه من الهدىٰ ، وربّ سائل يسأل لماذا اكتفىٰ بذكر آدم عليه الصلاة والسلام بالتوبة والهداية ، دون حواء ، وللإجابة علىٰ ذلك نقول : إن الأمر من عدة جوانب وأولها أنها كانت تابعة له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر المواطن في القرآن الكريم وذلك لباب القيام حيث قال تعالىٰ : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (1) والثاني : أن الرجل هو الأصل والمرأة فرع عليه حيث يتضح ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (2) فٱلله سبحانه الذي أوجدكم من نفس واحدة ، وأنشأ من هـٰذه النفس زوجها ، وخلق منهما رجالاً كثيراً ونساء أي قدر خلقكم حالاً بعد حال علىٰ اختلاف صوركم وألوانكم من نفس واحدة ، أي من أصل واحد وهي النفس الآدمية الواحدة (الإنسان) أي أن النفس من حيث الخلق واحدة ومن حيث التعدد ثنائية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (3) ، والثالث أن اللغة تخاطب المؤنث علىٰ التغليب أي تغليب

---

(1) النساء ، 34 .

(2) النساء ، 1 .

(3) الذاريات ، 49 .

المذكر علىٰ المؤنث الذي هو داخل ضمنها وذلك مثل قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (1) فالخطاب للناس شمل الذكر والأنثىٰ ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (2) فالتوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ يكون من المؤمنين رجالاً ونساء ، وهـٰذا يعني أن حواء دخلت في التوبة والعودة إلىٰ الهدىٰ ضمناً وإن لم تذكر ، كما أنها هي التي بادرت إلىٰ المعصية ودفعت آدم إليها ، فكان الحوار مع آدم عليه الصلاة والسلام ، والعتاب موجه إليه دون حواء ولم تذكر أيضاً إلا في حال إضافتها لزوجها (أنت وزوجك) . ومن باب الهداية في اسم التواب أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) حيث إن خطاب موسىٰ عليه الصلاة والسلام يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم عجل السامري معبوداً لكم دون خالقكم فهو الضلال بعينه والابتعاد عن طريق الهدىٰ والرشاد ، فهـٰذا الخطاب يحمل وجهين من المعاني ، فالأول دور الهادي بالإضافة وهو الخليفة الذي يقوم اعوجاج البشر في الأخذ بيدهم إلىٰ طريق الهدىٰ ، والثاني أن التوبة هي رجوع عن الباطل والغي والضلال إلىٰ طريق الحق الذي هو منارة الهدىٰ ، لذلك أمرهم أن يتوبوا إلىٰ ربهم وخالقهم ، وهـٰذه التوبة سوف تكون طريق العون إلىٰ ٱلله الذي يهدي الضالين ويتوب عليهم ، فإن هم اتبعوا الخليفة وامتثلوا لأمره فقد ترتب علىٰ ذلك التوفيق إلىٰ الهدىٰ بترك الضلال عن طريق التوبة ، وبقبول التوبة من ٱلله تعالىٰ بإرشاد الخليفة يتم العفو الموصل إلىٰ الهدىٰ . فاقتراف الذنوب هو مخالف لسنة ٱلله تعالىٰ في خلقه بدليل ذكر ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ والبرء في جملة ما يعنيه

(1) النساء ، 174 .
(2) المائدة ، 11 .
(3) البقرة ، 54 .

أنه برأكم خَلقاً في الصورة وخُلُوقاً في التقويم والعدل والاستقامة وهي فطرة ٱلله الذي فطر عليها عباده بأنهم مهتدون إلىٰ الخالق قبل اقتراف الذنوب ، حيث قال النبي ﷺ : « ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » (1) فالإنسان خلقه ٱلله تعالىٰ بريئاً من العيوب والنقصان والتفاوت ، ولـٰكنه ميز بعض خلقه من بعض بصور وهيئات مختلفة ، فهـٰؤلاء الذين تركوا فطرة ٱلله في هدايته لهم وعصوا أمر الخليفة ، فقد بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغباوة منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي هو لا يريد بعباده إلا الهدىٰ والرشاد حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (2) فٱلله تعالىٰ علىٰ صراط مستقيم ، والصراط المستقيم هو طريق الهدىٰ وسبيل الرشاد ، الذي يوصل إلىٰ الهادي ، وهو الذي آخذٌ بكل ناصية إلىٰ صراطه ، وعلىٰ هـٰذا يكون ٱلله تعالىٰ آخذاً بنواصي خلقه إلىٰ هدايتهم إلا من أبىٰ ، أي رفض وامتنع واتخذ غير سبيل ٱلله أو عصىٰ ما أمره به الخليفة حيث جاء في الحديث أن رسول ٱلله ﷺ قال : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ قالوا : يا رسول ٱلله ومن يأبىٰ ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبىٰ » (3) ، وكما أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو هادٍ في أسمائه ، فهو أيضاً هادٍ في خلقه ، وأول هداية الخلق بالخلق ، ما أرسل ٱلله الهادي رسله بالبينات ليبينوا للناس حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (4) وهنا تتضح هداية الهادي في خلقه وهي دعوة لاتباع المرسلين

(1) صحيح البخاري ، ج 5 ، ص 143 .
(2) هود ، 56 .
(3) صحيح البخاري ، مجلد 22 ، ص 248 .
(4) يس ، 20 ـ 21 .

من ٱلله إلىٰ الناس ، فهم لا يطلبون أجراً علىٰ نصحهم وإرشادهم ، وإنما غاية الدعوة هي إيصالهم إلىٰ ما أمر ٱلله به من الهدىٰ ، وهنا يتجلىٰ دور الخليفة الهادي بالإضافة ، فهو يعلم من الهادي المطلق ما لا يعلمه الآخرون ، لأن ٱلله تعالىٰ يختار ويختص من عباده من يشاء ؛ لأنهم مهتدون ينتفع الخلق بهديهم في سلوك طريق الخير والفلاح ، وتكون الدعوة إلىٰ الهادي المطلق من الهادي بالإضافة إلىٰ خير الدين والدنيا ؛ لأنه المهتدي إلىٰ طريق الحق الموصل إلىٰ هـٰذا الخير ، فإذا كان الذي يدعوك إلىٰ الخير والهدىٰ وطريق الحق ويأخذ بيدك إلىٰ الخيرات وينأىٰ بك عن الزلات هو من هو إنسان عادي فوجب عليك اتباعه ، وإن لم يكن رسولاً ويكفي أنه يأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر ، فكيف إذا كانوا رسلاً ومهتدين ، فإذا هم الخلفاء الذين وجب اتباعهم ، لأن الرسول مهتد لا محالة ، وكونهم مهتدين فالعقل يسلم بصلاح ومنطقية ما يقوله الهادي بالإضافة ، ذلك أنهم يرغبون في اتباعهم لا من أجل عرض الحياة الدنيا ولا يريدون أجراً علىٰ ذلك ، ومع ذلك فترىٰ بعض الناس يعرضون تكبراً ، ونحن نقول لمثل هـٰؤلاء ، إن كانت الهداية لا تقدم لكم منفعة آنية في الوقت الحاضر ، ولا تؤمنون أنها تقدم لكم منفعة مستقبلاً أو في الحياة الآخرة فإن الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق أيضاً لا تضركم ، ومن هـٰذا الباب وجب اتباعها ؛ لأنها تتنزه عن الغرض الدنيوي وتدعو إلىٰ الاهتداء إلىٰ الخير ، وعلىٰ هـٰذا فالذين يتبعون هدىٰ الهادي في خلقه لا يخسرون معه شيئاً من دنياهم ويكسبون صحة دينهم فيحصل لكم خير الدنيا والآخرة ، فالدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق هداية من مخلوق لمخلوق وهي في غاية الاستقامة والحسن وذلك من حيث الشعور النفسي والارتياح ، ولا شك أن الخلق في الدنيا علىٰ فطرتهم سالكون طريق الخير في داخلهم وطالبون للاستقامة بدليل أن الإنسان السيئ إذا مدحته وذكرته بخير فإنه يهتز طرباً وتنفرج أساريره عن الرضا والارتياح ، وإذا ذكرته بما فيه من السوء الذي يعلمه بنفسه ويمارسه فإنه سوف ينكر عليك ذلك ولا يقبله منك لأن طبيعة النفس الإنسانية تميل إلىٰ الخير رغماً عن العقل ؛

لأنها تعلم الدليل إلىٰ الطريق بالفطرة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل وجوب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مغالاة الدليل في طلب الأجر ، وإما عند عدم الاعتماد علىٰ اهتدائه ومعرفته بالطريق ، لـٰكن هـٰؤلاء لا يطلبون أجراً وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلىٰ الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ، لذلك وجب اتباعهم .

ومثلما أن ٱلله تعالىٰ هو الهادي في أسمائه ، والهادي في خلقه كذلك هو هادٍ في الخصوصية التي اختص بها بعض مخلوقاته دون البعض مثل الأنبياء والمرسلين والأولياء والخلفاء ، وهـٰذا هدي اختصاص من ٱلله تعالىٰ بالنسبة للبشر ، أما المخلوقات غير العاقلة فقد هداها إلىٰ ما هي مخلوقة له بشكل عام ، وكذلك جعل لبعضها خصوصية لحكمة أرادها الهادي لقضاء أمر أو لتعريف الإنسان قدر نفسه من خلال مخلوقات ضعيفة تفعل ما لا يستطيع الإنسان فعله فقد جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) فٱلله الهادي هدىٰ هـٰذه النملة لتخاطب قومها خوفاً عليهم من الهلاك ، وبذلك أرادت هدايتهم إلىٰ ما فيه نجاتهم من الموت الذي قد يسببه جنود سليمان عليه الصلاة والسلام من تحطيم جماعة النمل ، فقالت لهم بطريق الهداية : يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم لكيلا تميتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم يا معشر النمل ، ادخلوا مساكنكم لا يهلكنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم . فسمعها سليمان فتبسم ضاحكاً متعجباً من قولها ، وسأل ٱلله تعالىٰ أن يلهمه شكره علىٰ ما أنعم

(1) النمل ، 18 ـ 19 .

عليه وعلىٰ والديه من عِلم وملك ، وأن يوفقه للعمل الصالح الذي يرضاه ، وأن يدخله في رحمته وكرمه وفضله ويجعله من جملة عباده الصالحين . ومن البديهي أن سليمان عليه الصلاة والسلام من المهتدين الذين يهدون إلىٰ الهادي ، ومع ذلك فإن هدي النملة لجماعتها جعله يتشبث بهداه أكثر ويدعو ٱلله أن يثبته عليه ، وهدي النمل لم يقتصر علىٰ هـٰذه الحادثة ، ولـٰكن ٱلله هداه أيضاً إلىٰ أمور يعجز عنها الإنسان وقد كتب كثير من الكتاب والباحثين عن معيشة النمل ونظامها الدقيق في حياتها ، وما لها من عجائب في معيشتها وتدبير شئونها ، ومثابرتها علىٰ العمل ، وأنها تتخذ القرىٰ في باطن الأرض ، وتخزن قوتها لأيام الشتاء .

وكما هدىٰ النمل كذلك فقد هدىٰ النحل لما هو مكلف به وحياً ليس بمعنىٰ أنه أرسل إلىٰ النحل رسلاً من الملائكة تهديها إلىٰ ما يجب عليها فعله ، وإنما هو هدي برمجة وإلهام بما أودع ٱلله فيها من تصريف الأمور لتصنع شراباً يهتدي البشر إلىٰ الشفاء الذي أودعه ٱلله فيه بما هدىٰ النحل إلىٰ استخلاصه من أنواع شتىٰ من الزهور والورود والنباتات علىٰ اختلاف أنواعها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (1) فقد ألهم ٱلله تعالىٰ النحل أسباب حياتها بما أودع فيها ، ووسائل معيشتها بما بثّ لها من أسباب الرزق وهداها إليه ، وكذلك هداها إلهاماً بأن تتخذ من الجبال بيوتاً في الكهوف ، ومن فجوات الشجر وبين الصخور ، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتاً كذلك ، فهـٰذا التنوع في الهداية إلىٰ اتخاذ بيوت النحل في مناطق مختلفة من البيئة والطبيعة ، إنما هو هداية من أجل الهداية ، فلماذا هـٰذا التفاوت ؟ إن ٱلله تعالىٰ هدىٰ النحل إلىٰ اتخاذ المساكن في أنحاء مختلفة في الطبيعة ليس فقط من أجل امتصاص رحيق الأزهار وتحويله إلىٰ شراب فيه شفاء

---

(1) النحل ، 68 .

للناس ، وإن كان يبدو أن هـٰذا هو عملها الأساسي ، إلا أن هناك أمراً أكثر أهمية من العسل ، خاصة إذا علمنا أن النحل يسقط علىٰ أزهار لا يأخذ منها رحيقاً علىٰ الإطلاق ، فلماذا يقف علىٰ أزهار لا ينال منها فائدة ؟ وهنا تكمن الهداية الأهم بالنسبة لهـٰذه الحشرة ، وهي أنها تنقل حبوب الطلع من الذكر للأنثىٰ مما بث ٱلله تعالىٰ من نباتات في هـٰذه الأرض ، وهنا نقف علىٰ الحكمة من هداية النحل في اختلاف مساكنها ، وأما الجانب الآخر فلكي يكون الشراب الذي يخرج من بطونها في متناول الجميع ؛ لأن ٱلله تعالىٰ لم يجعله للخواص وإنما هو عام لكل البشر حيث قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) فقد هداها ٱلله تعالىٰ للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات ، وسهَّل لها أن تسلك لذلك طرقاً هيأها لها ربها مذللة سهلة وهداها إليها ، كي يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس جميعاً دون استثناء ، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية علىٰ وجود صانع قادر حكيم هادٍ ، يهتدي الناس للانتفاع به من أجل الغذاء أو الدواء ، فهـٰذا الغذاء النافع والشراب الشافي ، الذي هدىٰ ٱلله تعالىٰ النحل أن تأكل الأجزاء اللطيفة الطيبة الحلوة الواقعة علىٰ أوراق الأشجار والأزهار ، وتمتص من الثمرات الرطبة والأشياء العطرة ثم تخرجه من بطونها ، وتدخره في بيوتها للشتاء فينعقد عسلاً بإذن ٱلله تعالىٰ ، فأي هدىٰ وأي هادٍ أوحىٰ إلىٰ النحل كل هـٰذا ، فسبحان الهادي وسبحان الخلاق العظيم ، حيث إنه سخرها لما خلقها له وهداها لما فيه خير الإنسان ، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هـٰذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر ، وهنا نذكر هداية دقيقة من ٱلله تعالىٰ لهـٰذا المخلوق العجيب وإن كنا ذكرناه سابقاً في مواطن من هـٰذا البحث ، إلا أننا نرىٰ وجه

---

(1) النحل ، 69 .

الهداية دقيقاً جداً في عملية بناء بيوت النحل ، وذلك أن النحل تبني بيوتاً علىٰ شكل سداسي من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها علىٰ بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة ، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها ٱلله سبحانه وتعالىٰ وهداها ، أن تبنيها علىٰ هـٰذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة خالية ضائعة ، وهداها ٱلله سبحانه وتعالىٰ أيضاً إلىٰ أنها تخرج من بيوتها ، فتدور وترعىٰ ثم ترجع إلىٰ بيوتها ، ولا تضل عنها ، ولما امتازت هـٰذه الحشرة الضعيفة بهـٰذه الخواص العجيبة ، الدالة علىٰ مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك علىٰ الهدي الإلـٰهي فكان ذلك شبيهاً بالوحي ، من هدايتها إلىٰ الطرق التي ألهمها ٱلله أن تسلكها والأزهار التي تأكل منها وما تلقح من أشجار لولا وقوع النحل عليها ما كان لها ثمار . فالهدي الإلـٰهي في مخلوقات ٱلله تعالىٰ عدا الإنسان إنما هو قائم علىٰ طبيعة الخلق المؤثر في السلوك وحياً وإلهاماً وتوجيهاً لما يهدي ٱلله تعالىٰ هـٰذه المخلوقات من تصرفات وأعمال كونها أمماً من أمم الخلق مكلفة أيضاً بغير ما كلف به الإنسان من العبادة ، إذ أن هديها مسخر للإنسان ، فسليمان عليه الصلاة والسلام عندما تفقد الطير لم يجد الهدهد بينها ، فهو لم يعص نبي ٱلله سليمان ، وإنما اهتدىٰ إلىٰ سبب يكون مدعاة لنشر الهدىٰ من الخليفة المكلف من الهادي المطلق حيث جاء ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [1] فعندما تفقد جنوده من الطير لم يجد الهدهد ، فتعجب من ذلك وقال : مالي لا أرىٰ الهدهد ، هل هو بيننا ولم يقع عليه نظري ، أم هو غائب عنا وليس بيننا ، فتوعده بأن ينزل به

---

(1) النمل ، 20 ـ 22 .

عذاباً شديداً يردعه ، أو ليذبحنه إن كان الذنب عظيماً ، إلا أن يأتي بحجة بيِّنة تُبرر غيابه وكان الهدهد قد مكث في مكان غير بعيد زماناً يسيراً ، ثم جاء إلىٰ سليمان يقول له : قد أحطت علماً بما لم يكن عندك علم به ، وجئتك من سبأ بخبر ذي شأن عظيم وهو مستيقن بذلك ، فعفا عنه ثم سأله عن ذلك الخبر الذي أحاط به ، علماً ومعرفة وحفظاً من جميع جهاته ، وذلك لأنه كان مما لم يشاهده سليمان عليه الصلاة والسلام ولم يسمع خبره من الجن والإنس ، حتىٰ اهتدىٰ هـٰذا الهدهد إليه وهدىٰ نبي ٱلله إلىٰ ذلك ، وهـٰذا إشارة إلىٰ سمة كرم ٱلله ورحمته بأن يختص طائراً بعلم لم يعلمه نبي مرسل ، وهـٰذا لا يقدح في حال النبي والرسول بأن لا يعلم علماً غير نافع في النبوة فإن النبي عليه الصلاة والسلام ، ولـٰكن هـٰذا العلم بخبر الهدهد وما جاء به أصبح نافعاً بأن هدىٰ أهل سبأ إلىٰ الهادي المطلق الذي بينه لهم الهادي بالإضافة ، لأن هـٰذا الطائر أخبر أن هـٰؤلاء يسلكون طريق الضلال والغي بتركهم الصراط الحق حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (1) فأخبر أنه وجد في أهل سبأ امرأة تحكم قوماً بعيدين كل البعد عن الهدىٰ ، وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا ، من النعيم والسلطان والقوة والمنعة ، ولها سرير كبير يدل علىٰ عظمة ملكها وقوة سلطانها ، فوجدتها هي وقومها في الغي والضلال يعبدون الشمس ولا يتبعون

(1) النمل ، 23 ـ 30 .

هدىٰ ٱلله ، حيث حسَّن لهم الشيطان أعمالهم فظنوها حسنة وهي السوء ، فصرفهم بذلك عن سبيل الحق فهم لا يهتدون ؛ لأنهم لا يسجدون لله تعالىٰ ، الذي يخرج المخبوء في السمٰوات والأرض ويهديه كيف يجب عليه أن يكون مثل هداية النبات في الاتجاه إلىٰ الضوء وهداية المخلوقات المائية إلىٰ طعامها وكل ما هو مخبوء حدد له الهادي طريق الرشاد ليهتدي إلىٰ ما من شأنه منفعته ومنفعة الآخرين في عملية التكامل والتوازن بين مخلوقات ٱلله تعالىٰ ، إذاً فهو يعلم ما تسرون وما تظهرون من الأعمال والنوايا وهو الذي يدعوكم إلىٰ سواء السبيل ويهدي إلىٰ الطريق المستقيم ، وطالما أنه هو خالق الخلق فهو متكفل بهدايتهم ، وعلىٰ هـٰذا لا تحق العبودية لغيره جل جلاله وهو صاحب السلطان المطلق العظيم علىٰ كل ما في الوجود ، لذلك أراد نبي ٱلله سليمان عليه الصلاة والسلام أن يوصل الرسالة المكلف بها ، وهو الخليفة والهادي بالإضافة إلىٰ الهادي المطلق فكلف الهدهد أن يوصل بشائر الهدىٰ عن طريق تحري الخبر ، فبعثه بكتاب حتىٰ يوصله إليها وإلىٰ قومها ثم تنحىٰ عنهم متوارياً في مكان قريب ، لتنظر فيما يرجع به بعضهم إلىٰ بعض ويرددونه من قول ، فجمعت أشراف قومها وأصحاب الرأي والمشورة ، وقالت : يا أيها الملأ إني قد وصل إليّ كتاب عظيم الشأن يدعو إلىٰ الهدىٰ . ثم تلت الكتاب عليهم قائلة : إنه من سليمان وإنه مفتتح باسم ٱلله ذي الجلال والإنعام الذي يفيض برحمته دائماً علىٰ خلقه ويدعوهم إلىٰ الهدىٰ فبما تأمرون ، وكان أول المهتدين هي الملكة نفسها حيث عارضت قومها عندما فوّضوها في الأمر حيث قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [1] فهم مطمئنون بأنهم أصحاب قوة بدنية وأهل نجدة وشجاعة ، لا يخافون حرباً ولا يخشون عدواً ، لذلك قالوا : انظري في الأمر الذي تأمريننا به فإنا

(1) النمل ، 33 .

مطيعون ، ومن هداها ورشدها أدركت أن الأمر ليس بهـٰذه البساطة التي يتصورها بعضهم ، فلما أحست بلقيس منهم الميل إلىٰ الحرب والعدول عن سنن الصواب بادعائهم القوة الذاتية والعرضية شرعت في تزييف مقالتهم المنبئة عن الغفلة فكان من رشدها وعقلها وهداها أنها أجابت كما قال تعالىٰ : ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ (1) . قالت متريثة مسالمة : إن الملوك إذا دخلوا مدينة عظيمة بجيوشهم أفسدوها ، فأذهبوا عمرانها ، وأبادوا الحرث والنسل ، وأهلكوا أهلها ، فكان الصواب منها أن تهتدي ، وذلك باهتداء الهدهد الذي هو هدي مخصوص من الهادي عز وجل لبعض مخلوقاته لأمر يريد نفاذه .

ومن هدي الهادي المطلق هو الاهتداء إلىٰ العلاقات الإنسانية فيما بين الناس مما شرعه ٱلله لخلقه وهداهم إليه حيث يتجلىٰ ذلك في أعظم صوره في الزواج والمحارم والمواريث والدين ، فأما الصورة الأولىٰ حيث نقف عليها في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (2) يا أيها الناس هو خطاب شامل لكل البشر من الذكر والأنثىٰ علىٰ اختلاف الألوان والأجناس والألسنة دون استثناء بأن يتقوا ربهم ، والتقوىٰ هي من دلائل الهداية ، فمن اتقىٰ فقد اهتدىٰ ، والاهتداء إليه عن طريق الأدلة التي تعيشونها وتمارسونها وتعرفونها بأنه هو الذي أوجدكم من نفس واحدة ، وأنشأ من هـٰذه النفس زوجها وهدىٰ كل واحد منهما إلىٰ الآخر ، وخلق منهما رجالاً كثيراً ونساء يهدىٰ منهم من يشاء لمن يشاء ، وهـٰذا الهدي هو هدي الزواج والمصاهرة ليبث من تلك النفس الواحدة شعوباً وقبائل ، مع أنكم تنتهون إلىٰ

---

(1) النمل ، 34 .

(2) النساء ، 1 .

نفس واحدة هي نفس آدم عليه الصلاة والسلام ، واتقوا ٱلله الذي تستعينون به في كل ما تحتاجونه ، ودعوة التقىٰ هـٰذه إنما هي دعوة إلىٰ الهداية والصلاح ، واتقوا أرحامكم فلا تقطعوها قريبة وبعيدة وإنما القريب منها يهدي إلىٰ البعيد لكي تتواصلوا بالعطف والرفق والحنان والشفقة ، وهي أيضاً دعوة من الهادي لإقامة أفضل العلاقات الإنسانية حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) وهي دلائل رحمة ٱلله أن جعل بين الرجال والنساء من المودة والرحمة ما يهتدي كل منهما للآخر ، فقد جعل بين الزوجين المودة والرحمة ، فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف ، وما شيء أحب إلىٰ أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما إلا الزوجان فهـٰذا من هداية ٱلله تعالىٰ لخلقه فيما بينهم ، ومن جانب آخر أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ خلق الإنسان وهداه إلىٰ الطيب من العلاقات الإنسانية وبيّن أن خلق الإنسان لم يكن من الأشياء التي تبقىٰ وتدوم سنين متطاولة في ذات الشخص ، بل أبقىٰ نوعه في أشخاص آخرين ، وجعله بحيث يتوالد ويتكاثر ، فإذا مات الأب يقوم الابن أو الأبناء مقامه لئلا يوجب فقد الواحد تهدم الكيان الأُسري ، وهـٰذا هدي معونة من ٱلله تعالىٰ في استكمال سنته في خلقه لاستمرار الحياة وإعمار الأرض وإصلاح النفس ، وأما ما يخص علاقة السكن﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ فالمقصود أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلىٰ الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه إلا بهدي من ٱلله تعالىٰ فيما يخص العلاقات الإنسانية ، وأما قضية السكن فمن القضايا التي تفضّل ٱلله بها علىٰ عباده ، وسكن الشخص إلىٰ الآخر هو سكون القلب واطمئنانه وهـٰذا نفسي معنوي ، وأمّا سكن عنده ، فهو سكون مجاورة بالمادة

---

(1) الروم ، 21 .

والمكان ، وأما اهتداء المودة والرحمة ، فلكل منهما شأن عظيم في هدي حامل هٰذه الخصال ، ذلك أن الاهتداء إلىٰ المودة هو دون سابق معرفة وهو بمعنىٰ الألفة والتقارب اللطيف بين الجنسين للمحافظة علىٰ بقاء النوع ، وأما الرحمة فهي دائمة مستمرة لمن عرفت وما لم تعرف ، ويستوي في ذلك الصديق والعدو ، وهٰذا لأن الإنسان يحب مثلاً ولده ، فإذا رأىٰ عدوه في شدة من جوع أو عطش أو ألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال عدوه ، وهٰذا ليس من المودة في شيء ، وإنما هو من هدي الرحمة وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب الرحمة ، وأما ما يخص هدي العلاقات القائم علىٰ المودة بين الزوجين وذلك لكون الزوج من جنس زوجه وأحدهما أصل والآخر فرع عليه ، وهٰذا ما يفضي إليه ، فهو هدي الجنسية ، وهو السكون إليه ، فالجنسية توجب السكون ، والمودة والرحمة في هٰذا النوع من العلاقات أن أحدهما يفضي إلىٰ الآخر ، فالمودة تكون أولاً ثم إنها تفضي إلىٰ الرحمة ، ولهٰذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ، ويبقىٰ قيام الزوج بها قائماً بالرحمة ، وأن هدي المودة بينهما آيات ، فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة والتناسل ، فإنها قد تنتفي وتبقىٰ الرحمة فهي من ٱلله ولو كان بينهما مجرد الشهوة ، لكثر الوقوع في الخلافات بسبب العقم المبطل للشهوة أو العقم المبطل للتناسل ، ولو كان ذلك كذلك ، لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق ، فالرحمة هي التي يدفع بها الإنسان المكاره ، وهدىٰ ٱلله الإنسان إليها لاستمرار الحياة ومن هٰذا الباب أيضاً هداية التعرف علىٰ الآخرين فقد حض ٱلله تعالىٰ علىٰ هٰذا الجانب وأمر به في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] إن

---

(1) الحجرات ، 13 .

الخلق من ذكر وأنثىٰ متساوون ؛ لأنهم من أصل واحد هو آدم وحواء فصيرهم ٱلله تعالىٰ بالتكاثر جموعاً عظيمة وقبائل متعددة ، ليتم التعارف والتعاون فيما بينهم من المصاهرة والنسب ، وإن أكرم خلق ٱلله علىٰ ٱلله هم المتقون ، أي المهتدون إلىٰ التقىٰ وهـٰذا هو عين الهدىٰ ، فمن حكم عقله ونظره وبرهانه فقد أخذ بهدي الإقبال علىٰ ما أمر الهادي عز وجل به ، لأن في التعارف تمكن مصالح الناس ، ويسود بينهم السلام والمحبة والأمن ، ويطمئن كل واحد إلىٰ من يعرفه ، وهـٰذا نظير هدي الامتناع في الاطمئنان ، فكما أمر الهادي جل جلاله بالإقبال علىٰ أمر يكمن فيها هدىٰ الناس ورشادهم ، كذلك وضح في هدي الاجتناب والامتناع ما فيه صلاحهم ، ويتضح هدي الاجتناب في النهي عن الخمر والميسر والزنا وبعض أنواع الأطعمة وأنواع المحارم ، فمن الأشياء ما لا يهتدي إليها الإنسان إلا بالتجريب ، وبعض هـٰذه الأشياء إذا دخلت مجال التجربة لحين حصول النتائج ، يكون الإنسان قد أودىٰ نفسه بالتهلكة قبل أن يعلم الضرر المترتب علىٰ ما أقدم عليه ، لذلك كان هدي الهادي إلىٰ هـٰذه الأمور ومثيلاتها بالأسلوب المباشر عن طريق هدي المنع حيث قال تعالىٰ : ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾ [1] والهداية في هـٰذه الآية علىٰ نوعين ، الأول منهما هداية منع مادي ؛ لأنه يعود بالضرر أو التهلكة علىٰ من يقدم علىٰ هـٰذه الممنوعات وهي هداية رحمة من ٱلله ، وهو ما دخل في باب الطعام مما ذكر في الآية الكريمة من تحريم ٱلله تعالىٰ أكل لحم الميتة وهي كل ما فارقته الروح من غير ذبح شرعي ، وكذلك أكل الدم السائل ولحم الخنزير ، وما ذكر اسم غير ٱلله عليه عند ذبحه ، وما مات خنقاً أو التي ضربت حتىٰ

---

(1) المائدة ، 3 .

ماتت ، وما سقط من علو فمات ، وما مات بسبب نطح غيره له ، وما مات بسبب أكل حيوان مفترس منه ، وأما ما أدركتموه وفيه حياة مما يحل لكم أكله وذبحتموه فهو حلال لكم بالذبح ، وهـٰذا المنع ليس هدىً من ٱلله فحسب ، وإنما هي هدية منه لعباده رحمة لهم ، ذلك أن الحيوان الذي يموت بغير طريق الذبح إنما يبقىٰ دمه في جسده ، ومعروف أن الدم عند الميت سرعان ما تتكاثر فيه البكتريا والجراثيم مما يؤدي إلىٰ التفسخ ، أي انتشار هـٰذه الجراثيم داخل الجسم ، وأن أكل هـٰذا الحيوان الذي لم يذبح سوف يؤدي إلىٰ ضرر كبير ربما يودي إلىٰ الهلاك ، فمن هـٰذا الجانب هدىٰ ٱلله عباده هدي تحريم ومنع رحمة بهم ، وإذا قال قائل : فما بال المضطر قد رخص ٱلله له أن يأكل الميتة ، فنقول : إن للمضطر شأناً آخر يختلف كل الاختلاف عن غير المضطرين ، والمضطر أيضاً هو المشرف علىٰ الهلاك من شدة الجوع ، وجوعه هـٰذا يمنحه وضعاً فسيولوجياً يختلف تماماً عن الإنسان الذي يشعر بالجوع لتأخر وجبة الغداء أو العشاء أو يوم بدون طعام ، أما بالنسبة لميتة البحر فالأمر مختلف هنا حيث أحل أكلها ، فقد ورد في الحديث أنه : « جاء رجل إلىٰ رسول ٱلله ﷺ فقال يا رسول ٱلله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ به فقال رسول ٱلله ﷺ هو الطهور ماؤه الحل ميتته »[1] ، وقد بين الهادي جل جلاله هـٰذه الأشياء لعباده بطريق هداية التوجيه والإرشاد لما فيه مصلحتهم ومنافع لهم من الخير ولدفع الضرر عنهم لذلك قال تعالىٰ : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[2] ومن هدي الامتناع والنهي والتحريم ما بينه ٱلله تعالىٰ لعباده من العلاقات فيما بين خلقه من صلة القرابة التي تتميز بنوعين :

---

(1) موطأ مالك ، ج 1 ، ص 55 .

(2) الأعراف ، 157 .

الأول منهما المصاهرة والنسب .

والنوع الثاني هو صلة الرحم وما تعلق به من باب المحارم لشرط مانع ، حيث هدىٰ ٱلله تعالىٰ عباده إلىٰ ما أمرهم به وإلىٰ ما نهاهم عنه في هـٰذا الجانب بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) ، وهـٰذه الهداية في العلاقات إنما هي من أجل أن يترفع ٱلله ببني البشر عن بقية المخلوقات الأخرىٰ ، وكون الإنسان خليفة فقد وجب عليه وهو المخلوق العقل أن يتميز بنفسه ويميز الآخرين بأنهم أحق خلق ٱلله بخلافة ٱلله في أرضه ، لذلك فإن هدي العلاقات يقوم علىٰ المحافظة علىٰ كرامة الإنسان ومراعاة مشاعره وأحاسيسه وميوله ورغباته النفسية في الحب والكراهية والغيرة والأنفة وما إلىٰ ذلك مما يعتري الإنسان من مشاعر اتجاه هـٰذه العلاقات ، لذلك فإن الهادي تعالىٰ وضح هـٰذا الجانب مراعاة لمشاعر الإنسان الذي خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه ، لذلك فصّل تعالىٰ هداية النهي في العلاقات الإنسانية ، وأول هـٰذه الأمور أن لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء ؛ لأنه كان أمراً فاحش القبح ، يمقته ٱلله والناس ، وهو أسوأ سبيل ومقصد ، وأن ٱلله يعفو عما قد سلف منكم في زمن الجاهلية ، وهـٰذه حكمة إلـٰهية أهديت لبني البشر ، حيث أن هـٰذا النوع من الزواج وإن كان قليلاً ولـٰكنه كان قائماً في الجاهلية ، وأقول أنها

---

(1) النساء ، 22 ـ 23 .

حكمة إلـٰهية ، وهدية من ٱلله الهادي ؛ لأنه لو كان رجل متزوج وله أولاد وماتت هـٰذه الزوجة ثم تزوج بامرأة أخرىٰ وأنجب منها ثم مات هو فيأتي أحد أبنائه من زوجته الأولىٰ ويتزوج زوجة أبيه التي خلفها وراءه ، فكيف يكون شعور أخوته الذي هو زوج لأمهم ولا نعلق علىٰ هـٰذا ولـٰكن نتركه لإحساس القارئ وشعوره وغيرته وهو البعيد عن الموضوع أي أن القضية لا تمس القارئ وأنا أقدر شعوره ، فكيف بصاحب القضية ، وأنكر من هـٰذا وأشد وقعاً ما كان يمارسه الفرس قبل الإسلام من زواجهم من بناتهم ، حيث أن يزدجرد آخر ملوك الفرس هو ابنٌ لأختيه من أبيه وأبيها ، أي أن كسرىٰ أنوشروان تزوج ابنته بوران فأنجبت له يزدجرد ، فهـٰذا المولود أمه أخته وخاله أخوه وأبوه أبو أمه وزوجها ولك ما تشاء أن تذكر من اختلال النسب والقرابة والتوازن الأُسري ، عندما تخرج العلاقات الإنسانية من إنسانيتها إلىٰ الغريزة الحيوانية ومخلفة سنة ٱلله في خلقه ومشيئته ، لذلك كان هـٰذا النوع من الهداية الربانية دليل استقامة وتوازن نفسي وعقلي لدىٰ الإنسان ، فذلك جاء هدىٰ التوضيح والتفصيل في هـٰذه الأمور حفاظاً علىٰ الكرامة والمشاعر والأحاسيس الإنسانية ، ولهـٰذه الأشياء فقد حرَّم ٱلله عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وكذلك المحرمات لغير النسب : أمهات الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة ، وأمهات الزوجات وبنات الزوجات من غير الأزواج إذا دخلتم بهن ، وزوجات أبناء الصلب ، والجمع بين الأختين ، وما سلف في الجاهلية فإنه معفوٌّ عنه ، قال تعالىٰ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [1] . إن ٱلله غفور لما سلف قبل هـٰذا النهج ، رحيم بكم فيما شرع لكم وهداكم إليه وبينه لكم ، وحرم عليكم كذلك نكاح المتزوجات من النساء عامة ، حرائر وغير حرائر مؤمنات وكافرات ، وأدخله بباب الزنا الذي يوجب الحدود ، وهنا يتجلىٰ دور الخليفة ، وهو الهادي بالإضافة إذ أن كثيراً من الناس تتجاوز المحارم جهلاً أو عمداً ، وهو ما نقف عليه في زماننا هـٰذا من أمور في هـٰذه العلاقات ما أنزل ٱلله بها من سلطان ، فواجب الخليفة الهادي النصح والتوجيه والإرشاد وأن يبين للناس هدىٰ الهادي الذي أمر به لما فيه صلاح البلاد والعباد .

ومن هـٰذا القبيل في أنواع الهدىٰ من الهادي المطلق جل جلاله ، هو هداية الحقوق في الدين والمواريث وما إلىٰ ذلك ، فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « إن ٱلله قد قسم لكل إنسان قسمه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية » [2] فقد بين ﷺ أن ٱلله تعالىٰ هداهم إلىٰ فضّ هـٰذه الحقوق بينهم بهدايتهم إلىٰ تقسيم المواريث بمعرفة نصيب كل وارث من الميراث في ما جاء من القرآن مفصلاً وليس مجملاً حيث قال تعالىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [3] إذ أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لما يعلم من جبلة الإنسان وحبه للدنيا وإقباله عليها ورغبته في امتلاك الأموال وغيرها ، وما حبب

(1) النساء ، 23 .

(2) سنن النسائي ، ج 11 ، ص 412 .

(3) النساء ، 11 .

للإنسان منها حيث قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (1) فذلك بين لهم بطريق الهداية المباشرة بالنصوص حق كل إنسان في قضية الإرث ، فهو يأمركم في شأن توريث أولادكم وأبويكم بما يحقق العدل والإصلاح ، وذلك بأن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين ، إذا كان الأولاد ذكوراً وإناثاً ، فإن كان جميع الأولاد إناثاً يزيد عددهن علىٰ اثنتين فلهن الثلثان من التركة ، وإن ترك بنتاً واحدة فلها نصف ما ترك . وإن ترك أباً وأماً فلكل منهما السدس إن كان له ولد معهما ولد ذكر أو أنثىٰ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فقط فلأمه الثلث والباقي للأب ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقي للأب ولا شيء للأخوة ، وتُعْطَىٰ هـٰذه الأنصبة لمستحقيها بعد أداء ما يكون عليه من دين ، وتنفيذ ما وصَّىٰ به في حدود ما أجازه ٱلله في الوصية حتىٰ لا يضر بالورثة . هـٰذا حكم ٱلله فهو عدل وحكمة وهداية ، فالهادي عز وجل جعل أنواع الهداية كثيرة ومتنوعة ، وجعل سبلها متعددة ليهدي الناس لما فيه خيرهم وصلاحهم ، وليحافظوا علىٰ أنفسهم وأموالهم وأهليهم بما هداهم إليه أو بما أوجده لهم من أسباب الهداية وطرقها ووسائلها ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ (2) .

اللهُمَّ يا الهادي اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، اللهُمَّ إنك الهادي بالحق للحق اهدنا للحق بالحق واجعلنا من الراشدين ، اللهُمَّ يا الهادي اهدنا في من هديت ، واهدنا يا هادي لنتعاون علىٰ محبتك ونهتدي بهداك ونستقيم لأمرك ، وننتهي عما نهيت ، نعدل ولا نظلم ، نُصلح ولا نُفسد ، نصدق ولا نكذب ، اللهُمَّ

---

(1) آل عمران ، 14 .

(2) الحشر ، 2 .

يا الهادي اهدنا للعلم ولا تجعلنا من الجاهلين ، واهدنا للقسط ولا تجعلنا من المطففين ، واهدنا للصلاة والزكاة وحج بيتك المحرم واجعلنا في شهرك المكرم من الصائمين ، اللهُمَّ يا الهادي اجعلنا من المتذكرين والمتفكرين ولا تجعلنا من الغافلين ، اللهُمَّ يا الهادي اهدِ أبناءنا لما تحبه وترضاه واجعلنا لهم من الراعين واجعلهم لنا في غير معصيتك من الطائعين وأرضَ عنا وعنهم وارحمنا إنك أنت الرحمـٰن الرحيم !

✍ ✍ ✍

البَدِيعُ جَلَّ جَلَالُهُ

البديع عزَّ وجلَّ هو الذي لا عهد بمثله فإن لم يكن بمثله عهد لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في كل أمر راجع إليه فهو البديع المطلق وإن كان شيئاً من ذلك معهوداً فليس ببديع مطلق ولا يليق هـٰذا الاسم مطلقاً إلا بٱلله سبحانه وتعالىٰ فإنه ليس له قبل فيكون مثله معهوداً قبله وكل موجود بعده فحاصل بإيجاده وهو غير مناسب لموجده فهو بديع أزلاً وأبداً ، وكل عبد اختص بخاصية في النبوة أو الولاية أو العلم لم يعهد مثلها إما في سائر الأوقات وإما في عصره فهو من وهب له البديع رسالة يختص بها ويخص بها آخرين أو يعمهم [1] .

البديع يقال أبدعت الشيء إبداعاً إذا جئت به فرداً لم يشاركك فيه غيرك وهـٰذا بديع من فعل فلان أي مما يتفرد به ، وقال تعالىٰ (بديع السمـٰوات والأرض) أراد به أنه المنفرد بخلق السمـٰوات والأرض [2] .

البَدِيعٌ فَعِيلٌ بمعنىٰ فاعل مثل قدير بمعنىٰ قادر وهو صفة من صفات ٱلله تعالىٰ ؛ لأنه بدأَ الخلق علىٰ ما أَراد علىٰ غير مثال تقدّمه » [3] .

البديع هو الذي يعود ما يوجد إليه دون سابق عليه في شيء ، وهو الذي

---

(1) الغزالي ، المقصد الأسنىٰ ، ص 147 .

(2) الزجاج ، تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ص 64 .

(3) لسان العرب ، ج 8 ، ص 6 .

بأمره (كن) خلق ما خلق وهو الخلاق العليم .

البديع هو الذي يخلق الأشياء دون سابق علىٰ ما يخلق ، فهو الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ، وهو القادر علىٰ ذلك دون نقصان .

البديع هو الخالق لجميع الموجودات دونه ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ (1) . جاء قوله بالمطلق حين قال : ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ ﴾ أي لا يوجد شيء لم يكن من خلقه ، ولهـٰذا لا خالق غيره ، وبما أنه الخلاَّق ولا خالق قبله ولا بعده ، إذاً هو البديع فيما خلق ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (2) هـٰذه الآية وكأنها إجابة علىٰ السؤال : من الذي خلق السمـٰوات والأرض ؟ لتكون الإجابة : إنه البديع الذي أبدعهما من لا شيء ، حتىٰ أصبحت ذات مسمىٰ ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ولها وظيفة في الوجود ، الذي خلق فيه من هم يتفكرون في السمـٰوات والأرض ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ (3) وقال تعالىٰ : ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (4) .

ـ فٱلله البديع يرينا في الآيات السابقة إبداعاً في الخلق ، و خلقاً من إبداعه .

ـ ويطلب منّا التفكر في الإبداع من خلال تأمل الخلق .

ـ البديع أبدع لنا منهجاً قرآنياً ﴿ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾ للخليفة في الأرض

---

(1) الزمر ، 62 .

(2) آل عمران ، 191 .

(3) الرحمـٰن ، 1 ـ 4 .

(4) العلق ، 3 ـ 5 .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ يخلفه بمنهج سديد وبيان أكيد .

ـ معالم الوصول للمنهج ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، والفهم والإبداع من الرب الأكرم ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ الذي خلق أداة العلم وعلم بها ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وهـٰذا مدخلنا في الغوص في أنوار الإبداع الإلـٰهي ، فألله أبدع كل شيء ابتداء ، وخلق كل شيء من لاشيء ، أو بالأحرىٰ واجد كل شيء من لا شيء وهـٰذا الإيجاد من اللاشيء هو الإبداع في أرقىٰ تجليه ، وبهـٰذا تختلف رؤيتنا لمعنىٰ البديع عن السابقين الذين خاضوا غمار البحث في الأسماء الحسان ، معولين علىٰ أنه الخلق من غير مثال ، فهم قالوا : (البديع في أسماء ٱلله تعالىٰ هو الخالق المخترَع لا عن مِثال سابق) [1] فالخلق علىٰ غير مثال ينطوي تحت الصنع لا الخلق الذي هو صفة من صفات ٱلله التي تنطوي تحت الإبداع ، والعلاقة بين الخلق والإبداع علاقة دقيقة رقيقة لا يقع علىٰ لبها ولا يسبر أغوارها ولا يكشف أسرارها إلا المتأملون المتعمقون في جميل المباني للوصول إلىٰ رقائق المعاني ، فالكل بلا أدنىٰ شك يعرفون ويعترفون بأن الخالق هو ٱلله وأن الخلق كله لله سبحانه وتعالىٰ لا شريك له فيه حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] ، فالآية متعلقة بقضية الخلق ؛ لأنه تعالىٰ لما استدل بخلق السمـٰوات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بيّن أن الكل معترفون بذلك غير منكرين لخلقه للكون وما ومن فيه وهـٰذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله ، لأن ٱلله الواجد الخالق البديع

---

(1) النهاية في غريب الأثر ، ج 1 ، ص 267 .

(2) لقمان ، 23 ـ 25 .

للسمـٰوات والأرض الذي يحتاج إليه كل من في السمـٰوات والأرض ، وهو الغني عنهم ، ولا يحتاج إليهم ، ولذلك فالحمد كله له وحده لا شريك لأحد فيه ، وهـٰذا يقتضي أن لا يعبد خلقه غيره ، لـٰكن بعضهم ضلوا وعبدوا من دونه من لا يستحق العبادة ممن هم في الأصل خلق من خلق ٱلله وكأنهم لا يعلمون أن الخلق له خالق واحد وهـٰذا الخلق إبداعي لا مثيل له ولا معين لصاحبه عليه ؛ لأنه البديع بالإرادة دون الحاجة للاشيء أو الشيء الذي هو في مفهومنا ما قبل المادة ثم المادة ، ولأنه البديع فلا يحتاج إلىٰ المادة التي يخلق منها ؛ لأنه يملك الإرادة وإرادته في علمه وعلمه أصل في ذاته لذا فلا بديع سواه ولا خالق بإبداع إلا إياه سبحانه جل جلاله .

وٱلله تعالىٰ لما طمأن النبي ﷺ بقوله : ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم﴾ فالمعنىٰ لا تحزن يا حبيبي علىٰ تكذيبهم فإن صدقك واضح وكذبهم بيّن ، وهـٰذا الصدق الذي أنت عليه ، والكذب الذي هم عليه سيظهر عند رجوعهم إلينا للحساب ، والذي يظهر من كذبهم قبل رجوعهم للحساب يوم القيامة من اعترافهم بأن خلق السمـٰوات والأرض لله ، وهـٰذا يصدق حقيقة الإسلام التي تؤكد أن للكون خالقاً واحداً ومبدعاً واحداً ، ويبين كذبهم علىٰ ٱلله في الإشراك به لذا يقول ٱلله للنبي ﷺ فقل (الحمد لله) علىٰ ظهور صدقك وكذب مكذبيك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ فلا يوجد علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يؤكد صدقك فهم لا يعلمون وليس لهم أدنىٰ علم علىٰ أن البديع هو ٱلله والخالق هو ٱلله والواجد هو ٱلله ولا يعلمون أن الحمد كله لله .

وعليه فالبديع هو الواجد من اللاشيء شيئاً للخلق ، وكل خلقه إبداع لاعن مثال لأن المثال في الأصل من إبداعه ، وإبداعه متجدد لأن إبداعه من نعمه ونعمه غير منتهية ، ويا لجمال المنطق القرآني في سياق الآيات فإن ٱلله قد أعقب الآية التي تشير إلىٰ الإبداع الإلـٰهي المطلق بقوله تعالىٰ : ﴿لِلَّهِ مَا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (1) ، وعندما قال ٱلله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ لا يدل ذلك بالقطع علىٰ أن ملك ٱلله محصور في السمـٰوات والأرض ، فملك ٱلله أوسع من أن يحد أو يعد في السمـٰوات وفي الأرض ومن فيهما ، لذا قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ ﴾ فلو أن أشجار الأرض التي نعلمها صارت أقلاماً للكتابة يكتب بها والأبحر التي نعلمها ولا نعلمها مداد لا تفنىٰ بدائع صنع ٱلله ، وإبداعه في خلقه الذين نعلمهم لا ينتهي فكيف الحال في الخلق الذين لا نعلمهم ؟!!

وذلك فإن إبداع ٱلله في كلماته ، وكلماته لا نهاية لها ، فالكلمة عنده جل وعلا نعمة لمن أراد أن ينعم عليه ونقمة لمن أراد أن تحل عليه النقمة وهـٰذا في حد ذاته إبداع ، فإبداعه في قوله وقوله في كلمته كن ، وكن كلمة واحدة فيها القدرة المطلقة والإبداع المطلق ومن إبداعه في الخلق أن خلق (المسيح ابن مريم عليه السلام) دون أب وسماه كلمة ؛ لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً وخلقاً بديعاً لوجوده من غير أب ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ (2) .

فالمغالاة في الدين دفعت البعض من أهل الكتاب إلىٰ الافتراء علىٰ ٱلله البديع بقولهم إن المسيح ابن ٱلله أو هو ٱلله متجسد في صورة المسيح ، وأن ٱلله

---

(1) لقمان ، 26 ـ 27 .

(2) النساء ، 171 .

ثالث ثلاثة تعالىٰ ٱلله علىٰ ذلك الإفك علواً كبيراً ، فهو يحذرهم من هٰذا القول الكاذب ، فٱلله واحد أحد ليس له والد أو ولد أو زوجة ؛ لأنه الغني بذاته عن ذلك وهو الغني الحميد وهو واجد الخلق بديع السمٰوات والأرض وكل من في الأرض عباد لله طوعاً وكرهاً ، والمسيح وأمه من خلقه وإبداعه فأمه بالخلق ، وعيسىٰ بالإبداع بالكلمة التي لا يملكها إلا ٱلله ومن أنعم عليهم من عباده بحدود وبمقدار لا علىٰ وجه الإطلاق .

فالقول لمن شابه النصارىٰ في الرأي : يا أهل الكتاب من النصارىٰ لا تغلوا في دينكم ولا تفرطوا في تعظيم المسيح ، وهٰذا هو الغلو في الدين اعتقاداً منكم أن ذلك قد يرضي المسيح وهو عبد ٱلله وإبداعٌ من إبداعه ، إبداعٌ بالكلمة التي هي مظهر من مظاهر القدرة المطلقة التي لا يملكها إلا البديع المطلق ، فعيسىٰ عليه الصلاة والسلام إبداع قبل أن يكون خلقاً من خلق ٱلله وهو كآدم عليه الصلاة والسلام إبداع قبل أن يكون خلقاً ، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [1] لذا يؤكد ٱلله للنصارىٰ الذين يبالغون في تعظيم المسيح عليه الصلاة والسلام بقوله تعالىٰ : ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ فلا تصفوا ٱلله بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان أو روحه ، ونزهوه عن هٰذه الأحوال . ولٰكن الغلو أعماهم عن معنىً من معاني الإبداع الرباني في عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فأرشدهم ٱلله إلىٰ طريق الحق ، وأخبرهم في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول ٱلله وعبده .

وأما قوله ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ .

فالكلمة : هي الإبداع الذي لا يملكه إلا ٱلله البديع : فقد قال ٱلله

---

(1) آل عمران ، 59 ـ 60 .

تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) فقوله تعالىٰ : ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ يدل علىٰ أن كل إبداع إلـٰهي هو مخلوق بواسطة الكلمة وهي قوله : ﴿ كُن ﴾وكن حرفان مشتملان علىٰ القدرة الألوهية التي لا تحتاج إلىٰ سبب من الأسباب المتعارف عليها ، لذا فقد كان السبب مفقوداً في حق سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وهو عدم وجود الأب الذي هو السبب في حمل الأم ، وعدم وجود السبب لا يمنع قدرة ٱلله من الإيجاد والإبداع ؛ لأنه الواجد للسبب ولغير السبب ، فهنا كانت الإحالة للقدرة الإبداعية إلىٰ الكلمة ، وفي هـٰذه الحالة الإبداعية كان عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مظهر من مظاهر الكلمة ، لذا فقد أطلق ٱلله عليه الكلمة وهو أحد مظاهرها ولا غرابة في ذلك فإن اللغة تبيح تلك الإحالة فيطلق علىٰ الإنسان الكريم (الكرم) وعلىٰ العادل (العدل) ؛ لأنه سبب ظهور العدل ، ولنتذكر قول الخنساء ترثي أخاها صخراَ وتصفه بالندىٰ (الجود) و(الكرم) وأنه صاحب (المجد) :

أعينَّـــي جـــودا ولا تجمـــدا ... ألا تبكيـــان لصخـــر النـــدىٰ
ألا تبكيـــان الجـــريء الجميـــل ... ألا تبكيـــان الفتـــىٰ السيـــدا
طـــويـــل النجـــاد رفيـــع العمـــا ... د ســـاد عشيـــرتـــه أمـــردا
إذا القـــوم مـــدوا بـــأيـــديهـــم ... إلـــىٰ المجـــد مـــد إليـــه يـــدا
فنـــال الـــذي فـــوق أيـــديهـــم ... مـــن المجـــد ثـــم مضـــىٰ مصعـــدا
يحملـــه القـــوم مـــا عـــالهـــم ... وإن كـــان أصغـــرهـــم مـــولـــدا
تـــرىٰ المجـــد يهـــوي إلـــىٰ بيتـــه ... يـــرىٰ أفضـــل المجـــد أن يحمـــدا
وإن ذكـــر المجـــد ألفيتـــه ... تـــأزر بـــالمجـــد ثـــم ارتـــدىٰ (2)

---

(1) آل عمران ، 45 ـ 46 .

(2) الأغاني ، ج 4 ، ص 157 .

فلأن صخراً كان مظهراً من مظاهر الجود والكرم والمجد فقد أطلقت عليه الخنساء أنه الندىٰ والمجد ، فكذلك كان عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام سبباً وآية فأظهر ٱلله علىٰ يديه من الخوارق التي تؤهله ليطلق عليه كلمة ٱلله والتي هو نفسه من مظاهرها .

وإبداع ٱلله لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام من غير نطفة الأب ممكن لأن تركيب الأجسام وتخليقها وإيجاد الحياة والفهم والنطق فيها أمر ممكن ، ولنتذكر ما قلناه في الاسم البر بإيجاده سبحانه للنوع الإنساني في عالم الذر و كيف كانوا يسمعون وينطقون ويفهمون ويعقلون ، ولهٰذا فٱلله البديع الخالق القادر قادر علىٰ الممكنات بأسرها وكذلك غير الممكنات التي توجد إبداعاً علىٰ غير مثال وبلا سبب ، لهٰذا كان سبحانه وتعالىٰ قادراً علىٰ إيجاد عيسىٰ إبداعاً لا من نطفة الأب ، وهٰذا ثابت ؛ لأنه في الإمكان الإلٰهي ، مع كونه غير ثابت في الإمكان البشري ، وعليه فلا يجب قياس النسبي الإنساني بالمطلق الإلٰهي ، وهٰذا النمط من الخلق فيه مظهر من مظاهر الإبداع والإعجاز للنسبي الإنساني ، وهٰذا يؤكد أن ٱلله واحد أحد لا معبود بحق إلا هو .

سبحانه الذي أوجد بالكلمة ، وكان أمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1) .

ووصف المسيح بالروح﴿ وَرُوحٌ مِّنۡهُ ﴾ فذلك لطهارته ولأنه لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من خلال الإرادة الإبداعية الربانية ، و﴿ مِّنۡهُ ﴾ تفيد التشريف والتفضيل كما نقول : (نعمة من ٱلله) ، بمعنىٰ أن تلك النعمة كاملة ومن هنا فلا داعي للمغالاة من قبل بعض أهل الكتاب في المسيح ؛ لأنه إبداع من إبداع ٱلله ، وقد تعني ﴿ وَرُوحٌ ﴾ رحمة ،

---

(1) آل عمران ، 59 .

بمعنىٰ : رحمة منه كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (1) ، قوّاهم ببرهان منه ونور وهدىٰ (2) وهـٰذا يتفق مع قول النبي عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » (3) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « بُعِثْتُ رَحْمَةً مُهْدَاةً » (4) لذا (فروح منه) مع سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بمعنىٰ رحمة من ٱلله إلىٰ الخلق من حيث كونه يرشدهم إلىٰ مصالحهم في دينهم ودنياهم ومن هنا فلا مانع من تسميته روحاً منه .

وقد يتساءل القارئ : لماذا الإلحاح علىٰ الربط بين البديع وبين الخلاق حول المسيح عليه الصلاة والسلام ؟

والإجابة علىٰ هـٰذا التساؤل تكمن في التمعن في الآيتين اللتين ورد فيهما الاسم (البديع) وهما :

1 ـ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (5) .

2 ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (6) .

---

(1) المجادلة ، 22 .

(2) تفسير الطبري ، ج 23 ، ص 258 .

(3) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، ج 1 ، ص 103 .

(4) المعجم الكبير للطبراني ، ج 18 ، ص 497 .

(5) البقرة ، 115 ـ 117 .

(6) الأنعام ، 100 ـ 101 .

والآيتان تناقشان قضية التوحيد وتركزان علىٰ أن ٱلله الواحد مالك الملك المطلق .

ومن له ملك الجهات المعلومة وغير المعلومة له أيضاً الحكم فيها وله وحده الحق في أن يتوجه إليه الخلق في هـٰذه الجهات بتخصيصه بالعبادة ، إلا أنه قد افترىٰ عليه بعض الضالين المضلين فنسبوا ملكه لغيره ، وقالوا عليه كذباً وزوراً : ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ وهو المنزه عن ذلك وينزه ٱلله سبحانه وتعالىٰ نفسَه في خطابه للنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ فيقول ويقول معه كل من كان علىٰ طريق الحق في الاستخلاف والإعمار والإصلاح : ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ هو ٱلله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ولهـٰذا قد أنزل ٱلله سورة عظيمة في الفرقان العظيم الذي يفرق بين الحق والباطل ، فقال لنبي الحق نبي التوحيد ولأمة الإصلاح والتعمير : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (1) فله ملك السماء والأرض ؛ لأنه البديع المنشئ وليس له حاجة لزوجة أو ولد لأن الحاجة منتفية البتة في صفات ٱلله فهو ٱلله الذي أنشأ السمـٰوات والأرض علىٰ غير مثال سبق فكيف يكون له ولد ؟ كما يزعم هـٰؤلاء الكاذبون الضالون بأن له زوجة وولداً ، وقد أنشأ وأبدع وخلق جميع الأشياء وفيها هـٰؤلاء الذين اتخذوهم شركاء ، وهو ٱلله العالم بكل شيء يحصي عليهم ما يقولون وما يفعلون ، وسيحاسبهم علىٰ قولهم وفعلهم .

وهو ٱلله البديع المتصف بصفات الكمال فلا رب غيره ، ولا إلـٰه سواه ، بديع كل شيء مما كان وما سيكون فهو المستحق للعبادة دون شرك .

فبٱلله كيف تجرأتم علىٰ هـٰذا الكذب ؟ هل أبصرتم ٱلله ؟ فتقولوا له زوجة من جنسكم أنتم وهو الغني عنكم وعن جنسكم .

---

(1) الإخلاص ، 1 ـ 4 .

وهو الذي لا تبصره العيون ، وهو العليم بدقائق العيون المبصرة والقلوب البصيرة وهو العليم المحيط فلا يغيب عنه شيء ، وهو الخبير الرقيب فلا يخفىٰ عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وهو ٱلله البديع للظاهر المشاهد والباطن الغائب .

والنبي ﷺ ، ومن سار علىٰ نهجه في خلافة الأرض يتبعون أصدق القول ـ قول ٱلله ـ ويعلمون أنه ٱلله وحده البديع للسموات والأرض ومن فيهما ، فيا أيها المغتر بالأوهام ، الملتحف بالأكاذيب ، المتوسد بالباطل ، اعلم أن ٱلله هو البديع الذي أبدعك من لا شيء ، وهو مالك أمرك ، ومدبر شئونك ، الغني عنك وعن سواك ، واعلم أنه سبحانه الإلـٰه المستحق للطاعة والخضوع ، فالتزم طاعته ، فهو ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

وٱلله عندما يدحض آراء الضالين ممن قالوا بأنه له ولد ـ تعالىٰ ٱلله علىٰ ذلك علواً كبيراً ـ قال لهم كيف يكون له ولد وهو البديع ، وضرب مثلا بسيطاً بأن له ملك السمـٰوات والأرض وملكه أوسع من أن يحاط بكلمات ،(إن السمـٰوات السبع والأرضين السبع وما فيهما وما بينهما بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض) [1] . فكيف ببقية ملكه ، ومن المعلوم صغر الأرض في المجموعة الشمسية فما بالنا وهي الصغيرة في ملكه فماذا يكون حجم الإنسان الذي يفتري الكذب علىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ بأن له ولداً ، وهو الصغير في الصغير ، وأقل المخلوقات هي الأرض وما عليها ـ بالإضافة إلىٰ الملائكة وملكوت السمـٰوات ـ فإن نظرت ـ أيها المفتري علىٰ ٱلله الكذب ـ فيها من حيث الحجم فحجم الشمس علىٰ ما يظهر من صغر حجمها هي مثل عشرات المرات من الأرض ، فالأرض صغيرة بالإضافة إليها ، والشمس

(1) نظم المتناثر ، ج 1 ، ص 219 .

صغيرة بالإضافة إلىٰ فلكها الذي تدور فيه ، فإنه لا نسبة لها إليه ، وهي صغيرة بالإضافة إلىٰ ما فوقها من السمـٰوات السبع ، ثم السمـٰوات في الكرسي كحلقة في فلاة ، والكرسي في العرش كذلك ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ! بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلىٰ البحار ! قال ﷺ : « عن أبي ذر الغفاري ، قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت رسول ٱلله ﷺ وحده فجلست إليه ، فقلت : يا رسول ٱلله أي آية نزلت عليك أفضل ؟ قال : « آية الكرسي ، وما السمـٰوات السبع في الكرسي إلا كحلقة في أرض فلاة ، وفضل العرش علىٰ الكرسي كفضل تلك الفلاة علىٰ تلك الحلقة » [1] ومصداق هـٰذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلىٰ كل الأرض ، وهي بالنسبة للماء بنسبه (٢٩ ٪ إلىٰ ٧١ ٪) والإنسان المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض بٱلله ماذا يمثل في الأرض حتىٰ يفتري علىٰ ٱلله البديع فيقول له ولد ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ نعوذ بٱلله من بدعتهم الضالة ومن كذبهم المشين ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ، وٱلله يرد علىٰ افترائهم بقوله تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] فهو الذي أبدع السمـٰوات والأرض وهو الذي يعلم أنكم كاذبون في الافتراء عليه وهو الذي خلق كل شيء ، فهل من الغريب أن يخلق عيسىٰ عليه الصلاة والسلام من غير أب ؟

نعم غريب عليكم أنتم أيها المكذبون ولـٰكن ليس بغريب علىٰ البديع ؛ لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ؛ لأنه علىٰ كل شيء قدير ، ولذا

---

(1) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة ، ج 6 ، ص 165 .

(2) الأنعام ، 101 .

فقد أرسل ٱلله لهم نور الهدىٰ والصراط المستقيم والنهج الصحيح الذي قال جلت قدرته في محكم آياته : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [1] ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ ﴾ ومنهم من يدعي أن المسيح ليس هو ٱلله ولـٰكن حلت فيه روح ٱلله وأن ٱلله تعالىٰ قد يحل في بدن إنسان معين ، أو في روحه ، وإن جماعات من النصارىٰ ذهبوا إلىٰ هـٰذا القول ، بل هـٰذا أقرب مما يذهب إليه النصارىٰ ، وذلك لأنهم يقولون : إن أقنوم الكلمة اتحد بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة ، فإن كان ذاتاً فذات ٱلله تعالىٰ قد حلت في عيسىٰ واتحدت بعيسىٰ فيكون عيسىٰ هو الإلـٰه علىٰ هـٰذا القول . وإن قال منهم لا بل حلت فيه صفة ٱلله من العلم الشامل والقدرة المطلقة لأن الأقنوم عبارة عن الصفة ، فانتقال الصفة من ذات إلىٰ ذات أخرىٰ غير معقول لخلو الأول منها وهـٰذا يستحيل في حق الذات الألوهية ، ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات ٱلله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ يلزم خلو ذات ٱلله عن العلم حاشا لله وتعالىٰ عن قولهم ، لأن القاعدة البسيطة والتي تعد من البديهيات تقول : (من يكن جاهلاً فهو ليس بعالم) .

وعليه فلا يمكن تقبل الجهل في الإلـٰه المعبود ، فحينئذ يكون الإلـٰه هو

(1) المائدة ، 15 ـ 17 .

عيسىٰ علىٰ قولهم ؛ لأنه قد تحلىٰ بصفات الألوهية وهي بذلك نفيت عن الإلـٰه الأوحد فيثبت أن المبتدعين من النصارىٰ وإن كانوا لا يصرحون بهـٰذا القول إلاّ أن اعتقادهم ليس إلاّ ذلك ، ثم إنه سبحانه وضّح فساد هـٰذا الافتراء في الدين بقوله : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [1] ، وهـٰذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء علىٰ الشرط ، بمعنىٰ إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ، فمن الذي يقدر علىٰ أن يدفعه عن إرادته ، ومن يملك من أفعال ٱلله شيئاً ، ولديه القدرة المطلقة ، ومن الذي يقدر علىٰ دفع شيء من أفعال ٱلله تعالىٰ ومنع شيء من مراده . وعيسىٰ عليه الصلاة والسلام مشابه لمن في الأرض في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال ، فبهـٰذا يجب التسليم بكونه تعالىٰ خالقاً للكل مدبراً للكل ، و خالقاً لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه بديع السمـٰوات والأرض ، ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وهو سبحانه : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ فيخلق ما يشاء كما يشاء فمرة يخلق الإنسان من الذكر والأنثىٰ كما هو معتاد ، والأخرىٰ يخلق لا من الأب والأم كما في خلق آدم عليه الصلاة والسلام ، و يخلق من الأم لا من الأب كما في حق عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ويخلق ما يشاء ، فيعطي سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام تقدير صورة الطير من الطين وٱلله تعالىٰ يخلق فيه اللحم والدورة الدموية ويهبه الحياة بانبعاث الروح فيه ، والقدرة علىٰ التصوير معجزة لسيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ويعطيه القدرة ليحيي الموتىٰ ويبرئ الأكمه والأبرص معجزة له من عند ٱلله لا امتلاكاً لهـٰذه الصفة حلولاً واتحاداً ، ولا اعتراض علىٰ ٱلله تعالىٰ في شيء من أفعاله ، فيهب من القدرات ما يشاء لمن يشاء .

---

(1) المائدة ، 17 .

ولهـٰذا ليس بغريب علىٰ المؤمنين به وموحديه أن تكون عقيدتهم أن ٱلله جلت قدرته بديع لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام من غير أب ، وليس بغريب علىٰ من يريد تحقيق الخلافة في ملك ٱلله ويبدع فيها لمصلحة خلق ٱلله ، ويكون خلاقاً في الأرض ليستخرج خيرها ولا يفسد فيها ببدعة سوء سواء أكانت بدعة قولية أم فعلية ، والخليفة المتخلق بالاسم البديع يصلح الأرض بإبداع الجديد المفيد وهـٰذا تخلقاً بصفة البديع المطلق فيصبح بديعاً بالإضافة .

والبديع المطلق هو الذي لا مثيل له ، وهو المنشئ المبدئ لكل شيء علىٰ غير مثال ، وهو الواحد الأحد المستحق للعبادة ، وهو الواحد الذي يستحيل في حقه الوَلَدُ لأن ذلك تبعيض وتجزيء ، وهـٰذه ليست من صفات ٱلله تعالىٰ .

والبديع بالإضافة هو الذي يقبل أن يكون له مثيل إذا سار علىٰ المنهج الصحيح وهو المنشئ للجديد بالاستفادة من خلق ٱلله وإبداعه في الأرض ، وهو الواحد القابل للكثرة ؛ لأنه بإبداع المجموعة تتحقق الخلافة الجماعية فتكون الخلافة خلافة أمة لا خلافة فرد مع جواز أن يكون الفرد محفزاً للجماعة بريادته وقيادته لها ، وهو الموحد لله الذي لا يرىٰ أن ٱلله قد اتخذ صاحبة ولا ولداً لأن هـٰذا ينتفي في حقه تعالىٰ .

وعشاق الفساد ومخربو العمار الروحي ومفسدو الإصلاح الجمعي وحملة راية الظلام ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ وهو سبحانه وتعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

يخبر ٱلله تعالىٰ أنه مع إحسانه لعباده وتودده إليهم ، بآياته البينة ، وحججه الواضحة فإن المشركين به بدءاً من مشركي قريش وغيرهم ، جعلوا له شركاء من الجن والملائكة يدعونهم ويعبدونهم ، والجن والملائكة خلق من

خلق ٱلله ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، فجعلوهم شركاء لله الخالق الآمر الناهي ، وهو المنعم المتفضل بجميع أنواع النعم ، الدافع لجميع النقم ، وكذلك خرق المشركون فكذبوا وافتروا علىٰ ٱلله ، بأن له بنين وبنات بغير علم منهم ، ومن أظلم ممن قال علىٰ ٱلله بلا علم ، وافترىٰ عليه النقص ، وٱلله منزه عن قولهم . ولهٰذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ فإنه تعالىٰ الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، فهو ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خالقهما ، ومتقن صنعتهما ، علىٰ غير مثال سبق ، بأحسن خلق ، ونظام وبهاء ، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله ، وليس له في خلقهما مشارك . ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ : كيف يكون لله الولد ، وهو ٱلله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لا صاحبة ولا زوجة له ، وهو الغني عن مخلوقاته ، وكلهم في حاجة إليه في جميع أحوالهم ، والولد لا بد أن يكون من جنس والده ؛ وٱلله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه .

والبديع عند العلماء مُوجِد العين لا علىٰ مِثْل ، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مِثله . فهٰذا الاسم يشير إلىٰ نفي المثل عن ذاته ، ونفي المثال عن أفعاله ، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه ، إنه ٱلله الدائم جل جلاله ، وهو العدل الذي جعل الصراط المستقيم معياراً للتقويم ، والحق الذي لا يزول ، والباقي الذي لا يتغير ، حكمه نافذ ولا مرد له سبحانه جل جلاله .

و﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما ، والإبداع اختراع الشيء لا عن مادة ولا في زمان ، ويستعمل ذلك في إيجاده تعالىٰ للمبادئ ، وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر ؛ ويستعمل في إيجاد الأجسام ، وغير التكوين فإنه ما يكون بتغير وفي زمان غالباً ، وإذا أريد من السمٰوات والأرض جميع ما سواه تعالىٰ من المبدعات والمصنوعات والمكونات لاحتوائها علىٰ عالم

الملك والملكوت فبعد اعتبار التغليب يصح إطلاق كل من الثلاثة إلا أن لفظ الإبداع أنسب ؛ لأنه يدل علىٰ كمال قدرته تعالىٰ ، والقول بتعين حمل الإبداع علىٰ التكوين من مادة أو أجزاء لأن إيجاد السمٰوات من شيء كما يشير إليه قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [1] ناشئ والآية حجة أنه تعالىٰ مبدع لكل ما سواه فاعل علىٰ الإطلاق ، ولا شيء من الوالد كذلك ضرورة انفعاله بانفصال مادة الولد عنه فٱلله تعالىٰ ليس بوالد [2] .

قال الشاطبي : أصل مادة (بدع) الاختراع علىٰ غير مثال سابق ومنه قول اللّه تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [3] ، أي أنه بديع الشيء وخالق الأشياء منه .

ونحن نقول : الإبداع شيء والاختراع شيء آخر ولنوضح ذلك :

الإبداع إيجاد دون سابق ، دون محاولة للخطأ والصواب ، إنه الخلق السليم بالكامل .

والاختراع ، لا يحدث إلا بتصور مسبق ، مع احتمال الوقوع في الخطأ ، وهـٰذه لا تكون من صفة المبدع المطلق جل جلاله .

وعليه فالمبدع بالمطلق هو ٱلله ، وهـٰذه الصفة لا مشاركة فيها ، أما الاختراع (صفة) قد تسري علىٰ ما يجده المخلوق من مصنوع علىٰ مثال ، ولهـٰذا الإبداع يوجد من غير مثال ، والمخترع لا يكون إلا علىٰ مثال .

والخليفة هو الذي يبدع في استيعاب ما أبدعه ٱلله يقيناً لا شك فيه ، مع إدراكه مسلمات وحجة مطلقة بأنه الحق . والمبدع بالإضافة هو الذي يعلم أن

---

(1) فصلت ، 11 .

(2) تفسير الآلوسي ، ج 1 ، ص 482 .

(3) البقرة ، 117 .

ما يجده من جديد هو إضافة من مبدع بالمطلق . ولهـٰذا فالمبدع بالإضافة هو من يدرك ما أبدعه ٱلله ويقف دونه ، تأملاً واستقراء واستنباطاً حتىٰ يدرك اليقين من ورائه من خلال إدراكه للكيفية التي عليها خلق وبهـٰذا يتمكن عقله من الإدراك الذي يمده بروح الإبداع في تقوىٰ ٱلله فيتمكن من أدراك المجرد الذي يكمن وراء كل علة أو سبب حتىٰ يضيف الجديد المفيد والنافع الذي يسهم في إصلاح الأرض وإعمارها .

إذاً نقول : الإبداع إيجاد عن غير مِثَالٍ سابق ، والبديع هو مبدع الموجوداتِ بلا مَادةٍ فهو واجدها ومخرجها بالهيئة التي تكون عليها هي كما هي .

وخليفة البديع المطلق هو الذي يبدع الحلول لمصلحة الجماعة الإنسانية لتوفير سبل الراحة لتعمير الأرض لا لإفسادها ، وهنا من حق المتشدد أن يقول لنا إن البدعة من الإبداع والإبداع ضلالة والضلالة في النار ، وقبل أن نرد عليه نطلب منه قليلاً من الصبر حتىٰ تتضح لنا ما معالم البدعة الضالة المضلة ؟ التي تهوي بصاحبها إلىٰ النار ، ولنرىٰ الإبداع المفيد النافع الذي يرقىٰ بصاحبه وبجماعته إلىٰ أعلىٰ رتب السعادة في الدنيا وأعلىٰ الجنان في الآخرة فينال خيراً ، وكل الخير .

البدعة :

البدعة مأخوذة من بدع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه أنشأه وبدأه ، وهي عمل ما ليس بمألوف ، وقد تكون خروجاً عن مألوف أو متعارف عليه ، وهـٰذه البدعة قد تواجهها المعارضة وقد يواجهها التأييد كل حسب استدلالاته عليها .

« فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ وَٱللهِ إِنِّي لأرَانِي لَوْ

جَمَعْتُ هَـٰؤُلاءِ عَلَىٰ قَارِئ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ فَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أخرىٰ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاةِ قَارِئِهِمْ فَقَالَ عُمَرُ نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ وَالَّتِي تَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي تَقُومُونَ يَعْنِي آخر اللَّيْلِ وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ » [1] .

والبدعة بِدْعَتَان : (بدعة هُدىً) . . . . (وبدعة ضلال) :

فما كان في خلاف ما أمَر ٱلله به ورسوله ﷺ فهو في حَيِّز الذم والإنكار ، وما كان واقعاً تحت عُموم ما نَدب ٱلله إليه وحَضَّ عليه ٱلله أو رسوله فهو في حيز المدح ، وما لم يكن له مثال موجود كنَوْع من الجُود والسخاء وفعْل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما وَردَ الشرع به لأن النبي ﷺ قد جَعل له في ذلك ثواباً فقال : « من سَنّ سُنة حسَنة كان له أجْرها وأجرُ من عَمِل بها » وقال في ضِدّه : « ومن سنّ سُنة سيّئة كان عليه وزْرُها وَوِزْرُ من عَمِل بها » ، والحديث كما ورد في الصحيح : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « مَنْ سَنَّ سُنَّةَ خَيْرٍ فَاتُّبِعَ عليها فَلَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ شَرٍّ فَاتُّبِعَ عليها كَانَ عليه وِزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » [2] . وذلك إذا كان في خلاف ما أمر ٱلله به ورسوله ﷺ ، ومن هـٰذا النوع قولُ عمر رضي اللّه عنه : نِعْمَت البدعة هـٰذه . لمَّا كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدَحها لأن النبي ﷺ لم يَسُنَّها لهم وإنما صلاّها لَياليَ ثم تَركَها ولم يحافظ عليها ولا جَمع الناسَ لها ولا كانت في زمن أبي بكر وإنما عمر رضي ٱلله عنه جمع الناس عليها ونَدَبهم إليها فبهـٰذا سمّاها بدعة وهي علىٰ الحقيقة سُنَّة لقوله ﷺ : عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَنَا رسول ٱلله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلاةِ

---

(1) موطأ مالك ، ج 1 ، ص 340 .

(2) سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 285 .

الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ ٱللهِ ؟ قَالَ : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ ٱللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعليه بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ » (1) .

وعَلَىٰ هـٰذا فيُحمل الحديث (كل مُحْدَثة بدعةٌ) إنما يريد ما خالف أصول الشريعة ، وأكثر ما يُستعمل المبْتدَع عُرفاً في الذمّ والبِدْعةُ الحَدَث وما ابْتُدِعَ من الدِّينِ بعد الإكمال .

فالمبتَدِع الذي يأْتي أَمْراً علىٰ شبه لم يكن ابتدأَه سابقه ، و بِدْعٍ في هـٰذا الأَمر كان الأَوّل فيه ولم يَسْبِقْه فيه أَحد .

وعليه فالخليفة هو مبدع أعمال الخير وأفعاله ، وهو المجتهد في غير معصية ، وهو المضيف لما يحقق موجبات ويترتب عليه حسنات ، ويلاقي قبولاً من الآخرين ، وبه يتم العمار والإصلاح في الأرض .

وعليه فالبديع هو ما أحدث واخترع ، وإن كان نافعاً ومفيداً فهو ممدوح وإن كان غير ذلك فهو مذموم .

قال تعالىٰ : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (2) أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من اللّه إلىٰ العباد بل تقدمني كثير من الرسل ، ويقال : ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق ، وهـٰذا الأمر بديع ، يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن ، فكأنه لم يتقدمه ما هو مثله ولا ما يشبهه .

ومن البدع ، البدعة في القول :

---

(1) سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 287 .
(2) الأحقاف ، 9 .

هـٰذا هو النوع من البدعة من بدع اليهود والنصارىٰ والمشركين هـٰؤلاء أثبتوا الولد لله تعالىٰ ، لأن اليهود قالوا : عزير ابن ٱلله ، والنصارىٰ قالوا : المسيح ابن ٱلله ، ومشركو العرب قالوا : الملائكة بنات ٱلله فقال ٱلله : سبحانه فهي كلمة ينزه بها نفسه عما قالوه ، فهو المنزه عن ذلك ؛ لأنه البديع ، سبحانه أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، بَل لَّهُ مَا فِي السمـٰوات والأرض ، والدليل علىٰ فساد بدعتهم القولية : أن كل ما سوىٰ الموجود الواجب ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته محدث ، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود ، و بيان أن ما سوىٰ الموجود الواجب ممكن لذاته ، فلأنه لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لاشتركا في وجوب الوجود ، ولامتاز كل واحد منهما عن الآخر ، ويلزم تركب كل واحد منهما ، وعليه فكل مركب ناقص محتاج إلىٰ كل جزءٍ من أجزائه ، وكل جزء من أجزائه من غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلىٰ غيره ، وكل مفتقر إلىٰ غيره فهو ليس إلـٰهاً .

وعليه ، فالمبدع المطلق هو واحد أحد ، أي لا يتجزأ أي لا يتركب ، صفاته تتعدد وهو واحد أحد لا يتعدد ، واحد في مطلقيته ، وواحد في قدسيته وعظمته وهيمنته وكبره ورحمته وإلىٰ كل صفة له واحد أحد لم يكن له كفواً أحد ولم تكن له الصاحبة ولا الولد . قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [1] . إنه المبدع الحق جل جلاله ، وفي مقابل ذلك يكون المبدع بالإضافة بين متبع حق وبين متبع باطل ، فالمتبع للحق هو الصادق به ، والمتبع للباطل هو المفتري به . ولهـٰذا كان الافتراء من الذين قالوا عزير ابن ٱلله ، والذين قالوا المسيح ابن ٱلله ، والذين سموا الملائكة بنات ٱلله ؛ وصدق الذي جاء بالحق مبشراً ونذيراً وهادياً للخير وسراجاً منيراً .

(1) الإخلاص ، 1ـ4 .

إن كان كل واحد مركب يتجزأ إلا الواحد الأحد مطلق لا يتجزأ ، ولهـٰذا كل كثرة فلا بد فيها من الواحد ، فتلك الآحاد إن كانت واجبة لذواتها كانت مركبة كما أ ثبتنا ، وإن كانت ممكنة كان المركب المفتقر إليها أولىٰ بالإمكان ، فثبت بهـٰذا البرهان أن كل ما عدا الموجود الواجب ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فهو محتاج إلىٰ المؤثر ، وتأثير ذلك المؤثر فيه إما أن يكون حال عدمه أو حال وجوده ، فإن كان الأول فذلك الممكن محدث ، وإن كان الثاني فاحتياج ذلك الموجود إلىٰ المؤثر ، إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه ، والأول محال ؛ لأنه يقتضي إيجاد الوجود فتعين الثاني وذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثاً فثبت أن كل ما سوىٰ ٱلله محدث مسبوق بالعدم ، وأن وجوده إنما حصل بخلق ٱلله تعالىٰ وإيجاده وإبداعه ، فثبت أن كل ما سواه فهو عبده وملكه فيستحيل أن يكون شيء مما سواه ولداً له ، والأصح أن نقول : ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فله كل ما سواه علىٰ سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع . فهو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾خالقها ومبدعها ومنشئها علىٰ غير مثال سبق وعن غير مثال . وهو البديع الذي يبدع الأشياء و يحدثها مما لم يكن موجوداً ؛ لأنه ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾قدره في علمه وأراد خلقه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ فإنما يقول له : ﴿كُن ﴾ فيكون ذلك الأمر علىٰ ما أراد البديع جلت قدرته وٱلله تعالىٰ عالم بكل ما هو كائن وما سيكون قبل تكوينه ، وعليه فالأشياء التي لم تكن في الوجود فهي يقيناً كانت كائنة ولعلمه يقول لها : كوني ويأمرها بالخروج من غير حال أو عن غير حال ، إلىٰ حال الوجود والظهور سواء كانت قابلة للمشاهدة أو قابلة للملاحظة فقط أو قابلة للاثنين معاً .

وبهـٰذا تنقض البدعة الكبرىٰ ـ أعني بدعة الكلمة ـ بالافتراء علىٰ ٱلله الكذب ، ولسنا الذين وصفنا هـٰذه البدعة بالكبرىٰ ، بل ٱلله الذي قال ذلك : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾

﴿ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (1) .

والمقصود من العالم وإيجاده أن يوجد الإنسان لخلافة ٱلله تعالىٰ في أرضه فيتوصل بالخلافة الحقيقية إلىٰ النعيم الأبدي في الآخرة بعد أن يؤدي رسالته في الأولىٰ كما قالَ ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . والإنسان الخليفة المخصوص بالكرامة كما قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (2) . وجعل ما سواه وسيلة له ليصلح الأرض ويعمرها كما قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ . فليس فضل الإنسان بقوة الجسم ، فالفيل والبعير أقوىٰ جسماً منه ، ولا بطول العمر فالنسر والحية والسلحفاة أطول عمراً منه ، ولا بشدة البطش فالأسد والنمر أشد بطشاً منه ، ولا بالقوة فالبعير والخيل أقوىٰ منه ، ولا بكثرة الذهب والفضة والمعادن فالجبال أكثر منه ذهباً وفضةً . ولـٰكن قيمته في عقله وقيمة عقله في حسن استخدامه ، وما أحسن قول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنىٰ ضيغم ... أدنىٰ إلىٰ شرف من الإنسان

وليست القيمة بالعنصر المخلوق منه كما زعم إبليس حيث قال : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ ﴾ . بل ذلك بما خصه ٱلله تعالىٰ به ، وهو المعنىٰ الذي ضمنه فيه ، والأمر الذي خلقه له (الخلافة . . الخلافة . . الخلافة) فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩ ﴾ والملائكة لما نبههم ٱلله تعالىٰ لفضل آدم تنبهوا فأذعنوا وسجدوا له كما أُمروا . وإبليس لما نظر إلىٰ ظاهر آدم و عنصره تعامىٰ عن أمر ٱلله تعالىٰ ، ولم يتأمل المعنىٰ

(1) الكهف ، 1 ـ 5 .

(2) الإسراء ، 70 .

الذي ضمنه ٱلله تعالىٰ آدم ، والعاقبة التي جعلها له﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ وكانت بدعته في القول : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ . وقد اقتدىٰ به الكفار في ردّ الأنبياء حيث قالوا : ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾. وقالوا : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ ، فالتميز ليس بظاهر المباني بل بباطن المعاني ، ولهٰذا ليس المهم أن ننظر في المباني لٰكن الأهم أن نبصر المعاني ونستشعر إبداع البديع وندحض بدع المبتدعين ، ولا نكون ممن قيل فيهم : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ ، وهٰذه مهمة الخليفة المبدع أن يحول الناس من (ينظرون) إلىٰ (يبصرون) فتقع أعينهم علىٰ دورهم الذي خلقوا من أجله ، الإبداع في إصلاح الأرض ، والرد علىٰ بدع المبتدعين بالقول والفعل بتوضيح وبيان الهدف الذي لأجله وجد الإنسان وهو أن يعبد ٱلله ويخلفه وينصره ويعمر أرضه كما نبه ٱلله تعالىٰ بآيات في مواضع مختلفة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

وقوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ وهٰذا لعلم ٱلله بقيمة الإنسان الذي سيخلفه فقال تعالىٰ : ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ وهٰذا مطلق الإبداع الإلٰهي في علمه بدور الإنسان الخليفة .

ومن البدعة الفعلية : بدعة العبادة التي لم ينزل ٱلله بها من سلطان ومن أمثلة ذلك علىٰ سبيل المثال لا الحصر ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (1) .

فالرهبنة من البدع العملية ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ فهم جاؤوا بها بدعة من عند أنفسهم بخلوتهم في الجبال والكهوف و المغارات والأديرة هرباً من الفتنة وكلفوا أنفسهم فوق طاقتهم في العبادة بالزيادة فيها ، وترك النكاح وهو الفطرة التي فطر ٱلله الناس عليها لتعمير الأرض واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس ، وهٰذا لم يكتبه ٱلله عليهم بل ابتدعوه من عند أنفسهم فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضها ٱلله عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ هم ظنوا أنها ترضي ٱلله فابتدعوها ابتغاء رضوان ٱلله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ ﴾ فأهملوا ما أحل ٱلله وابتدعوا الرهبانية وبلغ بهم الابتداع بأنهم ضيعوها و زادوا في بدعتهم بالقول بالتثليث والاتحاد وكفروا بدين عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ودخلوا في دين ملوكهم ، ولما بعث ٱلله النبي محمداً ﷺ فآمن به بعضهم فآتاه ٱلله الأجر الحسن وذلك قوله تعالىٰ : ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ ﴾ وهم الذين ثبتوا علىٰ الدين الصحيح ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وهم الذين ابتدعوا الرهبانية وكفروا بدين عيسىٰ ﷺ .

وخليفة الاسم البديع هو الذي يعرف أن العبادة التي فيها مشقة وهلاك للنفس لا ترضي ٱلله سبحانه وتعالىٰ فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) ،

---

(1) الحديد ، 27 ـ 29 .

(2) البقرة ، 286 .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ مع أنَّ الأمانة التي حملها الإنسان كان ظلوماً جهولاً بعبئها إلا أن ٱلله تعالىٰ كان رءوفاً رحيماً بعباده الذين استجابوا لحمل الأمانة ولهٰذا قال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فهٰذا إخبار من ٱلله تعالىٰ إلىٰ خير الخلق من أصحاب الرسول ﷺ فهم طلبوا من ٱلله ألا يكلفهم مالا يستطيعون من أعمال في العبادة ولأنه رحيم بر فهو لا يكلف نفساً إلا وسعها حتىٰ لا تضيق الأنفس بمشقة العبادة ، ولذلك قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فكيف لا نسمع ولا نطيع نحن أمة المصطفىٰ وٱلله تعالىٰ لا يكلفنا إلا ما في وسعنا وطاقتنا ، وهٰذا بحكم الرحمة الألوهية فهو لا يطالبنا إلا بالشيء السهل الهين ، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين فقال من اتبع المنهج السهل الرحيم ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ طلباً للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم علىٰ سبيل العمد لذلك خفف ٱلله تعالىٰ عنهم ذلك وقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ذلك لو وقع نوع في التقصير علىٰ سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه فإن ٱلله تعالىٰ لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وهٰذه استجابة لدعائهم في قولهم ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ .

ومن سنة النبي ﷺ التي ترفض الابتداع وتحث علىٰ الإبداع الآتي :

عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَقُولُ : « جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تأخر ، قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا .

وَقَالَ آخر : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ .

وَقَالَ آخر : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا .

فَجَاءَ رسول ٱلله ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَٱلله إِنِّي

لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[(1)] .

فهـٰؤلاء مبتدعون وليسوا مبدعين لأن الابتداع في الباطل والإبداع في الحق ، والخليفة علىٰ هـٰذا مبدع ؛ لأنه يريد أن يحق الحق ويبطل الباطل باتباع المنهج الذي يحفظ النفس والنسل والزرع .

أما القيام الدائم ليلاً بالعبادة لا شك سيكون علىٰ حساب نواح أخرىٰ في الحياة ستتعطل بلا ريب من ذلك رعاية الأبناء والقيام بحقوق الزوجة وهلاك للبدن والنفس بتحمل المشاق وهـٰذا لا يرضي الرَّب دون أدنىٰ شك .

فالصيام الدائم هلاك للجسم وللقوة وعليه توقف لحركة التعمير في الأرض ، وهـٰذا يخالف الهدف الذي خلق له الإنسان عبادة وإصلاحاً ، واعتزال النساء توقف لاستمرار النوع البشري وتعطيل فطرة من الفطر التي فطر ٱلله البشر عليه وفي تعطلها مخالفة لله ووسيلة غير مباشرة لنشر الرذيلة في المجتمع بين النساء ، وهـٰذا يخالف المنهج الإصلاحي في خلافة الإنسان لله في الأرض .

وهنا نتذكر شكوىٰ أم الدرداء لسلمان الفارسي من أبي الدرداء ؛ لأنه أهمل بسبب المغالاة في العبادة شأن الأسرة التي هي عماد المجتمع .

فقد« آخَىٰ النَّبِيُّ رسول ٱلله ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَىٰ أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فَقَالَ لَهَا : مَا شَأْنُكِ ؟ قَالَتْ : أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا ، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ : كُلْ ، قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَ : مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّىٰ تَأْكُلَ ، قَالَ : فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ ، قَالَ : نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ ، فَقَالَ : نَمْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ

---

(1) صحيح البخاري ، ج 15 ، ص 493 .

آخر اللَّيْلِ ، قَالَ : سَلْمَانُ قُمِ الآن فَصَلِّ ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ : إِنَّ لِرَبِّكَ عليك حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عليك حَقًّا وَلأَهْلِكَ عليك حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ » [1] .

ومن البدع ترك ما أحل ٱلله ابتداعاً من عند أنفسهم وهـٰذا يظهر في الذين يحرمون اللحم دون إرشاد من طبيب ، بحجة أنه يقوي الشهوة فينصرف الإنسان عن العبادة الىٰ النساء ويهمل في العبادة فعن ثابت عن أنس : « أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام علىٰ فراش ، فحمد ٱلله وأثنىٰ عليه فقال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لـٰكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » [2] .

ومن البدع السيئة التي تفسد في الأرض وتؤدي الىٰ انهيار الذمم الغش في التجارة وهي بدعة ضالة مضلة ؛ لأنها تعتمد علىٰ الخداع البصري والكذب في الوقت نفسه لذا فقد نهىٰ النبي ﷺ من الغش ؛ لأنه بدعة سوء ، فعن أبي هريرة أن رسول ٱلله ﷺ « مر علىٰ صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال ما هـٰذا يا صاحب الطعام قال أصابته السماء يا رسول ٱلله قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس مني » [3] .

ومن البدعة السيئة ترك النكاح وهو سنة الأنبياء ، فعن السيدة عائشة أم المؤمنين قالت : قال رسول ٱلله ﷺ : « النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني ، وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ، ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم

---

(1) صحيح البخاري ، ج 7 ، ص 76 .
(2) صحيح مسلم ، ج 7 ، ص 175 .
(3) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 267 .

يجد فعليه بالصيام فإن الصوم له وجاء » [1] .

ولا حجـة أقـوىٰ وأظهـر فـي البيـان مـن حجـة القـرآن فيقـول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [2] ففي الآية الأصول والبدع الخارجة عليها .

ـ فالغش بدعة لأن الأصل الأمانة .

ـ الكذب بدعة لأن الأصل الصدق .

ـ التبتل بدعة لأن الأصل الزواج .

ـ السهر المفرط بدعة لأن الأصل الراحة بعد التعب .

ـ الصوم المتصل بدعة لأن الأصل شهر رمضان وأيام معدودات .

ـ إهمال الأسرة بدعة لأن الأصل الرعاية والعناية ، فعن ابْنِ عُمَرَ قال : « سَمِعْتُ رسول ٱلله ﷺ يَقُولُ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادم رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » [3] .

ـ إهمال الرعية بدعة والأصل القيام علىٰ شئونهم .

---

(1) سنن ابن ماجه ، ج 5 ، ص 439 .

(2) الأعراف ، 31ـ33 .

(3) صحيح البخاري ، ج 3 ، ص 414 .

ـ إهمال الرجل لأسرته وأولاده بدعة والأصل الكد والاجتهاد لسعادتهم .

ـ إهمال المرأة لأسرتها بالإهمال في نفسها وعدم الظهور بالمظهر اللائق أمام زوجها بدعة والأصل الاهتمام بنفسها ومراعاة مشاعر زوجها واحترام مشاعر الآخرين وتقديرها .

ـ إهمال المرأة في رعاية أبنائها بدعة والأصل السهر علىٰ راحتهم وتوفير الطمأنينة لهم بكل مشاعر الأمومة . وهٰذا يذكرنا بوصية المرأة العربية لابنتها عند زواجها ، فقد خطب عمرو بن حجر إلىٰ عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس ، فقال : نعم ، أزوجها علىٰ أن أسمي بنيها وأزوج بناتها . فقال عمرو بن حجر : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فينكحهن أكفاؤهن من الملوك ، ولٰكني أصدقها عقاراً في كندة وأمنحها حاجات قومها ، لا ترد لأحد منهم حاجة . فقبل ذلك منه أبوها ، وأنكحه إياها . فلما كان بناؤه بها خلت بها أمها فقالت : أي بنية ، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت ، وعشك الذي فيه درجت ، إلىٰ رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أمة يكن لك عبداً ، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً .

ـ أما الأولىٰ والثانية : فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة .

ـ وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك علىٰ قبيح ، ولا يشم منك إلا الطيب ريح .

ـ وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

ـ وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء علىٰ حشمه وعياله ، وملاك الأمر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير .

ـ وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمراً ولا تفشين له سراً ، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره . ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً . فولدت له الحارث بن عمرو ، جد امرئ القيس الشاعر [1] ، وهـٰذه النصائح لفطرية أصل ومخالفتها بدعة .

ـ وإهمال العامل في عمله بدعة والأصل إتقان العمل ، والذي يتقن العمل يحبه ٱلله فإن النبي ﷺ قال : « إن ٱلله تبارك وتعالىٰ يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » [2] .

وكل ما يحبه ٱلله فهو إبداع وخلافه بدعة ، فٱلله يحب المقسطين لأن العدل هو الأصل والظلم هو البدعة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [3] .

ـ الأصل هو الوحدة والتراص صفاً واحداً في الحرب والسلم وخلاف ذلك بدعة .

فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [4] .

---

(1) العقد الفريد ، ج 2 ، ص 420 .

(2) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 11 ، ص 296 .

(3) الممتحنة ، 8 .

(4) الصف ، 4 .

ـ والإنفاق في سبيل ٱلله الأصل والإمساك بدعة والإحسان للفقير أصل والإساءة له بدعة . فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (1) .

ـ والسمح في البيع والشراء والقضاء أصل والجفاف والغلظة بدعة .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رسول ٱلله ﷺ قال : « إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ سَمْحَ الشِّرَاءِ سَمْحَ الْقَضَاءِ » (2) .

ـ وتجديد التوبة والطهارة أصل والقنوط من رحمة ٱلله بدعة فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (3) .

وعلىٰ ما تقدم فإن كل عمل يحبه ٱلله فيه إبداع وإتقان فهو أصل وكل عمل يغاير ذلك فهو بدعة من المبتدعين حفظنا ٱلله من البدع وأهلها وشرها ، واجعلنا يا ألله يا مبدع من المبدعين للخير وما يؤدي إلىٰ إحسان واجعلنا لذلك أهلاً وناصرين وللحق محقين وللباطل زاهقين إنك ربي بك آمنت وعليك توكلت وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليك فحفظك ورحمتك وغناك من الفاقة والحاجة وعفوك من كل عاهة ومرض وحاجة .

ومن مظاهر الإبداع الإلـٰهي في الكون ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا

(1) البقرة ، 195 .

(2) سنن الترمذي ، ج 5 ، ص 148 .

(3) البقرة ، 222 .

ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [1] فهنا يتجلىٰ إبداع ٱلله سبحانه وتعالىٰ في هـٰذا الجانب من الخلق حيث يخاطب الناس ويدعوهم للتفكر في آياته ويضرب لهم المثل في أدق الحقائق التي يلمسونها من أنفسهم والتي لا تدعو عاقلاً إلىٰ نكران حقيقة ما يقف عليه من إبداع ٱلله الذي فطر كل شيء فأحسن خلقه وهـٰذا مما لا يدع مجالاً للشك من بعث ٱلله للخلائق بعد الموت ، فإن كان أحد منكم في ريب من بعثكم ففي خلقكم الدليل علىٰ قدرتنا علىٰ البعث ، فقد خلقنا أصلكم من تراب ، ثم جعلنا منه نطفة حولناها بعد مدة إلىٰ قطعة دم متماسكة ، ثم جعلناها قطعة من اللحم مصورة فيها معالم الإنسان ، أو غير مصورة لنبين لكم قدرتنا علىٰ الإبداع والتدرج في التكوين ، والتغيير من حال إلىٰ حال ، ونسقط من الأرحام ما نشاء ، ونقر فيها ما نشاء من ذكر أو أنثىٰ ، حتىٰ تكمل مدة الحمل ، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ، ثم نرعاكم لتبلغوا تمام العقل والقوة ، ومنكم بعد ذلك من يتوفاه ٱلله ، ومنكم من يمد له عمره حتىٰ يصير إلىٰ الهرم والكبر فيتوقف علمه وإدراكه للأشياء ، ومن بدأ خلقكم بهـٰذه الصورة لا تعجزه إعادتكم . وأمر آخر يدلنا علىٰ قدرة ٱلله علىٰ الإبداع وهو أنك ترىٰ الأرض قاحلة يابسة ، فإذا أنزلنا عليها الماء دبت فيها الحياة من كل لون وصنف وتحركت وزادت وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء ، وأظهرت من أصناف النباتات ما يروق منظره ، ويبهر حسنه ، ويبتهج لمرآه ، فالمتأمل لهـٰذه الحركة العجيبة من بدايتها التي تنطلق من قطرة الماء التي يسكبها المبدع ويسكنها حبات الرمال فإذا هي بعد ذلك تجعل الأرض تعج بالحياة وتصطخب بالحركة في عملية إخراج النبات فيكون أشجاراً وأزهاراً ذات ألوان تخلب الألباب يأتي أعظم الفنانين في الرسم ليحاكي الصور التي أبدعها المبدع العظيم ، فإذا أردنا أن نقف علىٰ

(1) الحج ، 5 .

عظمة البديع في هـٰذا الجانب فلننظر إلىٰ الصحراء بعد أن يصيبها المطر ما الذي يحدث فيها وكيف يتلاشىٰ السراب وتتبدل صورتها وتدب فيها الحياة من مختلف الأنواع عندما تنتشر الغدران ويتماس النبات فيكون ذلك مسرحاً لإبداعات ٱلله الأخرىٰ من الحيوانات والطيور والزواحف والفراشات ، لذلك ضرب ٱلله مثل إبداعه هـٰذا بالأعمال الصالحة التي يسر مرآها عيون الناظرين حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [1] فشبه الأعمال الصالحة والإنفاق في سبيل ٱلله بأرض خصبة مرتفعة يفيده كثير الماء وقليله ، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين ، وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفي لإثماره لجودة الأرض وطيبها ، فهو مثمر في الحالتين ، وما هـٰذا إلا لما في الحدائق والبساتين من عجائب الإبداع والدلالة علىٰ هـٰذه القدرة وهي قدرة الخالق عز وجل الذي يتجلىٰ إبداعه فيها ، فصفة المبدع لا تقتصر علىٰ جانب دون غيره ، وعلىٰ الرغم من ورود لفظة المبدع في القرآن الكريم مرتين فقط ، إلا أننا نقف علىٰ هـٰذه الصفة الجليلة من أسماء ٱلله الحسنىٰ في أنفسنا وفي كل ما حولنا ، فلا تكاد تلتفت إلىٰ شيء أو تقع عينك علىٰ شيء إلا وتتجلىٰ لك هـٰذه الصفة فيما تفكر أو فيما ترىٰ مما أودع المبدع صدور صنوف سائر المخلوقات من الحيوان ، من أنواع المعارف ، وفطرها عليه من غريب الطباع والسجايا ، وسخر لحناجرها من ضروب النغم الموزونة ، والأصوات الملحنة ، والمخارج الشجية ، والأغاني المطربة ، فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة ، وموزونة موقعة ، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في إبداع الصنعة ، مما ذلل ٱلله تعالىٰ لمناقيرها وأكفها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة علىٰ قدر

---

(1) البقرة ، 265 .

ما هيأ لها من الصوت واللسان الصغير والحنجرة التي ترىٰ بالكاد ، وكيف أعطىٰ كثيراً منها من الحس اللطيف ، والصنعة البديعة ، من غير تعليم وتدريب ، ومن غير تقويم وتلقين ، فبلغت بعفويتها وبمقدار قوة فطرتها ، من البديهة والارتجال ، ومن الابتداء والاقتضاب ، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرأي ، وفلاسفة علماء البشر ، لا بيد ولا آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالاً وأتمهم خلالاً ، لا من جهة القصد ولا من جهة المصادفة ، ولا من جهة التقدم فيه ، والتأني به ، والتأتي له ، والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأسباب المعينة عليه ، فصار جهد الإنسان الثاقب الحس ، الجامع القوىٰ ، المتصرف في الوجوه ، المقدم في الأمور ، يعجز عن عفو كثير منها ، وهو ينظر إلىٰ ضروب ما يجيء منها ، كما أعطيت العنكبوت ، قال تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) فبيت العنكبوت أوهن وأضعف بناء بناه مخلوق ، ومع هـٰذا فقد كان أعظم حاجز ومانع ، أمام كفار قريش حتىٰ لا يصلوا إلىٰ رسول ٱلله ﷺ فأي إبداع هـٰذا الذي أودعه ٱلله تعالىٰ في مخلوقاته .

ومن عجائب إبداعه جل شأنه هـٰذه الحشرة الصغيرة في الحجم التي تحمل قدراً من السم تدافع به عن نفسها وعن مسكنها ، والعظيمة في الفائدة ألا وهي حشرة النحل التي ذكرها ٱلله تعالىٰ في محكم التنزيل بقوله : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) فقد ألهم ٱلله النحل أسباب حياتها ، ووسائل معيشتها ،

(1) العنكبوت ، 41 .

(2) النحل ، 68 ـ 69 .

بأن تتخذ من الجبال بيوتاً في كهوفها ، ومن فجوات الشجر ، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتاً ، كذلك ألهمها وألقىٰ في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير البديع ما يجب عليها أن تفعله ، فأوحىٰ إليها بتسخيرها لما أريد منها ، وكيف أن الملكة من النحل هي الوحيدة التي تضع البيض ، وسائر النحل قائم علىٰ خدمتها ، وكيف ألهمت أن تبني البيوت علىٰ شكل سداسي من أضلاع متساوية مستقيمة ، والبشر لا يمكنهم ذلك إلا بآلات مثل المسطرة والفرجار ، ولماذا تختار هـٰذا الشكل علىٰ غيره من البيوت المشكلة بأشكال أخرىٰ كالمثلثات والمربعات والمخمسات وغيرها ، وفي ذلك سر من عجائب الإبداع حيث ثبت في علم الهندسة أنها لو كانت مشكلة بأشكال أخرىٰ يبقىٰ فيما بينها بالضرورة فراغات خالية ضائعة ، ولها من الأحوال والعجائب أشياء كثيرة ، فسبحان من أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ . ومن بديع المعرفة ومن غريب الصنعة ، في غير النحل من أصناف الخلق الشيء الكثير ، فنحن نعلم أن النملة تدخر للشتاء في فصل الصيف ما يمكنها من العيش ، ولا تضيع أوقات إمكان الحزم ، ثم يبلغ من تفقدها وحسن خبرها والنظر في عواقب أمرها ، أنها تخاف علىٰ الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف ، أن يصيبها العفن أو السوس ، فتخرجها من بطن الأرض إلىٰ ظهرها ، لتيبسها وتعيد إليها جفافها ، وليضربها النسيم ، وينفي عنها الفساد ، ثم إذا كان مكانها ندياً وخافت أن تنبت نقرت موضع النواة من وسط الحبة ، وتعلم أنها من ذلك الموضع تبتدئ وتنبت وتنقل ، فهي تفلق الحب كله أنصافاً ، فأما إذا كان الحب من حب الكزبرة ، فلقته أرباعاً ، لأن أنصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب ، فهي علىٰ هـٰذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان ، والمخلوق الوحيد الذي يحمل قدر وزنه خمسين ضعفاً ، فأية قدرة هـٰذه التي أبدعت هـٰذا الخلق وأوحت إليه أن يفعل هـٰذا الأمر ولا يفعل ذلك الأمر ، إنه المبدع الخلاق العظيم .

فياله من إبداع لا يقدر عليه إلا البديع فصدق ٱلله العلي العظيم إذ قال : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (1) .

فٱلله أمر بتكرار البصر في خلقه البديع علىٰ سبيل التصفح والتتبع ، فهل يجد المتأمل لإبداع البديع في إبداعه لخلقه عيباً وخللاً ، و إذا كرر النظر ملايين المرات لم يرجع البصر بملاحظة أدنىٰ خلل أو عيب ، بل يرجع النظر إلىٰ الذي يبحث عن خلل في إبداع البديع خاسئاً مبعداً حاقناً مغيظاً ضعيفاً ؛ لأنه أتعب نفسه دون فائدة .

الحمد لله أولاً وآخراً وأزكىٰ صلاة وتسليم علىٰ النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ ، والحمد لله إننا عباد المبدع الذي يمدنا بالخيرات كيفما نتوقع وكيفما لا نتوقع ، إنه المبدع المطلق الذي لا يتعب ولا يكل ولا يمل ولا يضعف ، ولا يعجز ولا تأخذه سنة ولا نوم إنه ربي المهيمن البديع جلَّ جلالهُ .

اللهُمَّ يا البديع لا تجعلنا علىٰ بدعة واجعلنا من المبدعين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في كل حين ، اللهُمَّ يا البديع للسمٰوات والأرض والبديع للروح والنفس والجسد قد خلقت الشيء وخلقت من الشيء أشياء ، فاجعلنا من المتدبرين في آياتك وهم مطمئنون ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا

(1) الملك ، 1ـ4 .

ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ ، اللهُمَّ يا البديع للجمال والأقوال والأفعال والأعمال والأزواج اجعل أقوالنا علىٰ الحق وأفعالنا علىٰ الحق وأعمالنا علىٰ الحق وأزواجنا علىٰ الحق إنك أنت البديع سبحانك محق الحق رب العالمين .

✍ ✍ ✍

الباقي جلّ جلاله

الباقي : هو الدائم الذي لا يزول ولا يفنىٰ ولا يبيد ولا ينتهي ، هو الأول والآخر وهو علىٰ كل شيء قدير .

الباقي : « هو ٱلله تعالىٰ المستأثر بالبقاء وكتب علىٰ خلقه الفناء وهو خالق الفناء والبقاء » [1] .

الباقي : « الدَّائِمُ الْمَوْجُودُ لَمْ يَزَلْ ، الْمَوْصُوفُ بِالْبَقَاءِ ، الَّذِي لا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ » [2] .

الباقي : هو الموجود لا عن حدوث في حال وصفه بذلك [3] ، أي إذ ذُكر الباقي فصفة الوجود كامنة في الذات لا في الحدث ، فٱلله سبحانه موجود لا محدث ، وهو موجود قبل الوجود ، وموجود بمعنىٰ العِلْمِ المُجَرَّدِ إِذ كان ٱللهُ تعالَىٰ مُنَزَّهاً عن الوَصْفِ بالجَوَارِح والآلاتِ [4] ، فهو الذي أوجد الوجود ، فقد أوجد السماء والأرض ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [5] ، وقد أريد

---

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 64 .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 44 .

(3) معجم الفروق اللغوية ، 1 ، 90 .

(4) تاج العروس ، 1 ، 2319 .

(5) الأنبياء ، 30 .

بالرتق حالة العدم إذ ليس فيه ذوات متميزة فكأن السمـٰوات والأرض أمر واحد متصل متشابه وأريد بالفتق وأصله الفصل في قوله تعالىٰ : ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ الإيجاد لحصول التمييز وانفصال بعض الحقائق عن بعضها ، ومعنىٰ الآية ألم يعلموا أن السمـٰوات والأرض كانتا علىٰ حالتين من التهيؤ ، فأظهرناهما بالأمر ﴿ كُن ﴾ .

ثم أوجد ما في الأرض وما في السماء ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، ثم أوجد عليهما من يقوم بأمره ، فأوجد الخليفة في الأرض ليعمرها ويأمر بالحق ويمنع سفك الدماء والفساد ، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) ، وأوجد الملائكة في السماء ليسبحوا باسمه جلَّ جلاله ، ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) .

وليقوموا بأمره فيها ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (4) .

والباقي هو الدائم الذي دام وجوده ، فالبقاء له صفة قائمة بذاته (5) ، وهو الباقي بجلاله وعرشه وملكه وكماله علىٰ الدوام دون تأثر أو تغيير ؛ لأن الحي من البشر قد يوصف بالسمع لـٰكن سمعه يتأثر بمرور الوقت فيضعف

---

(1) البقرة ، 29 .

(2) البقرة ، 30 .

(3) الزمر ، 75 .

(4) التحريم ، 6 .

(5) الاعتقاد للبيهقي ، ج 1 ، ص 66 .

سمعه ، وربما يحتاج إلىٰ ما يعينه كسماعة الأذن لتعينه علىٰ تلافي النقص الحاصل جراء التغيير الطارئ عليه ، وقد يكون بصيراً لـٰكنه يتأثر بعد مدة فيضع عدسة يستعين بها علىٰ الإبصار ، والإنسان قد يكون متصفاً بالصفات لـٰكنه يتأثر بالسنة والنوم والغفلة ، ولو كان قائماً دائماً لكملت حياته وبقيت صفاته ، أما الباقي فهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ؛ لأنه كامل الصفات ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) ، وهو الذي لا يغفل ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ (2) ، وعلىٰ الخليفة أن يكون بقدر ما يستطيع علىٰ الصفات الحسنىٰ ، فلا يغفل عن أداء واجبه تجاه ٱلله سبحانه وتعالىٰ ولا تجاه العباد ، فالغفلة صفة يجب علىٰ الخليفة تجنبها بالمطلق لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ ذكرها في موضع التحذير والتنبيه علىٰ تجنبها ، فوصف الغافلين بالكفر فقال جل شأنه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (3) ، ووصفهم في موضع آخر بالجهل ، ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾ (4) ، وهـٰذه صفات الأولىٰ بالخليفة أن يتجنبها بالمطلق

(1) البقرة ، 255 .

(2) إبراهيم ، 42 .

(3) يونس ، 7 ـ 8 .

(4) الروم ، 6 ـ 8 .

وأن يتحلىٰ بنقيضاتها ، فيكون له أذن قادرة علىٰ السماع المميز بين الخير والشر ، ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (1) ، وتكون له بصيرة وليس مجرد عين ينظر بها ، فإذا قال قائل ؛ كيف يمتلك الخليفة البصيرة وهي من أسرار مواهب ٱلله ، أما من وهبه ٱلله البصيرة فقد ملكها ، وأما من لم ينل ذلك فعليه بكلام ٱلله يعيه ويعمل به ؛ لأنه هو بصيرة الخليفة المؤمن ، ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (2) ، وعلىٰ الخليفة أن يحارب الغفلة بالذكر ، وأن يتمثل حال الخليفة الحق في الانتباه بعد الغفلة فيتذكر انتباه سليمان عليه الصلاة والسلام بعد أن غفل عن ذكر ٱلله ، ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ (3) .

والباقي دائم في أمره ، فأمر ٱلله دوام إرادته ، في الثوابت والمتغيرات ، أما في الثوابت فمثاله أمر الباقي للجبال أن تقوم بدور إرساء الأرض وهي تقوم بهٰذا الدور إلىٰ الوقت المعلوم عنده وحده سبحانه ، ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (4) ، وعندما يحين الوقت المعلوم المحدد بأمر الباقي سبحانه تكون بغير هيئتها التي كانت عليه ، يقول الباقي جل شأنه عن حركتها : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (5) ، ثم يصف نسفها فيقول : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ (6) ،

---

(1) الحاقة ، 12 .
(2) الجاثية ، 20 .
(3) ص ، 30 ـ 33 .
(4) النحل ، 15 .
(5) الكهف ، 47 .
(6) طه ، 105 ـ 107 .

أما المتغيرات فمثاله حركة الأفلاك التي ينتج عنها تحديد الزمن والمواقيت وهنا أمر ٱلله باقٍ دوام إرادته ، ولا يتغير لا لطاعة العباد ولا لمعصيتهم ؛ لأنها حاجات عامة لكل المخلوقات ، وشاء الباقي سبحانه أن يبقىٰ أمره فيها إلىٰ أن يشاء ، ثم تكون وبأمره في ساعة يعلمها هو سبحانه وتعالىٰ عما يصفون بغير حالها ، ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (1) ، ونفهم من هـٰذه الآيات أن ما من باقٍ غير ٱلله ، وما نراه من بقاء هـٰذه المخلوقات إنما هو بقاء جزئي وأن البقاء المطلق هو لله سبحانه وتعالىٰ .

وأمره جل وعلا لا تنطبق عليه حدود الزمن ، فلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، إذ الماضي من أمره هو ماضٍ وحاضر ومستقبل ، وحاضره هو ماضٍ ومستقبل ، ومستقبله هو ماضٍ وحاضر وكل ذلك علىٰ سبيل الإثبات أو النفي ، أما علىٰ سبيل الإثبات فأمثلته كثيرة منها قوله تعالىٰ : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (2) ، فـ (كان) هنا في الآية فعل فاعله الباقي فهو مستمر غير منقطع ، بمعنىٰ أنه كان عفواً ولم يزل يعفو وسيعفو ، فلا حد لزمن الفعل ، ولو كان الفاعل غير الباقي سبحانه وتعالىٰ لكان الماضي منقطعاً لا محالة ، وأمثلة هـٰذا النمط كثيرة منها قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) ، فقد كتبها في الماضي وهي مستمرة في الحاضر وستبقىٰ في المستقبل . وكذلك حاضره ، ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ

---

(1) يس ، 38 ـ 40 .

(2) النساء ، 99 .

(3) الأنعام ، 12 .

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (1) ، فالفعل المضارع دال علىٰ الحاضر لـٰكن فاعله الباقي سبحانه فانتفىٰ عنه حد الزمن ليصبح فعلاً دالاً علىٰ الماضي والحاضر والمستقبل معاً وهو ما يتجلىٰ في الكثير من الآيات الكريمة ومنها قوله عز من قائل : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) ، وكذلك الأمر في المستقبل من أوامره حيث يسقط عنها حد الزمن وانظر إلىٰ قوله سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (3) ، فهل يمكن أن يكون وجوب هـٰذا القول للمستقبل فقط وهو ٱلله أحد من الماضي إلىٰ الحاضر وسيبقىٰ في المستقبل باقياً أحداً صمداً ! ، كذلك يقول عز وجل : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (4) ، ففعل الأمر في القاعدة يدل علىٰ المستقبل لـٰكنه إذا صدر من الباقي فإنه باقٍ كذلك فهو للماضي والحاضر والمستقبل . وكل ما ذُكر كان علىٰ وجه الإثبات ، ومثله وجه النفي فهو الآخر لا ينطبق عليه حد الزمن لأن الزمن مخصص للمتغير أما الثابت الباقي فلا ينطبق عليه حد الزمن أو مقياسه ، يقول الباقي سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (5) ، بمعنىٰ أنه ما كان

---

(1) البقرة ، 253 .

(2) البقرة ، 185 .

(3) الإخلاص ، 1 .

(4) الأعراف ، 199 .

(5) الأنفال ، 33 .

معذبهم وهم يستغفرون ولم يزل يفعل وسيفعل ، فزمن الماضي غائب تماماً في مساحة الدلالة للآية ، ومثله المضارع المنفي ، يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (1) ، فهو باقٍ علىٰ عدم الرضا عن هٰؤلاء المتصفين بهٰذه الصفة التي جعلتهم من الفاسقين ، أو أنهم سيكونون منهم في المستقبل .

وهو باق في فعله ، فهو خالق ويخلق وسيخلق إلىٰ أن يشاء سبحانه ، فقد خلق الوجود من قبل ، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2) ، ويخلق ما يشاء بأمر منه ، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (3) ، ولعل ما يقال عن الأضرب الجديدة من النباتات وبعض عمليات تهجين الحيوانات وما ينتج عنها من أنواع جديدة وأشكال جديدة هي أكبر دليل علىٰ أنه يخلق سبحانه لأن ذلك كله إنما يجري بأمر ٱلله ، ولو أراد له أن لا يكون لما تحقق علىٰ سبيل النجاح في تجارب العلماء والدليل فشل بعض أنواع التهجين بين فصائل كثيرة من الحيوانات والنباتات ، وهو قادر علىٰ أن يخلق الجديد في المستقبل كما يخبرنا سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (4) . إنه الباقي القادر علىٰ أن يخلق مثل ما خلق من السمٰوات والأرضين ، ولأن الإجابة جاءت منصوصاً عليها في ذات الآية السابقة ، بقوله ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ فإن خلق

---

(1) التوبة ، 96 .
(2) الأعراف ، 54 .
(3) آل عمران ، 47 .
(4) يس ، 81 .

السمات والأرضين سيكون باقياً دائماً بيد الحي الباقي جلَّ جلاله .

من هنا يجب علىٰ الخليفة أن يمتلك مجموعة من الثوابت التي تتماشىٰ مع ما يريد ربه الباقي سبحانه ولتكون له عنواناً يُعرف به ، فيجب أن يكون الحق من أولىٰ ثوابته ، والإصلاح من أولويات أعماله ، وأن يدعو العباد إلىٰ العمل بهما (الحق والإصلاح) علىٰ طريق إعمار الأرض .

وهو باقٍ ؛ لأنه لا ينتهي تقدير وجوده لا في زمان ولا في مكان ، ففي الزمان هو رب المشرق والمغرب ، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [1] .

وهو الذي يبقىٰ في مد الزمن من حيث حركته واختلافه عليم مجيب ، فهو الباقي المحصي لحمد العباد وتسبيحهم كما يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [2] ، وهو الباقي المحصي لطاعتهم في القيام بالواجبات ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [3] ، وللنوافل ، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [4] ، ومن حيث المكان فهو إلـٰه كل الأكوان لأنَّه خالقها جلَّ وعلا ، يقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [5] .

---

(1) المزمل ، 9 .
(2) الروم ، 17 ـ 18 .
(3) هود ، 114 .
(4) الإسراء ، 79 ـ 80 .
(5) الزخرف ، 84 .

فهو أبدي الوجود لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلىٰ آخر ينتهي إليه [1] ؛ لأنه الباقي بعد فناء غيره كما يخبرنا بحكيم قوله عز وجل فيقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] . وتفسر الآية بقاء الباقي سبحانه ، فالوجه يطلق علىٰ الذات والمجسم يحمل الوجه علىٰ العضو وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن لأنَّ قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [3] ، يدل علىٰ أن لا يبقىٰ إلا وجه ٱلله تعالىٰ ، فعلىٰ القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنىٰ لا يبقىٰ غير حقيقة ٱلله أو غير ذات ٱلله شيء .

الباقي : « هو الموجود الواجب وجوده بذاته ، والباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلىٰ آخر ويعبر عنه بأنه أبدي ، وواجب الوجود بذاته متضمن لجميع ذلك وإنما هـٰذه الأسامي بحسب إضافة هـٰذا الوجود في الذهن إلىٰ الماضي والمستقبل ، وإنما يدخل في الماضي والمستقبل المتغيرات ؛ لأنهما عبارتان عن الزمان ولا يدخل في الزمان إلا التغير والحركة إذ الحركة إنما تنقسم علىٰ ما هو في الماضي والمستقبل والمتغير يدخل في الزمان بواسطة التغير فما جل عن التغير والحركة فليس في زمان فليس فيه ماض ومستقبل فلا ينفصل فيه القدم عن البقاء بل الماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذ مضىٰ علينا وفينا أمور وستتجدد أمور ولا بد من أمور تحدث شيئاً بعد شيء حتىٰ تنقسم إلىٰ ماض قد انعدم وانقطع وإلىٰ راهن حاضر وإلىٰ ما يتوقع تجدده من بعد فحيث لا تجدد ولا انقضاء فلا زمان وكيف لا والحق سبحانه وتعالىٰ قبل الزمان وحيث خلق الزمان لم يتغير من ذاته شيء

(1) لسان العرب ، ج 14 ، ص 79 .
(2) الرحمـٰن ، 26ـ28 .
(3) القصص ، 88 .

وقبل خلق الزمان لم يكن للزمان عليه جريان وبقي بعد خلق الزمان علىٰ ما عليه كان »[1] .

فهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول سبحانه وتعالىٰ عن دوام بقائه : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾[2] ، ثم جاءت الإجابة بقوله تعالىٰ : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[3] أي : الذي هو واحد وقد قهر كل شيء ، وحكم بالفناء علىٰ كل مخلوق من بشر أو حيوان أو نبات ، وبالفناء لكل مقام علىٰ الأرض .

وديمومة البقاء من صفاته عز وجل ؛ لأنه باقٍ قبل أن يكون لمخلوق بقاء وهو باقٍ بعد أن يفنىٰ بقاء العباد ، فقد خلق الإنسان ولم يكن هـٰذا الإنسان شيئاً من قبل ، ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾[4] ، وشيء في الآية الكريمة توحي بأن الإنسان لم يكن يملك القدرة علىٰ هـٰذا الأمر (الخلق) ولا علىٰ أمر غيره إنما هو بأمر الباقي سبحانه وتعالىٰ ، وقد كتب عليه الفناء من بعد وليس له في هـٰذا حول ولا قوة إنما هو أمر الباقي عزَّ وجل ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[5] . ومن الباقي بعد ذلك ؟ إنه الحق الحي القيوم ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[6] .

والباقي سبحانه هو الذي لا يَغِيبُ وَلا يَنْقُصُ وَلا يَفْنَىٰ وَلا يُعْدَمُ ، بَلْ هُوَ الدَّائِمُ الْبَاقِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلا يَزَالُ ؛ لأنه الباقي وحده ، يقول عز

(1) المقصد الاسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ ، أبو حامد الغزالي ، ج 1 ، ص 147 .
(2) غافر ، 16 .
(3) غافر ، 16 .
(4) مريم ، 9 .
(5) المؤمنون ، 99 ـ 100 .
(6) آل عمران ، 2 .

وجل : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [1] إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت ، وفي الآية عمق دلالي يمكن استشعاره بتحليل أسلوب الأداء فيها ، فقد جاء تركيب (كل شيء) ليدل دلالة عميقة علىٰ العموم وذلك لأنَّ (كل) حرف يفيد العموم وقد أضيف إلىٰ شيء وهي نكرة ومعلوم أنها تفيد العموم مما يجعل هـٰذا العموم مطلقاً ، ثم جاء بأداة الحصر والاستثناء (إلا) ومن بعدها ذكر سبحانه المستثنىٰ وهو وجه ٱلله في دلالة واضحة علىٰ الباقي الآخر جل وعلا ليس بعده شيء ، وكل المخلوقات تهلك ويبقىٰ الحي الذي لا يموت ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [2] .

والباقي سبحانه وتعالىٰ هو مالك البقاء ، فهو الباقي بذاته وما سواه إنما باقٍ بٱلله وبإرادته ، وقضىٰ علىٰ ما عداه بالعدم والفناء [3] ، وفي هـٰذه المقابلة بين الباقي بذاته والفاني بغيره إيحاءات عظيمة بالقدرة للباقي وبالضعف والوهن للفاني ، فالباقي قدير بذاته علىٰ البقاء بينما لا يملك الفاني قدرة البقاء وإن أراد ؛ لأنه فاقد القدرة علىٰ تحقيق إرادة البقاء هو ومن معه ، يقول الباقي سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [4] ، دليلاً قاطعاً علىٰ فقدان القدرة علىٰ البقاء في تلك اللحظة أي في لحظة إرادة الباقي لفناء العبد .

---

(1) القصص ، 88 .

(2) الفرقان ، 58 .

(3) المواقف ، عضد الدين الإيجي ، ج 1 ، ص 12 .

(4) الواقعة ، 83 ـ 87 .

وليس لشأن العبد عظم أو قل أثر في تحقيق إرادة البقاء ، فالأنبياء حلت بهم إرادة الباقي ففنوا ، وفي القرآن آيات محكمة تدلل علىٰ ذلك ، فقد أشار الذكر العزيز إلىٰ موت يعقوب ، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (1) ، وكذلك سليمان ، ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ (2) ، وأخيراً نبي العالمين الخاتم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فقد أخبره الباقي عزَّ وجلَّ في آيات كثيرة أنه مقبل علىٰ الموت فقال له : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (3) ، وقال لنا : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (4) ، وفي هٰذه الآية والتي قبلها إشارة إلىٰ صعوبة تقبل موت الأنبياء من قبل من حولهم ، فالجن لم ينتبهوا لموت سليمان ؛ لأنه لم يكن في حسبانهم ، وأصحاب محمد ﷺ حدث لهم إرباك كبير بعد إعلان وفاة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولعل ذلك راجع إلىٰ ما في هٰذه الشخصيات من تمثل لصفات من استخلفهم في الأرض ، فهم في مرتبة عالية من الإيمان المطلق بٱلله وبالامتثال لأوامره ، وكذلك فقد كانوا ينطقون بأخبار السماء من خلال ما يوحىٰ إليهم من ربهم وانقطاع ذلك لاشك هو مذهل لألباب من حولهم ، كما كان لدورهم الفعال في حل قضايا الناس أثر في إرباك العقول وتشتيتها عن القبول بموتهم ، وبالرغم

(1) البقرة ، 133 .

(2) سبأ ، 14 .

(3) الزمر ، 30 .

(4) آل عمران ، 144 .

من كل ذلك إلا أنهم اقبلوا علىٰ الموت محبين لقاء ربهم بشوق ورغبة .

وعليه الباقي هو الحي الذي لا يموت وهو مالك الفناء والبقاء ، فبقاؤه مطلق وبقاء غيره نسبي مؤقت ، فكان لبقاء غيره النسبي توقيت محدد نص عليه سبحانه فقال : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (1) ، ويروىٰ أن الباقي حدد لكل أمة معدل متوسط للبقاء ، فبينما كانت الأمم السابقة تعمر بألف سنة كما يخبرنا الباقي سبحانه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ (2) ، كتب أن يكون بقاء المخلوق بقدر ما يشاء هو لها فتجد أن بعض المخلوقات تعمر أكثر من غيرها ، وبقاء بعضها مرتبط بدوره كالملائكة الكرام فيروىٰ أن الملائكة يبقون بأمر ٱلله أكثر من كل المخلوقات لـٰكن يحل بهم الفناء بأمر الخالق بعد انتهاء دورهم وأكبر دليل علىٰ ذلك هو تأخر فناء عزرائيل وذلك لغرض استكمال مهمته في القيام بأمر ٱلله وحين يكمل هـٰذا الدور سوف يحل به الفناء هو أيضاً ، ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (3) ، « والموت صفة وجودية خلقت ضداً للحياة المؤقتة . والمعنىٰ يقبض عزرائيل أرواحكم بحيث لا يترك منها شيئاً بل يستوفيها ويأخذها تماماً علىٰ أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم أو يقبض أرواحكم بحيث لا يترك منكم أحداً ولا يبقي شخصاً من العدد الذي كتب عليهم الموت وأما ملك الموت نفسه فيتوفاه ٱلله تعالىٰ كما روي أنه إذا أمات ٱلله الخلائق لم يبق شيء له روح يقول ٱلله لملك الموت من بقي من خلقي وهو أعلم فيقول يا رب أنت أعلم بمن لم يبق

---

(1) الأعراف ، 34 .

(2) العنكبوت ، 14 .

(3) السجدة ، 11 .

إلا عبدك الضعيف ملك الموت فيقول ٱلله يا ملك الموت قد أذقت أنبيائي ورسلي وأوليائي وعبادي الموت وقد سبق في علمي وأنا علام الغيوب أن كل شيء هالك إلا وجهي وهـٰذه نوبتك فيقول إلـٰهي ارحم عبدك ملك الموت والطف به فإنه ضعيف فيقول سبحانه وتعالىٰ ضع يمينك تحت خدك الأيمن واضطجع بين الجنة والنار ومت فيموت بأمر ٱلله تعالىٰ »[1] ، وسبحانه الحي الباقي الذي لا يموت ولا يفنىٰ .

فالباقي علىٰ ذلك باق إلىٰ غير نهاية ، وكل ما لا نهاية له هو باق ، فانظر إلىٰ الأكوان هل ترىٰ أن شيئاً منها باق ؟

فالأرض تنتهي كما ينص قول ٱلله سبحانه وتعالىٰ تذكيراً للفاني المنتهي بمصيره القادم ، وتحذيراً له قبل الندم ، ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾[2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم أي لا ينبغي أن يكون الأمر هـٰكذا في الحرص علىٰ الدنيا وقصر الهمة والجهاد علىٰ تحصيلها والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تتهيأ من حلالٍ أو حرام ، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء . فإن من كان هـٰذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة ويتمنىٰ أن لو كان أفنىٰ عمره في التقرب بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، ثم بين أنه إذا جاء يوم الحشر تبين مصير الأرض وطريقة انتهائها ، فقوله : ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾ ، فمعنىٰ الدك كسر كل شيء علىٰ وجه الأرض من جبل أو شجر حين زلزلت فلم يبق علىٰ ظهرها شيء ، أي أنها استوت في الانفراش فذهبت دورها وقصورها وسائر أبنيتها حتىٰ تصير كالصخرة الملساء ، واعلم أن التكرار في قوله : ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾ معناه دكاً بعد دك كقولك حسبته باباً باباً وعلَّمته حرفاً حرفاً أي كرر

---

(1) تفسير حقي ، ج 10 ، ص 460 .

(2) الفجر ، 21 .

عليها الدك حتىٰ صارت مستوية الانبساط . وهـٰذا الحال لا بد وأن يكون متأخراً عن الزلزلة ، لأن الباقي سبحانه يقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (1) ، فإذا زلزلت الأرض زلزلة بعد زلزلة انهدت الجبال بالقوة التي تُكسَّرُ أوتادها فلا تكون تلالاً بعد أن كانت ، وهـٰكذا تكون النهايات .

وآيات انتهاء الأرض عديدة كلها توضح بجلاء حالة الانتهاء ولحظته ، يقول الباقي سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ (2) ، وهي الحركة الأولىٰ في لحظة الانتهاء ، ثم الزلزلة التي ذكرناها سالفاً ، ثم الرج والبس ، ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ (3) ، أي زلزلت وحركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة أو برافعة ، والبس التقليب ، ثم يأتي الدك ، ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (4) .

والجبال تنسف وتتغير حالتها من الارتفاع إلىٰ الانبساط وهـٰذه نهايتها التي يذكرها الباقي عز وجل فيقول : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ (5) ، والمياه تجف وتغور في الأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ (6) ، والسماء تنتهي بطيها ، ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ (7) ، والطي ضد النشر ، وهو الإفناء

---

(1) الزلزلة ، 1 .
(2) النازعات ، 6 ـ 7 .
(3) الواقعة ، 4 ـ 5 .
(4) الحاقة ، 14 .
(5) طه ، 105 ـ 107 .
(6) هود ، 44 .
(7) الأنبياء ، 104 .

والإزالة ، والعودة إلىٰ الأصل وهي الذرة التي تهيأت عليها الأرض وخلقت ، وهـٰكذا كل شيء يَفنىٰ وينتهي ولا يبقىٰ إلا وجهه جلَّ جلاله ، ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ (1) ، وكذلك يقول الباقي عن الفاني : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ (2) ، والعمل ينتهي ، ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (3) ، وكل شيء ينتهي بأمر القادر علىٰ وضع النهايات .

مظاهر الباقي :

1 ـ كلمته (لا إلـٰه إلا ٱلله) ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (4) ، ولأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام موحد لله رب العالمين قال : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ (5) ، وهـٰذه كلمة باقية من بعده في قلوب المستخلفين فيها . (كَلِمَةً باقية في عَقِبِهِ) في ذريته عليه السلام الذين لا يزالون علىٰ التوحيد لله رب العالمين واحداً أحداً لا شريك له ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨ ﴾ تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه إلىٰ يوم يبعثون ، وكلمة التوحيد باقية لا تفنىٰ ؛ لأنها تدل علىٰ صلة المخلوق بالخالق الباقي عز وجل ، الذي لا يفنىٰ ومن هنا اكتسبت هـٰذه الكلمة صفة البقاء ، وستبقىٰ هـٰذه الكلمة بعد أن تفنىٰ الخلائق ؛ لأنها كلمة بحق الباقي الذي لا يموت تبارك وتعالىٰ .

ويجب أن تكون للخليفة كلمة تبقىٰ وهي كلمة الحق ، فعليه أن يعي أهمية كلمة الحق وضرورتها لإعمار الأرض ، فهي التي يتم بموجبها تصحيح

(1) الحاقة ، 8 .
(2) النجم ، 50 ـ 51 .
(3) الفرقان ، 23 .
(4) الزخرف ، 26 ـ 28 .
(5) الزخرف ، 26 .

مسار الحياة علىٰ الأرض علىٰ طريق الإصلاح الذي أُريد للخليفة أن يقره فيها ، فإذا وعىٰ كلمته يجب عليه أن يعممها ويعمم العمل بمقتضاها حتىٰ تعم الفائدة منها ولا تقتصر عليه فقط .

2 ـ شأنه ، الشأن الحال ، وهو باقي الشأن من قدرته علىٰ البقاء والثبوت ، والنقص في ما سواه ، فكل صفات الباقي ثابتة لا تتغير لعلة فيها كما في الباقي بالإضافة الذي يتغير لمرض أو لغضب أو لحب أو لكره ، فالبقاء المطلق صفته التي لا تتبدل ، يقول جلَّ وعلا : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (1) ، لذا فهو رحيم مطلق الرحمة ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، وهو عفو باقٍ علىٰ عفوه ، ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ (3) ، وهو تواب ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (4) ، وهو شديد ، ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (5) ، وشدته مفسرة بمحكم الآيات علىٰ سبيل ضرب المثل علىٰ سبيل الإحصاء والإحاطة التامة بشدته الباقية ، فهو شديد العقاب ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (6) ، وشـديـد المحـال ، ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (7) ، وهـو قـوي ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (8) ، وكل الصفات الأخرىٰ فهي باقية بقاءً مطلقاً لبقاء الذات المتصفة

---

(1) ق ، 29 .
(2) آل عمران ، 31 .
(3) النساء ، 149 .
(4) النصر ، 3 .
(5) النجم ، 5 .
(6) غافر ، 22 .
(7) الرعد ، 13 .
(8) المجادلة ، 21 .

بها ، ولعله من الواجب أن نقف مع آية كريمة شغلت الألباب لما فيها من معانٍ قد يتوهم البعض خلاف البقاء والثبوت إذا مرت به ، يقول الباقي عزَّ وجلَّ : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (1) ، ويبقىٰ وجه ربك يا محمد تشير إلىٰ بقائه بعد فناء كل من علىٰ الأرض ، ﴿ وَيَبْقَىٰ ﴾ للاستمرار أي سيظل هو ٱلله الباقي واحداً أحداً لا شريك له .

قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (2) كل من علىٰ الأرض سيفنىٰ ولا يبقىٰ علىٰ وجهها أحد ، كل شيءٍ هالك ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (3) ويبقىٰ ٱلله تعالىٰ لا يفنىٰ إنه الحي الدائم الباقي بالمطلق .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ عندما يكون الأمر متعلقاً بالمخلوق فالمخلوق في حالة تبدل ، بأسباب التغيرات التي تؤثر فيه سلبياً وإيجابياً ، وهٰكذا أيام ٱلله واحدة والأقوال والأفعال البشرية تتبدل وتتغير من حال إلىٰ حال ، وستظل أقوال وأفعال الإنسان متبدلة إلىٰ أن يؤمن بالباقي الذي لا يفنىٰ ، وعندما يقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (4) ، فإنه تعالىٰ في ذلك اليوم يجوز أن يكون هو السائل وهو المجيب ، ويجوز أن يكون البعث والعباد مؤمنهم وكافرهم يجيبون إجابة واحدة الملك اليوم لله الواحد القهار ، ولهٰذا فشأن الكفرة في الدنيا الإنكار ، وشأنهم في اليوم الآخر الاعتراف .

وعليه فالخليفة باقٍ أي باقٍ بتحليه بالصفات الباقية ، وأن يتمثل علىٰ

---

(1) الرحمٰن ، 27ـ30 .

(2) الرحمٰن ، 26 .

(3) القصص ، 88 .

(4) غافر ، 16 .

الدوام قول الباقي المُسْتَخْلِف جل في علاه : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [1] ، أي يجب أن يبتعد الخليفة عن الأخذ بالذنب السابق أو أن يصدر عقوبة لذنب تجاوز عن صاحبه لعودته عنه .

3 ـ شرعه ، شرع ٱلله باقٍ منذ اختار ٱلله آدم ليكون خليفته في الأرض ، رحمة منه بالناس وليكون للناس منهاجاً وسراجاً يهتدون به ، والشرع هو « ما شَرَع اللّه لِعبادِه من الدِّين : أي سَنَّه لهم وافْترضَه عليهم . يقال : شرَعَ لهم يَشرَع شرْعاً فهو شارِع . وقد شرَع ٱلله الدين شرْعاً إذا أظهَره وبيَّنه » [2] ، وقد كان هـٰذا الشرع الذي أراد الباقي أن يكون باقياً إلىٰ يوم الدين قد مر بمراحل إلىٰ أن وصل خاتمته برسالة سيدنا محمد ﷺ ، فقد بدأ علىٰ شكل وصايا وتنبيهات من الباقي عز وجل إلىٰ أول خلفائه آدم فقال له : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [3] ، وفصل له هـٰذه الوصايا فقال عز من قائل : ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا

---

(1) الأنعام ، 164 .

(2) النهاية في غريب الأثر ، ج 2 ، ص 1141 .

(3) البقرة ، 37ـ39 .

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [1] ، والإشارة واضحة إلىٰ القادم من أوامر ٱلله وناهيه ، فالآيات كلها تشير إلىٰ الهدىٰ وهو شرع ٱلله الذي يوصي به عباده علىٰ مراحل قادمة ، وفي المرحلة الثانية كانت الصحف هي التي تحمل مكملات ما شرعه ٱلله للعباد ، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [2] ، وفي إبهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفىٰ وكانت صحف إبراهيم عشرة وكذا صحف موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ والمراد بها ما عدا التوراة ، ثم توالت الكتب وهي : الزبور ، ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [3] ، وذكر لنا الباقي عزَّ وجلَّ نصاً من الزبور ضمنه في الكتاب الحكيم فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [4] ، ثم التوراة فالإنجيل فالقرآن بتسلسل تدلل عليه الآيات الكريمة التي تنص علىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ

---

(1) الأعراف ، 24ـ30 .

(2) الأعلىٰ ، 18 ـ 19 .

(3) الإسراء ، 55 .

(4) الأنبياء ، 105 .

ﭐلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (1) .

وهنا قد يتساءل البعض عن حكمة أن يكون شرع ٱلله علىٰ هـٰذه المراحل ولم يكن ينزل مرة واحدة ؟ والجواب هو أن الباقي حكيم عالم بخلقه ، فهو ينزل الشرع علىٰ مراحل رحمة بهم ومراعاة من جلاله لضعفهم عن القيام بالكل ، وهو أمر اختص به وحده سبحانه ، فكان الشرع متسلسلاً ليتسنىٰ للعباد القيام به ، كما أن الحكيم سبحانه جعل لكل أمة شرعاً يختص بهم ليناسب معايشهم حكمة منه لتسهيل الحياة عليهم مما يمكنهم من القيام بأمر الاستخلاف ، فالباقي باقٍ علىٰ عونه دائم في رحمته للإنسان معيناً له وهو يقوم بما أمره ٱلله به من استخلاف الأرض وإتباع شرع الباقي .

هنا يجب أن يفهم الخليفة ما أراد ربه جلَّ وعلا ، فيجعل ما يشرعه للناس من أحكام ومعاملات متناسبة مع قدراتهم علىٰ التطبيق ، واعياً للهدف من ذلك وهو قيام الناس بأمر الاستخلاف ، وليس الهدف تكليف الناس بغير ما يطيقون لأن الحكيم سبحانه يقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (2) .

---

(1) المائدة ، 44ـ48 .

(2) البقرة ، 286 .

4 ـ إرادته : وهي صفة لوقوع الفعل علىٰ وجه مخصوص دون آخر [1] ، وهو مما اختص به الباقي بالمطلق ؛ لأنه القادر علىٰ الإتيان بالفعل علىٰ الوجه الذي يريد سبحانه وبالشكل الذي يريد وفي الوقت الذي يريد كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2] ، وإرادته باقية ؛ لأنها صادرة من الباقي ، وهي مخصوصة بما ذكر لنا في محكم آياته ، واختص لنفسه بما لم يخبرنا ، فقد ذكر لنا أنه يريد :

أ ـ التيسير علىٰ العباد في كل ما تقتضيه العبادات والمعاملات ، فقد أراد القيام بالتكليف علىٰ قدر الممكن فقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] .

ونصَّ علىٰ إرادة التيسير في قوله تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [4] ، كما أشار سبحانه إلىٰ التخفيف وهو شكل من أشكال التيسير فقال جل الباقي : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [5] ، ثم بعد ذلك رفع الحرج عن عباده في حال الكلفة فقال جلَّت إرادته : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ

---

(1) التعريفات ، 1 ـ 4 .

(2) يس ، 82 .

(3) البقرة ، 286 .

(4) البقرة ، 185 .

(5) النساء ، 28 .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، وعلىٰ ذلك وجب علىٰ الخليفة اختيار إرادة التيسير اقتداءً بإرادة الباقي جل وعلا واستيعاباً للفوائد المتحققة من التيسير ، فهي تقرب الناس من الطاعة ولا تنفرهم منها أو من الداعي إليها . وكل ذلك يجب أن يكون بخطاب ودود لا فظاً ولا غليظاً متمثلاً قول الباقي جلَّ في علاه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (2) .

ب ـ يريد الهداية لعباده ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) ، لأمرين أشار إليهما الباقي جلَّ وعلا ، الأول : لأنه خلق المخلوقات لعبادته ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (4) ، فكان من حكمته أنَّه يسر لنا هـٰذا الواجب بالهداية ، والثاني : انتفاء إرادة العذاب بلا موجب ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يريد عذابنا إن قمنا بواجب العبادة الموكل إلينا ، ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (5) ، فكانت إرادة الهداية موجبة . ودور الخليفة ينحصر في توفير سبل الهداية ومحاربة سبل الضلالة ، وما من سبيل إلىٰ الهداية أكثر قوة في التأثير من إشاعة العلم بين الناس في أمور دنياهم ودينهم ، لأن العلم يوصل بالتأكيد إلىٰ معرفة حق ٱلله في عبادته وحده والإخلاص في العبادة ، والىٰ ذلك أشار الباقي جل وعلا في محكم كتابه

---

(1) المائدة ، 6 .
(2) آل عمران ، 159 .
(3) النساء ، 26 .
(4) الذاريات ، 56 .
(5) النساء ، 147 .

فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (1) ، الخشية بقدر معرفة المخشي ، والعالم يعرف ٱلله فيخافه ويرجوه . وهٰذا دليل علىٰ أن العالم أعلىٰ درجة من العابد ، لأن ٱلله تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (2) ، فبين أن الكرامة بقدر التقوىٰ ، والتقوىٰ بقدر العلم .

ج ـ التفريق والتمييز وفقاً للإرادة : فكان التميز بين العباد بالإيمان والكفر والشرك مما جعل القول والفعل دليلاً للتمييز بين ما يجب وما لا يجب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (3) ، فقد ميز الباقي سبحانه أنَّ أموال الكفار في الحياة الدنيا هي لعذابهم فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (4) .

أما أموال المؤمن فهي رحمة منه ورضوان لينفق منها في ما يرضي الباقي جلَّ وعلا ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (5)، وأوْجهُ التميز في الدنيا محدودة وذلك من رحمة ٱلله بعباده ومن عدله وحكمته ؛ لأنه ما من عائدٍ إلىٰ طاعة ٱلله إلا رفع عن حكم الكافر فخرج من جماعتهم إلىٰ جماعة المؤمنين فسقط عنه التمييز ، لٰكن بعد الحياة

---

(1) فاطر ، 28 ـ 29 .

(2) الحجرات ، 13 .

(3) آل عمران ، 176 .

(4) التوبة ، 55 .

(5) البقرة ، 3 .

حيث لم يبق للعبد إلا عمله هنا يحصل التمييز العادل وبالحق بين من أطاع ومن كفر ، فيثاب الطائعون بالجنة وما فيها من طيبات ، ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (1) .

ويُجزىٰ الكافرون بالنار ، وأول ما يجزىٰ به هٰؤلاء هو التمييز عن غيرهم وهي العقوبة الحق ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (2) ، ثم يأتي الجزاء الآخر عافانا الباقي منه برحمته ، ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (3) .

فالخليفة عليه أن يميز بالمعرفة لا بالمعاملة بين المؤمنين والمنافقين ، وعليه أن يحتفظ بهٰذا في مكنون معرفته ثم يذكر بما آتاه الباقي من آيات الذكرىٰ ثم ينظر عمل كل منهم فيثيب الذي بقي علىٰ إيمانه وكذلك العائد من النفاق إلىٰ الإيمان ، ويدعو لمن بقي فإذا أصر وتولىٰ وكفر فإن ٱلله سيعذبه العذاب الأكبر : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ (4) ، فدور الخليفة إذاً ينحصر في التذكير فعليه أن يجتهد فيه .

د ـ يريد العدل وذلك يحث خلائفه علىٰ الامتناع عن الظلم ، فقد نزه نفسه عن الظلم جلَّ وعلا فقال : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ

---

(1) يس ، 55ـ58 .

(2) يس ، 59 .

(3) الكهف ، 29 .

(4) الغاشية ، 21ـ24 .

ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [1] ، وفي هـٰذه الآية دعوة واضحة إلىٰ الاقتداء به سبحانه وتعالىٰ وترك الظلم ، ولهـٰذا فالباقي هو العدل الذي يستوجب أن يسود بين المستخلفين فيها ، ومن لا يعدل يضل ثم يرد إلىٰ ربه ليرىٰ العذاب الأكبر ، ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾ [3] .

وهـٰذا ما يجب أن يعيه الخليفة فيجعل العدل باقياً بين الناس وذلك بترسيخ الإدراك عند الناس لأن ما من حكم يصدر إلا عن عدل ومن عدل ولعدل ، وهنا سيكون العدل باقياً في النفوس بتحققه بين الناس علىٰ الأرض ، وهـٰذا أمر ٱلله الباقي وجب علىٰ الخليفة القيام به كواجب من واجباته ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [4] .

هـ ـ يريد لنا التوبة ، وهي إرادته الباقية لكل عباده وفي كل الأزمان والأماكن ، وهي عكس إرادة الذين كفروا كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [5] .

ويجب أن تكون إرادة الخليفة مستمدة هنا من إرادة الباقي عز وجل ، أي

---

(1) آل عمران ، 108 .

(2) الكهف ، 87 .

(3) المائدة ، 49 .

(4) النساء ، 58 .

(5) النساء ، 27 .

أن ينتظر توبة المخطئ ويقبلها منه فيتجاوز عن السابق من الذنب ، ولا يمل من كثرة عودة التائبين ولا من عددهم بل يجب أن يُبقي إرادة التوبة في ذاته لأن من شأن ذلك تحقيق الإصلاح الذي هو من أبرز مهام الاستخلاف في الأرض .

5 ـ قدره : تدل الآيات الكريمة علىٰ بقاء قدره سبحانه وتعالىٰ ، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (1) ، وقوله : ﴿قَدَّرَ﴾ تعني أنه حقق الشيء علىٰ الاتزان والاعتدال ، فجعل كل شيء بحسبان ، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (2) ، فالموت وهو قدر الباقي كتبه علىٰ الخلق كلهم وليس بإمكان أحد المنع أو الرد أو إنهاء هـٰذا القدر لعدم وجود القدرة علىٰ ذلك ، فهو قدر باقٍ من إلـٰه باق ، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (3) ، ومن الآيات الدالة علىٰ قدره الباقي جل وعلا تقدير الليل والنهار ، ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ (4) ، وما ينتج عن حركة الأفلاك من متغيرات تحدد الوقت فتنظم المعايش ، وتهيِّئ سبل الراحة للإنسان الموكل بأعمال الدنيا والآخرة ، ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (5) .

بقي أن نسأل هل للخليفة قدر ؟ يجب علىٰ الخليفة أن يصنع لنفسه قدراً وذلك بإقرار الحق وإزهاق الباطل ، ويجب عليه أن يُفهم العباد أن هـٰذا قدره الذي لا يساوم فيه ولا يبدله ، وبالتقدير يتم نيل الاعتراف ، ويتحقق الرضا النفسي ويعم بين من نال التقدير وبين من قدره بالحق ، ولهـٰذا لا ييأس غريب

---

(1) الأعلىٰ ، 1 ـ 3 .
(2) الحجر ، 21 .
(3) الواقعة ، 60 .
(4) المزمل ، 20 .
(5) الأنعام ، 96 .

من عدلٍ هو بأمس الحاجة إليه . والقدر نصيب وفقاً لكل خصوصية ، فمن قدَّر الآخرين قدر نفسه ، ومن لم يقدرهم بما هم عليه لن يقدروه حق قدره .

6 ـ نعيمه : هو وعد ٱلله وثوابه ، وقضىٰ الباقي عز وجل بأن الحياة الدنيا فانية منتهية وأن الباقية هي حياة الآخرة فاعملوا لها للفوز بالنعيم الباقي ، يقول عزَّ من قائل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (1)

فالفوز هنا محصور بالحياة الدائمة والنعيم الباقي ، ووعده باقٍ ؛ لأنه من الباقي فلا تبديل لكلمات ٱلله التامة ، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) ، وقد قال عزَّ من قائل في وصف نعيمه ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) ، فهو نعيم باق ينعم به الخالدون ، وهو بشراه الباقية لكل من أطاعه ، ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (4) .

والنعيم باقٍ لمن عمل له ، فهو لمن تزين بعمل الآخرة مؤمناً بأنه الباقي عند الباقي جلَّ وعلا ، وأخذ من زينة الدنيا علىٰ قدر حاجته ولم يزد علىٰ ذلك ، يقول الباقي سبحانه : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (5) .

---

(1) آل عمران ، 185 .

(2) يونس ، 63 ـ 64 .

(3) لقمان ، 8 ـ 9 .

(4) التوبة ، 21 ـ 22 .

(5) الكهف ، 46 .

وهٰذا النعيم الباقي له أثر باقٍ ، ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (1) ، فالوجوه متأثرة بأثر هٰذا النعيم الباقي ، فهي ناضرة كما يصفها الباقي عزَّ وجلَّ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (2) ، أي مشرقة بالنعيم .

والخليفة يدرك أنه لا يملك مثل نعيم ربه ، لٰكن عليه أن يجعل حياة المؤمنين من حوله ممن يعملون بالحق ويدعون إليه ويمنعون الفساد ويحاربونه نعيماً يستشعرون معه بلذة الطاعة ، فيجعل لكل مستحق أجراً كما جعل شعيب لموسىٰ عليهما الصلاة والسلام علىٰ قدر العمل ، ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (3) ، ويجب علىٰ الخليفة أن يحرص علىٰ مكافأة العاملين امتثالاً لحكم الباقي عزَّ وجلَّ الذي يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (4) ، وفي هٰذه الآيات حِكم عظيمة للخليفة ، فالأجر والمكافأة هي من أقوىٰ الدوافع النفسية والجسدية لاستمرار العباد بالعمل الصالح ، ولاستمرار مسيرة إعمار الأرض الموكلة بالخليفة ،

---

(1) المطففين ، 22ـ24 .
(2) القيامة ، 22 .
(3) القصص ، 24ـ28 .
(4) الكهف ، 30 .

وبدون المكافأة والأجر لن تجد من يقوم بهـٰذه المهمة إلا قليل ممن يعملون لوجه ٱلله خالصاً ولا ينتظرون أجر الدنيا فيسألون الباقي وحده .

7 ـ عذابه ، هو باق بحق من بقوا علىٰ كفرهم وهو باق مطلق من عدلٍ مطلق ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) ، وتدل لفظة مقيم المصاحبة للفظة العذاب في كثير من الآيات علىٰ كونه باقياً بحق مستحقيه ، يقول الباقي جلَّ في علاه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (2) ، كذلك تشير الآيات إلىٰ الديمومة والاستمرار وهي من أوجه البقاء ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (3) ، فَهَذَا فَنَاءٌ وَتَجْدِيدٌ دلالة علىٰ البقاء ، فهو عذاب مستمر غير قابل للتخفيف ولو بجزء زمني بسيط حدده المولىٰ عزَّ وجل بيوم فقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (5) ، والعذاب باق حتىٰ لو حرص الإنسان علىٰ تأخيره ورغب في ذلك إلا أنه لم يزل يتمنىٰ ما لا يقدر علىٰ فعله ، فهو يتمنىٰ أن لا يلقىٰ العذاب لـٰكنه ينسىٰ أنه فانٍ والعذاب باقٍ للمستحق كما يصف ٱلله عز وجل هـٰذه المعادلة بين رغبة الفاني (الإنسان) وبين العذاب الباقي بقوله عزَّ من قائل : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ

---

(1) المائدة ، 36 .

(2) المائدة ، 37 .

(3) النساء ، 56 .

(4) غافر ، 49 .

(5) البقرة ، 161 ـ 162 .

عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) . وكانت نتيجة هذا البقاء هو الخلود في النار كما يخبر الباقي عزَّ وجلَّ : ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ (2) .

والعذاب الباقي موصوف بصفات منها :

1 ـ **شديد** : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

2 ـ **مديد طويل** : ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ (4) .

3 ـ **مضاعف** : ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ (5) .

4 ـ **أليم** : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (6) .

5 ـ **كبيــر** : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (7) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ (8) .

---

(1) البقرة ، 96 .

(2) المائدة ، 80 .

(3) البقرة ، 85 .

(4) مريم ، 79 .

(5) الفرقان ، 69 .

(6) الشعراء ، 201 .

(7) السجدة ، 21 .

(8) الغاشية ، 24 .

6 ـ **مهين** : وهـٰذا العذاب المهين مخصوص بالذكر لأهمية التنبيه عليه من الباقي عز وجل فأكثر من الإشارة إليه كما هو آتٍ :

أ ـ الكفر بالمعصية لأولياء ٱلله وخلفائه توجب العذاب المهين ، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [1] .

ب ـ الطغيان علىٰ الناس بالأموال التي وهبها ٱلله أو بالقوة أو بالبنين هو مما يوجب هـٰذا العذاب ، ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [2] . ولذا فإن تعدي حدود ٱلله يجعل هـٰذا العذاب المهين مستحقاً ، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [3] .

ج ـ التكذيب بالآيات ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [4] .

د ـ الاستهزاء بآيات ٱلله ورسله وكتبه من موجبات العذاب المهين ، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [5] .

هـ ـ وكذلك التلاعب بالإيمان لتسيير أغراض دنيوية ، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً

---

(1) سبأ ، 14 .
(2) آل عمران ، 178 .
(3) النساء ، 14 .
(4) الحج ، 57 .
(5) لقمان ، 6 .

فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (1) .

ولأهمية تجنب الوقوع بما يوجب العذاب المهين يجب علىٰ الخليفة أن يكون له دور بارز في توعية العباد إلىٰ الموجبات التي تزيل هـٰذا العذاب ، وأن يدعوهم إلىٰ تجنب مسبباته ، بل عليه تيسير أسباب الاجتناب بالمطلق ، فلا يسمح بالكفر ولا بالطغيان ولا تعدي حدود ٱلله ولا التكذيب بالآيات ، وأن يحارب الاستهزاء بٱلله وبرسوله كما يحدث الآن من قبل بعض أعداء الدين الحق وبعض الحاقدين المبغضين لله ورسوله ، فلا يترك وسيلة حق إلا اتبعها من أجل الدفاع عن ٱلله ورسوله ، وأهم هـٰذه الوسائل إشاعة الوعي بين العباد لهـٰذه الأفكار لئلا يقعوا فيها أو أن يسايروا من يدعوا بها وإليها .

7 ـ **عظيم** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (2) .

ولأنَّه جلَّ جلاله الباقي فهو الذي هدىٰ وأبدع كل شيء خلقه ، ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (3) ، ثم هو الذي يرث ملكه الباقي له وحده ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (4) ، وهنا يصدح قول الحق بوجه الباطل بكل أنواعه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (5) .

وإذا أردنا أن نبحث لمزيد من المعرفة بالباقي ، فلننظر إلىٰ الفاني ، إلىٰ

(1) المجادلة ، 16 .

(2) البقرة ، 114 .

(3) طه ، 50 .

(4) مريم ، 40 .

(5) غافر ، 16 .

المتغير لنعرف الباقي الثابت بعد زوال غيره [1] ، فالفاني متغير حاله من الموت في الرحم إلىٰ الحياة في الدنيا ثم إلىٰ الموت القبر وهو رحم الأرض ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2] ، والباقي حي لا يموت ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [3] ، ولأنه مالك الإحياء والإماتة ، قال : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [4] ، فالباقي الذي يُفني ولا يفنىٰ ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [5] .

وانظر إلىٰ مرض الفاني وتأمل في التغيرات الحاصلة عليه من حيث المبنىٰ الجسدي أو الانفعال المزاجي له ، وتأمل فيما يصدر عنه من ضعف وارتباك في الجسد والسلوك لتعرف عظمة الباقي جل شأنه ، ثم تأمل في نوم الفاني وما يصدر عنه من غفلة عظيمة بحق نفسه وغيره وما يترتب علىٰ ذلك من مكاره ، ثم تأمل في الباقي حياً قيوماً ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [6] ، وفي المنافع الحاصلة لذلك ، فهو الباقي حيث الفاني نائم غافل عن الإجابة ، والباقي يسمع ويجيب في الليل

---

(1) معجم لغة الفقهاء ، ج 1 ، ص 103 .

(2) البقرة ، 28 .

(3) الفرقان ، 58 .

(4) الأنعام ، 95 .

(5) القصص ، 88 .

(6) البقرة ، 255 .

كما يسمع ويجيب في النهار ، ويحصي عمل العبد خيرا كان أم شراً ، ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (1) ، وتأمل أيها المعاند غير ذلك فكيف سيكون حال الأرض والإنسان عليها من دون ٱلله الباقي الحي القيوم ؟ فسبحان ٱلله عما يصفون ! ودور الخليفة يتمثل في وجوب تحليه بالحضور الدائم في قضايا العباد ومسائل دينهم ودنياهم ، وأن يبتعد عن الغفلة والإهمال ، وأن يحرص علىٰ امتلاك القدرة علىٰ التأثير في مجريات الأمور بما مكنه ٱلله في الأرض فيستخدم الوسائل ويتبع الأساليب التي ألهمه ٱلله إياه لغرض خدمة العباد والقيام بأمرهم .

والفاني يغضب مما يصاحب ذلك إرادة الضرر للمغضوب عليه ، وهو في الغالب انفعال ينتج عنه عدم انضباط في السلوك ، لذلك أوصىٰ الباقي الخليفة بعدم الغضب وحثه علىٰ كظم الغيظِ فقال جلَّ وعلا : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) ، وتأمل حال الفاني ساعة الغضب لتسبح طويلاً للباقي الحكيم الذي لم يدفعه عصيان عباده إلىٰ أخذهم بسوء أعمالهم إنما غلّب الرحمة علىٰ غضبه فأمهلهم حتىٰ يعود من يعود ليجد الباقي رحيماً تواباً ، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (3) .

---

(1) المزمل ، 20 .

(2) آل عمران ، 134 .

(3) النساء ، 110 .

وغضبه سبحانه محصور بالمصرين علىٰ محاربة ٱلله ورسله ، أولئك الذين يصفهم سبحانه بقوله جل في علاه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (1) ، أو الذين ارتضوا الكفر منشرحي الصدر به ، ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (2) ، وبشهداء الزور من غير إكراه وبلا وجه حق أي برضاه ورغبة منه في تحقيق مكسب دنيوي بالباطل ، مثل المرأة التي تتهم زوجها بالزنا بالباطل لغرض أن تنزل به القصاص وتحقق هي بذلك منفعة دنيوية لها ، ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (3) ، وبالمجادلين بغير حق ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (4) .

وتأمل في بخل الفاني وحبه للمال وحرصه عليه ، لتعرف الباقي كريماً حناناً مناناً ، فالفاني محبٌّ للمال ، ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (5) ، بخيلٌ به غافلٌ عن تبعات ذلك البخل ، ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (6) ، آمرٌ به ، ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ

(1) البقرة ، 89 ـ 90 .
(2) النحل ، 106 .
(3) النور ، 9 .
(4) الشورىٰ ، 16 .
(5) الفجر ، 20 .
(6) آل عمران ، 180 .

بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [1] ، فتأمل الخير من مثل هـٰذا الفاني ، وتذكر الغني الكريم الذي يرزق العباد بغير حساب ولا ينقص من ملكه الباقي شيء ، ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [2] ، وهو الذي يرزق الكافر والعاصي علىٰ حد سواء ؛ لأنه ربهما الباقي ولا رب سواه ، ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] ، فأما المؤمن فإنه يقر بنعمة ربه ويشكر ، ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [4] ، وأما الكافر فإنه يرد بالتكذيب ، ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [5] .

وهو الذي يأمر عباده بالكرم ويحثهم عليه ، ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [6] ، والكافر يرىٰ

---

(1) النساء ، 37 .

(2) الأنعام ، 141 ـ 142 .

(3) هود ، 6 .

(4) النمل ، 40 .

(5) الواقعة ، 82 .

(6) البقرة ، 261 ـ 262 .

غير ذلك ، إذ يرىٰ أن المال الذي بين يديه ملكه وحده ولا يمكن أن يشترك فيه معه أحد ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

وعلىٰ الخليفة أن يشرح للعباد قباحة البخل ، وأن يشيع مبدأ الإنفاق بين الناس وأن يعلمهم أصوله ، فيدلهم علىٰ مقاصده المتمثلة بالإنفاق علىٰ النفس والغير من أهل وزوج وعيال بالحق ، ثم للذين نص عليهم الباقي سبحانه بقوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (2) . وأن يمنع إلىٰ جانب ذلك الإنفاق السلبي المتمثل بالإسراف الذي نهىٰ عنه الباقي في آيات القران الكريم ، ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (3) .

وتدلل الآيات علىٰ أحوال الفاني المتغير لتجعلنا ندرك علىٰ وجه اليقين حال الباقي عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (4) .

وهٰذا التفاوت إنما هو تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم

---

(1) يس ، 47 .

(2) البقرة ، 215 .

(3) الأعراف ، 31 .

(4) الحج ، 5 .

وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم ، وإنما نقلناكم من حال إلىٰ حال ومن خلقة إلىٰ خلقة ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ بهٰذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر علىٰ خلق البشر من تراب أولاً ، ثم من نطفة ثانياً ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر علىٰ أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً ثم (نقر) إخبار بأنه يقرُّ في الأرحام مَا يَشَاء أن يقرّه من ذلك إلىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ وهو وقت الوضع آخر الأشهر المعدودة ، أو السنة المعدودة ، أو كما شاء وقدّر . وما لم يشأ إقراره محته الأرحام أو أسقطته . أما قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ الأشد : تمام القوة والعقل والتمييز والقدرة ، ومنكم من يتوفىٰ أي يتوفاه ٱلله ، أما أَرْذَل العمر فهو الوهن الإيماني أو العقلي ، ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ .

كما أن حاجات العبد غير متناهية ، لأن كل ما سوىٰ ٱلله تعالىٰ فهو متناهي البقاء والقوة إلا بإمداد الباقي ، فالعبد محتاج للأكل ، ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [1] ، الشرب ، ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [2] ، وتحركه الشهوة ، ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [3] ، ويحتاج إلىٰ

(1) البقرة ، 57 .
(2) البقرة ، 60 .
(3) البقرة ، 187 .

الراحة ، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [1]، ويحتاج النوم ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [2] ، وكلها دالة علىٰ النقص الحاصل فيه من جهة وعلىٰ الكمال في الباقي ، وعند مقابلة حاجة العبد التي لا نهاية لها من كمال ٱلله الذي لا نهاية له ، يحصل العلم بكمال الباقي جل وعلا ، فهو الأكرم ، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [3] ، الأكرم ، الذي له الكمال في زيادة كرمه علىٰ كل كرم ، ينعم علىٰ عباده النعم التي لا تحصىٰ ، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي واطراحهم الأوامر ، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم ، فما لكرمه غاية ولا أمد ، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم ، حيث قال الأكرم ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ فدلّ علىٰ كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلىٰ نور العلم والإيمان ، ونبّه علىٰ فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاّ هو . وهو الأرحم ، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [4] ، والأعلم ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [5] .

وللباقي كمال القدرة التي تشير إليها كثير من آيات القرآن الكريم ومنها

---

(1) النحل ، 80 .

(2) الفرقان ، 47 .

(3) العلق ، 3 ـ 5 .

(4) الأعراف ، 151 .

(5) النحل ، 125 .

قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ (1) ، والآية تتحدىٰ إنكار المنكرين لقدرة ٱلله وذلك ببيان كمال قدرته سبحانه الذي خلق هٰذه الخلائق العجيبة التي هي من دلائل كمال القدرة ، فهو الذي مهد الأرض من حيث التضاريس والطقس وقوانين الجاذبية وغير ذلك فيسر العيش عليها بقدرة منه ، ويكفي أن نتأمل حال الكواكب الأخرىٰ التي لم يكتب ٱلله تيسير سبل العيش فيها لتعي حقيقة قول الباقي ﴿ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ ﴾ فالمهاد مشتق من المهد وهو سرير يخصص للطفل وتتوفر فيه كل وسائل الراحة وكذلك الأرض بالنسبة للإنسان فقد كانت بقدرة الباقي راحة وقياماً بحاجات الإنسان عليها ، وجعل النهار معاشاً تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم . والليل سباتاً للراحة ، أما السَّبْع الشداد فهي السمٰوات وشِدَاداً جمع شديدة ، يعني : محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان فهي باقية بقدرة ٱلله ، وَهَّاجاً متلألئاً وقاداً ، يعني الشمس ، وكذلك المعصرات : السحائب إذا أعصرت ، أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر . كل هٰذه من دلائل كمال القدرة للباقي عز وجل . أما الفاني فإنه ناقص القدرة ، بل هو فاقدها بالمطلق لولا رحمة الباقي ، فالفاني لا يملك القدرة اللازمة للإتيان بالأعين أو مدركات الحواس عموماً ، وعن ذلك يقول الباقي سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (2) ، فالفاني لا يملك القدرة علىٰ الجعل لأي من أجزاء جسده من عيون وما يختفي من أسرار في كيفية أداء عملها ، ولا لسان لينطق به فيكفر أو يؤمن بقدرة الباقي ، ولا غير ذلك من أجزاء

---

(1) النبأ ، 6 ـ 16 .

(2) البلد ، 8 ـ 10 .

الجسد ، وعجائب هـٰذه الأعضاء مذكورة في كتب التشريح ، وقال أهل العربية النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار ، وإلىٰ هـٰذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر ، وعن رسول ٱلله ﷺ أنه قال : « يا أيها الناس أنيبوا إلىٰ ربكم إن ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير يا أيها الناس اتقوا النار ولو بشق تمرة » [1] .

وقد جمعت سورة الإخلاص كل دلالات الكمال ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [2] ، فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه ، واسمه الأحد يتضمن أنه لا مثل له ، فالصمد سيد لا يساد ، وفي هـٰذا دلالة علىٰ صفات الكمال ، ونعوت العظمة والجلال ، فمن كان مصموداً إليه في جميع الحاجات ومتعالياً عن كل سمت حدث وشائبة نقص كان موجداً لكل ما يريد من نفعٍ وضرٍّ ونافع وضار قادراً علىٰ حفظ ما يريد ، وكان معلوماً كالشمس أنه لا شريك له ، وأنه هو وحده المستحق للعبادة لاحتياج الكل إليه الاحتياج المطلق وغناه عنهم الغنىٰ المطلق ، وتفرده بصفات الكمال والانقطاع عن قرين وإلىٰ الصمدانية ينتهي التوجه وهو الإقبال بالكلية [3] .

ولو تأملت مزيداً من أحوال الفاني لزادت معرفتك بالباقي جل وعلا ، فما من صفة تجدها في الفاني إلا وهي متغيرة متبدلة ، وما من صفة تعرفها عن

---

(1) جامع الأحاديث ، جلال الدين السيوطي ، ج 23 ، ص 159 .
(2) الإخلاص ، 1ـ4 .
(3) نظم الدرر للبقاعي ، ج 10 ، ص 57 .

الباقي سبحانه إلا وهي باقية ثابتة ، فتعالىٰ الباقي عما يصف الكافرون ، والحمد لله رب العرش العظيم .

اللهُمَّ يا الباقي اجعلنا علىٰ الإيمان باقين ، وبتوحيدك متمسكين ثابتين ، وبالشرك بك كافرين ، وعلىٰ طاعتك مهتدين ، اللهُمَّ أبقنا علىٰ العدل والرحمة ، والصدق وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، اللهُمَّ اجعلنا يا الباقي علىٰ الإصلاح عاملين لا مفسدين ، ولا تجعلنا من سافكي الدماء فيها بغير حق ، ولا تجعلنا من الضالين ولا المغضوب عليهم ولا تجعلنا من الفاسقين الجاحدين لفضلك وكرمك وجودك سبحانك جلَّ جلالك أنت ربُّ العالمين ، اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين الوارثين في الدارين .

اللهُمَّ إنك أنت الباقي الدائم فاجعلنا علىٰ الحق باقين وعلىٰ توحيدك وشكرك مداومين بك متصلين غير منقطعين ، اللهُمَّ إنك الباقي مالك الملك الباقي وكل شيء غيرك هالك فاجعلنا علىٰ الإصلاح والفلاح ولا تجعلنا علىٰ الهلاك ، اللهُمَّ يا الباقي نسألك أن تعصمنا من فتن الدنيا وتوفقنا لما تحب وترضىٰ ، وأن تبارك لنا في الصالحات الباقيات من أعمالنا ، تصلح لنا شأننا كله وتبقي علينا الصحة والعافية حتىٰ نؤدي حق طاعتك وعبادتك علينا ، ولا تضلنا وإن كنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا سيئاتنا وأبقنا علىٰ الحسنات وضاعفها لنا ، اللهُمَّ أنت الباقي الذي سبَّحت له السمـٰوات بأكنافها ، وسبَّحت له البحار بأمواجها ، وسبَّحت له الجبال بأصدائها ، وسبَّحت له الحيتان بلغاتها ، وسبَّحت له النجوم في السماء بأبراجها ، وسبَّحت له الأشجار بحفيفها وأصولها وثمارها ، وسبَّحت له السمـٰوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن ، وسبَّح له كل شيء من مخلوقاته ، تباركت وتعاليت سبحانك ، سبحانك يا الحي يا الدائم يا الباقي ، كل شيء هالك إلا وجهك الكريم .

الوَارِثُ جلّ جلاله

الوارث : « هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك وذلك هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ إذ هو الباقي بعد فناء الخلق وإليه مرجع كل شيء »[1] .

من أسماء ٱلله الحسنىٰ « اسمه الوارث فقد سمىٰ ٱلله نفسه به علىٰ سبيل الإطلاق والتعظيم »[2] .

في البداية وقبل أن ننطلق إلىٰ الغوص في أسرار وأنوار وتجليات الاسم ﴿ ٱلْوَارِثِ ﴾ نريد أن نحدد من خلال المتعارف عليه والذي يعد من البديهيات أن الميراث يكون من مالك أصلي يملك ملكاً لا ينازعه فيه أحد يئول إلىٰ آخر يستحق الميراث انطلاقاً من صلة قرابة تفضي إلىٰ أحقية في الميراث ، وتأسيساً علىٰ ذلك فإنه لا يوجد مالك أصلي علىٰ وجه الأرض بل في كلٍ ملك لله من عالم مرئي محسوس ملموس أو غير مرئي لا محسوس ولا ملموس ، أو ما يمكن أن نسميه عالم الغيب الذي نؤمن بهِ كما أخبرنا ٱلله به في كتابه العزيز يقول تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 148 .

(2) أسماء الله الحسنىٰ ، ج 14 ، ص 18 .

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] فمن علىٰ الهدىٰ يوقن أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ الأول بلا بداية لذا فهو مبدع الكائنات والموجودات المعلوم منها لنا والمجهول ومن هـٰذا الإبداع الإنسان وما يملكه من عقل يفكر وعين تبصر ويد تبني أو تهدم ترحم أو تبطش ، فكيف يملك الإنسان شيئاً لم يكن له فيه أي دور بل إن كل ما يحيط به هو لله والأكثر من ذلك أن الإنسان وما فيه من نعم ملك لله فكيف يرث إنسان من إنسان لا يملك حتىٰ أمر نفسه وهي أبسط الأشياء ؟ !

وعلىٰ ما تقدم فكل ميراث لا محالة وقتي غير دائم ويعتريه النقص ؛ لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلىٰ مالك بالوكالة ، فالملك ناقص وكذلك الميراث .

الوارث : صفة من صفات ٱلله عز وجل . وهو الباقي الدائم الذي يرث الأرض ، ومن عليها ، ويبقىٰ جل جلاله بعد فناء الكل ، ويفنىٰ من سواه ، فيرجع ما كان ملكه العباد إليه وحده لا شريك له [2] .

الوارث : هو من له حق المُلك .

ـ وإذا تساءل البعض : مِن مَن يُورث المُلك ؟ .

ـ تكون الإجابة بطبيعة الحال : المُلك يُورَّث من مالكه .

ـ ومن هو مالكه بالمطلق ؟

ـ ٱلله مالك الملك المطلق .

ـ إذاً لا مالك سواه للملك المطلق .

ـ نعم إنه ٱلله الذي لا إلـٰه سواه .

---

(1) البقرة ، 1ـ5 .

(2) القاموس الفقهي ، ج 1 ، ص 377 .

ـ وما هو المُلك ؟

ـ الملك يمتد من النبوة إلىٰ الحكم والحكمة والعلم إلىٰ الثروة وإلىٰ الإنس والجن والملائكة ، والموت والحياة والجنة والنار والعقاب والثواب ؟

ـ ومن ذا الذي يملك كل ذلك ؟ .

ـ إنه الوارث .

ـ ومن ذا الوارث الذي ينفرد بملك كل ما ذكر ؟

ـ ٱلله جل جلاله .

ـ ومتىٰ تكون الوراثة حقاً ؟

ـ عندما يكون النصيب فيها .

ـ ومتىٰ تكون الوراثة كاملة ؟

ـ عندما لا يوجد شركاء في خلقها وإيجادها .

ـ إذاً لا مالك للخلق إلا الخالق عزَّ وجلَّ ، ولا وارث من بعده إلا هو ، ولا مالك للأرض ومن عليها والسمٰوات ومن فيها إلا خالقها ، ولذا لا وارث لها إلا هو ، وهٰكذا لا يملك الجن والإنس والملائكة إلا خالقهم ، ولأن الخالق واحد أحد ، إذاً لا يرث المخلوق إلا الخالق الواحد الأحد .

ـ وبما أن الوارث جعل في الأرض خليفة ، ألا يكون له الحق في حمْل الأمانة ؟

نعم له الحق في حملها ، وحملها يستوجب طاعة الخالق (الوارث المطلق الذي يرث الخليفة) .

ـ ومتىٰ تكون الوراثة ؟

ـ عندما يكون المورث حقّاً .

ـ ومن الذي يرث الحق ؟

ـ لا يرث الحق إلا الحق .

ـ وأيهما أسبق الوارث أم الموروث ؟

ـ الوارث أولاً وآخراً .

ـ كيف يكون أولاً وآخراً ؟

ـ أولاً لأنه السابق علىٰ كل سابق . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2] .

ـ وآخراً ؛ لأنه الحي الذي لا يموت .

ـ إنَّه الحق ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ [3] تفنىٰ الخلائق ويبقىٰ الملك لله .

ـ وعليه ، لا يرث الخليفة شيئاً إلا بالحق .

ـ نعم سيكون الخليفة فيما آتاه ٱلله من النبوة والحكمة والعلم والثروة مستخلفاً بالوراثة ، ومع أنه مورث نسبياً فيما آتاه ٱلله إلا أنَّه لم يورث بالمطلق في أمر الموت والحياة .

---

(1) الحجر ، 85 ـ 86 .

(2) يس ، 77 ـ 83 .

(3) الحديد ، 3 .

ـ ولـٰكن للخليفة بداية ونهاية .

ـ إنَّه الحق ، ولذا فالوارث هو صاحب الملك والخليفة جزء مما يملك المالك ، فبعد النهاية لن يكون هناك من يعود الملك إليه وارثاً إلا مالكه بالمطلق لا إلـٰه إلا هو .

وبناءً عليه ، فكل ميراث هو وقتي غير دائم ويعتريه النقص ؛ لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلىٰ مالك بالوكالة ، فالملك ناقص وكذلك الميراث ناقص إلا ملكه سبحانه وتعالىٰ .

وفي ذلك قال الإمام الغزالي : « هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء المُلك » (1) .

الوارث هو المالك الأوحد وهو الأول والآخر وهو الذي بيده الأمر والنهي وهو علىٰ كل شيء قدير ، وهو الباقي الذي يرث ما خلق . فلو لم يكن مالكاً ما ورث ، ولو لم يكن وارثاً ما خلق ، ولو لم يكن باقياً ما كان وارثاً سبحانه .

والوارث الأوحد هو الذي ملك الملك دون أن يرثه من أحد ، وهـٰذه الصفة لا تنطبق إلا علىٰ ٱلله الواحد الأحد الأول بلا بداية والأخر بلا نهاية الذي لا تربطه صلةُ نسب بأي مخلوق ، وكيف تربطه صلة بمخلوق ؟ ! ! وهو جلَّ وعلا خالقه .

إن الصلة لا تتعدىٰ أن الخلق جميعاً عباد لله سبحانه وتعالىٰ ؛ لأنه ملك للملك ومالك له بلا ند ولا شريك فيقول ٱلله تعالىٰ عن صفته الذاتية : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا

(1) محمد حسين ، شرح أسماء الله الحسنىٰ ، الإسكندرية ، 1996 ، ص 92 .

أَحَـدُۢ ﴾ (1) ، فلا توجد بين ٱلله وبين أي مخلوق كان أي صلة يشار إليها مع الأقارب أو الأباعد ، إذاً فليس لديه سبحانه وتعالىٰ ميراث ورثه من أحد ولا يستحق أحد أن يرثه لأنَّه الحي القيوم الدائم الباقي ، وورد في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴿١﴾ ﴾ أن قريشاً قالوا للنبي ﷺ : صِفْ لنا ربَّك الذي تعبده وتدعونا إليه ما هو ؟ فأنزل ٱلله تعالىٰ : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴿١﴾ ﴾ قل يا محمد للكفار إن ربي الذي أعبده ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴿١﴾ ﴾ فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له ، ثم قال عزَّ وجل : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ ، الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب ، وروي عن ابن عباس رضي ٱلله عنه أنه قال : الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم و﴿ٱلصَّـمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ السيد الذي انتهىٰ سؤدده ، وقال الحسن البصري رضي ٱلله عنه : الصمد الدائم ، وقال قتادة الصمد الباقي ، ويقال الكافي وقال محمد بن كعب القرظي الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ويقال : الصمد التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب رضي ٱلله عنه أنه قال : الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويُصْمَد إليه في الحوائج ، ثم قال عز وجل ﴿لَمۡ يَـلِدۡ ﴾ لم يكن له ولد يرث ملكه . ﴿وَلَـمۡ يُولَـدۡ ﴿٣﴾ ﴾ لم يكن له والد يرث عنه ملكه ﴿وَلَـمۡ يَـكُن لَّهُۥ كُـفُوًا أَحَـدُۢ ﴿٤﴾ ﴾ لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه (2) .

الوارث : هو المالك ، أي لو لم يكن مالكاً ما كان وارثاً ، وهو الذي يعود إليه الملك الذي خلقه ، حيث لا وارث له إلا هو ، قال تعالىٰ : ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ

---

(1) الإخلاص ، 1ـ4 .

(2) بحر العلوم للسمرقندي ، ج 4 ، ص 449 .

هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ (1) . فبعد أن ينهي الخلائق التي هي جزء من ملكه ، يبقي من بعدهم الملك الذي خُلِقوا منه وخُلِق لهم وخُلق من قبلهم سابق عليهم ، فبعد الموت لمن يكون الملك ؟

يكون لله الواحد القهار .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يرث الملك من أحد فهو عزَّ وجل لم يولد فيرث من غيره ميراثاً ، وهو كذلك لم يلد فيرث أحد منه ميراثاً ، لذا فقد أمر ٱلله ـ الوارث لنفسه من نفسه ـ النبي ﷺ في كتابه الكريم أن يقول : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾ (2) .

نعم الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً فتتفرق الأهواء والآراء فيفسد الكون ، والحمد لله الوارث الذي لا ينافسه أحد في ملكه ولا يشاركه بالخلق أو النسب .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ يقول لنبيه الأكرم ﷺ :

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا ﴾ كما يزعم اليهودُ والنصارىٰ وبنو مليح ، حيث قالوا : عزيرٌ ابنُ ٱلله والمسيحُ ابنُ ٱلله والملائكةُ بناتُ ٱلله تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ ﴾ أي الألوهية كما يقوله القائلون بتعدد الآلهة ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١ ﴾ ناصرٌ ومانعٌ منه لاعتزازه ، والحمد لله الذي لم يوالِ أحداً من أجل مذلةٍ ليدفعها به ، والحمد بهـٰذه الصفاتِ الجليلة إيذانٌ بأن المستحقَّ للحمد مَنْ هـٰذه نعوتُه دون غيره (3) .

وعليه فإن الوارث المطلق هو الذي يرث الأرض ومن عليها والسماء ومن

---

(1) غافر ، 15 ـ 16 .

(2) الإسراء ، 111 .

(3) تفسير أبي السعود ، ج 4 ، ص 232 .

فيها وما بين كل سماء وكل أرض ، أي أنه المالك لكل شيء مما نعرف ومما لا نعرف . ومن الوارث المطلق وبه يورث الوارث بالإضافة ، الذي يورث من بعده فيما ورِثَ فيه .

وفي هـٰذا السياق يقول ٱلله تعالىٰ للإنسان الوارث : إنه أنزل الكتاب الذي ورث الكتب السابقة علىٰ النبي الذي ورث الأنبياء السابقين ، وعلىٰ الأمة التي ورثت الأمم السابقة في العلم والعمل ، وكل هـٰذا الميراث لابد وأن يصفّي الإنسان الخليفة من أي تعلق بملك أو مالك غير أصيل ، لأن المالك المطلق هو ٱلله الذي لم يلد ولم يولد فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [1] .

وفي الآية نلحظ لمحة رائعة تتمثل في البدء بحمد ٱلله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمة إنزال الكتاب الجامع الذي جمع ٱلله فيه كل ما أنزل علىٰ الأنبياء السابقين الذين وضحوا أنه لا شريك لله ولا ند ولا وارث يرثه وأنه سبحانه وتعالىٰ لم يرث الملك من أحد ، وهـٰذا المنهج الجامع جاء ليصحح الطريق ويوضحه للخليفة الذي ورث مهمة تعمير الأرض ومن هـٰذا الميراث جاء تسخير الكون وما فيه من أدوات للخليفة الوارث الذي سيتبع الكتاب الذي ليس فيه عوج .

وعليه فالميراث يمكن أن يتم تناوله من حيث :

أولاً : الميراث الدائم للحي الدائم : قال تعالىٰ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ

---

(1) الكهف ، 1ـ4 .

(2) القصص ، 58 .

عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ (1) .

ثانياً : الميراث المؤقت للحي المؤقت : قال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (3) .

ولذا فإن الكتاب الكريم الذي اشتمل علىٰ المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيه علم الميراث يوضح معنىٰ الميراث ، الذي يستوجب من الخليفة القيام بمهام الوراثة بالآتي :

1 ـ حمد الوارث المطلق علىٰ ما آتاه من نعم .

2 ـ الإقرار بأنه لا أحد يكون في منازعة الوارث علىٰ ملكه .

3 ـ الاعتراف للنبي محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة المشتملة علىٰ المنهج الذي لاعوج فيه ، باعتبارها النص الذي يُفصِّل الآيات لقوم يعلمون ويتقون .

4 ـ هٰذا الكتاب الذي ورث الكتب السابقة ينذر إنذاراً شديداً الذين لا يتبعون المنهج الخاتم .

5 ـ البشرىٰ العظمىٰ للذين يتخذون المنهج الصحيح منهجاً للإصلاح

---

(1) الحجر ، 23ـ24 .

(2) المؤمنون ، 1ـ11 .

(3) القصص ، 5 .

والتعمير وبذلك يستحقون الخلافة ويرثون المسؤولية لتحقيق الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض .

6 ـ الخليفة الذي يعمل الصالحات سيرث ثواباً لا ينفد ولا يزول ويمكث فيه أبداً لأنَّه اتبع الوارث الأعلىٰ فتجلىٰ عليه بالصفة نفسها فأورثه النعيم المقيم الذي يدوم دواماً سرمدياً ، وهـٰذا الدوام السرمدي والنعيم المقيم المعبر عنه في القرآن الكريم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ۝١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ۝١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ (1) .

7 ـ الوراثة الحقيقية تكون للخليفة المتصف بالآتي :

أ ـ الإيمان المطلق بٱلله سبحانه وتعالىٰ أنه الوارث الذي يملك الملك بالمطلق وهو لم يرثه من سابق حيث لا سابق قبل سبق ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

ب ـ الإيمان بأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يلد ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً لأنَّه الغني عن ذلك فهو الباقي الذي لا يفنىٰ ، وذلك فالفناء مخلوق زائل ، وٱلله خالق باقٍ يرث كل شيء خلقه حيث لا أحد من قبله ولا بعده ولهـٰذا الملك لله الواحد القهار .

---

(1) الكهف ، 107ـ110 .

(2) الحديد ، 1ـ3 .

ج ـ إتباع النبي الخاتم ﷺ الذي لا يدعي أنه ابن لله ويؤكد أنه بشر أرسله لينذر الناس من شر أنفسهم بدعواهم أن ٱلله ثاني اثنين أو أنه له زوجة أو ولد تعالىٰ ٱلله علىٰ ذلك علواً كبيراً . قال تعالىٰ : ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (1) .

د ـ الخليفة الوارث الذي يعمل الصالحات ويعمر الأرض ليرث الثواب والفردوس الأعلىٰ . قال تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (2) .

والخلافة ليست لفرد بل يمكن أن تكون لأمة أو أي عدد من أفراد الجنس البشري بشرط الإيمان بالمبدأ والعمل علىٰ تحقيقه ومن هنا تتحقق الخلافة ويكون الميراث الحقيقي وهٰذا الميراث لا يكون إلا لمن تتحقق فيه هٰذه الصفات الواردة في قوله تعالىٰ :

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ

(1) إبراهيم ، 11 ـ 12 .

(2) الروم ، 9 ـ 15 .

مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) .

وبتحليل صفات الوارث نجد أنها تتلخص في الآتي :

1 ـ الإيمان بٱلله وما أمر أن نؤمن به من غيب . قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (2) ، والمستخلفون في الأرض أخوة في طاعة ٱلله وتوحيده ولذا فلهم الدرجات العلا ولهم المغفرة والرزق الكريم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ (3) .

وعليه فالوارثون هم :

ـ الذين يذكرون ٱلله قولاً وعملاً .

ـ وهم يزدادون إيماناً برؤية آيات ٱلله المسموعة سمعاً والمقروءة لساناً والمشاهدة بصراً والمدركة بصيرة والمجوهرة روحاً .

ـ وهم يتوكلون علىٰ ٱلله باستخدام الأدوات التي منحها لهم لوراثة الأرض في عالم الاختبار ، ووراثة الفردوس في عالم الحساب ، ولسان حال

---

(1) المؤمنون ، 1 ـ 11 .
(2) الأنعام ، 59 .
(3) الأنفال ، 2 ـ 4 .

المؤمنين الوارثين يتمثل في قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

ـ وهم يقيمون الصلاة لدوام الصلة بٱلله تعالىٰ .

ـ وهم ينفقون من فضل ٱلله عليهم ؛ لأنهم يعلمون أن ما في أيديهم إنما هو من فضل ٱلله سبحانه وتعالىٰ .

والخليفة هو المؤمن الصادق فبصدق القول والعمل سيرث الخلافة في الأرض والدرجات العلىٰ في الآخرة وهـٰذا ما أكده الوارث عزَّ وجلَّ في قوله تعالىٰ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (2) .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ الوارث ؛ لأنه المالك ، ولتأكيد ملكه للكون ومن فيه يقول ٱلله تعالىٰ مخاطباً النبي ومن سار علىٰ نهجه لينال الخلافة والميراث الحقيقي : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (3) .

وجاء في تفسيرها : ﴿ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي مالك جنسِ المُلك علىٰ الإطلاق مُلكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة وتعذيباً وإثابةً من غير مشارِك ولا ممانعٍ ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ ﴾ بيان لبعض وجوه التصرفِ

---

(1) التوبة ، 51 .

(2) الحجرات ، 15 .

(3) آل عمران ، 26 ـ 27 .

الذي تستدعيه مالكيةُ الملك وتحقيقٌ لاختصاصها به تعالىٰ حقيقةً وكونِ مُلك غيرِه بطريق المجاز كما ينبئ عنه إيثارُ الإيتاءِ الذي هو مجردُ الإعطاء علىٰ التمليك المؤْذِن بثبوت المالكيةِ حقيقةً .

﴿مَن تَشَآءُ﴾ وذلك لملكه حق الاختيار والتقدير بالميزان الحق ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ نزعه للملك ممن آتاه إياه بأسباب ومبررات هو يعلمها مما يجعل النزع حقّاً يجب أن يُفعل ولذلك فهو الفعَّال لما يُريد ، والملك جاءت مطلقة فهي قابلة للتقدير فهي تأتي بمعنىٰ النبوءة ، وتأتي بمعنىٰ الحكم ، وتأتي بكل معاني التصرف .

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تُعِزَّه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق والعزة هي الأخرىٰ جاءت مطلقة دون تحديد بموضوع أو قضية ، وذلك بأسباب مطلقية الوارث فيما يورث ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أيضاً المستهدف بالإذلال غير محدد وذلك لارتباط من يجب أن يذل بأسباب موضوعية تستوجب أن يُذل عليها ، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ تعريفُ الخير للتعميم ، وتقديمُ الخبر للتخصيص أي بقدرتك الخيرُ كلُّه لا بقدرة أحدٍ غيرِك تتصرف فيه قبضاً وبسطاً حسبما تقتضيه مشيئتُك ، وتخصيصُ وبيدك الخير تخصيص الخير المطلق بيد الوارث المطلق .

وعليه فالخليفة وحده يدرك الحق فيتبعه فهو يعلم أنه مورَّث من الوارث الأعظم ، وأن ما يورث فيه زائل بعد زواله من الوجود الحي ، ويؤمن أنه لن يبقىٰ إلا وجه ٱلله ذو الجلال والإكرام ، ولهٰذا الإيمان يملأه بمستوجبات الطاعة .

أمّا ما يخص الخلافة وهي لب ومحور الرؤية التي ننطلق منها في النظر في أسماء ٱلله الحسنىٰ فهي ذات صلة وثيقة بهٰذا الاسم الشريف ؛ لأنه يلخص فكرة الخلافة ويمحورها في سؤال بسيط في الكلمات عميق في المعنىٰ والدلالة ألا وهو ما الميراث ؟ ، ومن يستحقه ؟ ومن يملك علىٰ وجه الحقيقة وعلىٰ وجه المجاز ؟ ومن سيئول إليه الميراث في النهاية ؟

إن كل ميراث مادي علىٰ الأرض هو علىٰ سبيل الأمانة التي عرضها ٱلله علىٰ المخلوقات لتعمير الأرض فرفضت جميع الخلائق وخافت من هـٰذا الحمل الثقيل ، ولـٰكن الإنسان قد قبل هـٰذا الحمل جهلاً منه بتبعاته ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (1) .

والإنسان لم يتأن في قبول الأمانة وعليه فهو قد يحسن التصرف في الميراث الذي ورثه هبةً من ٱلله أو قد يسيء وهـٰذا هو جوهر الخلافة ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

وفي قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ قال مجاهد : لما خلق ٱلله عز وجل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض عليه الأمانة فحملها ، فما كان بين أن حملها ، وبين أن أخرج من الجنة ، إلا كما بين الظهر والعصر . وروي عن ابن عباس رضي ٱلله عنه أنه قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ يعني : الفرائض علىٰ السمـٰوات والأرض والجبال . فقال لهن : يأخذن بما فيها . فقلن : وما فيه يا رب ؟ قال : إن أحسنتن جوزيتن . وإن أسأتن عوقبتن . فقلن : يا رب إن تعرضها علينا فلا نريد ، وإن أمرتنا بها فنحن نجتهد (4) .

---

(1) الأحزاب ، 72 .

(2) فصلت ، 46 .

(3) النحل ، 96 ـ 97 .

(4) بحر العلوم للسمرقندي ، ج 3 ، ص 424 .

الأمانة : هي ما يوضع مؤقتاً ، عند من يعتقد أنه محل لها ، وخير خلق خُلق في أحسن تقويم هو الإنسان ، ومع أنه خلق علىٰ أحسن تقويم ، إلا أنه لم يخلق علىٰ الكمال ، ولهـٰذا كان ظلوماً جهولاً بما حُمِّل .

والبعض يفسر الأمانة بأنها الطاعة وهـٰذا القول لا يتناقض مع ما نذهب إليه بأن الأمانة هي الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض ؛ لأنه لا طاعة دون تحقيق الغرض الذي من أجله أنزل ٱلله الإنسان علىٰ الأرض ، فمن يطع ٱلله يحسن توظيف الأدوات التي منحها ٱلله له لغرض الخلافة من نعم لا تعد ولا تحصىٰ . يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (1) .

وهـٰذه الأدوات التي وهبها ٱلله للإنسان وغيرها من عقل وإرادة ونفس وروح ، فقد أكملها ٱلله بتسخير الكون لينتفع به الخليفة في تعمير الأرض وإصلاحها ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَـٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) .

---

(1) الإسراء ، 36 .

(2) الجاثية ، 1 ـ 13 .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ قد سخر السماء لتحمل الأمطار التي هي سبب الحياة وكذلك سخر الريح للتلقيح ، وسخر الليل والنهار للعمل والراحة والعبادة والتأمل فيما خلق ، وسخر الأرض لينتفع بها الإنسان ؛ لأنه الخليفة إن سار وفق المنهج المرسوم له وهـٰذه الأدوات وغيرها هل هي ميراث علىٰ وجه الحقيقة أو ميراث علىٰ وجه المجاز للاختبار ؟ يقول ٱلله تعالىٰ في النعم التي وهبها تسخيراً للإنسان : ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤ ۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ يؤكد في الكتاب الحق أن ما أنزله إلىٰ رسول الإنسانية حق ، وهـٰذا الحق فيه حقائق لابد أن يعيها كل مخلوق ومنها :

1 ـ أن القرآن حق ويحتوي علىٰ المنهج الحق للوارث الذي يريد تحقيق الخلافة .

2 ـ أكثر الناس لا يؤمنون بهـٰذه الحقيقة ، وعليه فهم لا يستحقون الخلافة ولا الميراث في الدنيا ولا الآخرة ، فيقول ٱلله لهـٰؤلاء موضحاً لهم جزاء من آمن وأحسن ، وجزاء من كذّب وأساء وضلَّ : ﴿ ۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦

(1) الرعد ، 1 ـ 5 .

وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [1] .

3 ـ تأكيد أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الخالق دون شريك فهو الذي رفع السماء بدون عمد يراها الإنسان ، وأنزل منها الماء الذي هو سر أسرار الحياة علىٰ الأرض .

4 ـ سخر ٱلله الوارث العزيز الشمس والقمر في ميزان الكون واعتداله لخدمة الإنسان الخليفة فلا الشمس تقترب من الأرض فتحرقها ولا تبعد فتجمدها ، ولا القمر يبعد أو يقرب فيؤثر في مستوىٰ الماء في البحار فتغرق الأرض أو تتوقف حركة الملاحة قال تعالىٰ : ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي

---

(1) يونس ، 26 ـ 33 .

ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

5 ـ ٱلله قد جعل الجزاء من جنس العمل ، فالذين كفروا لا يرثون الأرض وليس لهم نصيب في الخلافة ، والذين آمنوا يقول ٱلله عنهم : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (2) .

وهـٰؤلاء الذين قال سبحانه وتعالىٰ لهم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (3) .

---

(1) الأنعام ، 96ـ 101 .
(2) إبراهيم ، 27 ـ 33 .
(3) النحل ، 10ـ 14 .

ويقول تعالىٰ مخاطباً للرسول الكريم ﷺ علىٰ وجه الخصوص ومخاطباً كل إنسان علىٰ وجه العموم : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ (1) .

ومن نعم ٱلله التي أورثها للإنسان ليحقق الخلافة علىٰ الأرض الماء العذب ومصدره الأنهار والأمطار والمياه الجوفية ، والماء المالح ومصدره المحيطات والبحار ، وفي كل منهما فوائد جمة ، وهـٰذه النعم وهب ومنح لا ميراث وإن ورِّثت فعلىٰ سبيل الانتفاع لا الامتلاك الدائم حيث لا دائم إلا وجهه ، وكذلك الشمس والقمر والليل والنهار ، وهـٰذا ما يدعو إلىٰ الإيمان بأن ٱلله هو الوارث لملكه ويمنح من يشاء من عباده ما يشاء ، ونعتقد أن كلمة الميراث في حق الخلق علىٰ سبيل التقريب والمجاز لا علىٰ سبيل الحقيقة فلا وارث إلا ٱلله عزَّ وجل فيقول ٱلله تعالىٰ موضحاً لنعمه التي لا تعد ولا تحصىٰ : ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ

(1) لقمان ، 29ـ34 .

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (1) .

إذاً فما منحه ٱلله للإنسان ليس ميراثاً بل هبة أو أمانة ليرىٰ مدىٰ طاعة الإنسان من خلال استخدام هـٰذه النعم في تحقيق الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض ، التي يود ٱلله إصلاحها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ (3) .

(1) فاطر ، 12 ـ 18 .

(2) الأعراف ، 55 ـ 57 .

(3) الأعراف ، 85 ـ 87 .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ في معناها تحمُّل المسؤولية ذات العبء الكبير ، التي حملها الخليفة بالطاعة التامة لأمر الوارث ، إنه قبول بتحمُّل ما يترتب علىٰ المسؤولية مع التصميم علىٰ النجاح مع كبر العبء وجسامة المسؤولية .

وكان عرض الأمانة علىٰ السمـٰوات والأرض والجبال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ الإباء الامتناع ، والامتناع لا يعني الرفض بالمطلق ، بل يعني مما يعني إظهار المخافة منها اجتناباً لما هو متوقع وهو الفشل في حملها ، وهـٰذا لا يعني الرفض بالمطلق ، بل يدل علىٰ قبول الحوار أمام التخيير لا التسيير . ولهـٰذا كانت الشفقة منها ظاهرة ، وفقاً لما هو مترتب عليها .

وَحَمَلَهَا الإنسان ، الذي علمه ٱلله الأسماء ، والأسماء هي الأسرار ، ولهـٰذا عندما عرف الإنسان الأسرار عرف أنه كان جهولاً بأمرها ؛ ولأنه الخليفة حمل مسؤولية الأمانة وارتضىٰ ذلك فكرمه ٱلله في البر والبحر مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (1) .

وجاء في تفسيرها أيضاً ما يتفق مع التفسير السابق ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا

---

(1) الإسراء ، 70ـ75 .

جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾ .

يعظم تعالىٰ شأن الأمانة ، التي ائتمن اللّه عليها المكلفين ، التي هي امتثال الأوامر ، واجتناب المحارم ، في حال السر والخفية ، كحال العلانية ، وأنه تعالىٰ عرضها علىٰ المخلوقات العظيمة ، السمٰوات والأرض والجبال ، عرض تخيير لا تحتيم ، وأنك إن قمت بها وأدّيتهَا علىٰ وجهها ، فلك الثواب .

وقوله : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ، أي : خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ ، لا عصيانًا لربهن ، ولا زهدًا في ثوابه .

وبالنسبة للخليفة دائماً أمامه الأمانة ، وهو دائماً معرض للاختبار والابتلاء في الدار الدنيا التي جعل الوارث فيها الإنسان خليفة له في أرضه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] .

(1) البقرة ، 30 ـ 37 .

والأمانة المنصوص عليها هي ذات الأعباء والمسؤوليات الجسام وهي في حالة تتابع ثلاثي :

الأول : الأمانة التي عُرضت من بداية الخلق علىٰ أبينا آدم ﷺ : وتلك الأمانة نحن لا نعلم أمرها إلا اجتهاداً ، فهي التي عرضها ٱلله علىٰ الإنسان ، فحملها طاعة لله في ما عرضه بغض النظر عما تحتويه من صعاب ومسؤوليات جسام ، فقبلها ، وحملها مع ظلمه وجهله ، وحمل هـٰذا الحمل الثقيل .

الثاني : الأمانات المتعددة التي نزلت علىٰ الرسل عليهم الصلاة والسلام : والغرض منها واحد وهو البلاغ بالوحدانية والإيمان بها تسليماً مطلقاً ، وهـٰذه الرسالات كانت ذات أعباء علىٰ المصطفين صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ، فانقسم الناس من حولهم بين خمس فئات :

1 ـ **الفئة الكافرة** : وهي الفئة التي لا تؤمن بوجود من خلق الوجود والحياة والممات : وكأن الطبيعة هي التي ولدت كل شيء ، وهـٰؤلاء ماتوا علىٰ كفرهم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) .

2 ـ **الفئة المشركة** : وهي الفئة التي تؤمن بٱلله وتشرك آخرين معه ، والمشرك كافر بما أمر ٱلله وهو لا يؤمن بالحق في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

---

(1) آل عمران ، 91 .

(2) البقرة ، 87 ـ 88 .

أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2) .

3 ـ **الفئة المنافقة** : وهي التي تظهر الإيمان وتبطن الكفر أو الشرك ، وهـٰؤلاء هم الذين يقولون ما لا يفعلون مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا

(1) الإخلاص ، 1 ـ 4 .

(2) المائدة ، 72 ـ 76 .

(3) التوبة ، 101 ـ 102 .

يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (1) .

4 ـ **الفئة المسلمة** : وهي التي تُقِر بوجود خالق عظيم ، فتؤمن به وتؤمن بالرسول الذي جاء مبشراً ونذيراً ، وتؤمن بجميع الأنبياء والرسل كما في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة الخاتمة ، حيث إن المسلمين بذلك لا يفرقون بين أحد من رسله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (4) .

---

(1) الأحزاب ، 12ـ15 .
(2) البقرة ، 136 .
(3) آل عمران ، 64ـ67 .
(4) الأنبياء ، 107ـ112 .

5 ـ **الفئة المؤمنة** : وهي التي دخل الإيمان قلبها بعد أن أسلمت فلا ظن ولا شك فيما تعبد ، وهي التي تُسلِّم بالمطلق بأنه لا وارث إلا ٱلله ولا مغفرة أو مثوبة إلا منه ، والجنة حق لأصحاب الحق ، والنار حق لأصحاب الكفر والشرك والذين لا يتقون فيما يقولون ويفعلون ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (3) .

وبناء علىٰ ما تقدم ، فلكل فئة حسابها وعقابها أو ثوابها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا

(1) الأنفال ، 2 ـ 4 .

(2) الأنفال ، 74 ـ 75 .

(3) الحجرات ، 14 ـ 15 .

ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) .

فٱلله هو الوارث ؛ لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن والمنعم والمتفضل ومالك الملك بلا منازع لا عن وراثة .

وهو ملك الكون ووارثه أي الحاكم فلا يرده أحد فيما أراد ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (2) .

وهو الباقي الذي يبقىٰ ليري الخلق أن ميراث السمٰوات والأرض لله لا لغيره فهو الوارث بلا مشاركة لأحد في ملكه وميراثه ، و« الوارث صفة من صفات ٱلله عز وجل ؛ لأنه الباقي الدائم الذي يَرِثُ الخلائقَ ويبقىٰ بعد فنائهم وٱلله عز وجل يرث الأَرض ومَن عليها وهو خير الوارثين أَي يبقىٰ بعد فناء الكل ويَفْنىٰ مَن سواه فيرجع ما كان مِلْكَ العِباد إليه وحده لا شريك له ، قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

---

(1) الأحزاب ، 67ـ73 .

(2) يونس ، 107ـ109 .

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) .

الثالث : أمانة المستخلفين بعد الرسل والأنبياء : وهم المؤمنون حقاً فلا يفرقون بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (3) . لقد انتهىٰ زمن الرسل والأنبياء ولم يبق إلا زمن الصالحين والمؤمنين الذين التزموا بحمل الأمانة وهي عبء يستوجب التبشير به والإنذار به والتحريض به ، حتىٰ تعم المعمورة وتلون بالدين الخاتم لكل الأديان بالرسالة الخاتمة في اللوح المحفوظ .

وعليه من يغفل عن أداء الأمانة التي بها التزم وحمل العبء ، سيكون من الخاسرين ، ومن يعمل صالحاً ويصلح في الأرض التي استخلفه ٱلله فيها سيكون من الوارثين في الدارين الذين يرثون الأرض والجنة . اللهُمَّ اجعلنا من الوارثين في الدارين وأرضَ عنا وعن البنين والزوجات والوالدين فإننا بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فارحمنا فأنت خير الراحمين والوارثين .

ولذا فالوراثة استلام لاحق من سابق ، ثم أخيراً استلام السابق من اللاحق

---

(1) المؤمنون ، 1ـ11 .

(2) المائدة ، 7ـ8 .

(3) النور ، 51ـ53 .

بحق الوراثة المطلق ، وفي سنن الأنبياء والرسل مثال : فقد ورث سيدنا يحيىٰ سيدنا زكريا عليهما الصلاة والسلام . وورث سيدنا سليمان سيدنا داود عليهما الصلاة والسلام ، وهٰكذا كانت وراثة الرسل من أبينا آدم إلىٰ سيدنا نوح وإبراهيم ثم إلىٰ سيدنا موسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام ثم إلىٰ أن اختتمت بمحمد ورسالته عليه الصلاة والسلام .

فقال ٱلله تعالىٰ إخباراً عن زكريا عليه الصلاة والسلام ودعائه إيّاه : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [1] أَي يبقىٰ بعدي فيصير له ميراثي قال ابن سيده : إنما أَراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة ولا يجوز أَن يكون خاف أَن يَرِثَهُ أَقرِباؤُه المالَ لقول النبي ﷺ : « إِنَّا معاشرَ الأَنبياءِ لا نُورثُ ما تركنا فهو صدقة » [2] .

وقوله : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا : أوتي النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لا تورث [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا

---

(1) مريم ، 2ـ7 .

(2) تفسير النسفي ، ج 2 ، ص 262 .

(3) تفسير النسفي ، ج 3 ، ص 1 .

يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [1] .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ففيها :

أحدها : أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علماً أو من لم يؤت مثل علمهما ، وفيه أنهما فضلا علىٰ كثير وفضل عليهما كثير .

وثانيها : في الآية دليل علىٰ علو مرتبة العلم ؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما علىٰ الملك كشكرهما علىٰ العلم .

وثالثها : أنهم لم يفضلوا أنفسهم علىٰ الكل وذلك يدل علىٰ حسن التواضع .

ورابعها : أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم ، ثم العلم بٱلله وبصفاته أشرف من غيره ، فوجب أن يكون هـٰذا الشكر ليس إلا علىٰ هـٰذا العلم ، ثم إن هـٰذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سبباً لفضيلتهم علىٰ المؤمنين فإذاً الفضيلة هو أن يصير العلم بٱلله وبصفاته جلياً بحيث يصير المرء مستغرقاً فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات .

أما قوله تعالىٰ : ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ فقد اختلفوا فيه ، فقال الحسن المال ؛ لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث ، وقال غيره : بل النبوة ، وقال آخرون : بل الملك والسياسة ، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضاً عطية مبتدأة من ٱلله تعالىٰ ، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمناً ولا يرث

---

(1) النمل ، 15ـ19 .

إذا كان كافراً أو قاتلاً ، لـٰكن ٱلله تعالىٰ جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت علىٰ شرائط ، وليس كذلك النبوة لأن الموت لا يكون سبباً لنبوة الولد فمن هـٰذا الوجه يفترقان ، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته ، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه أنه تعالىٰ لو فصل فقال : وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله : ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ معنىٰ ، وإذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك : لأن تعليم منطق الطير يكون داخلاً في جملة ما ورثه ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ لأن وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه ، وقوله : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ لا يليق أيضاً إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص ، وما ذكره ٱلله تعالىٰ من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه ، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال (1) .

أما ا لنبي محمد ﷺ فقد قال : « اللهُـمَّ أَمْتِعْني بسمعي وبَصَري واجعلهما الوارثَ مني ، قال ابن شميل : أَي أَبْقِهما معي صحيحين سليمين حتىٰ أَموت ، وقيل : أَراد بقاءَهما وقوَّتهما عند الكبر وانحلال القُوىٰ النفسانية فيكون السمع والبصر وارِثَيْ سائر القُوىٰ والباقِيَيْنِ بعدها ، وقال غيره أَراد بالسمع وَعْيَ ما يَسْمَعُ والعملَ به وبالبصر الاعتبارَ بما يَرىٰ ونُور القلب الذي يخرج به من الحَيْرَة والظلمة إِلىٰ الهدىٰ ، وفي رواية واجعله الوارث مني فَرَدَّ الهاءَ إِلىٰ الإِمْتاع فلذلك وَحَّدَهُ . وفي حديث الدعاءِ أَيضاً وإِليكَ مآبي ولك تُراثي ، والتُّراثُ ما يخلفه الرجل لورثته والتاءُ فيه بدل من الواو وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « بعث ابن مِرْبَعٍ الأَنصاري إِلىٰ أَهل عرفة فقال : اثْبُتوا علىٰ مَشاعِركم هـٰذه فإِنكم علىٰ إِرْثٍ من إِرث إِبراهيم » (2) .

(1) تفسير الرازي ، ج 12 ، ص 20 .
(2) تفسير الرازي ، ج 12 ، ص 20 .

وعليه فالميراث أنواع :

1 ـ ميراث مادي : أموال وعقارات وغير ذلك في الدنيا ، وميراث الجنة في الآخرة .

2 ـ ميراث معنوي : في الدنيا والآخرة مثل ميراث العلم والنبوة والفوز برضا ٱلله في الجنة .

3 ـ ميراث مادي ومعنوي كما هو الحال مع سيدنا سليمان الذي ورث سيدنا داود عليهما الصلاة والسلام .

وهٰذه الأنواع من الميراث كما أسلفنا وهب من ٱلله لمن يستحق وفق إرادة ٱلله عزَّ وجل من خلال تطبيق المنهج الصحيح لتحقيق الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض .

وليس أدل وأوضح من آيات ٱلله لتوضيح معنىٰ الوارث والميراث ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [1] .

فالميراث الحقيقي لله وحده دون شريك أو منازع فهو جل وعلا ذكره يؤكد بصيغة التوكيد والعظمة وبصيغة الجمع التي تدل علىٰ الكبرياء والشموخ أن الميراث الحقيقي المؤكد لله وحده فهو الذي سيرث الأرض ومن عليها ، وجميع من في الأرض سيرجعون إليه ليحاسبهم علىٰ الميراث المؤقت الذي منحه لهم في الدنيا لتحقيق الخلافة ، وسيرجع الكل لله كما خلق أول مرة يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [2] .

فمن جاء لله ورجع إليه بقلب خاضع خاشع سليم من الشرك والكبر هو الذي يزفه ٱلله إلىٰ الجنة ؛ لأنه جاء بميراث العمل لا ميراث زائف من مال فان

(1) مريم ، 40 .

(2) الشعراء ، 88 ـ 89 .

أو ولد لا يملك نفعاً ولا ضراً لأبيه ، فيبشر ٱلله هـٰؤلاء الصنف من المتقين ، وينذر المجرمين ، بأن لكل جزاء من جنس عمله مع تأكيد أن الجميع لابد أن يرجع عبداً لا يملك شيئاً ويعود فرداً مجرداً من المال والولد والجاه والسلطان يعود لا ملك له إلا ما سيمنحه ٱلله له يوم القيامة ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ (1) .

والجنة هي ميراث الخليفة ومن سار علىٰ نهجه من عباد ٱلله الذين اتقوا ٱلله وحققوا ما أراد في أرضه ومع عباده فكانوا أهلاً للميراث الحقيقي الدائم الذي لا يزول .

فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ (2) .

أما ميراث الكافرين فهو لا محالة يليق بهم وبما عملوا وبما أسلفوا قال ٱلله تعالىٰ :

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ

---

(1) مريم ، 85ـ 95 .

(2) مريم ، 58ـ 63 .

لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

والميراث الحقيقي لعباد ٱلله الذي اتقوه وخافوه في الدنيا ولا يخافون من غيره فأمنهم من المفسدين في الأرض وأمنهم من الخوف الأكبر يوم القيامة ويزيد الله علىٰ ذلك بوهبهم الجنة فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (2) .

وميراث الآخرة يسبقه ميراث في الأرض ولا يمنع ذلك ولا تلك إلا المعصية والبعد عن منهج الخلافة الذي ارتضاه ٱلله للخلافة في أرضه وٱلله يحذر الذين سيرثون الأرض من شر ذنوبهم لأن الذنوب تحجب العبد عن خير ٱلله في الدنيا والآخرة ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ

(1) الأعراف ، 38ـ43 .
(2) الزخرف ، 68ـ73 .

مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ (1) .

والذين يؤمنون بٱلله رباً ويخشعون له في صلاتهم ويعرضون عن لغو الكلام بذكره الدائم ويؤدون الزكاة وينفقون عن حب في ٱلله دون بخل ، ويحفظون فروجهم إلا عن الحلال ويحفظون العهد بعبادة ٱلله وحده وعدم الشرك به يصلون إلىٰ مقام القرب ويرثون أعلىٰ الجنان يرثون الفردوس وهـٰذا أعلىٰ وأغلىٰ ميراث وهـٰذا هو الفلاح الحقيقي ، فقول ٱلله تعالىٰ في الوارثين من هـٰذا الصنف :

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (2) .

ومن الميراث ما هو للعلم والنبوة وهـٰذا الميراث هو الميراث الحقيقي الذي يسعىٰ إليه من أراد أن يكون خليفة لله في أرضه وهـٰذا النوع نجده في كتاب ٱلله مع سيدنا زكريا وسيدنا يحيىٰ عليهما الصلاة والسلام فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ

(1) الأعراف ، 100 .
(2) المؤمنون ، 1 ـ 11 .

ٱمۡـرَأَتِي عَاقِـرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ (1) .

ومن الميراث المادي والمعنوي ميراث الملك والعلم والنبوة ما حدث مع سيدنا سليمان وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام وهٰذا الميراث وغيره يحق للخليفة من الأمة المحمدية ؛ لأنها التي ورثت الكتاب والنبوة والعلم من خلال اتباع شريعة سيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ .

يقول ٱلله تعالىٰ في ذلك النوع من الميراث : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (2) .

والذين يرثون العلم والنبوة ويتبعون المنهج الصحيح لإعمار الأرض وعدم الفساد فيها يخاطبهم ٱلله بقوله : ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا

---

(1) مريم ، 1 ـ 11 .

(2) النمل ، 15 ـ 16 .

بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (1) .

وقال ٱلله تعالىٰ الخالق الملك المالك الوارث للناس في كتابه الخاتم : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ (2) .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ (3) الإنفاق عطاء بدون منة ، وفي هـٰذه الآية الكريمة استغراب من أمر الذين يملكون ولا ينفقون مما يملكون ابتغاء وجه ٱلله تعالىٰ ، ولذا فإن الإنفاق طاعة لأمر ٱلله تعالىٰ وهـٰذه طاعة المستخلفين الذين يؤمنون بٱلله ورسوله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وبكل ما أمر ونهىٰ ، فله الحمد علىٰ ما أعطىٰ وأغنىٰ .

وَلله مِيرَاثُ السمـٰوات والأرض ، يعني : إلىٰ ٱلله يرجع ميراث السمـٰوات والأرض ولا أحد غيره يرثهما ، ولأنه الوارث لكل شيء ، إذاً لماذا

---

(1) آل عمران ، 174 ـ 180 .

(2) الحديد ، 7 ـ 11 .

(3) الحديد ، 10 ـ 11 .

لا تنفقون ، لتكونوا من بعد ذلك من الوارثين في الجنة ؟ وقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا ﴾ والأموال كلها لله تعالىٰ وهو يأمركم بالنفقة . ويقال : أنفقوا ما دمتم في الحياة ، فإنكم إن بخلتم ، فإن ٱلله هو يرثكم ، ويرث أهل السمٰوات . فأنفقوا قبل أن تفنوا ، وتصير كلها ميراثاً لله تعالىٰ بعد فنائكم ، وإنما ذكر لفظ الميراث ، لأن العرب تعرف ما ترك الإنسان ميراثاً ، فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم (1) .

عَنِ السيدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قالت : « أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رسول ٱلله ﷺ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَيَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ رسول ٱلله ﷺ فَقَالَتْ لَهُنَّ عَائِشَةُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رسول ٱلله ﷺ لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ » (2) .

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ السيدة عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ ٱلله عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ : أَنَّ السيدة فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ابْنَةَ رسول ٱلله ﷺ سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعْدَ وَفَاةِ رسول ٱلله ﷺ أَنْ يَقْسِمَ لَهَا مِيرَاثَهَا مِمَّا تَرَكَ رسول ٱلله ﷺ مِمَّا أَفَاءَ ٱلله عَلَيْهِ فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رسول ٱلله ﷺ قَالَ لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ فَغَضِبَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رسول ٱلله ﷺ فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ فَلَمْ تَزَلْ مُهَاجِرَتَهُ حَتَّىٰ تُوُفِّيَتْ وَعَاشَتْ بَعْدَ رسول ٱلله ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ قَالَتْ وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيبَهَا مِمَّا تَرَكَ رسول ٱلله ﷺ مِنْ خَيْبَرَ وَفَدَكٍ وَصَدَقَتَهُ بِالْمَدِينَةِ فَأَبَىٰ أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رسول ٱلله ﷺ يَعْمَلُ بِهِ إِلا عَمِلْتُ بِهِ فَإِنِّي أَخْشَىٰ إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَىٰ عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَمَّا خَيْبَرُ وَفَدَكٌ فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ وَقَالَ هُمَا صَدَقَةُ

---

(1) بحر العلوم للسمرقندي ، ج 4 ، ص 249 .

(2) موطأ مالك ، ج 6 ، ص 143 .

رسول ٱلله ﷺ كَانَتَا لِحُقُوقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ وَأَمْرُهُمَا إِلَىٰ مَنْ وَلِيَ الأَمْرَ قَالَ فَهُمَا عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ الْيَوْمِ » (1) .

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ ذَكَرَ لِي ذِكْرًا مِنْ حَدِيثِهِ ذَلِكَ فَانْطَلَقْتُ حَتَّىٰ أَدْخُلَ عَلَىٰ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ فَقَالَ مَالِكٌ : بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي حِينَ مَتَعَ النَّهَارُ إِذَا رَسُولُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَأْتِينِي فَقَالَ أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ حَتَّىٰ أَدْخُلَ عَلَىٰ عُمَرَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ رِمَالِ سَرِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ مُتَّكِىءٌ عَلَىٰ وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسْتُ فَقَالَ يَا مَالِك إِنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ قَوْمِكَ أَهْلُ أَبْيَاتٍ وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِرَضْخٍ فَاقْبِضْهُ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَمَرْتَ بِهِ غَيْرِي قَالَ اقْبِضْهُ أَيُّهَا الْمَرْءُ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَهُ أَتَاهُ حَاجِبُهُ يَرْفَا فَقَالَ هَلْ لَكَ فِي عُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَسْتَأْذِنُونَ قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا فَسَلَّمُوا وَجَلَسُوا ثُمَّ جَلَسَ يَرْفَا يَسِيرًا ثُمَّ قَالَ هَلْ لَكَ فِي عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلا فَسَلَّمَا فَجَلَسَا فَقَالَ عَبَّاسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا وَهُمَا يَخْتَصِمَانِ فِيمَا أَفَاءَ ٱلله عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ مَالِ بَنِي النَّضِيرِ فَقَالَ الرَّهْطُ عُثْمَانُ وَأَصْحَابُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْضِ بَيْنَهُمَا وَأَرِحْ أَحَدَهُمَا مِنْ الآخَرِ قَالَ عُمَرُ تَيْدَكُمْ أَنْشُدُكُمْ بِٱلله الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رسول ٱلله ﷺ قَالَ لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ يُرِيدُ رسول ٱلله ﷺ نَفْسَهُ قَالَ الرَّهْطُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلَىٰ عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشُدُكُمَا ٱلله أَتَعْلَمَانِ أَنَّ رسول ٱلله ﷺ قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالا قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الأَمْرِ إِنَّ ٱلله قَدْ خَصَّ رَسُولَهُ ﷺ فِي هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ ثُمَّ قَرَأَ (2) :

---

(1) صحيح البخاري ، ج 10 ، ص 330 .

(2) صحيح البخاري ، ج 10 ، ص 331 .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ... ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ قَدِيرٌ ۝٦ ﴾ .

فَكَانَتْ هَـٰذِهِ خَالِصَةً لِرسول ٱلله ﷺ وَٱلله مَا احْتَازَهَا دُونكُمْ وَلا اسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ قَدْ أَعْطَاكُمُوهَا وَبَثَّهَا فِيكُمْ حَتَّىٰ بَقِيَ مِنْهَا هَـٰذَا الْمَالُ فَكَانَ رسول ٱلله ﷺ يُنْفِقُ عَلَىٰ أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ ٱلله فَعَمِلَ رسول ٱلله ﷺ بِذَلِكَ حَيَاتَهُ أَنْشُدُكُمْ بِٱلله هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ قَالُوا نَعَمْ ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ أَنْشُدُكُمَا بِٱلله هَلْ تَعْلَمَانِ ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ ثُمَّ تَوَفَّىٰ ٱلله نَبِيَّهُ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا وَلِيُّ رسول ٱلله ﷺ فَقَبَضَهَا أَبُو بَكْرٍ فَعَمِلَ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رسول ٱلله ﷺ وَٱلله يَعْلَمُ إِنَّهُ فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ تَوَفَّىٰ ٱلله أَبَا بَكْرٍ فَكُنْتُ أَنَا وَلِيَّ أَبِي بَكْرٍ فَقَبَضْتُهَا سَنَتَيْنِ مِنْ إِمَارَتِي أَعْمَلُ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رسول ٱلله ﷺ وَمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَٱلله يَعْلَمُ إِنِّي فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ جِئْتُمَانِي تُكَلِّمَانِي وَكَلِمَتُكُمَا وَاحِدَةٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ جِئْتَنِي يَا عَبَّاسُ تَسْأَلُنِي نَصِيبَكَ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ وَجَاءَنِي هَـٰذَا يُرِيدُ عَلِيًّا يُرِيدُ نَصِيبَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا فَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ رسول ٱلله ﷺ قَالَ لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ فَلَمَّا بَدَا لِي أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَيْكُمَا قُلْتُ إِنْ شِئْتُمَا دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا عَلَىٰ أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ ٱلله وَمِيثَاقَهُ لَتَعْمَلانِ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رسول ٱلله ﷺ وَبِمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَبِمَا عَمِلْتُ فِيهَا مُنْذُ وَلِيتُهَا فَقُلْتُمَا ادْفَعْهَا إِلَيْنَا فَبِذَلِكَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا فَأَنْشُدُكُمْ بِٱلله هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ قَالَ الرَّهْطُ نَعَمْ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشُدُكُمَا بِٱلله هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا بِذَلِكَ قَالا نَعَمْ قَالَ فَتَلْتَمِسَانِ مِنِّي قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ فَوَٱلله الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لا أَقْضِي فِيهَا قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَادْفَعَاهَا إِلَيَّ فَإِنِّي أَكْفِيكُمَاهَا » (1) .

إذاً فماذا يكون ميراث النبي ﷺ الذي به تتحقق الخلافة ؟

هـٰذا السؤال يجيب عليه قول النبي ﷺ :

---

(1) صحيح البخاري ، ج 10 ، ص 331 .

عن أبي الدرداء ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « ولفضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1] .

وهٰذه قصة رواية أبي الدرداء للحديث :

عن أبي الدرداء قال : جاء رجل من أهل المدينة وهو بمصر قال فقال له أبو الدرداء : « ما أقدمك يا ابن أخي ؟ قال : حديث بلغني عنك : أنك تحدث به عن رسول ٱلله ﷺ . قال : أما قدمت بتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لطلب حاجة ؟ قال : لا ، قال : فما قدمت إلا لطلب هٰذا الحديث ، قال : نعم . قال : فإني سمعت رسول ٱلله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك ٱلله عزَّ وجلَّ به طريقاً إلىٰ الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم يستغفر له من في السمٰوات والأرض حتىٰ الحيتان في جوف الماء ، ولفضل العالم علىٰ العامل كفضل القمر علىٰ الكواكب . إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ، ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »[2] .

اللهُمَّ اجعلنا من الوارثين للعلم الذي هو ميراث النبوة واجعلنا من الوارثين للفردوس الأعلىٰ الذي هو مطمح عباد ٱلله في الميراث الحقيقي ، واجعل لنا في الدنيا نصيباً ولا تجعلنا من المحرومين ، واجعلنا علىٰ الطاعة ما حيينا وافتح علينا أبواب الخير بالعزة والتوبة والمغفرة حتىٰ البقاء الدائم في الحياة الحيوان .

---

(1) أخلاق العلماء للآجري ، ج 1 ، ص 9 .

(2) أمالي المحاملي ، ج 1 ، ص 361 .

وعليه لكي يكون الإنسان من الوارثين وله نصيب في الدارين عليه بالآتي :

أولاً : الطاعة : والطاعة تستوجب شيئين :

1 ـ **إتباع ما أمر به** : الخليفة دائماً طائع لله تعالىٰ فيما أمر به ، والطاعة عبادة يجب العمل بها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦٢ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [3] وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [4] .

إتباع الأمر طاعة لمصدره ، واعتراف بأنه يقع في دائرة الوجوب والفرض ، وللطاعة غايات قريبة وبعيدة منها :

أ ـ الغايات القريبة :

ـ نيل الرضا الآني .

---

(1) آل عمران ، 162 ـ 163 .

(2) الأنعام ، 50 ـ 51 .

(3) الأنعام ، 106 ـ 107 .

(4) القصص ، 50 .

- نيل الجزاء الآني .

- الاتباع بمستوجبات الإيمان .

- أخذ النصيب من الدنيا .

- الاستخلاف والوارثة في الأرض .

ب - الغايات البعيدة :

- نيل المغفرة .

- نيل التوبة .

- نيل الرضا الدائم .

- الفوز بالجنة والوراثة فيها .

2 - **الانتهاء عما نهىٰ عنه** : وهـٰذا الأمر يستوجب شيئين :

- **تجنب القول السوء** . والسوء يؤدي إلىٰ الفتنة والفرقة التي تفرق بين المرء وزوجه والأب وأبنائه والأخ وإخوته ، والجار وجيرانه ، والقول السوء فيه بهتان وزور فيؤدي إلىٰ الغضب والصراع والصدام وقد يؤدي إلىٰ الاقتتال وكل ذلك يعد زريعة سوء ، مما يتطلب اجتنابه ، ولهـٰذا من زرع خيراً حصد خيراً ، ومن زرع شراً حصد شراً . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ

---

(1) البقرة ، 262 - 263 .

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [1] ، قال تعالىٰ : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ [4] .

ـ **تجنب فعل السوء** : الفعل هو الذي يتم الإقدام عليه من عاقل ، أي بعد تصميم وقرار ، والفعل من المؤمن لا سوء فيه ومن غير المؤمن قد يلم به السوء المسبب في الضرر ، فالسرقة فعل سوء ، والزنا فعل سوء ، والتآمر علىٰ الناس فعل سوء ، وهٰكذا كل فعل ضلال فيه من أفعال السوء ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [6] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا

---

(1) محمد ، 20ـ23 .

(2) هود ، 46 ـ 47 .

(3) الإسراء ، 36 .

(4) البروج ، 10 ـ 11 .

(5) الإسراء ، 37 ـ 38 .

(6) فاطر ، 10 .

وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) .

وعليه فالخليفة هو الوارث بالإضافة وذلك بالإصلاح في الأرض قولاً وعملاً وفعلاً وسلوكاً ، ولذلك فمن عمل عملاً صالحاً فلنفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (4) .

ثانياً : **الصدق** : الصدق قول حق وفعل حق ، فمن تبعه كان من الوارثين ، ومن لم يكن علىٰ الهدىٰ كان من الضالين ، والصدق لا يحدث ولا يتم إلا بالتقرُّب لله وطاعته فيما أمر ، وتجنب ما نهىٰ عنه ، والأخذ

---

(1) المائدة ، 77ـ81 .
(2) المائدة ، 90ـ93 .
(3) فصلت ، 46 .
(4) الجاثية ، 15 .

بما أتىٰ به الرسول والانتهاء عما نهىٰ عنه ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (3) .

الصدق هو المبرئ من الذنب والمرسخ للحق ، وفاكك للظلم ونازع للغبن وقاهر الماكرين والمكيدين بغير حق ، ولهـٰذا جاء قول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (4) ، ولهـٰذا الحق يجب أن يقال ولو كان علىٰ النفس ، وبقول الحق لا تكتم الشهادة ، وبدونه تُخفىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (5) .

---

(1) الحشر ، 7ـ9 .
(2) الإسراء ، 80ـ81 .
(3) الشعراء ، 84ـ90 .
(4) الإسراء ، 81 .
(5) البقرة ، 283ـ284 .

ثالثاً : **العدل** : العدل ميزان وقسط به يتم الفصل بين المحتكمين ، أو الشركاء والخلطاء ، ولذا فالعدل صفة من صفات ٱلله في خلقه الوارثين في الدارين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ

(1) ص ، 23ـ26 .

(2) الأنعام ، 152 ـ 153 .

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (2) .

رابعاً : **التبشير والتبليغ** : من مهام الخليفة الموَرَّث في الدار الدنيا والآخرة أن يبشر بما جاءه من الوارث المطلق علىٰ أيدي الرُّسُل صلوات ٱلله وسلامه عليهم . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (5) .

---

(1) البقرة ، 282 .

(2) النساء ، 58 ـ 59 .

(3) الزمر ، 17 ـ 18 .

(4) المائدة ، 19 ـ 21 .

(5) البقرة ، 213 .

التبشير فيه نقل رسالة من رسول مرسل ، فمن تبعه اهتدىٰ ، ومن لم يتبعه فقد ضل ، والناس بين مهتدٍ وضالٍ وعالم وجاهل وصادق وكاذب تفرقوا ، إلا المستخلفين يرثون الأمانة وهم طائعون لحَمْلِها ولحِملِها .

والبشير هو الآتي بالخبر الخير ، الذي فيه بُشرىٰ ، يأتي عظيماً مفرحاً ، يأمله الناس الذين يتعلق الأمر بهم ، وبهٰذا كان محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه رسولاً مبشراً بالخير للخير ، وداعياً للحق وزاهقاً للباطل وفاعلاً وعاملاً علىٰ الحق بالتي هي أحسن حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي . وهٰذه رسالة الخليفة وهي التبشير بالتي هي أحسن مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

والتبليغ التزام بمهمة مع عدم التقصير في تبليغها ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) وفي التبليغ مجاهرة بالحق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (3) .

خامساً : **الإنذار** : الإنذار فيه تفطين لشيء يستوجب الحيطة والحذر والاجتناب ، وهٰذا الفعل لا يقوم به إلا رسول لله رب العالمين أو مصلح يحب الخير ويعمل من أجله ، وهو أيضاً لا يتم إلا من مدرك وعالم يعلم ما هو كائن وما يمكن أن يكون وما هو في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) . قال

(1) البقرة ، 256 .

(2) المائدة ، 67 .

(3) المائدة ، 68 .

تعالىٰ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [4] .

وعليه فالإنذار رسالة بذاته يرشد لما هو صواب وخير ، وفيه تحذير واضح من مخاطر تلم بمن لم يتعظ ويجتنب ، والوارثون هم المعنيون بالبلاغ والإنذار ، أما أولئك الذين يوجه الإنذار إليهم فهم لم يكونوا من الخلفاء بعد ، ولكن بإمكانهم أن يصبحوا من المستخلفين فيها إذا ما استغفروا واجتنبوا كل فعل من الأفعال الآثام .

سادساً : **التحريض** : بالنسبة للمستخلفين الوارثين فإن في أفعال التحريض حثّاً علىٰ الأعمال الحسان ، أما غيرهم فيمكن أن يحرضوا علىٰ ما هو بغير الأفعال الحسان ، ولهٰذا فالأعمال دائماً بالنيات ولكل إنسان

---

(1) يونس ، 2 .

(2) يس ، 1ـ7 .

(3) الأحقاف ، 21ـ23 .

(4) ص ، 65ـ70 .

ما نوىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٣٢ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ۝٨٤ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴾ (2) .

إذاً التحريض في قاموس المستخلفين في الأرض هو علىٰ كل فعل من أفعال الخير والأعمال الحسان ، كالتحريض علىٰ الجهاد في سبيل ٱلله ، وطاعة الوالدين في غير معصية ٱلله ، وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهٰكذا يكون الإخلاص في العمل مثل الإخلاص في أداء العبادات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإقدام علىٰ كل ما من شأنه أن يحقق فوزاً للحق وهزيمة للباطل ، وكل عملٍ يحول بين سيئة وفاعلها .

سادساً : **مُذكِّر** : لا تذكير إلا بأسباب الغفلة ؛ ولأن الإنسان خُلق علىٰ التمام ولم يخلق علىٰ الكمال ، فهو من طبعة ينسىٰ ويتذكر ويغفل ويتفكر ، ولهٰذا فالذكرىٰ نافعة لمن آمن مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ

---

(1) الأنعام ، 132ـ135 .
(2) النساء ، 84ـ85 .
(3) الذاريات ، 55 .
(4) الغاشية ، 21ـ26 .

حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [1] . إذاً الذكرىٰ نافعة للإيقاظ من الغفلة والسهو والجهل ، وترشد إلىٰ ما هو أفضل وأجود وأحسن ، وفيها أجران :

الأجر الأول : لمن أرشد إلىٰ السبيل المستقيم .

والأجر الثاني : لمن استجاب واهتدىٰ .

سابعاً : **الإحسان** : الوارث المطلق جعل في الأرض وارثاً مستخلفاً ، يرث الأرض والجنة بالعمل الصالح طاعة في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، ولهـٰذا في الإحسان أفعال جميلات ، وإتقان يستوجب الجزاء الأوفىٰ ، وذوق رفيع علىٰ موازين الحياة العادلة . قال تعالىٰ : ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [4] . وعليه فالإحسان من عمل الخليفة ، وبه يورث في الأرض ويفوز بالجنة ، ولهـٰذا فالأعمال الحسان هي أعمال إحسان للصغير والكبير والذكر والأنثىٰ والقريب والغريب ، وهي

---

(1) الأنعام ، 68 .

(2) الرحمـٰن ، 60 ـ 61 .

(3) البقرة ، 83 .

(4) الأحقاف ، 15 ـ 16 .

من الأعمال الصالحة التي قال عنها الوارث جل جلاله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

الإحسان عمل الخير لِمن هم في حاجة إليه . إنه جهود تُبذل وإمكانات وخدمات تُقدَّم بأفعال طوعية تحقق الرضاء النفسي لِمن تُقدّم له (المحتاج أو القاصر) ولِمن قام أو أقدم علىٰ أفعال تقديمها للمستحقين لها .

الإحسان عمل إنساني لا يقتصر علىٰ ذوي العلاقة بل يحتويهم ويمتد إلىٰ آخرين ، ولذلك تؤسس له الجمعيات الخيرية والمنظمات المحلية والدولية المؤسس الأساسي لهيئات الخدمة الاجتماعية .

ثامناً : **التصدق** : التصدق نتاج ملك وإحساس بحاجة الآخر ، وعطاء بدون منة ، ولذا فأجره كسب وفير ، يجازىٰ به المتصدق من عند الوارث مالك الملك ، الذي من ملكه أعطىٰ لمن يُعطي فيزيده عطاء . قال تعالىٰ : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [3] .

عاشراً : **التزكي** : الزكاة فرض علىٰ المالك القادر ، وهي رحمة بين الناس ، وهي الحق المعلوم للسائل والمحروم ، وهي الحق البين في الرزق

(1) النحل ، 97 .

(2) المائدة ، 45 .

(3) البقرة ، 280 ـ 281 .

الحلال . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (3) .

حادي عشر : الاحترام : الاحترام سيادة الشعور المُفضَّل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ومن يناله يشار إليه بالمحترم ، ولذا فالاحترام صفة أخلاقية مفضلة ومرغوبة لدىٰ الناس . وكلما سادت بينهم ساد التقدير والنظام والأدب في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ (4) .

الاحترام شعور يتبادل بين الوارثين علىٰ أساس الاعتبار لكل منهم ، ولذا فإن الاحترام قيمة إنسانية واجتماعية تتبادل علىٰ أساس من المودة مع مراعاة أسباب العلاقة التي تجمع بين المحترمين ، والوارث إن لم تكن قيمة مؤسسة علىٰ الاحترام فلن يحترم الأرض والناس الذين يعيشون عليها ، ولذا فبالإصلاح في الأرض تنال الأرض الاحترام ، وبعدم سفك الدماء تحترم الخلائق التي تعيش فيها ، وبالعدل بين الذين يتعلق الأمر بهم يكون الاحترام سيداً سائداً بين المستخلفين في الأرض .

---

(1) المعارج ، 24 ـ 25 .

(2) فاطر ، 18 .

(3) الليل ، 17 ـ 21 .

(4) النساء ، 86 .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ (1) .

ثاني عشر : التقدير : التقدير قيمة تتبادل بين الكبير والصغير والآباء والأبناء والراعي والرعية ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ (3) .

وعليه في التقدير تتعدد الأدوار وتتنوع من مجتمع لآخر ، ومن ثقافة إلىٰ أخرىٰ باختلاف المعتقدات والأعراف ، وفي مجملها تتكامل وتتمم بعضها

---

(1) الأحزاب ، 53 ـ 54 .

(2) الإسراء ، 23 ـ 27 .

(3) الجاثية ، 18 ـ 22 .

البعض عندما تلتقي أطراف الحوار بمختلف حاجاتها وأساليب إشباعها ، وهٰذه تجعل أطراف الحوار في مستويات غير متساوية إذا لم تُقدّر أثناء الحوار ومن بعده أيضاً فلن يكون للحوار أهمية ، فمنطق الحوار يحسسك بأهميتك في الوجود ، وأهمية إطارك المرجعي ، وأهمية قضيتك قيد البحث والحوار ، فعندما يتم الحوار المؤسس علىٰ المنطق ، تجد نفسك في حالة تقدير ، ولهٰذا كل الناس تسعىٰ لنيل التقدير من الآخرين . تقدير الظروف بين المتحاورين أساسي ، وإن لم تقدر الأطراف ظروف بعضها البعض ، لا تتمكن من الاستيعاب الذي يؤدي إلىٰ التفاهم .

ثالث عشر : الاعتراف : الاعتراف قيمة إثباتية بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين ، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكل في نيلها من الكل ، فهي تربط الفرد بالمنزلة ، وتربط الخصوصية بالمكانة . ومع أن العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية ، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح . ولذلك فإن جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع . ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما ، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف . ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولاً من آبائهم وثانياً من الآخرين . وهٰكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به . وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكل قاعدة شذوذاً . قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (1) ، وقال

---

(1) يوسف ، 58ـ63 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [1] .

ولذا فإن الاعتراف منطق التسليم بالحقيقة ، وهو حاجة لكل إنسان علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي والمجتمعي ، ومن لم يتم الاعتراف بوجوده وبإمكاناته ، وبقضيته ، سيكافح حتىٰ النصر ، والنصر هنا تحقيق الاعتراف من قبل الآخر الذي كان يرفضه ، ولهٰذا يرىٰ كل من هيجل وفرنسيس فوكوياما في أن رغبة الإنسان في نيل الاعتراف ككائن بشري له كرامته التي زجت به في فجر التاريخ في معركة دامية من أجل المنزلة وهي المطلب الذي ينبغي أن تتم تلبيته من الآخر . السيد دائماً يود من العبد أن يعترف له بالسيادة ، وذلك باعتباره عبداً في منزلة دنيا ، وحتىٰ الذي يرتضي العبودية نتيجة الحاجة ، يود من سيده أن يعترف له بدوره المخلص في خدمته وخدمة أبنائه وحيواناته من بعده ، فالاعتراف يزيد من درجة الإخلاص والتفاعل بين أطراف الحوار حتىٰ ولو كان بين عبدٍ وسيده ، وهٰكذا كل من يجد ويجتهد يود من ذوي العلاقة والآخرين أن يعترفوا له باجتهاده ، وتفانيه في العمل والإنتاج ، وأن يعترفوا بأنه المتفوق علىٰ أقرانه الذين لم يتمكنوا من تحقيق النجاح الذي تمكن من تحقيقه ، والأب الذي أشرف علىٰ تربية أبنائه بنجاح يود من المجتمع أن يعترف له بقدراته علىٰ تحقيق هٰذا النجاح ، وأطراف الحوار هي الأخرىٰ إذا لم يعترف كل طرف إلىٰ الطرف الآخر بأنه ذو خصوصية تستوجب التقدير ، يصبح كل طرف يسعىٰ تجاه الآخر إلىٰ أن ينال منه الاعتراف بقدراته وإمكاناته واستعداداته وثقافته التي تميزه عن غيره ، وعندما يتم الاعتراف والتقدير يصبح التفاعل ميسراً عن ذي

---

(1) الحجرات ، 10 ـ 11 .

قبل بين أطراف الحوار . اعتراف الإسرائيليين بحق الفلسطينيين في إقامة دولة لهم علىٰ أرض آبائهم وأجدادهم فلسطين ، جعل الفلسطينيين هم الآخرين يبادلون الإسرائيليين نفس الاعتراف بأن لهم الحق في إقامة دولتهم علىٰ نفس التراب الذي تواجد عليه أبناء العمومة الأعداء ، وجعل الطرفين يقبلون الجلوس المعلن علىٰ موائد حوار التقسيم الجغرافي للدولتين ، وهٰذا الاعتراف جعل الآخرين يعترفون بأنه الحل ، ويدعمونه بالأساليب السياسية والاقتصادية ، التي تتأثر بين الحين والحين بمخططات السياسة الدولية .

وعليه فإن المنطق الذي يؤدي إلىٰ نشوب الحرب أو الصدام والاختلاف أو الاتحاد أو الانفصال ، هو في معظمه لأجل نيل الاعتراف . كبسولة تنشيط الجهاز التناسلي عند الرجال (ألفياجرة) التي صُنعت لتمكين الذكور من ممارسة الجنس الذي فقدوه نتيجة ضعف وعدم مقدرة ، أصبحت هٰذه الكبسولة في معظم الأحيان تؤخذ لأجل الاعتراف بالمقدرة والتفاخر بإثبات الرجولة وليس بالذكورة فقط . الاعتراف مطلب وسيظل إلىٰ أن يتم الحصول عليه بإرادة .

رابع عشر : الاعتبار : الاعتبار قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة ، كما يرتبط التاريخ بالعبر . النظر فيها لا يُغض بين الأنا والآخر ، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرِّق بين المرء وزوجه . ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها ، لا يُغيِّب أنا آخر ، ولا يسعىٰ لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدىٰ ومسؤوليات يتم تحملها .

الاعتبار مكانة تُعطىٰ لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية . فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفىٰ أبداً ، ولذا

فهي تُقدّر . والقاعدة تقول اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك .

قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠ ۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [2] .

الاعتبار هو الذي يجعل طرفي الحوار في حالة مساواة ، وأن كلاًّ منهما في حاجة للآخر ، وأنهما لن يكونا مثالاً ما لم يعملا معاً ، وأن لكليهما طاقات وإمكانات لا يمكن الاستهانة بها ، ولذا في حالة الاختلاف والفرقة قد يضر كل منهما بالآخر ، ولكي تعم المنفعة ويزول الضرر يجب أن يتم الحوار المحقق للاعتبار . ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [3] . والكلمة سواء هنا تعني كلمة الحق التي نستوي أمامها بالطاعة باعتبار المتحاورين أو المستهدفين بالحوار هم الإبراهيميون . إذاً الاعتبار أن تجعل لي مكانة عندك ونجعل لك مكانة عندي ، وأن لا يستهين بعضنا ببعض أو يسخر منه .

---

(1) هود ، 78ـ81 .

(2) الشعراء ، 105ـ111 .

(3) آل عمران ، 64 .

خامس عشر : الأخذ بما جاء به الرسول : الرُّسُل صلوات ٱلله عليهم هم الخلفاء الأوائل بالإضافة ، وهم الوارثون في الدارين ، وهم الذين وجب اتباعهم وطاعتهم من قبل المستخلفين من بعدهم . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (3) .

سادس عشر : لا يفرق بين رُسُلِهِ : الرُّسُل صلوات ٱلله عليهم جميعاً مبعوثون بقيم وقواعد الاستخلاف في الأرض ، ومن يؤمن بها كما نزلت سيكون من المستخلفين بالاختيار الإرادي . ولذلك فإن الاستخلاف في الأرض مؤسس علىٰ قاعدتين :

القاعدة الأولىٰ : استخلاف الرُّسُل : استخلافهم صلوات ٱلله وسلامه عليهم ليس بالاختيار الإرادي بل هو اصطفاء من عند ٱلله وذلك لمعطيات لا يعلمها إلا هو جل جلاله ، أي أن اشتراطات كثيرة لا تكون إلا في القلة الصالحة المؤمنة التي عبر الزمن تظهر ويتم تكليف من يكون علىٰ رأسها إصلاحاً وتقوىً نبياً أو رسولاً لله تعالىٰ . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن

(1) النساء ، 59 .

(2) الحشر ، 7 .

(3) النساء ، 64 ـ 65 .

سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [3] .

ولذلك فالمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله فمثل عيسىٰ كمثل أبينا آدم الذي اصطفاه ٱلله علىٰ من خلق ملائكة وجانّاً وعلمه الأسماء جميعها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [4] . ولهٰذا فالمسافة بين محمد وآدم هي المسافة بين آدم وعيسىٰ صلوات وسلامه عليهم ، ولذلك لا يجب أن نفرق بين

---

(1) ص ، 26 .

(2) آل عمران ، 38ـ 45 .

(3) ص ، 45ـ 49 .

(4) آل عمران ، 59 ـ 60 .

أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] .

القاعدة الثانية : استخلاف المؤمنين : ولأن الوارث خلق الإنسان في أحسن تقويم ، فهو خلقه لرسالة ، ولأنَّ له رسالة أُستخلف بها في الأرض ، ليُصلح فيها ولا يفسد ويسفك الدماء بغير حق ، ولهـٰذا فإن ٱلله أصطفىٰ الرسل صلوات ٱلله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسسة علىٰ قاعدة إصلاح الأرض التي استوجبت مخلوقاً في أحسن تقويم ، وبما أنَّه لا رسول

(1) البقرة ، 285 .

(2) البقرة ، 136 ـ 137 .

(3) آل عمران ، 84ـ 89 .

إلا برسالة ، إذاً لا استخلاف بالقوة إلا بها ، وهـٰكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلا برسالة ، ولأن رسالة محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه هي الرسالة الخاتمة ، إذاً لا خليفة إلا ويكون علىٰ الرسالة ، ولهـٰذا فمن أسلم وجهه لله كان خليفة ، ومن لم يسلم فقدْ فَقَدَ شرطاً رئيساً للاستخلاف وهو الرسالة .

وعليه بالرسالة كان استخلاف الرسل الكرام صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، وعلىٰ الرسالة الخاتمة يكون الاستخلاف . قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (2) . إذاً القاعدة مؤسسة علىٰ ما (آتاكم) والذي أوتينا به هو الرسالة المحمولة في الكتاب المحفوظ ، فمن تبعها فقد اهتدىٰ السبيل إلىٰ الاستخلاف والوراثة ومن ضلَّ ضلَّ . وفي هـٰذا الأمر قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (3) ، الأمة المشار إليها في الآيتين السابقتين هي الأمة المستخلفة برسالتها ، ولـٰكن من ضل منها فلا يعد من المستخلفين .

سابع عشر : أخذ النصيب من الدنيا : بما أننا خلقنا فيها فلابد من نصيب منها ، وإلا لماذا الاستخلاف فيها لو لم يكن لنا فيها نصيب لنأخذه ؟ . ولأن النصيب حق ، والحق يؤخذ بالعافية أو بغيرها ، إذاً لا مفر من أن يأخذ المخلوق نصيبه مما خلق ٱلله له في هـٰذه الحياة الدنيا ، وأخذ النصيب يعني

---

(1) الأنعام ، 165 .

(2) الحشر ، 7 .

(3) آل عمران ، 109 ـ 110 .

بطبيعة الحال عدم أخذ ما ليس بنصيب ، ولأن الإنسان مستخلف علىٰ قاعدة أخذ الحقوق وأداء الواجبات إذاً أخذ الحقوق هو أخذ النصيب . أما أولئك الذين يمدون أياديهم إلىٰ ما ليس لهم فيه حق ، فإن أمرهم أمر معصية للطاعة بأخذ النصيب . أي أنهم خالفوا قاعدة الاستخلاف والوراثة في الأرض التي تأسست الحياة فيها علىٰ القواعد التالية :

القاعدة الأولىٰ : الحقوق تؤخذ وتمارس .

القاعدة الثانية : الواجبات تؤدىٰ في مقابل حقوق تؤخذ .

القاعدة الثالثة : المسؤوليات تمارس في مقابل ممارسة الحقوق وأداء الواجبات .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1] .

فقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ تعني : خذ حقوقك منها ، والحقوق دائماً مكفولة لكل من خُلق حتىٰ ولو لم يكن إنساناً ، ولهٰذا جعل ٱلله لكل مخلوق نصيباً في الدنيا ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين .

والنصيب كحق بمقدار الحاجة ، من مأكل ومشرب وجنس وملبس ، وصلاحيات واختصاصات وفقاً للرسالة المشرعة لذلك ، ولهٰذا فلا تنس نصيبك من الدنيا ، ومن ينس نصيبه يعد مخالفاً لما أمر ٱلله به وهو (خذ) أي قوله لا تنس نصيبك بمعنىٰ (خذه) من الدنيا .

قال تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

---

(1) القصص ، 77 .

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (1) ، طاعة الرسول في هـٰذه الآيات الكريمة جاءت لأخذ النصيب من الفيء ، ولهـٰذا ما يؤتىٰ من الرسول ﷺ يؤخذ ، وهو الحق الذي اعتبرناه نصيباً لا ينبغي أن يُنسىٰ أو لا يؤخذ من الدنيا .

وأخذ النصيب فرض من لا يأخذه يعد تخلىٰ عن نصيب له مفروض من عند ٱلله ، وبذلك فمن الطاعة التامة أن يأخذ الوارث حقه مما وُرِّثَ فيه ، لكي يكون من المستخلفين الأخيار . قال تعالىٰ : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (2) ، فكلمتا : ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ ﴾ تعني : نصيباً مقرراً من عند ٱلله ، ولأنه الحق المقرر من الحق المطلق جل جلاله ، إذاً أداؤه وأخذه فرض لا ينبغي الإغفال عنه ، ومن تركه ترك فرضاً .

ولأن ٱلله تعالىٰ خلقنا في أحسن تقويم ، وهو يريدنا أن نكون المستخلفين في الأرض والوارثين فيها وفي الجنة ، فهو بهـٰذا المعنىٰ لا يود أن تكون حياتنا مقصورة علىٰ الحياة الدنيا ، فجعلنا الوارثين في الدارين ، ولذا فلا ينبغي أن يقبل الإنسان الذي خلقه ٱلله في أحسن تقويم بالحياة الدنيا فقط ، وإن قبل بذلك فلا يكون من الوارثين في الجنة ، ولهـٰذا اعمل لأخرتك كأنك تموت غداً وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وعليه قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (3) . ولأنه لا جنة إلا بعد الحياة الدنيا ، وأن الحياة الدنيا فانية ، والحياة الآخرة هي الحياة الحيوان ، وأنه لا دخول للجنة إلا برسالة أو علىٰ

(1) الحشر ، 7 .

(2) النساء ، 7 .

(3) الشورىٰ ، 20 .

رسالة وعمل صالح في الحياة الدنيا ، لذا فلا يجب أن تنسىٰ نصيبك من الدنيا ، لتكون من الوارثين في الجنة ، ومن نسي نصيبه منها فلن يكون له في الجنة من نصيب .

ثامن عشر : الفوز بالجنة : الفوز بالجنة مشروط بالقول اللين الذي يُصلح ما بين المرء وزوجه ، وبه يعدل بين المحتكمين بالحق ، ولا يشهد به شهادة زوراً ، ولا يلوك كذباً بين الشفتين ، ولا ينطق كفراً وشركاً وبهتاناً ذلك الحق من ربك ، وإلىٰ جانب القول الحق ، الفعل الحق فلا يسرق ولا يزني ولا يأكل أموال الناس بالباطل ، ولا يسفك في الأرض دماً بغير حق ، ولا يخمر مع الخمارين ، ولا يأكل ما حرم ، وأن يصلي لله تعالىٰ واحداً أحداً لا شريك له ، وأن يكون مؤمناً بمن أرسل وبما أنزل .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ

(1) البقرة ، 82 .

(2) آل عمران ، 185 .

(3) النساء ، 124 .

(4) الأعراف ، 43 .

يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [1] .

اللهُمَّ يا الوارث اجعلنا من الوارثين المستخلفين الفائزين في الدارين ولا تجعلنا من المحرومين والمغضوب عليهم ولا تجعلنا من المعذبين ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين ملكوا الشهادة لك بالوحدانية وهم طائعون لما جاء به رسولك الكريم وبه مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاتحين كل سبيل من أجل السلام ، اللهُمَّ يا الوارث اجعلنا من العالمين ولا تجعل أبناءنا من الجاهلين ، اللهُمَّ اجعلهم وارثين للحُجَّة التي بها يحق الحق ويزهق الباطل ، ومالكين للحكمة التي بها تصلح أحوالهم وفيها ما يحقق لهم طموحاتهم وآمالهم في طاعتك لا في معصيتك ، اللهُمَّ اجعلهم الوارثين للعلم الذي ينفع والعمل الذي يرفع والقلب الذي يخشع والعين التي تدمع والدعوة التي يستجاب لها والحُجَّة التي يُنْساقُ إليها ، اللهُمَّ أورثنا من ميراث النبوة العلم والنور وشفاء الصدور ، واجعلنا في الآخرة من ورثة جنة النعيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً ، وصلىٰ ٱلله وسلم علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

---

(1) الأعراف ، 44 ـ 51 .

الرَّشِيدُ جلَّ جلاله

الرشيد : يُرشِد ولا يُرشَد ، والرشيد هو الكامل الذي لا يلحقه النقص ، وغيره علىٰ النواقص ما جعل الحاجة تحفهم من كل زاوية وجانب ، ولهٰذا من يكون في حاجة فهو منقوص فيحتاج لمن يرشده إلىٰ ما يهديه للحق واتباعه . وعليه فمن اهتدىٰ بما أرشد إليه أصبح مرشداً لغيره بالحق للحق .

الرشيد : « ٱلله تعالىٰ أرشد الخلق كلهم إلىٰ مصالحهم وأرشد أولياءه خاصة إلىٰ الجنة وطرق الثواب » [1] .

الرشيد : هو الذي تنساق تدبيراته إلىٰ غاياتها علىٰ سنن السداد من غير إشارة مشير وتسديد مسدد وإرشاد مرشد وهو ٱلله سبحانه وتعالىٰ ورشد كل عبد بقدر هدايته في تدابيره إلىٰ ما يشاكل الصواب من مقاصده ودينه ودنياه [2] .

الرشيد : هو فعيل في معنىٰ مفعل وٱلله تعالىٰ أرشد الخلق كلهم إلىٰ مصالحهم وأرشد أولياءه خاصة إلىٰ الجنة وطرق الثواب فهو الرشيد [3] .

---

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 65 .

(2) الغزالي ، المقصد الأسنىٰ ص 149

(3) الزجاج ، تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ص 65 .

الرشيد : « المصيب الحقّ ، لا من هداه غيره ، فإن الهداية بيده »[1] .

وفي النونية :

وهــو الــرشيــد فقــولــه وفعــالــه رشــد وربــك مــرشــد الحيــران
وكــلاهمــا حــق فهٰــذا وصفــه والفعــل لــلإرشــاد ذاك الثــانــي[2]

الرشيد اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ وهو يدل علىٰ مطلق الكمال والحكمة والهدىٰ ، والرشيد معناه بالغ الرشاد ومنتهاه في التدبير والتوجيه إلىٰ الصواب والحق والسداد ، فمن القواعد الجلية والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين الدال والمدلول حتىٰ يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل علىٰ وجود المدلول ، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق علىٰ وجود الخالق كما بينا ذلك في مواضع كثيرة ، فلما ثبتت أدلة الخلق علىٰ أن لها خالقاً فهو دليل علىٰ أن الخلق لم يتركوا هملاً ، وإنما كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعايش توجهوا إليها خدمة لحاجاتهم كل حسب طبيعة خلقه بالإرشاد من الرشيد جل جلاله فقد جاء في لسان العرب من أَسماء ٱلله تعالىٰ : « الرشيدُ هو الذي أَرْشَد الخلق إِلىٰ مصالحهم أَي هداهم ودلهم عليها ، وهو الذي تنساق تدبيراته إِلىٰ غاياتها علىٰ سبيل السداد من غير إِشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد ، والرُّشْد والرَّشَد والرَّشاد نقيض الغيّ »[3] ، فهو عز وجل أرشد الخلق إلىٰ مصالحهم وفق تدبيراته ، ولا يخرج الخلق مما نعلم عن أنواع ستة :

1 ـ الإنسان .

---

(1) تفسير الطبري ، ج 17 ، ص 559 .

(2) القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، ج 2 ، ص 17 .

(3) لسان العرب ، ج 3 ، ص 175 .

2 ـ الملائكة .

3 ـ الجن .

4 ـ الحيوان على اختلاف أنواعه من الطير والمواشي والزواحف والسوابح .

5 ـ النبات من العشب والشجر والجذور .

6 ـ الجمادات من الصلب والسائل والغازات .

وهٰذا يعني أنه إرشاد فطري من ٱلله تعالىٰ لخلقه إلىٰ مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم وحاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم ودنياهم علىٰ مستوىٰ الخلق العاقل ، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزَّاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة صيفاً وشتاء وهو نوع من البرمجة وليس وحياً عن طريق الملائكة التي تبلغ الرسل ، إما بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هٰذا النوع من الخلق خدمة لخلق آخر ، وإما بالطاعة كما هو حال السمٰوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جلَّ شأنه ، حيث نتبين صفة الرشيد من خلال ما أرشدت إليه هٰذه المخلوقات علىٰ اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من اتباعها للرشاد .

ٱلله سبحانه وتعالىٰ رشيد في أفعاله ورشيد في صفاته وأسمائه الحسنىٰ فهو رشيد بقربه وبعده وظهوره وبطونه وتقديمه وتأخيره ، ورشيد بكونه حياً وقيوماً ، فهو رشيد في تأخيره الجزاء من الثواب والعقاب وإن كان الخلق يرونه بعيداً فهو بالنسبة إلىٰ رؤية ٱلله قريب وقد يكون بالنسبة إلينا بعيداً مثل قوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ (1) وهو الرشيد الحيّ لنفسه لتحقيق ما نسب إليه مما لا يتصف به إلا من شرطه أن يكون حياً قيوماً حيث قال

(1) المعارج ، 6 ـ 7 .

تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [1] لقيامه علىٰ كل حال نفس بما آتاها من رشاد ، وهو الواجد لما طلب فلحق ، فلا يفوته هارب كما لا يلحقه في الحقيقة طالب ، معرفته الواحد من حيث ألوهيته فلا إلـٰه إلا هو الصمد حيث قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [2] الذي يُلجأ إليه في الأمور ولهـٰذا اتخذناه وكيلاً ، والتوكل عليه هو طريق الرشاد ، وهو القادر النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار حيث قال تعالىٰ : ﴿ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [3] فإن الاقتدار لله فهو تعالىٰ قادر بنفسه ولهـٰذه القدرة نطلب منه الرشاد ، وهو المقدم المؤخر برشده من شاء لما شاء ومن شاء عما شاء ، وهو الأوّل الآخر بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه ، والظاهر الباطن لنفسه ، ظهر فما زال ظاهراً أو عن خلقه بطن فما يزال باطناً ، ولذلك يطلب منه الرشد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، وهو البر أبداً بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها علىٰ عباده ؛ لأنه رشيد ، وهو التوّاب لرجوعه علىٰ عباده ليتوبوا ورجوعه بالجزاء علىٰ توبتهم ليرشدهم لما فيه خير دينهم ودنياهم ، وهو المنتقم ممن عصاه تطهيراً له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود ليعفو عنه في الآخرة فهو الحليم الرشيد ، فهـٰذه الآلام كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل أحد حتىٰ إيلام الرضيع جزاء العفو لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات علىٰ اختلافها لا بد أن يدخلها القلة والكثرة فلا بد أن يعمها

---

(1) البقرة ، 255 .

(2) الإخلاص ، 1 ـ 2 .

(3) البقرة ، 148 .

العفو فإنه لا بد من الأضداد كالجليل والرؤوف بما ظهر في العباد من الصلاح والرشاد ، وهو المقسط بما أعطىٰ بحكم التقسيط حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [(1)] وهو التقسيط الجامع بوجوده لكل موجود فيه وهـٰذا التنزيل بالقدر المعلوم هو إصلاح وإرشاد للخلق ، وهو الغنيّ عن العالمين والمغني لهم ، من أعطاه صفة الغنىٰ بأن أوقفه علىٰ أن علمه بالعالم تابع للمعلوم فما أعطاه من نفسه شيئاً فاستغنىٰ عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلا ما كان عليه لرشده ، وهو البديع الذي لم يزل في خلقه علىٰ الدوام بديعاً ؛ لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ولا بد من وجه به يتميز المثل عن مثله ، ولا يتميز إلا بالإرشاد ، وهو الضار النافع بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه بما أرشد كل مخلوق إليه ، وهو النور الذي يرشد من الظلمات لما فيه خير الخلق ومصالحهم ، وهو الهادي بما أبانه للعلماء به مما هو الأمر عليه في نفسه ليستبينوا سبل الرشاد ، وهو المانع لإمكان إرسال ما أمسكه وما وقع الإمساك إلا لحكمة ورشاد اقتضاه علمه في خلقه ، وهو الباقي حيث لا يقبل الزوال كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها فله دوام الوجود ودوام الإيجاد ، والوارث لما خلفناه عند انتقالنا إلىٰ البرزخ خاصة ، وهو الرشيد بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالىٰ علىٰ صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة فما من أحد إلا هو علىٰ ذلك الصراط والاستقامة مآلها إلىٰ الرحمة فما أنعم ٱلله علىٰ عباده بنعمة أعظم من كونه آخذ بناصية كل دابة ، وهو الصبور برشده علىٰ ما أوذي به حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [(2)] فما عجل لهم في

(1) الحجر ، 21 .

(2) الأحزاب ، 57 .

العقوبة مع اقتداره علىٰ ذلك وإنما أخر ذلك ليكون منه ما يكون دلالة علىٰ أنه رشيد لجميع أنواع خلقه [1] .

وهـٰذا الخلق الذي ينقسم إلىٰ هـٰذه الأنواع سوف نحاول أن نفصل القول في كل واحد منهم في إرشاد الرشيد له وفق مشيئة ٱلله تعالىٰ وإرادته التي أرادها لخلقه بحكمته واحداً بعد الآخر ، إرشاد الإنسان ومن شاركه بصفاته أو بعضها من الجن والملائكة بصرف النظر عمن أطاع أو عصىٰ ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ أرشد وأمر بالرشد كونه رشيداً ، فمن اتبع سبيل الرشاد الذي بينه ٱلله لخلقه فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ ، وأما من أبىٰ فلا يلومنّ إلا نفسه ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ خلق آدم عليه الصلاة والسلام بيده وأسكنه الجنة مع زوجه وأرشده لما فيه خيره وصلاحه وصلاح ذريته حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [2] لقد أرشد ٱلله آدم عليه الصلاة والسلام وزوجه إلىٰ العيش في جنة النعيم بأن اسكنه هو وزوجه جنة الخلد يأكلان منها ما يشاءان أكلاً هنيئاً وافراً من أي مكان ومن أي ثمر يريدانه ، ولـٰكن ٱلله ذكر لهما شجرة معينة وحذرهما الأكل منها وقال لهما : لا تدنوا من هـٰذه الشجرة ولا تأكلا منها ، وإلا كنتما من الظالمين العاصين ، وإذا فعلا ما نهاهما عنه كانا بعيدين عن الرشاد ، لقد نهىٰ ٱلله تعالىٰ آدم عليه الصلاة والسلام عن تلك الشجرة وهو نهي إرشاد وتوجيه كانت فيه مصلحة لآدم وزوجه حتىٰ لا تبدو لهما سوءاتهما وهـٰذا إرشاد إلىٰ الستر ، والنهي يكون عادة ما يتوجه إلىٰ أكثر من اتجاه ، فمنه ما يكون نهي تأديب ، ومنه ما يكون نهي تحريم ، وقد جمع هـٰذا النهي الجانبين معاً ، ولم نجد شيئاً قد نهي عنه إلا بحق ، وذلك أن ضرره راجع إلىٰ بعده عن سبيل الرشاد فإن

---

(1) طرق حديث الأسماء الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 108 .

(2) البقرة ، 35 .

سبيل الرشاد مستقيم إلىٰ ٱلله تعالىٰ لذلك فإن ٱلله تبارك وتعالىٰ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلىٰ الرشاد حيث قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (1) ومن زاغ فإنما يزيغ عن طريق الهدىٰ وسبل الرشاد الذي أمر به ٱلله تعالىٰ ، فالاستقامة تقرب العبيد إلىٰ ٱلله والطاعة تجعله رشيداً ، وأن ٱلله تبارك وتعالىٰ دعا آدم إلىٰ دار الخلود وأعلمه طريق الرشاد ، لذلك فقد بين الرشيد جل شأنه لآدم عليه الصلاة والسلام طريق الرشد بأسلوب المنع والنهي لما فيه من خير له ولزوجه ، فوجدنا النهي علىٰ ضربين : منه نهي تأديب ، ومنه نهي تحريم ، فمن ترك الأدب انحط عن درجته ، ومن وثب علىٰ التحريم سقط في التهلكة ، ورحمة من ٱلله الرشيد فقد أرشد آدم عليه الصلاة والسلام مرة أخرىٰ ليتوب عليه حيث قال تعالىٰ : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، وهٰذه التوبة أصلها الرجوع إلىٰ الرشد بعد أن علم وعرف ضرر الذنب الذي أبعده عن الرشاد الذي يكمن فيه الخير له ولذريته ، لذلك استشعر الندم بفوات ذلك النعيم الذي كان فيه ، وما من طريق إلىٰ النجاة إلا الترك والتدارك والعزم علىٰ عدم العودة إلىٰ المعصية بأن يسلك طريق الرشاد الذي أمر به الرشيد جلَّ شأنه وطريق تحصيل الرشد وتكميله إنما هو بترك المعاصي لما فيها من ضرر الابتعاد عن الرشاد ، لذلك كانت التوبة رجاء العفو عن الذنب والمغفرة ابتغاء العود إلىٰ السبيل الذي أمر به الرشيد الحكيم ، فقد عرَّف ٱلله تعالىٰ حقيقة التوبة لآدم عليه الصلاة والسلام بأنه ابتعد عن طريق الرشاد ، فلا بد أن يعرف ماهية التوبة ويتمكن بفعلها من تدارك ما بدر منه ، وذلك بأن نبهه علىٰ المعصية الواقعة منه علىٰ وجه صار آدم عليه الصلاة والسلام عند ذلك من التائبين

---

(1) يوسف ، 108 .

(2) البقرة ، 37 .

المنيبين العائدين إلىٰ الرشد ، وأنه تعالىٰ عرفه وجوب التوبة وكونها مقبولة لا محالة علىٰ معنىٰ أن من أذنب ذنباً صغيراً أو كبيراً ثم ندم علىٰ ما صنع وعزم علىٰ أن لا يعود فإنه قد أخذ بنصيبه من رشاد الرشيد الذي يهدي إلىٰ صراط مستقيم ، وأحس آدم عليه الصلاة والسلام هو وزوجه بخطئه وظلمه لنفسه ولزوجه وندم علىٰ الابتعاد عن الرشد ، فألهم ٱلله تعالىٰ آدم كلمات يقولها للتوبة والاستغفار ، فتقبَّل ٱلله منه وغفر له ، فحين تلقىٰ آدم عليه الصلاة والسلام الكلمات من ٱلله الرشيد استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها فكان بذلك من الراشدين ، وهنا يجدر بنا القول أن آدم عليه الصلاة والسلام هو أول خليفة يستخلفه ٱلله تعالىٰ في الأرض فقد جعل رشاده وإرشاده سنة للخلفاء من بعده ، فالخليفة رشيد بالإضافة في قوله وعلمه وعمله ، أما في قوله فإنه لا يتكلم إلا بالحكمة والموعظة الحسنة التي تهدي إلىٰ الرشد وطريق الخير والسداد وسبل الهدىٰ والرشاد ، وأما في علمه فإنه أوتي من العلم الرشيد ما لم يؤتَ غيره مثله وذلك لنقاء قلبه وصفاء ذهنه وطيب سريرته فقد جعل ٱلله تعالىٰ القلوب كالآنية ، فالقلوب آنية اللّه في أرضه فأحبها إليه أرقّها وأصلبها وأصفاها ، فقلب الخليفة أضاء بالرشد من الإيمان ذلك أن مصباح نور الإيمان في قلبه ، كالشجرة المباركة ، وهي شجرة الوحي والإلهام المتضمنة للهدىٰ ودين الحق ، وهي مادة المصباح التي يتقد منها ، والنور علىٰ النور نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح ، ونور الوحي والكتاب ، فينضاف أحد النورين إلىٰ الآخر ، فيزداد الخليفة نوراً علىٰ نور ، ولهـٰذا يكاد ينطق بالحق والحكمة والرشد قبل أن يسأل ، ثم يبلغه بمثل ما وقع في قلبه وينطق به ، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي ، فيريه عقله وفطرته وذوقه طريق الرشاد وسبيل الهدىٰ الذي أمر بهما الرشيد ، فهما يتصادقان ويتوافقان في قلبه ، فهـٰذه علامة النور علىٰ النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون فهي في صدره كما قال تعالىٰ : ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ

يَـدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (1) ، فهنا نتبين من هٰذه الآيات الاختلاف والفروق بين الرشاد والغي ، حيث اشتملت عليه أكمل اشتمال ، فإن الناس قسمان : أهل الهدىٰ والبصائر الذين عرفوا أن الرشد أمر به الرشيد جلَّ شأنه وبعث به أنبياءه ورسله ومن هٰؤلاء يكون الخليفة ، وأن كل ما عارضه فشبهات تشتبه علىٰ من قل نصيبه من العقل والعلم فيظن أنه حصل له شيء ينتفع به ، فهو كما قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (2) ، فلا هم في علمهم إلا من أهل الخوض الذين هم في غمرة ساهون ، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم فلذلك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون حيث أضاء لهم نور الرشد المبين ، فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون ، وفي ضلالتهم يتمتعون ، وفي ريبهم يترددون ، مغترين بظاهر السراب ، بعيدين عمّا بعث ٱلله تعالىٰ به أنبياءه ورسله من الحكمة وفصل الخطاب الذي يهدي إلىٰ الرشاد ، فتركوا ما أمر به الرشيد جلَّ شأنه واتبعوا الغي والضلال ورضوا به واطمأنوا إليه وقدموه علىٰ الرشد الذي يكمن فيه الخير والفوز بالدنيا والآخرة ، لأن في صدورهم كبراً أوجبه لهم اتباع الهوىٰ واسترسالهم في غيّهم يعمهون . وأما الخليفة وأهل الهدىٰ ودين الحق ، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح والطريق الرشيد والسبيل السديد ، الذين صدقوا ٱلله في ما أرشدهم إليه ، ولم يعارضوا الرشد والهدىٰ بالشبهات ، وأطاعوه في أوامره ، ولم يضيعوها بالشهوات ، وكانوا صادقين

---

(1) النور ، 40 .

(2) النور ، 39 ـ 40 .

في رشدهم وإرشادهم لذلك خصهم ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [1] وهٰذا لصدق رشادهم بما علموا ، وأما عمل الخليفة فيكون خالصاً لوجه ٱلله تعالىٰ ، داعيا إلىٰ سبيله ، فيكون بذلك من العمل الصالح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ، بنور الإيمان الصادق الذي يقذفه ٱلله في قلب الخليفة ، مع العمل الصالح الذي أرشد إليه وبما يحمل من العلم النافع ، فكلما اتسع العلم انشرح الصدر واتسع ، فالخليفة يبذل ما بيديه من العلم النافع الدال علىٰ العمل الصالح ولا يكتم منه شيئاً ؛ لأنه من الراشدين ، فهو يسدي الإحسان إلىٰ الخلق بأنواع الإحسان والنفع لهم بما يمكن لهم رشدهم ؛ لأنه رشيد ، وهو برشده أشرح الناس صدراً ، وأطيبهم نفساً ، وأنعمهم قلباً لما تمتع به من اليقين في رشده الذي اهتدىٰ به إلىٰ الحق ودعا بهٰذا الرشد إليه .

وأما سبب ابتعاد بعض الخلق عن الرشد والفضيلة فلا يخلو من أمور هي : إما أن تكون نقصاً في أصل أخلاقه وعجزاً مركباً في طبعه يتقاعس به عن تحصيل القوة وجمع الإرادة التي يتوصل بها إلىٰ الرشد كالذي تضعف عزيمته أمام الشهوات فيترك الفضيلة ويتبع الرذيلة وبهٰذا يكون قد عمد إلىٰ مخالفة سنة ٱلله في خلقه ، فإذا رأىٰ طريق الرشد لا يتخذه سبيلاً وإن رأىٰ طريق الغي يتخذه سبيلاً ، وإما أنه يؤجل طلب الرشد وهو يدرك حقيقته ولٰكن لانشغاله بأمور يظن أنه بعد فراغه سيسعىٰ إلىٰ الرشاد فلا يجد هادياً يرشده ، فيدركه الأجل ويكون من الهالكين ، وإما أن يكون مصاباً بعقله فلا يميز بين الغي والرشاد فذاك مرفوع عنه القلم ، وإما أنه غير عاجز عن ذلك فعلم الرشد وسعىٰ إليه وانعقدت نيته علىٰ ذلك فلم يمهله عمره من ساعته فقد وقع أجره علىٰ ٱلله

---

(1) المائدة ، 119 .

لما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) حيث أن الهجرة إلىٰ ٱلله ورسوله هي اتباع طريق الرشاد ، وإما أن يتفق له مربٍ ومعلمٌ مضل فيضله عن الطريق ، فقد غوىٰ وما رشد ، وإما أن يكون ترك الرشد واتبع الغي والضلال من جهة نفسه لا من جهة شيء مما ذكرنا وذلك هو المتوعد بالعذاب ، فمن أزاح ٱلله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريق الرشاد ، يكون كمن وصفه ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ (2) ، وأكثر من ذلك ضلالاً وغياً من وعىٰ الرشد وعرف الحق وعلم السبيل وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعاً فيكون قد استبدل الرشد بالغي والهدىٰ بالضلال فما له من رشيد . وأحوال الخلق ومراتبهم في الإقبال علىٰ الرشاد والابتعاد عنه إنما يكون علىٰ أنواع أيضاً فمنهم من له المعرفة بما يجب أن يفعل ليسلك طريق الرشاد وله مع ذلك قوة العزيمة علىٰ العمل به ، ومنهم من له المعرفة في طريق الرشد وليس له قوة العزيمة علىٰ اتباعه ، فهو في مرتبة الجاهل بل هو شر منه ، لأن العلم يكون شرّاً من الجهل عندما يعلم العالم ولا يعمل بما يعلم ، ومنهم من ليس له المعرفة والعلم لـٰكن له قوة العزيمة ، فهـٰذا متىٰ انقاد لأهل العلم والمعرفة وعمل بقولهم أصبح من الراشدين ، ومن الناس من يقول لا نستطيع أن نميز بين الرشد والغي وإذا عرض لنا أمران لا ندري في أيهما الرشاد ، فلينظر أيهما أقرب إلىٰ هوىٰ نفسه فليخالفه ، لأن الرشد في مخالفة الهوىٰ والصبر علىٰ المكاره ، وليس لمن قل صبره عن الهوىٰ حظ من بر ولا نصيب من رشاد ، ومن لم ير لنفسه صبراً يكسبها الهدىٰ ، ويدفع عنها الغي ، كان

---

(1) النساء ، 100 .

(2) طه ، 56 .

ذلك من سوء اختياره ، وبعيداً من الرشاد حقيقاً بالضلال . ولذلك فإن التفهم في الخير زيادة ورشد ، وإن الرشيد من رشد عن الغي ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب ، أو كاد أن يكون مصيباً ، وإن المعجل مخطئ ، أو كاد أن يكون مخطئاً ، وإنه من لا ينفعه عقله في الدلالة علىٰ الرشد كمن لا عقل له ، فالرشيد من يختص بإصابة المقصود من الخير الذي يكون له ذخراً الدارين في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فالرشيد أيضاً يجب أن يكون راشداً ومرشداً ، أي راشداً في قوله وعلمه وعمله ، ومرشداً إلىٰ القول والعلم والعمل ، لأن ٱلله الرشيد أضفىٰ عليه من هـٰذه الصفة فوجب عليه أن يكون راشداً ومرشداً ، لذلك كان الخليفة رشيداً بالإضافة ؛ لأنه لم يحتفظ بهـٰذا الرشد لنفسه وإنما استخدمه في إرشاد الآخرين إلىٰ طرق الهدىٰ ومنابع الخير والفوز العظيم في إرشاد الرشيد من الخلق للخلق كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [1] فهنا الإرشاد إلىٰ تجارة عظيمة تنجي من اتبع الرشد من عذاب شديد الألم ، وهـٰذه التجارة هي أن تثبتوا علىٰ الإيمان بٱلله ورسوله ، وتُجاهدوا في سبيل ٱلله بأموالكم وأنفسكم ذلك الذي يرشدكم إليه خير لكم إن كنتم تعلمون ، وهـٰذا الإرشاد له ثمن وهو أن تؤمنوا وتجاهدوا في سبيل ٱلله كي يغفر لكم ذنوبكم ، ويُدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، وذلك نتيجة الرشاد وهو الفوز العظيم ، وعلىٰ هـٰذا فالخليفة هو أحق الناس بالدعوة إلىٰ الرشاد ؛ لأنه رشيد فيعلم مكامن الرشد ونتائجه وثوابه وأجره ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ رشيد بأن أرشد الخلق إلىٰ طرق الهدىٰ والصلاح فأرسل أنبياءه مرشدين ، فهم مبشرون

---

(1) الصف ، 10 ـ 12 .

بجنة عرضها السمٰوات والأرض ومنذرون بنار جهنم التي أعدت لمن حاد عن طريق الرشاد الذي أمر به ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وما من نبي إلا أرشده الرشيد جل شأنه بحكمته إلىٰ طريق الهدىٰ والصلاح والتقىٰ ليكون ذلك سبباً لخير الخلق ومدعاة للنجاة ورحمة لهم ورأفة بهم حيث قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) فيؤتيه رشده ليرشد الخلق لما فيه خيرهم وصلاحهم لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ حرم الظلم علىٰ نفسه وحرمه بين عباده لذلك كان حقيقاً علىٰ ٱلله تعالىٰ أن يكون رشيداً ومرشداً وراشداً ؛ لأنه نفىٰ الظلم عن نفسه جلَّ جلاله فآتىٰ الرشد لخلقه ليكون حجة علىٰ من ترك الرشاد واتبع سبيل الغي والضلال وكان من الذين قال فيهم جل شأنه : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (2) فٱلله تعالىٰ منع الرشد عن هٰؤلاء وصرفهم من التفكير في دلائل قدرته القائمة في الأنفس والأفاق ، أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب بغير وجه حق ، فإن رأوا آيات ٱلله التي تدل علىٰ صدق المرسلين الراشدين أعرضوا عنها كبراً وطغياناً وكفراً ، لذلك فإن شاهدوا طريق الهدىٰ وسبل الرشاد لا يسلكوه ، وإن شاهدوا طريق الغي والضلال سلكوه واتخذوه سبيلاً لهم مبتعدين عن الرشد الذي أمر به الرشيد الحكيم . وٱلله سبحانه مع كونه رشيداً فهو يمنع الرشد أيضاً عن أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبّرون عن قبول الصواب بغير الحق مخالفين الفطرة السليمة التي فطر ٱلله تعالىٰ عليها خلقه لذلك استحقوا طريق الضلال ؛ لأنهم صدوا عن الرشاد وغفلوا عن الاهتداء به .

(1) آل عمران ، 108 .

(2) الأعراف ، 146 .

والرشد هو نقيض الضلال ، وهو الذي يصيب وجه الأَمر والطريق الصحيح والسبيل الواضح الذي ليس فيه غيٌّ ولا عوج بحيث يرشد إلىٰ الجادة الواضحة وطريق النجاة في الدين والدنيا مما يترتب عليه الصلاح والهداية للذي يأخذ في طريق الرشد وسبيله فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ »[1] وإنما جاء الأمر في التفضيل باتباع الخلفاء لما هم عليه من الرشد الذي اتبعوا به هدىٰ ٱلله تعالىٰ وهدىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهو معقول تأكيد النبوة وتأكيد الرسالة الراشدة من الحكيم الرشيد بأن الذي جاء من ٱلله تعالىٰ هو الصراط الحميد الذي يهدي إلىٰ الرشد ، فكانت النبوة مخالفة للملك حيث جاءت الخلافة علىٰ غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم ، وقد أجمعت الأمة علىٰ ذلك ، ومعنىٰ هـٰذا هو إخراج الخلق من المألوف ورفع سكونهم عن المعهود ، بأن سنّ ٱلله لهم الرشد في اتباع الخليفة لما تمتع به من صفة الرشيد بالإضافة فكان رشيداً ومرشداً .

لقد بعث ٱلله أنبياءه بالهدىٰ والرشاد وأضفىٰ عليهم من الرشد ما يمكنهم من إرشاد خلقه إلىٰ ما أمر به ٱلله تعالىٰ من الخير والبر والنفع الذي فيه رشدهم ونجاتهم من الشر والغي والضلال فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾[2] لقد أرسل ٱلله تعالىٰ نوحاً إلىٰ قومه وجعله رشيداً مرشداً فقال

---

(1) مشكل الآثار للطحاوي ، 3 ، 183 .

(2) هود ، 25 ـ 28 .

لهم : إني محذركم من عذاب ٱلله ، ومبين لكم طريق النجاة والرشاد الذي أمر به الرشيد الحكيم لما فيه من صلاح وهدىٰ فجاءهم يوم عيد لهم وكانوا يعبدون الأصنام ويشربون الخمور ويواقعون النساء كالبهائم من غير ستر فناداهم ودعاهم إلىٰ الرشد ففزعوا من صوت الحق ثم استمروا في غيّهم بعيدين كل البعد عن طريق الهدىٰ وسبيل الرشاد ، ثم نسبوا نوحاً عليه الصلاة والسلام إلىٰ الجنون وكذبوه ، ولكونه رشيداً فقد احتمل كل أنواع الأذىٰ من قومه ذلك أن الرشيد حليم وحكيم وصبور وشكور لذلك لم يطلب منهم إلا أن يتبعوا الرشد الذي أرسل به ، وأول الرشد هو التسليم بالوحدانية لله تعالىٰ وذلك لخوفه عليهم وحرصاً منه علىٰ نجاتهم ، ولأنه رشيد فقد بذل كل جهده في دعوتهم وأفنىٰ عمره في نصحهم وإرشادهم مخافة أن يحل عليهم ما هو أعلم به منهم ، ألا وهو عذاب أليم في الدنيا وخلود في نار جهنم في الآخرة ، ولقد اتضحت صفة الرشيد في نوح عليه الصلاة والسلام بما كان يصدر من قومه من سفاهة وابتعاد عن طريق الرشاد ، فعلىٰ الرغم من نبوته كانوا يقولون : ما نرىٰ إلا أنك بشر مثلنا ، فليس فيك ما يجعل لك ميزة خاصة ، وفضلاً يحملنا علىٰ الإيمان بأنك رسول من عند ٱلله ، وما نرىٰ الذين اتبعوك من بيننا إلا الطبقة الدنيا منا ، وما نرىٰ لكم من فضل علينا ، بل إنا نعتقد أنكم كاذبون فيما تزعمون ، فنوح عليه الصلاة والسلام مكث في قومه ألف عام إلا خمسين وهو يدعوهم إلىٰ الحق وسبل الخير ، فأية حكمة وأي رشد وأي هدىً هـٰذا الذي آتاه ٱلله حتىٰ صبر كل هـٰذا الصبر علىٰ السفيه والمتكبر وأراذل الناس ممن كانوا يستهزؤن ويسخرون مما كان يدعوهم إليه ، فلولا الحكمة البالغة التي أيده بها الحكيم ، والحلم العظيم الذي امتن عليه به الحليم العليم ، والهدىٰ الذي هداه إليه الهادي الكريم ، والرشد الذي منحه إياه الرشيد جل شأنه وعزت قدرته ، لما كان رشيداً ومرشداً لقوم لا يفقهون ، فهو لا يريد منهم جزاء ولا شكوراً إلا اتباع سبيل الهدىٰ والرشاد وما يطلب علىٰ ذلك من أجر إلا من الرشيد الذي أوكله بإرشاد قومه حيث قال تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ

مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (1) ويا قوم ، فهو لا يطلب علىٰ تبليغ رسالة ربه من أجل إرشادهم مالاً ولا أجراً ، وإنما يطلب جزاءه من ٱلله ، وما هو بطارد الذين آمنوا بربهم عن مجلسه ومعاشرته ؛ لأنهم أرشدوا إلىٰ الحق ولأنهم سيلاقون ربهم يوم القيامة ، فيشكونه إليه إن طردتهم لفقرهم أو أبعدهم عن سبيل الرشاد ، غير أن قومه يجهلون ما يصح أن يتفاضل به الخلق عند ٱلله بين من هو راشد إلىٰ الحق وبين من هم في الغي والضلال يعمهون ، فمن لم يأت إلىٰ طريق الرشاد وسبيل الخير لا أحد يستطيع منع عقاب ٱلله عنه ، فهو لأنه رشيد ولأنه رسول ، فلا يقول عنده خزائن رزق ٱلله يتصرف فيها كما يشاء ، فيجعل من يتبعنه غنياً ولا يقول إنه يعلم الغيب ، فيخبرهم بما اختص به علم ٱلله ، بحيث لا يعلمه أحد من العباد ، وكذلك فهو ليس ملكاً رداً علىٰ قولهم : ما ذاك إلا بشر ، ولا يقول عن الذين يحتقرونهم إن ٱلله لن يؤتيهم خيراً إرضاء لرغبات الذين أبوا إلا الضلال والغي والابتعاد عن الرشد ، لأن ٱلله وحده هو الذي يعلم ما في أنفسهم من إخلاص ، فإنه إن قال لمن اتبعه ما يحب أصحاب الغي والضلال

(1) هود ، 29ـ37 .

خرج من الرشد إلىٰ غيره من الصفات التي لا تليق بمن أرشده ٱلله وجعله رشيداً في نفسه ومرشداً لغيره ، فهـٰذه صفة الظالمين لأنفسهم ولغيرهم ، فالمبتعد عن الرشد لا يرىٰ نور الهدىٰ مهما تحاول معه من النصح والإرشاد ، فهم لا يرون الدعوة إلىٰ الرشاد إلا جدلاً لا طائل من ورائه ، لذلك ضاقوا ذرعاً بهـٰذه الدعوة حتىٰ ملّوا منها ولم يعودوا يحتملون إرشاد الرشيد لهم وما كان منهم إلا أن قالوا ، فأتنا بهـٰذا العذاب الذي تهددنا به ، إن كنت صادقاً في أن ٱلله سيعذبنا إذا لم نؤمن لك . غير أن نوحاً عليه الصلاة والسلام كونه رشيداً وهادياً وحكيماً أجابهم بأن هـٰذا الأمر بيد ٱلله وحده ، فهو الذي يأتيكم بما يشاء حسب حكمته ، ولستم بمفلتين من عذابه إذا جاء ؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولأن ٱلله الرشيد يرشد من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ (1) فلم ينفعهم نصحه لمجرد إرادته الخير لهم ، إن كان ٱلله يريد أن يضلوا لعلمه وتقديره فساد قلوبهم حتىٰ صارت لا تقبل الرشد ، وهو سبحانه ربهم ، سيرجعكم إليه يوم القيامة ، ويجازيهم علىٰ ما كانوا يعملونه ، ثم إن ٱلله الرشيد أرشد نوحاً عليه الصلاة والسلام إلىٰ أن يصنع الفلك ؛ لأنهم مغرقون ، وأرشده لأن يحمل معه من كل زوجين اثنين من أجل استمرار الحياة حتىٰ لا تهلك جميع الحيوانات والبهائم ، وهـٰذا الإرشاد لا ينحصر في نوح عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه ، وإنما هو من عموم الخصوص ، أي أنه خص به نوحاً عليه الصلاة والسلام ، وعمومه يشمل من يأتي بعده من ذرية البشر دلالة علىٰ إرشادهم بما يفعلون إذا نزلت بهم النوازل أو أحاطت بهم الكوارث ، فهـٰذا سبيل رشد للخلق جميعاً ، وكذلك فٱلله تعالىٰ آتىٰ إبراهيم رشده وصلاحه وهداه ليكون مرشداً ، لقد آتىٰ ٱلله الرشيد إبراهيم عليه الصلاة

(1) الجن ، 21 .

والسلام رشده من قبل وكان به عالماً بفطرة ٱلله التي فطره إيّاها علىٰ الرشد والاسترشاد حتىٰ ساقه الدليل إلىٰ معرفة فاطر السمـٰوات وخالق العباد ، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام رأىٰ كوكباً فقال هـٰذا ربي ثم تبين له أنه ليس بإلـٰه فلما رأىٰ القمر بازغاً قال هـٰذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فتبين له أنه ليس بإلـٰه فلما رأىٰ الشمس بازغة قال هـٰذا ربي هـٰذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون وهـٰذا إشارة إلىٰ الرشد الذي آتاه ٱلله من قبل بدء أمر نبوته حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [1] . فٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الرشيد الذي أرسل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام راشدين ومرشدين للبشرية يبينون لهم طرق الهدىٰ وسبل الرشاد ، بالعدل والحق ليأخذوا بأيدي الناس إلىٰ الرشاد بما أرشدهم ٱلله تعالىٰ ، فما أحل ٱلله تعالىٰ من شيء إلا وفيه رشد للخلق ، وما حرم عليهم من شيء إلا وفيه رشد لهم أيضاً ، وما نهىٰ عن شيء أو أمر بشيء إلا وفيه الرشد والصلاح والهدىٰ والاستقامة ، وأول ذلك هي العبادات إذ ليس هناك عبادة إلا وفيها خير الناس وصلاح أمرهم فالصلاة الكاملة تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ؛ لأنها تقوي الإيمان بٱلله تعالىٰ وتعمق في نفس المصلي تعظيمه سبحانه والخوف من عذابه ورجاء ثوابه وهـٰذا كله من الرشاد ، وإذا تعمق هـٰذا الشعور الإيماني في قلب الإنسان فإنه يتكون لديه الوازع الديني الذي يدفعه إلىٰ الفضائل ويردعه عن الرذائل ، وبالتالي

---

(1) الأنبياء ، 51 ـ 58 .

يكون حكماً علىٰ تصرفاته وسلوكه في هـٰذه الحياة وهـٰذا معنىٰ إرشاد العبادة ، ولقد فهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام دعوته إلىٰ هـٰذه المزية من مزايا الصلاة فذكروا ذلك له بأسلوب من السخرية والإنكار وذلك فيما حكاه ٱلله سبحانه عنهم بقوله : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [1] فقوم شعيب عليه الصلاة والسلام ينكرون عليه أن أمرهم بالصلاة لله تعالىٰ التي تمنعهم من السجود للأوثان ومن التصرف في أموالهم بما لا يرضي ٱلله تعالىٰ وبعبارة أخرىٰ أنهم رفضوا سبيل الرشاد وقد كانوا يطففون في المكاييل والموازين ويبخسون الناس أشياءهم ، ومن مفهوم السياق العام للحوار الذي دار بين شعيب عليه الصلاة والسلام وبين قومه أن الصلاة التي كان يؤديها هي التي تدفعه إلىٰ منعهم ما يفعلون ، وهي بالتالي كونها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر فإنها تأمر بالمعروف والرشد الذي أمر به الرشيد ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام راشدون بما هداهم الرشيد إليه ، وهم حلماء كرماء أصحاب قلوب صافية وأخلاق عالية ونفوس مطمئنة ، وهـٰذه الصفات يتحلىٰ بها الخليفة كونه رشيداً ومرشداً ، ومن خلال ما ذكرنا نتبين أن الرشيد أيضاً صاحب نفس مطمئنة ، وهـٰذا الاطمئنان يعود إلىٰ رشده علىٰ الرغم مما يلاقي من منازعات وخصومات وطموح من أصحاب الغي والباطل ، ليثبوا بغيهم وضلالهم علىٰ رشده وحكمته ، لذلك فالرشيد بالإضافة حكيم حليم راجح العقل صائب الرأي كامل النفس ، لأن في تكميل النفس المطمئنة اكتساب الرشد لها وإبعاد الغي عنها ، وهـٰذا ما يستوعب أضعاف العمر كما رأينا ، فكيف إذا كان العمر قصيراً ، وكان ما يدعو إليه الهوىٰ كبيراً من شأن النفس الأمّارة بالسوء السادرة في الغي والبعيدة عن الرشد ، ومتىٰ تكررت المساوئ علىٰ تلك النفوس انتقلت

---

(1) هود ، 87 .

إلىٰ القلوب وتطرقت إلىٰ اللسان ، وانتشرت في المحافل ، والتفت بها بعضهم إلىٰ بعض وهٰذه مكسرةٌ للهيبة ، وقلة الهيبة رافعة للحشمة ، وارتفاع الحشمة باعث علىٰ الوثبة ، والوثبة غير مأمونةٍ من الهلكة ، وما يخلو الخليفة من طامع راصد يناوئ الحلم بالجهل والهدىٰ بالضلال والرشد بالغي ، وليس ينبغي للخليفة الحازم أن يظن أنه لا ضد له ولا منازع ، وقد ينجم الضد والمنازع من حيث لا يحتسب ، وهنا أعظم ما يكون الخليفة رشيداً في استيعاب أهل الغي بمبادرتهم بالرشاد الذي أمر به من الرشيد الجليل ، ويسلم أمره للذي أرشده ولسان حله يقول اللهُمَّ هٰذا الجهد ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بٱلله ، اللهُمَّ ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، فما ينبغي للخليفة إلا أن يكون أهلاً بما استخلفه ٱلله فيه .

والرشيد يرشد إلىٰ الرشد الذي هو نقيض للغي ومنافٍ له ، ذلك أن الغي يؤدي إلىٰ الضلال ، والضلال يؤدي إلىٰ التهلكة ، لذلك فإن ٱلله تعالىٰ أمر بالرشد ونهىٰ عن الغي والضلال والتهلكة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (1) فسبيل ٱلله تعالىٰ هو الرشاد وهو متعدد الأسباب والأبواب فمنها ما يكون ببذل النفس ، ومنها ما يكون ببذل المال ، فإن ترك ذلك إنما هو الابتعاد عن الرشد والاقتراب من الغي المؤدي إلىٰ الهلاك ، وعلىٰ هٰذا فهو أمر من ٱلله بأن يتبع الخلق سبيل الرشد الذي أمر به الرشيد بإحسان وإتقان ، فإن ٱلله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يحسنه ويتقنه حتىٰ يكون رشيداً ، ومن أمثلة الرشد التي لابد من التوجه لها بعقل واع إرشاد الأم للحنو علىٰ وليدها والوليد لمعرفة أمه ولا أدلّ علىٰ ذلك من قوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ

(1) البقرة ، 195 .

فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

كان قَتادة يقول ، في معنىٰ ذلك ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ : قذفنا في قلبها . وحياً جاءها من ٱلله ، فقذف في قلبها ، وليس بوحي نبوة ، أن أرضعي موسىٰ (2) .

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ هناك أراء في الفترة التي بقي فيها موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع أمه فهناك من يقول بعد ميلاده بأربعة أشهر وذلك حال طلبه من الرضاع أكثر مما يطلب الصبيّ بعد حال سقوطه من بطن أمه ، وهناك من يقول : بعد ميلاده أُمِرت أن تلقيه في اليمّ بعد ولادها إياه ، وبعد رضاعها (3) .

فها هو الرشيد الخبير يوحي إلىٰ أم موسىٰ بالرشاد حين خافت علىٰ وليدها من القتل أن تقذفه في اليم ويرشد أعداءه لالتقاطه ، والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب وهـٰذا من إرشاد ٱلله لآل فرعون في التقاط هـٰذا الطفل ليكون لهم

(1) القصص ، 7ـ 13 .
(2) تفسير الطبري ، ج 19 ، ص 519 .
(3) المصدر السابق ، ج 19 ، ص 519 .

عدواً ولغيرهم مرشداً وعاقبة أمرهم إلىٰ ذلك ؛ لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً و لم يشعروا أنه الذي سيذهب بملكهم ، وذلك بسبب إرشاد امرأة فرعون التي جعلت هـٰذا الطفل قرة عين لها ولزوجها ومنعتهم من قتله ؛ لأنهم سوف ينفعهم باتخاذه ولداً لهم ، بعد أن أخطأ الذبح هـٰذا الغلام ، وكان من إرشاد آسية امرأة فرعون أنها كانت أمّاً للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهي قاعدة إلىٰ جنبه هـٰذا الوليد أكبر من ابن سنة وأنت أمرت أن تذبح ولدان هـٰذه السنة فدعه يكون عندي فاستحياه فرعون وأرشد إلىٰ محبة هـٰذا الطفل وألقىٰ ٱلله محبته عليه ، ثم إن ٱلله تعالىٰ أرشد أمه بأن ترسل أخته في أثره عن بعد فكانت تمشي جانباً وتنظره اختلاساً ، ثم أرشد ٱلله الطفل إلىٰ ثدي أمه حيث كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم في طلب من يرضعه لهم ، فٱلله تعالىٰ حرم عليه المراضع ، تحريم منع ، لا تحريم شرع وهو منعه من أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه ، وكان لا يقبل ثدي مرضع حتىٰ أهمهم ذلك ، فأرشد ٱلله أخته إليهم كي تدلهم علىٰ من يرضعه فقبلوا ذلك منها ، فانطلقت إلىٰ أمها بأمرهم ، فجاءت بها ، والصبي علىٰ يد فرعون يُعلله شفقة عليه ، وهو يبكي ويطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنتِ منه ، فقد أبىٰ كل ثدي إلا ثديك ، فقالت : إني امرأة طيبة الريح ، لا أُوتَىٰ بصبي إلا قَبِلَني ، فدفعه إليها وأجرىٰ عليها مؤنة الرضاع ، وذهبت به إلىٰ بيتها وأنجز ٱلله لها وعده في الرد ، فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبياً رشيداً ومرشداً ، لأن الرشيد حفظه بعناية إلـٰهية كونه مكلفاً بإرشاد غيره . وطرق الرشد من الرشيد لا تنقضي أوقاتها ولا تنقطع أسبابها في كل وقت وحين ، أما ترىٰ الجنين في بطن أمه كيف تجلت فيه حكمة الرشيد جل جلاله حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (1) فإذا أردنا أن نعرف رشد الرشيد ونقف عليه من قرب علينا أن ننظر إلىٰ أصل تكوين الخلق من البشر وما هو منّا ببعيد ، فإنه من دلائل الرشد ، القدرة الموجبة للإيمان بٱلله الرشيد ، فإنه خلق الإنسان من خلاصة الطين ، ثم خلق نسله فجعله نطفة من ماء فيه كل عناصر الحياة الأولىٰ التي تستقر في الرحم ، وهو مكان مستقر حصين منيع ، ثم صيَّر هـٰذه النطفة بعد تلقيح البويضة والإخصاب دماً ، ثم صيَّر الدم بعد ذلك قطعة لحم ، ثم صيرها هيكلاً عظمياً ، ثم كسا العظام باللحم ، ثم أتمّ خلقه فصار في النهاية بعد نفخ الروح فيه خلقاً مغايراً لمبدأ تكوينه ، فتعالىٰ شأن ٱلله في عظمته وقدرته ، فهـٰذا الخلق لا يشبه أحداً في خلقته وتصويره وإبداعه ، ثم توّج ذلك كله بالعقل الذي هو مستودع الرشاد الذي ميزه به عن جميع مخلوقاته ، فهو الدلالة الواضحة علىٰ رشد الرشيد لمَّا أنْ كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتىٰ تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة علىٰ الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطراراً من ٱلله تعالىٰ إليه بما أشعل في قلبها من نار المحبة له ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلىٰ المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله علىٰ حسب حاجته ، أفكان هـٰذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ، إذ صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ وأرشده لذلك ، فإذا كبر واستقل يسّر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الرشاد ، فابتعاده عن الرشد بَعد البلوغ جهل محض ؛ لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه الرشد ، فإنه لم يكن قادراً علىٰ الاكتساب ، فالآن قد قدر فزادت قدرته

---

(1) المؤمنون ، 12 ـ 14 .

بإرشاده إلىٰ طرق الرزق وأسباب العيش ، نعم كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بإرشاد ٱلله تعالىٰ وتسليط الحب والشفقة علىٰ قلبه ، فكذلك قد سلط ٱلله الشفقة والمودة والرحمة والرقة علىٰ قلوب الراشدين من خلقه الذين اختصهم بالرشاد ، حتىٰ إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلىٰ إزالة حاجته ، فقد كان المشفق علىٰ الطفل واحداً والآن المشفق عليه جميع من أرشدهم الرشيد إلىٰ الشفقة والرحمة والمودة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه ؛ لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجاً ، فإذا رأوه يتيماً سلط ٱلله داعية الرحمة علىٰ واحد من هٰؤلاء الراشدين أو علىٰ جماعة منهم حتىٰ يأخذوه ويكفلوه ، وبسبب من رشد الراشدين الذين اختصهم الرشيد بهٰذا الفضل العظيم ، فقد انتشرت الفضيلة واندحرت الرذيلة وعم الخير وانحسر الشر ، لأن الرشيد أوتي من الحكمة وفصل الخطاب وحسن المعاملة ما يستطيع به أن يقف طوداً منيعاً في وجه الغي والضلال الذي هو نفسه يرشد إلىٰ الشر ، ولذلك كان الخليفة رشيداً بهٰذه الصفات التي اختصه بها الرشيد جلَّ شأنه ، ومن هنا كان الخليفة أيضاً علماً تشخص إليه الأبصار وتطمئن إليه القلوب مهتدية بهديه ومستنيرة برأيه ومسترشدة برشده ، فهو الضامن لصواب الرأي والثقة في القول والعلم والعمل .

وأما إرشاد الرشيد الجليل للملائكة فهو أعظم من أن نحصيه في ما نتناول من صفة الرشيد ، ولٰكننا سنأخذ غيضاً من فيض من الأدلة الواضحة الدلالة علىٰ إرشاد الملائكة ورشدهم ، لاسيما أن الملائكة الكرام يختلفون في صفة خلقهم عن الإنس والجن بأنهم خلقوا راشدين ، بإرشاد ٱلله تعالىٰ لهم فيما كلفوا به من عبادة وتسبيح وتنزيه ، وقيامهم بأمر ٱلله فيما كلفوا به من أمور لا يستطيعها أحد من الإنس أو الجن لذلك عندما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [1] لم يذكر من ضمنهم الملائكة ليس استثناءً من العبادة لله تعالىٰ ، ولـٰكن استثناءهم من الذكر مع الإنس والجن دليل علىٰ أنهم لا يعصون ٱلله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، علىٰ العكس من الجن والإنس ، فإن منهم المطيع ومنهم العاصي علىٰ الرغم مما أمروا به ، ولذلك فهم لا يأكلون ولا يشربون بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴾ [2] فالملائكة ليسوا ذكوراً ولا إناثاً ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتوالدون وإنما أرشدوا للطاعة والعبادة ، لذلك قال رسول ٱلله ﷺ : « إني أرىٰ ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، وٱلله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش ولخرجتم إلىٰ الصعدات تجأرون إلىٰ ٱلله لوددت أني كنت شجرة تعضد » [3] صوتت حتىٰ كادت أن تتكسر وتقع من شدة ثقل الملائكة عليها ، وحق لها أن تصوت لأن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتىٰ أطت وهو إيذان بكثرة الملائكة كثرة لا يسعها عقل البشر وإن لم يكن ثم أطيط وإنما هو تقريب أريد به تقرير عظمة ٱلله عزَّ وجلَّ ، وهـٰذه الأدلة جميعها بأنهم راشدون في طاعة ٱلله . فٱلله تعالىٰ هو الرشيد الذي أرشد الملائكة إلىٰ ما أمروا به من الرشاد وأول رشدهم أنهم كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ

---

(1) الذاريات ، 56 .

(2) هود ، 69 ـ 70 .

(3) سنن الترمذي ، ج 8 ، ص 288 .

أَجْمَعُونَ ﴾ [1] فالرشيد الذي أبدع البشر وخلقه من طين يابس ، له صوت إذا نقر عليه ، فهو متغير اللون وله صورة حيث أمر ٱلله تعالىٰ ملائكته إذا أكمل خلق الإنسان ونفخ فيه الروح التي هي ملكه عز وجل وبهـٰذه النفخة العلوية فرق بينه وبين سائر الأحياء ، وشرّفه علىٰ سائر المخلوقات ومنحه خصائصه الإنسانية ، حيث تصله بالملأ الأعلىٰ ، وتجعله أهلاً للاتصال بٱلله ، أن يقعوا بوجوههم ساجدين له تحية وإكراماً ، وتعظيماً ومهابة لقدرة ٱلله علىٰ الخلق ، ولأنهم راشدون سجدوا جميعاً خاضعين لأمر ٱلله ، فالسجود هنا ليس سجود عبادة ، وإنما هو سجود تحية للمخلوق وإذعان للخالق طاعة لأمره ، لأن العبادة لله وحده ، وبهـٰذا هداهم ٱلله إلىٰ رشدهم في الامتثال للأمر . ولو كان من باب الموازنة بين الملائكة وبعض بني البشر في مجال الرشد الذي آتاه الرشيد لخلقه ، فهل أن بعض البشر أكثر رشداً من الملائكة وهـٰذا أمر فيه كثير من الحذر عندما نتناول رشد الرشيد لخلقه ، ولـٰكننا لا نخرج عن النصوص التي جاءت من خلالها الدلالة القطعية التي تنفي الاجتهاد والإدلاء بالرأي ، ووجه التفصيل في ذلك أن سجود الملائكة لآدم تعظيم وتكريم ، هـٰذا من جانب ما أمر به الرشيد لإرشاد الملائكة للسجود ، ومن جانب آخر أن الملائكة منزهون عن الخطأ ، وآدم عليه الصلاة والسلام انصاع لوسوسة الشيطان وعصىٰ أمر ربه حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [2] .

(1) الحجر ، 28 ـ 30 .
(2) طه ، 116 ـ 122 .

وأما تعليم آدم عليه الصلاة والسلام ، للملائكة الأسماء كلها فهو نوع خاص من الرشد حظي به من ٱلله الرشيد ، ونحن نرىٰ أن موازنة المفاضلة بالرشاد لا تقوم بين مخلوقين مختلفين في الأعراض والصفات فٱلله سبحانه وتعالىٰ اختص جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من بين الملائكة وجميعهم لم يرتكب معصية ، غير أن نصاً قطعياً يثبت فضل بعض البشر علىٰ الملائكة وبهـٰذا يثبت فضل رشدهم حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] والملائكة من جملة العالمين وأن طاعات الأنبياء علىٰ قهر دواعي النفس أشق وعبادة الملائكة علىٰ موجب طباعهم أسهل والأشق أفضل ونسأل ٱلله العفو عن الزلل ، فإن قال قائل إن للملائكة في مقابلة عمل البشر صفات فاضلة يضمحل فضل العمل في حقها ، نقول هـٰذا الادعاء مما لم يقبل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأما تقديم الملائكة علىٰ غيرهم من الخلق فيما ذكر معهم من خلق ٱلله تعالىٰ في الآيات من أنه تقديم الأفضل علىٰ الفاضل في باب اللغة ، وبهـٰذا يفضلون غيرهم من الخلق كونهم أكثر رشداً ، فالأمر هنا ليس كذلك علىٰ ما نرىٰ ، وإنما هو التسلسل في علم الإلـٰهيات والغيبيات وصولاً إلىٰ اليقينيات وستجدني مضطراً لذكر عدد من الشواهد القرآنية ليتضح الأمر ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [2]فسياق الآيات جميعها يبدأ بلفظ الجلالة للذات الإلـٰهية ، ثم يأتي بعد ذلك ذكر الملائكة ، وسبب تأخر ذكر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذكر الملائكة ، ليس هنا من باب تقديم الأرشد علىٰ الرشيد ، وإنما هو من باب ما سبق ذكره في الغيبيات ، لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ معروف ومعلوم للبشر أكثر من

(1) آل عمران ، 33 ـ 34 .

(2) البقرة ، 98 .

غيره من الملائكة الكرام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (1) ، وهنا تأخر ذكر الملائكة عليهم السلام عن اليوم الآخر ؛ لأنه أكثر غيبية منهم وكذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) ، فآخر ما جاء ذكره هم أولو العلم ؛ لأنهم آخر السلسلة في التدريج الذي ذكرناه من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ ، فكانت شهادة ٱلله تعالىٰ لنفسه بالأولهية والتفرد والوحدانية والرشاد كافية ، ولٰكن الذين اتصفوا بالرشد شهدوا لله بهٰذا الحق ، وهو توحيد ٱلله الذي هو أعلىٰ درجات الرشاد ، حيث شهدت الملائكة قبل أولي العلم بذلك والرسل من بعدهم قد وحدوه قبل أن يكونوا أنبياء ورسلاً فإن الرسول ما أشرك قط بسبب أنه رشيد وهو من أولي العلم ، فقال شهد ٱلله والملائكة وأولو العلم ولم يقل وأولو الايمان ، فرتبة العلم المحاط بالإيمان قوة ترسخ الحقيقة في النفس فتكون مع العليين ، وفي هٰذا السياق الذي نتناوله بين الرشيد والإرشاد ، فشهادة ٱلله من الرشيد ، وشهادة الملائكة وأولو العلم ومن ضمنه وأولهم الرسل هي من قبيل الإرشاد من الرشيد المطلق وتصبح رشيداً بالإضافة ، وأولو العلم يدخل ضمنهم الأنبياء والأولياء والخلفاء ، وعلىٰ الرغم من أن العلم أعلىٰ درجة من الإيمان ، إلا أن الإيمان شرط للشهادة ، إذ لا يمكن لغير المؤمن أن يشهد شهادة الحق ، وشهادة الحق دليل علىٰ الرشاد ، ومع هٰذا فهناك كثير من المؤمنين ولٰكنهم من غير أولي العلم ، ومع ذلك فهم راشدون كونهم أرشدوا إلىٰ الإيمان ، ورشد النبوة الذي هو مقام القربة من الرشيد أكثر وأعظم من رشد الأفراد ، فرشد الأفراد دون رشد نبوة التشريع والوحي ، ولٰكن الخليفة يترفع عن الأفراد متصلاً بسلسلة الرشد كونه من أولي العلم ، وهي في المنزلة عند ٱلله من الدرجة الثانية بعد الملائكة ،

---

(1) البقرة ، 177 .
(2) آل عمران ، 18 .

وكذلك يكون رشد الخليفة علىٰ مستوىٰ البشر أيضاً في الدرجة الثانية بعد الأنبياء لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [1] فمن يطع ٱلله ورسوله فهو رشيد لا محالة ، وأول الراشدين هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويأتي بعدهم الصدّيقون في المنزلة عند ٱلله ؛ لأنه خصهم بالرشد من لدنه وهم المشار إليهم بالخلافة للسر الذي وقر في صدورهم من الرشيد ، فليس ما بين النبي والخليفة من رجل أكثر من الخليفة رشداً ؛ لأنه من الصديقين ، ومن الأولياء الراشدين أيضاً ، الشهداء رضي ٱلله عنهم ، فقد تولاهم ٱلله وأرشدهم إلىٰ الشهادة وهم من المقربين وهم من أهل الرشد ؛ لأنهم ببذل أنفسهم وأرواحهم شهدوا شهادة الحق ، فجمعهم مع الملائكة في بساط الشهادة فهم راشدون عن حضور إلـٰهي وعناية أزلية فهم الموحدون وشأنهم عجيب وأمرهم غريب والإيمان فرع عن هـٰذه الشهادة فإن بُعث رسول وآمنوا به أغنىٰ هـٰؤلاء الشهداء فهم المؤمنون العلماء الراشدون ، ولهم الأجر التام يوم القيامة وإن لم يؤمنوا فليس هم الشهداء الذين أنعم ٱلله عليهم في قوله ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [2] .

اختلف في معنىٰ : الصديقين ، فقال بعضهم : «(الصديقون) : تُبَّاع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتىٰ لحقوا بهم . والصدِّيقون هم المصَّدِّقون ، والصديق ، أن يكون معناه : المصدِّق قوله بفعله ، و(الصالحون) : هم جمع صالح ، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته » [3] .

(1) النساء ، 69 .

(2) النساء ، 69 .

(3) تفسير الطبري ، ج 8 ، ص 530 .

وفي تسمية الشهيد قولان :

أحدهما : لقيامه بشهادة الحق ، حتىٰ قتل في سبيل ٱلله .

والثاني : لأنه يشهد كرامة ٱلله تعالىٰ ، في الآخرة .

وأما الصالحون فجمع صالح وفيه قولان :

أحدهما : أنه كل من صلح عمله .

والثاني : هو كل من صلحت سريرته وعلانيته .

وأما الرفيق ففيه قولان :

أحدهما : أنه مأخوذ من الرفق في العمل .

والثاني : أنه مأخوذ من الرفق في السير [1] .

وعليه لولا قوله وحسن أولئك رفيقاً ألحقنا هـٰؤلاء الشهداء بحصول النعمة التي لأصحاب هـٰذه الآية فإنهم وإن كانوا موحدين غير مؤمنين مع وجود الرسول إليهم لم تحسن مرافقتهم للمؤمنين فإنهم يشوشون علىٰ المؤمنين إيمانهم وهـٰؤلاء الأعداء الذين تعمهم هـٰذه الآية هم العلماء ، والشاهد ليس برسول فلابد أن يتأخر فلم يبق إلا أن يكون في الرتبة التي تلي الصديق فإن الصديق أتم رشداً من الشهيد ؛ لأنه صديق من وجهين :

الوجه الأول : من وجه التوحيد .

والوجه الثاني : من وجه القربة .

فالرشد من الرشيد إنما هو نور يقذفه ٱلله في قلب من يشاء من عباده لأمر أراده تعالىٰ ، والرشد يجده المؤمن في قلبه ولا يقدر علىٰ دفعه ، فالرشيد من

---

(1) النكت والعيون ، ج 1 ، ص 311 .

الخلق من آمن عن دليل يرسّخ الرشد في قلبه ويقينه بإيمانه أن الرشيد المطلق إنما هداه إلىٰ هـٰذا الرشد ليس لنفسه فقط ، وإنما ليكون رشيداً ومرشداً أيضاً ، ويلزمه تبيين ما أعطي من الرشد الذي جاء به حتىٰ يفهمه للآخرين ، وهو أن يخاطبهم بالتأسي والرفق واللين ، لأن حاجة الخلق إلىٰ معرفة أسماء ٱلله وصفاته من أعظم الحاجات ، فكانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه ، ولهـٰذا كان ذكرهم لأسمائه أيضاً أعظم من ذكرهم لأسماء ما سواه ، ومن اللطائف في هـٰذا المجال أن الرشيد جل شأنه أرشد الخلق لمعرفة أسمائه وصفاته بطرق كثيرة ومختلفة تهدي إلىٰ الرشد ، فالقرآن الكريم مرشد إلىٰ الرشيد ، فالحمد لله الذي امتن علىٰ عباده بنبيه المرسل ﷺ وكتابه المنزل حيث قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (1) حتىٰ اتسع علىٰ أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار ، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام ، وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور ، ومن خالفه من الجبابرة قصمه ٱلله ومن ابتغىٰ العلم في غيره أضله ٱلله ، هو حبل ٱلله المتين ونوره المبين والعروة الوثقىٰ والمعتصم الأوفىٰ وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير ، لا تنقضي عجائبه ولا تتناهىٰ غرائبه ، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ، ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد ، هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلىٰ قومهم منذرين حيث قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (2) ، فكل من آمن به فقد وفق ورشد

---

(1) فصلت ، 42 .

(2) الجن ، 1 ـ 2 .

ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدي ومن عمل به فقد فاز ، وهـٰكذا أرشد ٱلله تعالىٰ فريقاً من الجن ليستمعوا القرآن ويبلغوا قومهم فكان أمر هـٰؤلاء أن اهتدوا إلىٰ الرشد وكانوا راشدين ومرشدين ، إذ أنهم أهل لذلك ففتحت لهم أبواب الهدىٰ وذللت لهم سبل الرشاد ، وبما أن الجن نوع خاص من الخلق أقرب بصفاته إلىٰ الملائكة منه إلىٰ الإنسان فقد ضرب ٱلله تعالىٰ مثلاً لذلك تقريباً إلىٰ إفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ورشاداً لهم ، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين الذي أرشده فالتزم رشده ، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ، ويبغض الآخر واسمه إبليس فأرشده ٱلله الرشيد ولـٰكنه أبىٰ ، وهو اللعين المنظر إلىٰ يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلىٰ جبريل فقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ (2) وأحال الإغواء علىٰ إبليس فقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (3) فٱلله تعالىٰ أنكر عليه عصيانه بعد أن دله علىٰ طريق الرشاد بقوله : ما منعك عن تعظيم آدم وقد أمرتك به ؟ أجاب إبليس في عناد

---

(1) النحل ، 102 .

(2) غافر ، 15 .

(3) الأعراف ، 12 ـ 18 .

وكبر : أنا خير من آدم لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين ، والنار أشرف من الطين فكان بذلك من الغاوين الذين ضلوا سبل الرشاد ، فجزاه ٱلله علىٰ عناده وكبره بطرده من دار كرامته ، و أهبطه من جنة الخلد ، بعد أن كان في منزلة عالية ، فما ينبغي له أن يتكبر ويعصي فيها ، فخرج منها محكوماً عليك بالصغار والهوان بعد أن ترك سبيل الرشد ، ولحقده علىٰ آدم وحسده له ، بسبب الحكم عليه بالغواية والضلال ، أقسم ليضلنّ بني آدم ويصرفهم عن طريق الرشاد ، متخذاً في ذلك كل وسيلة ممكنة من أجل إغوائهم ، والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة والرشاد ، فانظر كيف نسبه إلىٰ العبد الذي غضب عليه ، والإرشاد سياقه لهم إلىٰ الغاية فانظر كيف نسبه إلىٰ العبد الذي أحبه ، وعندك في الحياة له مثال ، فالملك إذا كان محتاجاً إلىٰ من يسقيه الشراب وإلىٰ من يقدم له الطعام وينظف فناء منزله وكان له عبدان فلا يستخدم للتنظيف إلا من هو أقل منزلة من الآخر ، ولا يفوض حمل الطعام الشراب والطيب إلا إلىٰ أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه وأرشدهما للحق ، فٱلله تعالىٰ رشيد في تدبيره وأموره وشؤون خلقه ، فهو جل شأنه يعطي الرشد حيناً ويعطي أسباب الرشد حيناً آخر ، ويجمع بين الاثنين فيعطي الرشد وأسبابه لمن يشاء من خلقه ، فإن رشده تارة يتم بأمور لا مدخل لنا فيها ، وتارة يتم بنا فإننا أيضاً من أفعاله ، فقدرتنا وعلمنا وعملنا ورشدنا وسائر أسباب حركاتنا في التعبير هو فعله الذي رتبه الرشيد ترتيباً تصدر منه الأفعال الرشيدة ، إلا أننا لا نرىٰ إلا أنفسنا فنظن أن ما يظهر علينا في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت ، فلذلك نضيفه إلىٰ أنفسنا ، وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تقدير الرشيد الحكيم ، ولـٰكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله ، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه الخليفة الرشيد الذي أوتي من الرشد ما لم يؤتَ لغيره ، إلا العارفون والعلماء الراسخون الراشدون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهـٰذه الأبصار

الظاهرة ، وإنما بيقين القلوب وطرق الهدىٰ وسبل الرشاد التي تفضل بها الرشيد علىٰ خلقه كي يسلكوا طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلاً فيمشي بهم إلىٰ السعادة الأبدية فكانت إجابة الحق إياهم حين دعوه ونهاية طريقهم إلىٰ ما فرحت به نفوسهم ، فٱلله تعالىٰ برشده يؤلف بين قلوب الراشدين كي يجمعهم علىٰ الحق والعدل والصدق ، فانظر كيف ألف ٱلله تعالىٰ بين قلوبهم وأرشدهم إلىٰ أمور الخير وسبل الهدىٰ وطرق الرشد وسلط الأنس والمحبة عليهم بالرشد فيما بين الخلق حيث قال تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ، ثم هٰذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلىٰ الصدام والصراع والتناحر والتقاتل ، فٱلله تعالىٰ بحكمته وعلمه وكونه رشيداً ، اختار الخليفة الرشيد وأمده بالقوة والعدة والأسباب وألقىٰ هيبته في قلوب الناس حتىٰ أذعنوا له ؛ لأنه رشيد ، والرشيد هدىٰ الخليفة وأرشده إلىٰ طريق إصلاح العباد حتىٰ رتبوا أجزاء البلاد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون علىٰ غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت إرشاد الخليفة ورشده ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن ، وينتفع بعضها ببعض . فالراشدون هم المصلحون لأنفسهم ولغيرهم في نشر الخير وحفظ العدل بين الخلق ، فعرفهم برشده الحق من الباطل ، ولولا رشده لهم إلىٰ الخير والعدل والحق ما اهتدوا به إلىٰ إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدهم إليه من إصلاح الدين ، وٱلله

---

(1) الأنفال ، 63 .

سبحانه وتعالىٰ رشيد ، أرشد الأنبياء بالملائكة ، وأرشد الخلفاء بالأنبياء ، وأرشد الملائكة بعضهم ببعض إلىٰ أن ينتهي إلىٰ الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين ٱلله ، وعلىٰ هـٰذه السلسلة من الرشد المتصل إلىٰ الرشيد الحكيم كانت مشيئة الرشيد ، فالأنبياء يرشدون الخلفاء ، والخلفاء يرشدون العباد إلىٰ ما يهديهم إلىٰ الحق ، والملائكة يرشدون الأنبياء حتىٰ يعود كل ذلك إلىٰ الرشيد الذي هو ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف ، وكل ذلك نعم من الرشيد الحكيم الهادي ، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (1) لما اهتدينا إلىٰ هـٰذه النبذة اليسيرة من نعم ٱلله تعالىٰ ، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلىٰ الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلىٰ طلب الإحاطة والاستقصاء ، ولـٰكنه تعالىٰ عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ (2) فإن تكلمنا فبإذنه بسطنا القول ، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا ، وهـٰكذا الحال في الدار الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ (3) إذ لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطىٰ ، لأننا في كل لحظة نحن نحتاج إلىٰ الرشيد الذي يرشدنا علىٰ الصلاح ويدلنا علىٰ الهدىٰ ، كي نستطيع أن نصلح أمور حياتنا ومعاشنا ومن أجل ذلك فقد أوجد ٱلله تعالىٰ كل ما في العالم للإنسان وأرشده إليه و نبه عليه بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا

(1) العنكبوت ، 69 .

(2) إبراهيم ، 34 .

(3) النبأ ، 38 ـ 39 .

تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [1] فٱلله سبحانه وتعالىٰ مهد الأرض بقدرته ، وبسط رقعتها ليسهل علىٰ الخلق الرشاد والإقامة فيها والانتفاع بها ، وجعل من السماء وأجرامها وكواكبها كالبنيان المشيد ، وأمد خلقه بأسباب الحياة والنعمة وهو الماء الذي أنزله من السماء فجعله سبباً لإخراج النباتات والأشجار المثمرة التي أرشد خلقه إلىٰ فوائدها ومنافعها ، وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [2] فالرشيد جل شأنه أرشد السحاب بإنزاله من جهة السماء ماء منه شراب ، وبعضه ينبت منه الشجر ، وإلىٰ هٰذا الشجر أرشد الأنعام لتأكل منه ، وأرشد الناس إلىٰ ألبانها ولحومها ، وإلىٰ الأصواف والأوبار والأشعار التي ينتجها كل نوع من هٰذه المخلوقات ، ثم أرشد الخلق إلىٰ الفائدة مما ينبته هٰذا الماء الذي ينزل من السماء من الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعناب ، وغيرها من كل أنواع الثمرات التي فيها حياة الناس ومعاشهم ، إن في إيجاد هٰذه الأشياء لعلامة هادية للرشد لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون كيف أرشدوا إلىٰ هٰذه الأشياء في القدرة التي أوجدتها ، وقد أرشد الخالق عزَّ وجل كل مخلوقاته لما خلقت له فسخر الليل إذ جعله مهيئاً للنوم والراحة ، والنهار جعله مناسباً للسعي والحركة والعمل ، وأرشد الشمس في مسارها ودورانها وما تمد الأرض بالدفء والضوء ، وأرشد القمر في فلكه ومساره ودورانه شكل يختلف عن الشمس لمعرفة عدد السنين والحساب ، والنجوم مسخرات بأمر اللّٰه تهتدي في

---

(1) البقرة ، 22 .

(2) النحل ، 10 ـ 12 .

الظلمات ويرشد الذي يضل الطريق في البر والبحر ، إن في ذلك لعلامات وأدلة لقوم يجب أن يكونوا راشدين بما وهبهم اللَّه من عقل يدرك هـٰذه الأشياء ، ثم أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ أباح للخلق الانتفاع بما أرشدوا إليه حيث قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) فٱلله سبحانه و تعالىٰ لم يحرم الزينة التي خلقها لعباده وأرشدهم إليها ، إذ كيف يحرم ٱلله الحلال الطيب من الرزق الذي أرشد عباده إليه بهديه ، فهـٰذه الطيبات نعمة من ٱلله ما كان ينبغي أن يتمتع بها إلا الذين آمنوا في الدنيا ؛ لأنهم يؤدون حقها بالشكر والطاعة ، ولـٰكن رحمة ٱلله الواسعة شملت الكافرين والمخالفين في الدنيا الذين علموا الرشد ولم يتخذوه سبيلاً ، وستكون هـٰذه النعم خالصة يوم القيامة للمؤمنين الراشدين خالصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم . لقد أرشد ٱلله الإنسان إلىٰ هـٰذا الرزق الذي خلقه له وكل ما حصل عليه الإنسان من فائدة إما في غذائه أو في دوائه أو في ملابسه ومشموماته ومركوباته ، وزينته والالتذاذ بصورته ، أو رؤيته والاعتبار به ، وباستفادة علم منه والاقتداءِ بفعله فيما يستحسن منه ، والاجتناب عنه فيما يستقبح منه ، فقد نبه ٱلله تعالىٰ إلىٰ منافع جميع الموجودات وأرشد إليها ، واطلع الخلائق عليها إما بألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو بإلهام الأولياء والخلفاء والصالحين رضي ٱلله عنهم ، وكما أنَّ حق الإنسان أن يعرف رشد الحيوانات في ذواتها فيرشد إليها في المطاعم والملابس والأدوية ، فحقه أن يرشد إلىٰ أخلاقها وأفعالها فينتفع بها في اجتناء ما يستحسن ، واجتناب ما يستقبح منها ، وقد أشار ٱلله تعالىٰ إلىٰ ذلك في إرشاد النحل فقال : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ

---

(1) الأعراف ، 32 .

﴿ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) فألهم ٱلله النحل أسباب حياتها ، وأرشدها إلىٰ وسائل معيشتها ، بأن تتخذ من الجبال بيوتاً في الكهوف ومن فجوات الشجر ، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتاً ، ثم هداها الرشيد للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات ، وسهَّل لها أن تسلك لذلك طرقاً هيأها لها مذللة سهلة ، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وأرشدهم أن في هـٰذا الشراب غذاء ودواء ، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية علىٰ وجود صانع قادر حكيم ، ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم بالتأمل ، فنبه علىٰ أن الإنسان حقه أن يقتدي بالنحل ويسترشد به مراعاة لوحي ٱلله عزَّ وجل ، فكما أن النحل لا يتخطىٰ وحي ٱلله في تحري المصالح التي هي من طباعه التي أرشده ٱلله إليها ، كذلك يجب علىٰ الإنسان أن لا يتخطىٰ وحي ٱلله اختياراً بما أرشد إليه ، وعلىٰ هـٰذا الأساس كان الخليفة مهتدياً طائعاً لله رب العالمين بما أرشده به وما أرشده إليه .

ومن أعاجيب الإرشاد ما جاء ذكره في القرآن الكريم عندما بعث ٱلله تعالىٰ الغراب ليرشد الإنسان العاقل ، وذلك ما أخبر به عز وجل من خبر ابني آدم ، حين قربا قرباناً فحسد الذي لم يتقبل منه المتقبل منه ، فقال عندما هم به من قتله ، وعند إمساكه عنه ، والتخلية بينه وبين ما اختار لنفسه : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ (2) فلولا أن للغراب فضيلة وأموراً محمودة ، وآلة وسبباً ليس لغيره من جميع الطير لما وضعه ٱلله تعالىٰ في موضع تأديب الناس ، ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك ، فأخبر أنه مبعوث ، وأنه هو اختاره لذلك من بين جميع الطير وأرشده ليرشد الإنسان ما يجب عليه فعله في أمور يجهلها ، فاختصام ابني آدم وقتل أحدهما للآخر ، وإرشاد أحدهما للخير

---

(1) النحل ، 68 ـ 69 .

(2) المائدة ، 29 .

والآخر للشر حيث أخبر بذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (1) الذي أرشد للخير منهما لم يقاوم أخاه ولم ينازعه بسبب هداه واستقامته ومعرفته لسبيل الرشاد الذي بينه الرشيد له كي يحتمل الآخر الذنب وينال جزاءه ، والذي اتبع الغي والضلال فيما اقترفه من ذنب بابتعاده عن طريق الرشد في ارتكاب فعلته بقتل أخيه فاستحق أن يكون في الآخرة من أهل النار ، وذلك جزاء عادل من ٱلله الرشيد لكل ظالم . فقد سهَّلت له نفسه أن يخالف فطرة الرشد وأن يقتل أخاه ، وقتله ، فصار في حكم ٱلله من الخاسرين ، إذ خسر رشده فخسر إيمانه وخسر أخاه ، بعد قتله أصابته حسرة وحيرة ، ولم يدر ما يصنع بجثته ، فأرسل ٱلله غراباً مرشداً ينبش تراب الأرض ليدفن غراباً ميتاً ، حتىٰ يُعَلِّم ذلك القاتل كيف يستر جثة أخيه ، فقال القاتل مُحِسّاً بوبال أمره وما ارتكب من جرم ، متحسراً علىٰ جريمته بأنه أعجز من أن أكون مثل هـٰذا الغراب فيستر جثة أخاه ، فصار من النادمين علىٰ جرمه ومخالفته دواعي الفطرة الرشيدة .

ومن إرشاد الرشيد أيضاً ما جاء عن النملة التي أرشدت قومها لدخول مساكنهم حتىٰ لا يحطمهم جنود سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (2) حتىٰ إذا بلغوا وادي النمل قالت هـٰذه النملة يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم ، لكيلا يميتكم جنود سليمان وهم

(1) المائدة ، 29 ـ 31 .

(2) النمل ، 18 .

لا يحسون بوجودكم فأرشدت قومها إلىٰ النجاة وخلصتهم من الهلاك بما أوحىٰ إليها خالقها الرشيد كما أوحىٰ إلىٰ غيرها من المخلوقات من أمثالها كالنحل والعنكبوت ، ثم إن سليمان عليه الصلاة والسلام تفقد ما حشر ٱلله له من الجند حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (1) وتعرَّف جنوده من الطير فلم يجدوا الهدهد ، فتعجب وقال : مالي لا أرىٰ الهدهد ، أهو بيننا ولم يقع عليه نظري ، أم هو غائب عنا ليس بيننا ، وتوعد به عذاباً شديداً يردعه ، أو ليذبحنه إن كان الذنب عظيماً إلا أن يأتي بحجة بيِّنة تُبرر غيابه عنه ، وكان الهدهد قد مكث في مكان غير بعيد ، ثم جاء إلىٰ سليمان عليه الصلاة والسلام يقول له : قد أحطت علماً بما لم يكن عندك علم به ، وجئتك من سبأ بخبر ذي شأن عظيم وهو مستيقن به ، فأرشد الهدهدُ نبي ٱلله إلىٰ شيء لم يكن يعلمه ، ولذا فمهما أوتي الإنسان من العلم فلم يؤتَ منه إلا قليلاً ، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (2) ولوجود قوم لا يسجدون لله ، وسليمان عليه الصلاة والسلام مكلف بإرشادهم ، فأرشده الهدهد إليهم كي يرشدهم بأن أرسل لهم كتاباً يدعوهم فيه إلىٰ الرشد مع الهدهد الذي أرشده ٱلله حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ

(1) النمل ، 20 ـ 22 .

(2) الإسراء ، 85 .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [1] فأراد أن يختبر رشد الهدهد ويتحرىٰ صدقه فأرسله بكتاب يوصله إلىٰ تلك المرأة وقومها ، ووصل الكتاب إليها فجمعت أشراف قومها ، وذوي مشورتها وأخبرتهم الخبر أنه أيها الملأ إني قد وصل إليَّ كتاب عظيم الشأن ، ثم تلت الكتاب عليهم قائلة : إنه من سليمان وإنه مفتتح باسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم الذي يفيض برحمته دائماً علىٰ خلقه ، فكانت المرأة رشيدة في فعل ما يجب عليها فعله من المحافظة علىٰ حياة قومها وهدايتهم ورشدهم بعد أن فوضوا أمرهم إليها ، فهي لم ترم بهم إلىٰ التهلكة وإنما أخذت بأيديهم إلىٰ طريق النجاة حيث قال تعالىٰ : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2] فلما رأت الآيات التي تهدي إلىٰ سواء السبيل وطريق الرشاد استمسكت بها ودعت قومها إلىٰ ذلك فكانت من الراشدات وكان قومها من الراشدين ، وهـٰذه المسألة سلسلة من الرشد المتبادل بين مخلوقات ٱلله فيما أرشدهم إليه . واسترشاد الإنسان بمخلوقات أخرىٰ لا يعني انتقاصاً من قيمته أو علمه أو عقله ، فعلىٰ مستوىٰ البشر نجد أن الصغير يسترشد بالكبير ، والجاهل يقتدي بالعالم ، ومن ليس له خبرة ، يأخذ من أصحاب التجارب ، ولـٰكن الحكمة الإلـٰهية اقتضت أشياء لا يكون لجنس البشر ، وإنما اختص بها ٱلله تعالىٰ خلقاً آخر لدلالة القدرة ، بمعنىٰ أن هـٰذه المخلوقات التي لا تتمتع بما يتمتع به الإنسان من العقل ، فالإنسان بحاجة إليها ، وبعبارة أدق فالإنسان بحاجة إلىٰ الخلق الرشيد الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هداه لما خلق إليه ، فعلىٰ الرغم من تفاوت الناس واختلافهم ، فإن

(1) النمل ، 23 ـ 31 .
(2) النمل ، 44 .

الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث أنها مصنوعة بالحكمة الرشيدة ، وعلىٰ ذلك نبه ٱلله تعالىٰ حيث قال : ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[1] بحكمة ٱلله تعالىٰ في خلقه وإرشاد كل خلق لما يتناسب مع طبيعة ذلك الخلق ، ومختلفة من حيث أن كل نوع يختص بفائدة ، وكل نوع وإن اختلف فما من شيء أكثر اختلافاً من الناس ، كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[2] أي طوراً بعد طور و تارة بعد تارة وأن الإنسان علىٰ حالة منافية لما هو عليه بالكلية وهو أنه يعلم أن ٱلله تعالىٰ خلقه وقدره تارات أي مرات ، حالاً بعد حال من عناصر ثم أغذية ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأه خلقاً آخر فإن التقصير في توقير من هـٰذه شؤونه في القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بها مما لا يكاد يصدر عن رشيد عاقل ، وقال تعالىٰ : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[3] فٱلله تعالىٰ برشده تولىٰ تدبير الخلق معيشتهم لعجزهم عن ذلك ، وفضل بعضهم علىٰ بعض في الرزق والجاه ، ليتخذ بعضهم من بعض أعواناً يسخرونهم في قضاء حوائجهم ، حتىٰ يتساندوا في طلب العيش وتنظيم الحياة وما يتبعها من سعادة ، لأن الرفع والخفض هما من سنة الرشيد لاستمرار الحياة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[4] فٱلله سبحانه وتعالىٰ برشده جعل خلفاء من الأمم لأجل عمارة الكون ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لمن

(1) الملك ، 3 .

(2) نوح ، 14 .

(3) الزخرف ، 32 .

(4) الأنعام ، 165 .

أخذ في أسباب الرشد ، وكذلك ليختبر الخلق فيما أعطاهم من النعم ، هل يرشدون إلىٰ شكرها ، وكل من جاء بعد من مضىٰ فهو خليفته بالمعنىٰ العام ؛ لأنه يخلف من سبقه ، وليس بالمعنىٰ الخاص المقصود بالخلافة ، والخلافة بالمعنىٰ العام هو أن ٱلله جعل كل واحد من بني آدم خليفة ربه في الأرض وسر الخلافة أنه صوره علىٰ صورة صفات نفسه حياً قيوماً سميعاً بصيراً عالماً قادراً متكلماً مريداً وهي صفات جزئية قياساً للخالق عزَّ وجل ، فمن أخذ بها فقد رشد ، ومن تركها وابتعد عنها فقد ضل وغوىٰ ، ومن هنا جاء الاختلاف بين الخلق في الهدىٰ والضلال ، والرشد والغي ، لذلك قال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [1] فلو شاء ٱلله تعالىٰ لأرشد جميع الخلق إلىٰ الخير ولجعل الناس علىٰ صراط مستقيم ، مطيعين ٱلله بطبيعة خلقتهم ، كالملائكة ، فلو كان ذلك كذلك ، لكان الخلق غير هـٰذا الخلق ، ولكان العالم غير هـٰذا العالم ، ولـٰكنه سبحانه بين لهم سبل الهدىٰ وطرق الرشاد وتركهم مختارين ، لذلك فلا يزالون مختلفين في كل شيء ، حتىٰ في أصول العقائد ، كالإيمان بٱلله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، مما لا يجوز الخلاف فيه ، تبعاً لميولهم وشهواتهم وتفكيرهم ، يتعصب كل فريق لرأيه ، وما ينبغي هـٰذا لمن بين له ٱلله تعالىٰ طرق الرشاد ، لـٰكن الذين رحمهم ٱلله لسلامة فِطَرِهم ، فإنهم اتفقوا علىٰ حُكم ٱلله فيهم ، فآمنوا بجميع رسله وكتبه واليوم الآخر عندما سلكوا مابيّن لهم من الرشد ما هم أهل له فاتبعوه ، وهـٰكذا اقتضت مشيئة الرشيد وحكمته في نظام الخلق فمنهم شقي وسعيد ، ولو أنهم أخذوا بما أمروا به لكان خيراً لهم ، إذ أن الإنسان بحاجة إلىٰ الرشد في أموره كلها ، وبحاجة إلىٰ من يدله علىٰ الرشد في المأكل والملبس وكثير من أحوال الدنيا وأمورها حتىٰ في اختيار مستلزمات حياته

---

(1) هود ، 118 ـ 119 .

اليومية ، وفي تفضيل طعام علىٰ آخر ، أو شراب علىٰ غيره كما قال تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1] فالأرض ذاتها فيها عجائب الرشاد ما لا يخفىٰ علىٰ عاقل مدرك ، ففيها قطع من الأرض يجاور بعضها بعضاً ، وهي مختلفة التربة مع ذلك ، بعضها قاحل ، وبعضها خصب ، وإن اتحدت التربة ، ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب ، وفيها زرع يحصد ، ونخيل مثمر ، وهي مجتمعة ومتفرقة ، ومع أنها تسقىٰ بماء واحد يختلف طعمها ، وإن في هٰذه العجائب لدلائل واضحة علىٰ قدرة ٱلله لمن له عقل يفكر به كيف أرشدت هٰذه العناصر التي شكلت الثمار إلىٰ أشكالها وطعومها وألوانها ففي الثمر شكل وقدر وطعم ورائحة فمنها بياض وسواد وصغير وكبير وحلو ومر وحامض وجيد ورديء ، وذلك أيضاً مما يدل علىٰ الصانع الحكيم الرشيد ، وقدرته في إنبات الأشجار بالثمار المختلفة الأصناف والأشكال والألوان والطعوم والروائح مع اتحاد الأصول والأسباب ، فهٰذا لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار رشيد ؛ لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب لوجب في القياس أن لا يختلف الألوان والطعوم ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد بماء واحد ، فكل هٰذه المخلوقات التي أبدعها الخالق إنما هي لحاجة مخلوق آخر يرشد إليها ، ويرشد إلىٰ جنسه أيضاً ليستطيع العيش ، ودلائل الرشد من الرشيد الحكيم لا تنقضي في الكائنات من نبات وحيوان وإنسان ، النبات من الذي أرشده لاختيار العناصر التي تجعل نوعاً منه حلواً والآخر حاراً والآخر حامضاً وهٰذا بلون وذاك بآخر ، فهٰذه وغيرها من دلائل رشده التي تثير في النفس إجلال الرشيد ولم يفطن إليها الكثير ولم يدرك كنهها إلا من تحلىٰ بروح

---

(1) الرعد ، 4 .

صافية وعقل مستنير وقلب مفعم بالنور وهٰذا كله في المستحق لخلافة ٱلله الرشيد ولا أدل وأوضح من قول ربنا في كتابه العزيز حيث يرشد إلىٰ هٰذا المعنىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] فمن الذي أرشد كل صنف من النبات لاختيار المواد التي تلائم نوعه من حيث الشكل واللون والفائدة ، لا إلـٰه إلا ٱلله الذي أرشد الكل إلىٰ ما فيه الفائدة له ولغيره ، فهو الذي أنزل من السحاب ماء أخرج به نبات كل صنف ، فأخرج من النبات شيئاً غَضّاً طرياً ، ويخرج منه حباً كثيراً بعضه فوق بعض ، ومن طلع النخل عراجين يخرجها محملة بالثمار سهلة التناول مختلفة الشكل واللون والرائحة والفائدة ، ويخرج ٱلله الرشيد كذلك بالماء جنات من الأعناب والزيتون والرمان ، ومنها ما هو متماثل الثمر في الشكل وغير متماثل في الطعم والرائحة ونوع الفائدة . وهنا دعوة تأمل كيف أرشد ٱلله هٰذه العناصر إلىٰ تشكيل هٰذه الثمار المختلفة في الشكل واللون والطعم والرائحة ، وهي نظرة في تدبير الرشيد وما في ذلك من اعتبار في تكوين ثمره حين يثمر ، وإلىٰ نضجه كيف تم بعد أطوار مختلفة ؟ إن في ذلك لدلائل لقوم ينشدون الحق ويؤمنون به ويذعنون له ، فالراشدون هم الذين يستجيبون للرشد من خلال التأمل في خلقه المتنوع المتباين ، وهم المتخلقون بأخلاق الهدىٰ واستبيان سبل الرشاد وهٰذا من الدلائل علىٰ كمال إرشاد ٱلله تعالىٰ وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلىٰ خلقه ، وهٰذه الدلائل هي أيضاً نعم بالغة في الرشد والتأمل والاعتبار وهي إحسانات كاملة ، فالكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه ، وكان إنعاماً وإحساناً من سائر الوجوه ، كان تأثيره في القلب

(1) الأنعام ، 99 .

عظيماً ، وعند هـٰذا يظهر أن المشتغل بإرشاد الخلق إلىٰ طريق الحق لا ينبغي أن يعدل عن هـٰذا السبيل في تبين الرشد من الدلائل التي بثها ٱلله في مخلوقاته ، فهي آيات دالة علىٰ وجود الرشيد القادر الحكيم وتوحيده ، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع من أصل واحد ونقلها من حال إلىٰ حال لا يكون إلا بإحداث رشيد قادر يعلم تفاصيلها ، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده ، ولا يفطن إليها إلا ذو عقل رشيد ، ذلك أن الكمالات علىٰ المستوىٰ الإنساني هي إرشاد الخلق بعضهم لبعض بما تفاضلوا به مما أنعم الرشيد علىٰ البعض منهم بالرشد ، والحكمة المقتضية لذلك هو أن الإنسان لما كان غير مكتفٍ بتفرده في بقائه ، فإن أول ما يحتاج الإنسان إليه ما يواريه وما يغذيه ، وليس يجد ما يواريه مصنوعاً ، ولا ما يغذيه مطبوخاً ، كما يكون لكثير من المخلوقات الأخرىٰ التي أرشدت إلىٰ طعامها ، بل هو مضطر إلىٰ إصلاحهما ، وإصلاح ذلك يحوجه إلىٰ آلاتٍ غير مفروغ منها ، والإنسان الواحد لا توصل له إلىٰ إعداد جميع ما يحتاج إليه ليعيش العيشة الحميدة ، فلم يكن بُدٌّ للناس من تشارك وتعاون ، فأرشد كل قوم إلىٰ صنعة وهيئة مفارقة للصنعة الأخرىٰ ليقتسموا الصناعات بينهم ، فيتولىٰ كلٌّ منهم صنفاً من الصناعات فيتعاطاه باعتزاز ، كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (1) فاقتضت حكمة الرشيد أن تختلف ألسنتهم وأشكالهم وألوانهم وقواهم وهممهم وأعمالهم ، فيكون كلٌّ ميسَّراً لما خلق له ، فتكون معايشهم مقتسمة بينهم ، كما بيناه في الآيات المتقدمة . والاختلاف الحاصل بين الناس إنما هو من رشد الرشيد ، فالناس إذا اعتبر اختلاف أغراضهم وهممهم فهم في صناعاتهم في حكم المسخرين وإن كانوا في الظاهر مختارين ، وقد أشار

---

(1) المؤمنون ، 53 .

النبي ﷺ إلىٰ ما يتعلق من المصلحة بتباينهم واختلاف أحوالهم وطبقاتهم فقـال : « لا يـزال النـاس بخيـر مـا تبـاينـوا ، فـإذا استـووا فـذاك حيـن هلاكهم » [1] .

و الرشد هو من الرشيد الذي يوجه العناية الإلـٰهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلىٰ مقاصده فتقويه علىٰ ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ [2] وهو الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الرشد الكامل ونعني به الاهتداء إلىٰ وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلـٰهية ، فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلىٰ جهة السعادة ومحركة إليها ، فالإنسان الذي يملك مالاً علىٰ سبيل المثال واستطاع أن يحفظه وينميه في الطرق المشروعة التي أحلها ٱلله تعالىٰ ، ولـٰكنه مع ذلك يبذر ، وهـٰذا التبذير هو مضيعة لبعض المال فهو لا يسمىٰ رشيداً لا لعدم هدايته ، بل لقصور هدايته عن توجهه لما أرشد إليه ، وحتىٰ يكون رشيداً فيجب أن يكون كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [3] فكم من شخص يقدم علىٰ ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ، ولـٰكنه لم يعطَ الرشد ، فالرشد بهـٰذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلىٰ وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه الرشد إلىٰ صوب المطلوب واتجاهه من أجل إصابة الصواب في أسرع وقت ، فإن الهداية بمجردها لا تكفي ، بل لا بد من هداية محركة للتسديد نحو الرشد ، والرشد لا يكفي ، بل لا بد من تيسر الحركات

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 19 ، ص 84 .

(2) الأنبياء ، 51 .

(3) الإسراء ، 29 .

بمساعدة الأعضاء والآلات والجوارح حتىٰ يتم المراد مما انبعث عليه الرشيد ، والرشد أيضاً هو تنبيه الرشيد ليستيقظ ويتحرك نحو السداد ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد ، ومن هنا يكون التأييد للرشيد الذي أرشد فكأنه جامع لأسباب الرشد ، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من الداخل ومساعدة أعضائه من الخارج ، وهـٰذا عمل يقربه من العصمة ، وهي عبارة عن عناية إلـٰهية تسبح في الباطن ، فيقوىٰ بها الإنسان علىٰ تحري الخير وتجنب الشر كما كان حال يوسف عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (1) وهنا نتبين رشد يوسف عليه الصلاة والسلام عندما عزمت امرأة العزيز أن تخالطه ونازعته نفسه إليها ، لولا أن رأىٰ نور ٱلله الحق نصب عينيه قد استضاء به ، ولم يطاوع ميل النفس ، وارتفع عن الهوىٰ ، فامتنع عن المعصية والخيانة وثبت علىٰ طهره وعفته . فهـٰذه هي مجامع النعم ، ولن تثبت إلا بما يخوله ٱلله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير ومن ملك ذلك كان من الراشدين ، فالذين يتبصرون في آيات ٱلله تعالىٰ طالبين منها التمييز ما بين الخير والشر لعلهم يرشدون أي يسلكون طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلاً فيمشي بهم إلىٰ السعادة الأبدية فإن ٱلله يمكنهم من أسباب الخير ويهون عليه الشدائد ويرفع عنهم الأمور المحرجة ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور ومن الضيق إلىٰ السعة ومن الغيّ إلىٰ الرشد كما قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) فالذين بذلوا جهدهم ، واحتملوا المشقة في نصرة في التبصر سوف يرشدون إلىٰ طريق الهداية و الخير

(1) يوسف ، 24 .

(2) العنكبوت ، 69 .

والحق ، والمجاهدة غض البصر وحفظ اللسان وخطرات القلب ويجمعها كلها الخروج عن العادات البشرية ، فمن أعطي ذلك كان من المستخلفين الراشدين ، ولا يتوقف الرشد علىٰ خلق دون خلق ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ قال : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (1) ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان وجميع المخلوقات علىٰ السواء في الهدىٰ والرشاد الذي أراده الخالق ، فكيف كان الحيوان مرشداً للاختراع فيما يعمل مما لا يستطيعه الإنسان ، حيث يصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوي الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون إرشاد الرشيد لها ، وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب ، فٱلله تعالىٰ هو المتفرد بالخلق ومتفرد بإرشاد خلقه الذي خلقه ، فإن انفراد ٱلله سبحانه بخلق الخلق وأعماله وحركات لا يخرجها عن كونها مقدورة لهـٰذا المخلوق أو ذاك علىٰ سبيل الاكتساب والإرشاد ، بل ٱلله تعالىٰ خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار والمختار جميعاً وهدىٰ كل مخلوق إلىٰ رشده ، إن الخالق عزَّ وجل لا تنقضي عجائبه في إرشاد خلقه مما كبر منها أو صغر ، ومما عظم منها أو هان وضعف فقد قال تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (2) فبيتها أوهن البيوت وأبعد عن الصلاحية للاحتماء ولـٰكن مع هـٰذا علىٰ ما نسج فله حقيقة وانتفاع فلو رأينا العنكبوت حين تبني بيتها لشاهدنا رشداً قد يعجز المهندس في صنعته ، فهي إنما تطلب موضعين متقاربين ، بينهما فرجة يمكنها مد الخيط إليها ، ثم تلقي لعابها علىٰ الجانبين ، فإذا أحكمت المعاقد ورتبت القماط والركائز اشتغلت

---

(1) طـه ، 50 .

(2) العنكبوت ، 41 .

باللحمة ، فيظن الظان أن نسجها عبث ، وإنما هي شبكة للبعوض والذباب والحشرات ، وإنها إذا أتمت النسيج انزوت إلىٰ زاوية ترصد رصد الصائد ، فإذا وقع في الشبكة شيء قامت تجني ثمار كسبها ، فإذا أعجزها الصيد طلبت لنفسها زاوية ، ووصلت بين طرفيها بخيط آخر ، وتقف في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها ، فإذا دنت منها رمت نفسها إليها فأخذتها ، واستعانت علىٰ قتلها بلف الخيط عليها ، وهـٰذه الصنعة أرشدها المرشد جل جلاله إليها ، أفلا ننظر إلىٰ حكمة الرشيد الذي أرشدها وعلمها وفهمها . فها هي عجائب المخلوقات علىٰ نفسها ترشد الغافلين إلىٰ باب الرشيد وهم عن التبصر بعيدون .

فمن أعظم نعم ٱلله تعالىٰ علىٰ الخلق هو الرشاد ، فهو يرشد الإنسان ويطبعه علىٰ العدل وحبه ، وعلىٰ الحق وإيثاره والمؤثرون علىٰ أنفسهم قليل جداً وذلك من صفات الراشدين الذين مدحهم ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] فالإيثار من درجات الرشد العالية لما فيه من الكرم والصدق والأمانة والتواضع الذي هو رأس الحكمة والحلم حيث يبعد الغضب ويقوي الصبر ويقهر الكبر والخيلاء ، ومن قدر في نفسه عجباً أو ظن أن له علىٰ سائر الناس فضلاً فلينظر إلىٰ صبره عندما يدهمه همٌّ أو نكبة أو وجع أو مصيبة ، فإن رأىٰ نفسه قليلة الصبر ، فليعلم أنه بعيد عن الرشد قريب من الغي ومصروف عن الخير حيث قال تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [2] فٱلله

(1) الحشر ، 9 .
(2) الأعراف ، 146 .

تعالىٰ وهو الرشيد يمنع الرشد عن المتكبرين بأن يصرفهم من التفكير في دلائل قدرته القائمة في الأنفس والأفاق ، أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب غير محقين ، وإن يروا كل آية تدل علىٰ صدق لا يصدقوها ، وإن يشاهدوا طريق الهدىٰ لا يسلكوه ، وإن يشاهدوا طريق الضلال يسلكوه ، يحدث ذلك منهم بسبب أنهم كذبوا بآيات ٱلله وغفلوا عن الاهتداء بها فابتعدوا عن سبيل الرشاد . إن الإنسان إذا رأىٰ نفسه صابرة ، فليعلم أنه قد هدي إلىٰ الرشد ، وكذلك من أراد أن يعلم أنه علىٰ طريق الرشد أو الغي ، فلينظر إلىٰ سيرته وعدله أو جوره فيما خوله ٱلله من نعمة أو مال أو صحة أو جاه ، فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر للذي أرشد إليه هـٰذه النعم ، فقد ضل وغوىٰ مبتعداً عن سبيل الرشاد ، وإن كان غير ذلك فليأخذ بما هو فيه ؛ لأنه علىٰ جادة الصواب في موازين الأخلاق ومقاديرها من الخير والهداية والتواضع ، فالرشيد بعيد عن العجب بنفسه ، لعلمه بموازين الأشياء ، ومقادير الأخلاق ، والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال ، فإن أعجب فلم يعدل ولم يرشد ، بل قد مال إلىٰ الإفراط في أموره ، والرشد حصن يلجأ إليه كل إنسان في المواقف التي تظهر للعيان أمام الناس ، وذلك أننا نرىٰ الرشيد وغير الرشيد ، يدعو إلىٰ الرشد إن لم يأخذ به لما علم هـٰذا وذاك من فضائل الرشد ، ولم نرَ أحداً يمدح الغي والضلال وإن عمل به ، فمن أعمال الرشد الكثيرة حسن المجاورة ، والنصح عند المشاورة ، والبر في المجاورة ، ومن عمل بهـٰذه الأخلاق فهم كما قال تعالىٰ : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴾ [1] ، وقال رسول ٱلله ﷺ : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هـٰؤلاء الكلمات اللهُمَّ إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة علىٰ الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلباً سليماً وأسألك لساناً صادقاً وأسألك من

---

(1) الجن ، 14 .

خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب » [1] .

اللهُمَّ يا الرشيد يا ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، نسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك الرحيم الودود ، وأنت تفعل ما تريد ! اللهُمَّ إن هـٰذا اليوم من خلقك جديد ، فافتحه علينا بطاعتك واختمه لنا بمغفرتك ورضوانك ، وأرشدنا فيه إلىٰ حسنة تقبلها منا ، وزكها وضاعفها لنا ، وما عملنا فيه من سيئة فاغفرها لنا ، إنك الرشيد ، والودود الكريم ! اللهُمَّ أرشدنا إلىٰ حسن دعائك الذي أمرتنا به ، ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا ، فأجبنا كما وعدتنا ! اللهُمَّ بلغنا سبل الرشاد بهديك ، وامنن علينا بمغفرة ليس بعدها ذنب ، ورشاد ليس بعده ضلال ! اللهُمَّ أرشد قلوبنا إلىٰ طريق الصلاح ، ونوّر عقولنا بسبل الهدىٰ ، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وهيئ لنا من أمرنا رشداً !

---

(1) مسند أحمد ، 34 ، 478 .

الصَّبُورُ جَلَّ جَلَالُهُ

الصبور جلَّ جلاله : هو الذي لا تحمله العجلة علىٰ المسارعة إلىٰ الفعل قبل أوانه بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها علىٰ سنن محدود لا يؤخرها علىٰ آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل ولا يقدمها علىٰ أوقاتها تقديم مستعجل بل يودع كل شيء في أوانه علىٰ الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي وكل ذلك من غير مقاساة داع علىٰ مضادة الإرادة .

الصبور : « المعتاد الصبر القادر عليه و اسم من أسمائه تعالىٰ ومعناه أنه لا يعاجل العصاة بالانتقام مع القدرة عليه » [1] .

الصَّبُورُ في صِفَة ٱلله عَزّ وجلّ : « الحَليمُ الَّذِي لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالنِّقْمَةِ بل يَعْفُو أو يُؤَخِّرُ » [2] .

في أَسماء ٱلله تعالىٰ الصَّبُور هو « الذي لا يُعاجِل العُصاة بالانْتقام ، ومعناه قَرِيب من مَعْنَىٰ الحَلِيم ، والفرْق بينهما أَن المُذنِب لا يأْمَنُ العُقوبة في صِفَة الصَّبُور كما يأْمَنُها في صِفَة الحَلِيم » [3] .

وأما صبر العبد فلا يخلو عن مقاساة لأن معنىٰ صبره هو ثبات داعي الدين

---

(1) المعجم الوسيط ، ج 1 ، ص 1049 .

(2) تاج العروس ، ج 1 ، ص 3046 .

(3) لسان العرب ، ج 4 ، ص 437 .

أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلىٰ الإقدام والمبادرة ومال إلىٰ باعث التأخير سمي صبوراً إذ جعل باعث العجلة مقهوراً وباعث العجلة في حق ٱلله سبحانه معدوم فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود ولـٰكنه مقهور فهو أحق بهـٰذا الاسم بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث ومصابرتها بطريق المجاهدة [1] .

اسم من أسماء ٱلله يدل في معناه علىٰ التأني وينفي صفة العجلة والتسرع عن الخالق عز وجل ، والذي يعطينا معنىٰ تأخير العقوبة علىٰ من يستحقها من البشر علىٰ ما قدموه في الحياة الدنيا ، أي أن هـٰذا التأخير بأجل محدود ومقدّر لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [2] ، فتأخير العقاب علىٰ مستحقيه لا يعني إسقاطه عنهم بل وجوب وقوعه عليهم في وقت معلوم ومحدد من الخالق جل جلاله لا دخل للإنسان بهـٰذا التوقيت ولا علم له به ، ولولا صبر ٱلله المطلق علىٰ المجرمين والعصاة لكان العقاب فورياً ، لـٰكنه لا يعجّل إنزال العقاب عليهم ليمهلهم .

الصبور : مصدر لكل صبر ، يستمد الصبر منه وهو لا يستمد من شيء سبحانه جلَّ جلاله ، ولذا فالصبر دليل قوة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل ؛ وذلك لأنه المستمد من الصبور المطلق ، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها .

والصبر في حق ٱلله تعالىٰ يكون درساً في التوازن والنظام ، أي أنه سبحانه وتعالىٰ لا تحمله العجلة علىٰ تقديم ما لا يجب تقديمه ، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته جل جلاله هنا تتدخل لتعمل علىٰ تسيير أمور خلقه وفق نظام

---

(1) الغزالي ، المقصد الأسنىٰ ، ص 149 .

(2) النحل ، 61 .

وسنن ثابتة ، لا يمكن أن تتبدل هـٰذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عباده .

والصبور سبحانه وتعالىٰ بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي يستطيع أن يفعل ما يشاء ، في الوقت الذي يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (1) ، فصبره دائماً علىٰ حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر بالكاف والنون ولـٰكنه يُمهل ويصبر بشكل متوازن وعادل دون أي خلل في ذلك ، وكيف يكون ذلك وهو المنزه عن كل نقص أو عيب من شأنهما أن يسببا أي ضعفٍ أو خلل ؟

وكل شيء عنده بميزان وبمقدار وبميعاد ، قدَّره الخالق مسبقاً مع التوافق بسرعته في تسيير الأمور ، وهنا نجد أن السرعة المتوازنة صائبة لا خلل فيها ولا عيب ، فمثلاً نجد أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ في مواطن كثيرة من حياتنا يعطينا ما نطمح إليه ونحتاجه في وقته ، وفي أحيانٍ أخرىٰ يمسك تلك الحاجة فيمهلها أو يؤخرها علينا ، وكأنه عز وجل يدلنا علىٰ أصوب الطرق للصبر الذي علينا أن نستمده منه جل جلاله .

فالصبور تبارك وتعالىٰ يعلّمنا ماهية الحكمة في العطاء وفي منع هـٰذا العطاء ، ويُشعرنا بهيمنته الكاملة علىٰ كل شيء في الحياة والكون بصفة عامة ، وأن بيده كل الأمور يقلّبها ويدبّربها حسب علمه المطلق وحكمته البالغة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (2) ، إذاً هو الصبور بالرغم من استطاعته وقدرته وقوته علىٰ كل شيء مطلقاً فهو الكامل في صفاته وأفعاله الجليلة العظيمة الحكيمة ، وصبره نابع من ذلك الكمال كله ، ولو تأملنا جيداً في هـٰذا الاسم لوجدناه الخير كله يجمعه ويوزعه علىٰ الخلق بكرمه ورحمته وحكمته ،

---

(1) البروج ، 16 .

(2) يس ، 82 ـ 83 .

بالرغم من أنه يصبر علىٰ العباد إلا أنه في أحيانٍ أخرىٰ قد ينزّل عقابه سريعاً ويرسله كعبرة للبشر وموعظة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (1) ، وهنا صفة الصبر لا تنتفي مع تنزل العقاب والعذاب لكي يُحدث التوازن في إحقاق الحق والانتقام من الظالمين الذين لن يرتدعوا بأية وسيلة ، ولا نجد أي نوع من التناقض في ذلك أو الظلم ، قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (2) ، فعلمه المطلق عز وجل والمسبق أدرك مسبقاً أن الخير والنفع للعباد سيكون علىٰ هـٰذا الشكل ، فالصبور بصير بعباده وعليم بهم وبما يكتمون ويُظهرون .

الصبور : هو من لا قلق فيه ، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون ، وهو بكل شيء عليم ، ومع ذلك يترك الأمر إلىٰ حين ، ولهـٰذا قال : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (3) .

الصبور جل جلاله في صبره إبداع ، وفي إبداعه صبر عظيم ، فهو الخالق المبدع لكل شيء منذ أمره بنشأة الحياة والكون ، فهو سبحانه دائم الخلق والإبداع حيث أنه الخلاق ، قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ (4) ، فكم من أعدادٍ للبشر جاءوا ورحلوا عن هـٰذه الأرض ؟ وكم من أنواع للنباتات والدواب والطيور جميعها كانت سواء في الفناء ، فنستشعر هنا بالصبور الذي

---

(1) هود ، 67 ـ 68 .
(2) القمر ، 42 .
(3) الروم ، 60 .
(4) يس ، 81 ـ 83 .

لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب ، إذ أنه بوحدانيته المختص الأوحد في فعل كل ذلك سبحانه الأحد الصمد ، الذي لا يشاطره أي شيء آخر في قدرته وخلقه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (1) ، ففي الآية الكريمة السابقة جعل ٱلله تعالىٰ قدرته علىٰ الخلق دون تعبٍ أو مشقة درساً ومثلاً لتعليمه أنبياءه ورسله الصبر علىٰ صعاب الأمور ، وكأنه يقول للبشر ما هو الأمر الأصعب من الخلق وتكوين هٰذا الكون ؟ وبالرغم من ذلك فقد نفذ أمره دون ملل أو تعب ، فعلىٰ الخليفة الذي استخلفه الخالق في الأرض أن يكون صابراً علىٰ أموره وثابتاً لا يهزمه الملل ولا يقضي عليه التعب والضيق .

ولله المثل الأعلىٰ : فالإنسان عادةً ما يقوم بعملٍ ما أو يكون مسؤولاً عنه نجده في يومٍ من الأيام متذمراً منه ضائقاً به ، ولابد أن تمر عليه لحظة يشعر فيها بالملل والتعب والضجر منه ، فيؤثر ذلك علىٰ سير عمله بالاختلال أو النقص ، فيضطر للاستعانة بغيره لمساعدته علىٰ ضبط العمل والعودة إلىٰ سرعة الإنتاج وتجاوز الخلل الذي سبق وأن حدث ، لكنّ الخالق عز وجل منزه عن كل نقصٍ أو عيب أو خلل فلا يكابده التعب أو الضجر لقدرته الكاملة لاستيعاب كل شيء في آن واحد ، فهو الصبور بقوته ومتانته وجبروته عز وجل ، فنلاحظ اجتماع أكثر من صفة في حق المولىٰ عزَّ وجل ، حيث أنه :

ـ ذو الجلال والإكرام الصبور المستمر في الخلق والإبداع وإحقاق الحق بعدله المطلق ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (2) .

---

(1) ق ، 38 ـ 39 .

(2) يونس ، 44 .

ـ المنتقم من الظالمين علىٰ مر الزمان ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (1) .

ـ الرحيم بعباده دون انقطاع لهٰذه الرحمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) .

ـ الودود الذي لا يمل من تقديم الود والحب لعباده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ (3) .

ـ الغفور لذنوب عباده المذنبين ، فلا يتعب من كثرة ذنوبهم ولا يملل من الغفران وقبول التوبة ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (4) .

ـ الخالق في استمراره الدائم للخلق ومراقبتهم وتسجيل أعمالهم تجسيد عظيم للصبر ، فقد قال عز وجل : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (5) .

إذاً فالخالق الصمد هو وحده الصبور في ملكوته علىٰ القيام بكل شيء وباستمرار دون انقطاع أو خلل ، فكيف لا يلجأ إليه العبد الضعيف الذي لا تنقطع حاجته إليه جل جلاله .

فٱلله هو الصبور وهو الواحد الأحد وهو الملجأ الوحيد لكل عباده ،

---

(1) إبراهيم ، 47 .

(2) البقرة ، 163 .

(3) البروج ، 14 .

(4) الملك ، 1 ـ 2 .

(5) الأنعام ، 59 .

فلا يكون مثله أحد في صمديته ووحدانيته ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (1) ، فقد يسّر ٱلله كل هـٰذا الكون لخدمة خليفته في الأرض ، فكان هـٰذا النسق وهـٰذا النظام البديع في الكون بأسره ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (2) ، فبهـٰذا يختص سبحانه وتعالىٰ بالوحدانية التي ترتبط بالصبر لذلك فهو الصبور لقيامه وحده جل جلاله بكل ذلك وبالشكل المتقن الدائم المستمر ، كل عمل يتناسب والوضع والزمان والمكان ومن هنا نستطيع القول أنه الصبور في أحكامه ؛ لأنه يعلم كيف وأين ومتىٰ يفعل وينفذ ، ولاشيء ولا أحد يستطيع أن يغيّر شيئاً قدّره الواحد الأحد .

إنه الصبور علىٰ ما يقولون وعلىٰ ما يفعلون ، وصفة الصبر تنبع منه أساساً جلَّ جلاله ، حيث أن كل شيء إيجابي وكل ما هو حق وكل ما هو جميل ، منبعه منه أولاً وأخيراً عزَّ وجل .

وتكمن صفة القوة في الصبر ، حيث أنه لا قوة بلا صبر ، ولا صبر إلا عند قوي متين ، فالصبر الحقيقي يكون متحداً وملازماً للقوة ، تلك القوة التي تحتاج إليها عملية الخلق ، فكان حقٌّ لله علىٰ خلقه توحيده وعبادته ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (3) .

---

(1) الإخلاص ، 1ـ4 .

(2) الملك ، 3ـ4 .

(3) الذاريات ، 56ـ58 .

والصبور في حق ٱلله له أكثر من دعامة يرتكز عليها منها :

1 ـ صبره عزَّ وجل عن قوة وقدرة مطلقين :

فصبر الخالق المطلق علىٰ عباده يدعمه القوة والقدرة لا الضعف والحاجة ، فما حاجة ٱلله لنا وهو المالك لكل شيء وبأمره (كن) يفعل ما يريد ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1) ، فمن يملك كل هـٰذه القدرة بالتأكيد هو بغنىً عن كل ما خلق وصوّر ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (2) ، فبما أنه عزَّ وجل الغني عنا فهو القوي القادر علىٰ كل شيء وبالتالي من يملك هـٰذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزاً أو ضعفاً أو حاجة ، فهو المنزه عن النقائص والعيوب عزَّ وجل ، ولا يمكن أن يكون إلا الكمال له في صفاته .

ولـٰكن بالرغم من قدرته المطلقة إلا أنه صبورٌ علىٰ أخطائهم مفسحاً لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها إذ أنه عزَّ وجل لا يمكن أن يظلم أحداً بسبب خطيئة غيره ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (3) .

2 ـ صبره عن علم لا عن غفلة :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (4) ، فٱلله تعالىٰ ينتفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان

---

(1) النحل ، 40 .

(2) لقمان ، 26 .

(3) الأنفال ، 33 .

(4) إبراهيم ، 42 .

والتلاهي عن أي أمر ، وصبره لا يعني أنه غافل عما يفعله العباد وطول الفترة لا يعني نسيان أمرهم ، بل صبره فيه تأخير لهـٰؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة جل جلاله وعلمه اللذين يقدّمان ويؤخّران الأمور حسب مشيئته وإرادته عزَّ وجل ، فالغفلة تتنافىٰ مع علم ٱلله المطلق بكل شيء ، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافعٌ وضار بهم .

وفي الآية الكريمة السابقة توضيح لعدم غفلة ٱلله بدليل تحضير العقاب المناسب لهم والذي استحقوه بظلمهم ، فمن كان علىٰ علم بالعقاب كيف يكون غافلاً عن العمل المستحق لهـٰذا العقاب ؟

ٱلله جلَّ جلاله بعلمه المسبق والمطلق علىٰ علمٍ بكل شيء لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، لهـٰذا فقد كان جزاؤه وعقابه حاضرين وهـٰذا يدل علىٰ انتباهه لأصغر وأدق الأمور ، قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٞ ﴾ (1) .

3 ـ صبره عزَّ وجل علىٰ عباده لا يعني إسقاط العقاب :

العقاب قائم بإذنه تعالىٰ علىٰ من يستحقه كما سبق وأخبرنا ٱلله تعالىٰ بذلك في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرٗا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(1) سبأ ، 2 ـ 5 .

(2) آل عمران ، 4 .

كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (1) ، إذاً فالعقاب قائم رغم عدم وقوعه عليهم في الدنيا بصبر ٱلله تعالىٰ عليهم ، ولـٰكن هـٰذا الصبر لم يكن بمثابة عفوٍ أو إسقاطٍ لهـٰذه العقوبة .

فقد حذّر ٱلله تعالىٰ عباده من العقاب الشديد الذي ينتظرهم جزاء ما اقترفوه من ذنوبٍ وشرور وفساد ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ (2) ، وهـٰذا تأكيد علىٰ أن العقوبة قائمة رغم الصبر عليهم ، فلا يلغي الصبر علىٰ كفر الكافرين العقاب الشديد ، الذي يستحقونه دون نقصٍ أو زيادة .

بذلك لابد أن نفرّق بين صبر ٱلله تعالىٰ وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة ، وأيضاً لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض ، وكذلك لا يكون صبره حاملاً الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ (3) ، أما الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة ، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر ، ويكون في صبره شعور يحرّك الألم والحزن في داخله ، وقد يؤدي به إلىٰ اليأس والإحباط .

من مظاهر صبر الصبور سبحانه وتعالىٰ علىٰ عباده ، منع ٱلله تعالىٰ

---

(1) آل عمران ، 90 ـ 91 .

(2) البقرة ، 174 ـ 175 .

(3) الأنعام ، 133 .

للطبيعة عن معاقبة الكافرين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41) وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (2) ، فما الذي يمسك عقاب الطبيعة للمجرمين ؟

واسم ٱلله الصبور علىٰ الخلق جميعاً مسلمهم وكافرهم ، عاصيهم ومطيعهم ، تائبهم ومذنبهم ، فقد اجتمع البشر مسلمهم وكافرهم ، وفقيرهم وغنيهم ، وصحيحهم ومريضهم في الابتلاءات لـٰكنهم اختلفوا عن بعضهم في الصبر الذي استحق الثواب .

وٱلله هو الصبور علىٰ جميع الخلق ، ولـٰكن رحمة ٱلله بصبره وحلمه علىٰ العباد العصاة ، بالرغم من شدة كفر هـٰؤلاء الناس وإشراكهم به عز وجل ، هو الصبور الذي يُخفي بين طياته الكرم والرحمة ، فصبره هو الذي أخّر هـٰذا العقاب الدنيوي للكافرين جزاءاً لهم علىٰ كفرهم وعنادهم ، فصبر الصبور هنا تمثّل في المنع عن تنفيذ العقاب الفوري لأولئك الكافرين وهـٰذا ما ترغب به السماء والأرض من شدة كفرهم وطغيانهم إلا أن الصبور يمسكهما بصبره وحلمه عزَّ وجل .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون صابراً امتثالاً لأمر الخالق في قوله

(1) إبراهيم ، 46 .

(2) فاطر ، 40ـ43 .

تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (1) ، لأن الصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلىٰ أفضل وأسلم النتائج .

الصبور جلَّ جلاله : يهب الصبر لمن يشاء من عباده بعلمه وخبرته بهم ، ويجعلهم يتحلون به ليعينهم علىٰ تحمل ما يلاقونه من مشاق ومصاعب في الحياة الدنيا ، فيكون صبرهم سندهم في تكملة طريقهم في الدنيا الذي رضي المولىٰ عن سلوكه ، وقد وهبهم ٱلله الصبر لحبه فيهم مظهراً لهم مكانتهم عنده فيبادلونه هـٰذا الحب الكبير برضاهم بقضائه وقدره وطاعتهم له سبحانه وتعالىٰ ، قال عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ (2) ، من هنا تتضح مكانة العبد الصالح المخلص عند ٱلله فهو مخلوقٌ غالٍ علىٰ الخالق استخلفه في الأرض وأكرمه أكثر من جميع خلقه ، علماً بأن الخالق جل جلاله بعلمه المسبق وخبرته بخلقه جميعاً يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون الدماء ولـٰكنه أيضاً علم أنه من عباده الصالحون المصلحون فصبر علىٰ الظالمين وقرّب المخلصين وأثابهم وأعطاهم أكثر مما يمكن أن نتصوره ليستطيع أن يتحمَّل العبء المنوط به ، فيكفي الإنسان أن يتأمل في اسم الصبور ليستشعر بينه وبين نفسه أنه مخلوق مكرّم وغالٍ عند ربه ، والدليل علىٰ ذلك أنه حين يخطئ أو يُذنب أو ما شابه ذلك يجد الخالق أحياناً ساتراً له لا يفضحه بين الناس بل يستره ، وهـٰذا لا يكون إلا بوجود الحب والمودة بينه جلَّ جلاله وبين خلقه ، وصبره علىٰ خطيئة العبد مع القدرة والاستطاعة علىٰ العقاب فلا لشيء إلا لتقدير الخالق لهـٰذا المخلوق .

---

(1) آل عمران ، 200 .

(2) البينة ، 7 ـ 8 .

لذلك فلابد لخليفة ٱلله تعالىٰ أن يكون عاشقاً لله مستشعراً بمكانته عنده ، فلا يفرّط فيها ولا يجب أن تنقص بل يجب أن تزيد ، ومكانة هـٰذا الخليفة لا تزيد إلا بالعمل الصالح والطاعة لله تعالىٰ وخشيته والإخلاص له والصبر علىٰ حكمه ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (2) .

والصبر ليس شعوراً يزرعه الصبور فينا فقط ، بل هو منهج حضاري راقٍ يصل بالبشرية إلىٰ الهدف الأسمىٰ وهو سيادة المحبة والعدل والنظام ، والدليل علىٰ ذلك يتطلب من الإنسان أن يتأمل في الكون من حوله ليدرك مظاهر الصبر الظاهرة فيه ، فالشمس مثلاً تشرق رويداً رويداً وتغرب كذلك لا عجلة في حركتها بل تتحرك وهي مقدرة بنظام ودقة ، وكذلك فقد خلق ٱلله السمـٰوات والأرض علىٰ مراحل وأيام ولم يكن خلقها في لحظة مع إمكانية تحقيق ذلك بالنسبة لقدرة ٱلله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (4)، فالسماء والأرض كان في

---

(1) النحل ، 96 ـ 97 .

(2) الملك ، 12 .

(3) الأعراف ، 54 .

(4) الحديد ، 4 ـ 6 .

خلقهما آية للناس في الصبر مع توفر القدرة لخلقهما في لحظة واحدة ، وكذلك لو تأملنا إلىٰ خلق الإنسان نفسه منذ بداية تكونه جنيناً في رحم أمه ، فينمو شهراً بعد آخر ولا يتم تكوينه في يوم واحد بل يكون في تكوينه تجسيد لنوعين من الصبر أولهما صبر الأم تسعة أشهر ممزوجة بالمعاناة والألم والتعب ، وكذلك رضاعته لم يجعلها ٱلله أياماً أو ساعات بل امتدت لعامين كاملين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1) .

والنوع الآخر صبر يتمثل في تكوين الإنسان نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ (2) ، إذاً فالصبر له صور متعددة وواضحة في حياتنا ولٰكننا لا نلتفت إليها ولا نتخذها مسلكاً ومنهجاً لنا .

فوائد الصبر علىٰ خليفة ٱلله في الأرض عديدة منها :

أ ـ قهر الشهوات والتحكم فيها :

خلق ٱلله الإنسان وخلق فيه الشهوة والرغبة ، وقد تباين البشر في اتباع شهواتهم ، فمنهم من كان عبداً لها تأمره فيطيع ، لا يستطيع الصبر علىٰ ما يشتهيه فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه أن يحاورها عن مدىٰ صحة أو خطأ هٰذه الطاعة لشهوته ، فلا يتأنىٰ ولا يصبر علىٰ زينة ومتاع الدنيا اللذين من شأنهما أن تدمرا حياته ، قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

---

(1) لقمان ، 14 .

(2) الحج ، 5 .

وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ (1) ، فالشهوات متعددة في الدنيا وكثيرة وكل نوع منها يحتاج إلىٰ إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد ، والصبر لا يأتي إلا بالطمع فيما عند ٱلله تعالىٰ ومد البصر إلىٰ النعيم الأخروّي الذي ينتظر الصابرين في الدنيا والمتمسكين بصبرهم أمام إغراءاتها المتنوعة .

ومنهم الخليفة الذي كان مالكاً لشهواته مسيطراً عليها بصبره وجلده ، لعلمه بأنها خُلقت لكي تكون عوناً للإنسان في نيل رضا رب العالمين ، ولا تكون فتنة ودماراً للإنسان في الدنيا والآخرة ، فالخليفة المحب لله تعالىٰ تجده صابراً علىٰ هـٰذه الزينة البالية لعلمه بأن صبره عليها هو أكثر فائدة ومتعة من الغرق فيها ، فالعلم يمنح الإنسان اتساعاً في مداركه وفهمه للأمور وإذا توصل هـٰذا الإنسان للفهم الصحيح لأمور دينه ودنياه وصل إلىٰ معرفة قيمة الصبر وفائدته العظيمة التي تجعل منه إنساناً مترفعاً عن الرذائل مسيطراً علىٰ نفسه ومعتزاً بها ، فيصل إلىٰ حدود حب ٱلله وطلب رضاه وعفوه .

ب ـ التوكل علىٰ ٱلله واللجوء إليه :

في هـٰذه الحياة نقابل الكثير والعديد من الامتحانات لما كانت عليه حال الدنيا من أنها دار ابتلاء وامتحان كما جاء في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (2) ، وبالصبر فقط نستطيع أن نجتاز هـٰذه الامتحانات والابتلاءات ، فكثيراً ما نجد أنه في موقف نعيش فيه أشد لحظات الحزن بفقد أعز الناس لدينا ، فنشعر بالعجز وعدم القدرة علىٰ تحمل الألم وصعوبة الفراق ، ولـٰكن بالرغم من ذلك نجد أننا نتجاوز هـٰذه

---

(1) آل عمران ، 14 .

(2) المائدة ، 48 .

الساعات والأيام ونكمل حياتنا العادية ، فكيف يحدث ذلك ؟ .

يحدث ذلك بأن ٱلله تعالىٰ خلق الحزن وخلق معه الصبر وأعطاه لمن طلبه ، فمن المستحيل أن يطلب الإنسان العون والصبر من ٱلله علىٰ ما أصابه ولا يستجيب ٱلله تعالىٰ له ، فهو الصبور المطلق الذي يهدي صبره لمن يستحقه ويطلبه ، فلا يستعين الإنسان المؤمن بأي وسيلة أخرىٰ للنسيان وتجاوز محنته وحزنه ، كما يحدث مع بعض الناس الذين يبتعدون عن ٱلله فيبتعد عنهم ٱلله ، نجدهم يلجئون إلىٰ وسائل أخرىٰ للغرق فيها ونسيان ما هم فيه ، كأن يتجه بعضهم لشرب الخمر أو تعاطي المخدرات أو محاولة الانتحار أو اللجوء للسحرة والدجالين للتخفيف عنهم وغيره من أشكال البدع والخرافات والفساد والضياع ؛ لأنه في مكان يبتعد فيه عن الصبور الذي يمنحه الصبر الجميل فتسير حياته علىٰ نسقٍ مرتب وتقوىٰ نفسه علىٰ المصاعب فيكون مستحقاً لحمل أمانة الخالق له وهي إصلاح الأرض ، ولا أروع من الاحتذاء بالرسول الكريم ﷺ فقد كان دائم الطلب للصبر والعون من ٱلله علىٰ ما مر به من محن ومصاعب في سبيل تبليغ رسالته للبشرية ، فها هو مع صديقه أبي بكر الصديق في غار ثور عندما أوشك المشركون اللحاق والفتك بهم ، فقد استعان بٱلله وتوكل عليه فألهمه ٱلله الصبر والثبات ونجا منهم ، وكذلك في خروجه للطائف وتحمله الأذىٰ العنيف من أهل الطائف لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام مستعيناً إلا بخالقه يتصبر بحبه له علىٰ ما بلاه ، وقد كان الصبر أمراً لازماً لكل الرسل ليستعينوا به علىٰ شدائد الأمور ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) .

فلتكن يا خليفة ٱلله في الأرض صابراً متوكلاً علىٰ ٱلله الذي لا يمنحك

---

(1) الأحقاف ، 35 .

الصبر غيره فممن تطلبه إلا منه عز وجل الذي جعلك خليفته في الأرض لتصلح فيها ولا تفسد ولا تسفك الدماء بغير حق .

فلابد إذاً أن تفرد ٱلله وحده بالرجاء والأمل والعون ، فهو الدافع للضر والماسك للخير والمعطي له إذا أراد ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (1) .

ج ـ الصبر يأتي بالنصر :

بما أن حياة الإنسان كلها كانت ابتلاء وامتحاناً من ٱلله جل جلاله كان لابد أن يخلق معه الصبر ، ولا يكون الصبر إلا بالحق وللحق ، فعندما يدرك الإنسان المؤمن أنه علىٰ حق يستمد قوته علىٰ التحمل وصبره علىٰ الأذىٰ ليقينه بأنه علىٰ حق ولهٰذا فإن ٱلله سينصره لأن الحق دائماً هو المنتصر ولو بعد حين ، فالصبر إذاً يأمي بالنصر أي لا نصر إلا مع الصبر والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة فمن كان يصدق أن رسول ٱلله ﷺ والصحابة رضي ٱلله عنهم سيفتحون العالم وهم قلة وتجلجل دعوته في الآفاق لولا صبرهم علىٰ الشدائد والمصائب كما حدث حينما قام أهل مكة بمقاطعة الرسول عليه الصلاة والسلام وإخراجه إلىٰ شعاب مكة مع قطع التعامل معهم لسنوات وهم صابرون لم يتراجعوا عن الحق المتمثل في الدعوة إلىٰ توحيد ٱلله عز وجل ، وقد كانت نتيجة صبرهم هو ما نراه الآن من انتشار الإسلام في كل بقاع الأرض وانتصارهم علىٰ جبابرتها .

وعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يستمد حبه لانتصار الحق من صبره علىٰ الوصول والنضال فيكون بذلك عبداً صبوراً منتصراً علىٰ الظلم والباطل والفساد ، لأن من شأن الخليفة أن يكون معمّراً للأرض ولا يتحقق ذلك

---

(1) يونس ، 107 .

إلا بانتصار الحق وزوال الباطل والشر من عليها وهـٰذا يتطلب منه الصبر الكثير والقرب الشديد من الخالق عز وجل .

واسم الصبور ينطوي علىٰ أسماء وصفات لله تعالىٰ مثل :

الصبور هو العليم :

صبر الخالق علىٰ عباده منبعه علمه المطلق بهم فهو خالقهم والعالم بهم ، فيؤخر عنهم العذاب لعلمه المطلق بما هو أصلح وأنفع ، وعلمه يتعدىٰ الظواهر إلىٰ البواطن والخفايا ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ [1] ، لذلك فقد كان صبره علىٰ عباده علىٰ أساس ثابت ومتوازن ووفق قانون إلـٰهي عادل ، فعلم الخالق بعباده الصادق منهم والمنافق ، الكافر منهم والمؤمن ، العاصي منهم والمذنب علمٌ حق فيوزع علىٰ حسب علمه صبره علىٰ كل منهم ما يستحقه بلا زيادة ولا نقصان ، وهو بالتالي يعلم مقدماً من الذي من عباده سيصمد ويثبت أمام الشدائد ومن هو الذي سينهار ويضيع .

وبالرغم من علم الخالق المطلق بعباده إلا أنه لا يعجّل لهم العقاب أو الثواب ، فشدة جحود الكافرين وعصيانهم وظلمهم لم تجعل العليم يغير في توقيت وقوع عقوبته عليهم ، وكذلك حبه القوي لعباده المؤمنين الصالحين لم يجعل الخالق يتعجل في منحهم الثواب والخير الكبير والنعيم الدائم ، فكان صبره علىٰ جميع العباد ولـٰكنهم افترقوا في نتيجة هـٰذا الصبر فمنهم من كان عاقبته سيئة ومنهم من كان عاقبته خير ونعيم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ

---

(1) الأعلىٰ ، 7 .

﴿ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (1) .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يصبر علىٰ تلقي العلم المفيد الذي من شأنه أن يجعله مدركاً للأمور وعواقبها ، عالماً بما هو نافعٌ له في دينه ودنياه ، فلا يغفل عن السعي لطلب العمل ، ولا يتكاسل عن تنمية حب المعرفة والفائدة ، فلا يمكن أن يصل الإنسان إلىٰ التحلي بالصبر وهو جاهلٌ بمزاياه ونتائجه ، فالإنسان يصل بالعلم إلىٰ حدود فهم الصبر فهماً صحيحاً فينأىٰ بنفسه عن العجلة والتهور ، لأن علمه يكون رادعاً له عن التسرع المذموم ، ولـٰكن بالعلم نصبر علىٰ الأمور وبالعلم نصل إلىٰ معرفة هـٰذا الخلق الكريم ، ومن هنا كان لابد للخليفة أن يصبر علىٰ تلقي العلم مهما كانت طريقه صعبة وغير ميسرة له .

الصبور هو الحكيم الخبير بعباده :

ٱلله الصبور سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما يصدر من عباده من ذنوب وأخطاء أحياناً يتبادر إلىٰ أذهاننا فوراً أنه سبحانه يترك عبده المسيء الظالم دون أن يعاقبه علىٰ ما يقترفه ، ولـٰكن في حقيقة الأمر فإن ٱلله تعالىٰ بصبره يعطينا درساً رائعاً في التعامل مع بعضنا البعض ، فهو يترك العبد أحياناً يسيء ويخطئ في حقه عز وجل ومع ذلك نجده عز وجل يعطيه ويهب له وذلك لأمرين :

أولهما : كي يتمادىٰ في كفره وعصيانه فيستحق بذلك العذاب الأشد ، كما حدث مع قارون إذ أن ٱلله أعطاه من المال والخيرات ما لم يعطه لغيره ، ولـٰكنه بدل أن يشكر ٱلله علىٰ ذلك ويحمده فقد تجبَّر وأخذه الغرور وجحد نعمة الخالق عليه ، ولـٰكن ٱلله لم يمنع عنه نعمته مباشرة بل صبر عليه وتركه يزيد في غروره وظلمه إلىٰ أن علم المولىٰ عز وجل بخبرته في تسيير أمور العباد أنه لابد من إنزال عقوبته به ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا

---

(1) النساء ، 55ـ57 .

تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (1) ، فالعطاء هنا كان بخبرة الخبير المطلق لكي يفصل بين من تمنوا ما أنعم ٱلله علىٰ قارون ورأوا فيه الإنسان المحظوظ وبين من صبروا علىٰ عدم امتلاكهم لهـٰذه النعمة ، فالصبر فرّق بين الفريقين وخبرة الخبير المطلقة أوضحت هـٰذا الفرق عند حلول العقاب ووقوع الجزاء عليه في الدنيا ، ولا يستطيع أن يقوم بذلك إلا من كانت له القدرة الكافية لتدبير الأمور بخبرة وحكمة .

ثانيهما : كي يرجع هـٰذا المخطئ عن خطئه ويتوب :

الخالق عز وجل بخبرته المطلقة يعلم أن من عباده من هو قابل للتوبة والرجوع عن الخطأ إذا أتيحت له الفرصة لذلك ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (2) ، فيصبر بخبرته علىٰ هـٰؤلاء المذنبين متيحاً الفرص لهم ، وقد يعود البعض إلىٰ ارتكاب الذنوب والأخطاء فيصبر عليه ٱلله عز وجل لعلمه المسبق بما سيكون عليه حال

---

(1) القصص ، 76ـ82 .

(2) الشورىٰ ، 25 .

هـٰذا الإنسان بعد حين ، لذلك كان صبر الخبير علىٰ عباده المذنبين .

فصبر الصبور المطلق ترافقه الحكمة المطلقة لما كان ذلك علاجاً لأمور كثيرة ، فٱلله المثل الأعلىٰ : فقد نجد إنساناً صبوراً لـٰكنه بالرغم من ذلك لا يرىٰ أبعد من أنفه ، فلا يستطيع أن يحسب الأمور بشكل صحيح وواضح ، فلا يصل لنتيجة مع نفسه أو مع غيره ترضيه وتجعله راضياً أو مدركاً ، ولكنّ الصبور المطلق هو الذي يرىٰ ويحسب ويدقق ويدرك الأمور بروية تامة لا تأخذه العجلة ولا التسرع ، لذلك لابد أن يجتمع في نفس خليفة ٱلله بالإضافة الصبر الممزوج بالحكمة والوعي التام والعلم المفيد الذي يدعم الحكمة في الإنسان .

فالإنسان الحكيم تجده يعالج أموره من زوايا عدة فلا يضعها تحت زاوية واحدة فقط ، بل إنه يقلّبها حيث يجد الأفضل والأنسب لها ، إذاً فهو هنا يعالج المشكلة بحكمة ولابد أن يصل إلىٰ أفضل الحلول والنتائج ، فقد يضطر الإنسان أحياناً في المجتمع أن يقف أمام مشكلة ما بعد أن يستنفد جميع المحاولات لعلاجها والوصول إلىٰ حل واضح وإيجابي ، فلابد وقتها لهـٰذا الإنسان أن يصبر أكثر وأكثر لأن علاجها يكمن في المزيد من الصبر ، فتأخذ المشكلة وقتها وتبدأ بالانتهاء ، وبذلك تبدأ هـٰذه المشكلة بالتلاشي بعد أن كانت ذات تأثير كبير في نفوسنا ، ومثال ذلك حينما يتوفىٰ ٱلله تعالىٰ أحب الناس إلىٰ قلوبنا ، هـٰذا الأمر يكون صعب الاحتمال لشعور الإنسان وقتها أن الموت أمر يصعب تحمله للإحساس المذهل ساعة الفراق ، ولـٰكن هـٰذا الأمر الذي كان عظيماً كبيراً نشعر أنه مع طول الفترة الزمنية يبدأ بالتضاؤل والصغر في النفوس شيئاً فشيئاً ، وذلك باحتساب الأجر والثواب عند ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فإذا كان الحزن ساعة الموت هو من أكبر الأشياء التي نمر بها في حياتنا الدنيا ويأتي الصبر لكي نقوىٰ عليها ونتجاوزها ، فما بالك بمشاكل وهموم الحياة الأخرىٰ .

إذاً من الأكيد أننا لو استعنا بالصبر والحكمة لاستطعنا حل كافة المشاكل الاجتماعية التي تحيط بنا ، ولأمكننا القضاء علىٰ الكثير من الأمراض الاجتماعية التي طغت علىٰ حياتنا في مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة ، ولكانت لدينا القدرة لمواجهة أي ظاهرة اجتماعية سلبية ، فمثلاً لو أخذنا بعض الأحداث المنحرفين سلوكياً وقمنا بدراسة حالاتهم بصبرٍ وحكمة وخبرة لكل الدوافع لهم التي من شأنها أن تدفع بهم للوصول لذلك لـٰكنا قد وصلنا إلىٰ حلول أكثر إيجابية من تلك الموجودة الآن ، لأن الصبر علىٰ المعرفة والبحث والتقصي هو من أروع وأفضل أنواع العلاج الرادع الذي سيغنينا عن الكثير من المؤسسات الاجتماعية ، بل سيكون لدينا طاقات فردية في داخل المجتمع الإسلامي هائلة تفيده وترقىٰ به إلىٰ مكانة مرموقة بين باقي المجتمعات الأخرىٰ ، وكذلك نلحظ في حالات كثيرة بين الطلاب في المدارس أنهم يملكون مواهب وقدرة علىٰ الإبداع إذا أُتيحت لهم الفرصة لذلك ، وذلك لا يحتاج من المربيين والمشرفين إلا قليلاً من الصبر والمراعاة لأولئك الطلبة المميزين ، لكي نجد أمتنا المسلمة مبدعة منتجة ، وهـٰذا من شأنه أن يجعلنا ندرك ما للصبر من جوانب إيجابية ومفيدة تعود علىٰ الإنسان وعلىٰ من حوله .

الصبور هو الرحيم :

نستشعر أن في صبره رحمة لعباده منهم الكافر والمسيء والمذنب ، فبالصبر تتولد الكثير من الفرص للعباد لمراجعة النفس ومحاسبتها لعلها ترجع إلىٰ الحق أو تتوب عما كانت فيه ، فتكسب بذلك آخرتها ، حتىٰ مع عباده المؤمنين فإن في تعليمهم للصبر والثبات رحمة لهم ، إذ أنه ما من صابرٍ علىٰ ابتلاء ومحتسب أمره لله إلا وكانت الجنة جزاءاً له علىٰ صبره ، فتتجلىٰ هنا رحمة الخالق بعباده الصابرين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [1] ، فقد خلق ٱلله الصبر ليكون عوناً للمؤمن فيرضىٰ بنصيبه ويعلم بأن ما من شيء يصيبه إلا فيه خير لا يدركه هو بعقله المحدود ، فالصبور سبحانه وتعالىٰ لا يمكن أن يظلم أحداً من عباده بل هو العادل في حكمه وبين خلقه ، فلا يصيب المؤمن إلا ما فيه الخير ، فرحمة ٱلله في صبره تتجلىٰ فيما يلي :

1 ـ عدم تعجيل العقوبة علىٰ العصاة والكافرين :

تبارك في علاه يتجلىٰ لنا المعنىٰ العظيم والعميق لهـٰذا الاسم في أنه لا يعاجل في عقابه وانتقامه كل مستحقٍّ لهما ، مهما كانت درجة الخطأ والجحود ، فقد وصل الأمر ببعض البشر بالتطاول عليه عز وجل في تشكيكهم في وجوده أصلاً مثل الملحدين وأصحاب النظريات التي تُرجع وجود هـٰذا الكون للطبيعة منكرةً بذلك وجود الخالق عز وجل ، والبعض الآخر من العباد الظالمين لأنفسهم والكافرين الذين نسبوا إلىٰ ٱلله جلَّ جلاله الأبناء وافتروا عليه الكثير من الأكاذيب علىٰ مر الزمان ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [3] ، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور الرسل والأنبياء لهدايتهم وإرجاعهم للحق ولكي يصلوا إلىٰ اليقين المثبت في حق ٱلله تعالىٰ ، مع قدرته سبحانه وتعالىٰ علىٰ أن يخسف بهم الأرض في أي

(1) البقرة ، 155 ـ 157 .
(2) الإسراء ، 40 .
(3) يونس ، 68 ـ 69 .

وقت ، لـٰكنه فتح لهم باب التوبة والتراجع بإعطائهم الفرص المتتالية للإصلاح .

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلىٰ مرحلة يستحقون معها أن يسخطهم ٱلله في حينها وينزّل عليهم عقابه في وقتها ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ (2) ، فالخالق عز وجل قادر علىٰ أخذ الكفار في أي وقت يشاء ولـٰكن حكمته المطلقة ورحمته وصبره عليهم يؤخر عقابه عنهم في الدنيا ، ومن يتمادىٰ في كفره فإن عذاب جهنم ستكون له بالمرصاد ، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره بل يمهلهم الوقت من رجع للحق كان له الفوز والنجاة ، فقد نلاحظ حتىٰ في أيامنا هـٰذه أن الكثير من الأوروبيين أو أصحاب الديانات الأخرىٰ يعتنقون الإسلام ويتركون ما كانوا عليه من الباطل ، قال تعالىٰ : ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (3) .

2 ـ خلق الفرص للتوبة لمن أذنب :

هناك الكثير من المسلمين الذين يقترفون الذنوب والكبائر في حياتهم ، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً ، ومع ذلك فإن الرحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم علىٰ ذنوبهم يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعوه ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ

(1) الرعد ، 32 .
(2) الأعراف ، 182 ـ 183 .
(3) الكهف ، 58 ـ 59 .

ﭐلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ (1) فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يصحّح من سير المسلمين ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة لطريق الحق والصواب ، فيأتي صبر الخالق عليهم في مواجهة إغراءات الدنيا ووسوسات الشيطان الرجيم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، وقوله عزَّ وجل أيضاً في كتابه الكريم : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر ٱلله تعالىٰ عليه مانحاً له الفرصة لتغيير مسار حياته أحياناً بكلمة أو موقف أو فعل أو ابتلاء فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه والتوبة من ذنوبه .

3 ـ ضرب الأمثال للعباد بصبر رسله :

من كرمه تعالىٰ علىٰ عباده أن أمرهم بالصبر علاجاً لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة ، وقد جعل ٱلله عز وجل الرسل صلوات ٱلله عليهم وسلامه أمثلة للصبر علىٰ الابتلاءات والمحن ، فما من رسولٍ أو نبيٍّ إلا وكان الصبر من صفاته ، ومن شأن هٰذا أن يدعّم فينا هٰذه الصفة ، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها المصطفون والأخيار في مشوار دعوتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا

(1) النساء ، 27 ـ 28 .

(2) المائدة ، 39 ـ 40 .

(3) التوبة ، 102 .

يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ أيضاً : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (2) ، وكأن أمر ٱلله بالصبر لرسله علاج يتعامل به مع الكفرة والعاصين ، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مماطلة ، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرسل والأنبياء يرتكزون عليه في تحمل معاناة تبليغ الرسالة لتوحيد الخالق سبحانه وتعالىٰ ، ولولا ذلك لما بلغت الدعوة إلىٰ توحيد ٱلله هـٰذا المدىٰ بإذنه تعالىٰ ، فصبرهم كان سلاحاً قوياً يدعم شعور النصر فيهم وليس شعوراً بالضعف والاستسلام والهزيمة ، بل إن صبرهم علىٰ الشدائد والأذىٰ حتىٰ من أقرب الناس إليهم كان نابعاً من حبهم لله سبحانه وتعالىٰ وحرصهم علىٰ رضاه ، فهـٰذا كان حد مبتغاهم مرضاته عز وجل ، ونستطيع أن نذكر هنا أن الرضا متبادل بين الصبور جل جلاله وعباده الصالحين ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (3) ، فهنا يتجلىٰ لنا الحب المتبادل وهو أرقىٰ درجاته وأسمىٰ أنواعه ، هـٰذا الحب الخالص الذي لا يمكن لإنسان أن يعبد ٱلله تعالىٰ ويصل بحبه له هـٰذه الدرجة من الحب إلا وتجد ٱلله تعالىٰ قد أهداه بين جنبيه قلباً صابراً علىٰ الشدائد مما يجعل المؤمن صابراً لا يتذمر لعلمه أن صبره في ٱلله جل جلاله لهـٰذا الخالق الذي يحبه ويعظمه ، والحبيب يسعىٰ دائماً لإرضاء حبيبه ، وٱلله لن يضيع صبره أبداً ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ

(1) النحل ، 127 ـ 128 .

(2) المزمل ، 10 .

(3) المجادلة ، 22 .

وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) ، من هنا يتضح لنا حب ٱلله لعباده الصابرين ، ومن هنا أيضاً نستطيع أن ندرك مصدر القوة التي يتحلىٰ بها عباده الصابرون ، وهو الحب النقي الصادق .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون حبه لله دافعاً لصبره ، محتذياً بالصالحين والأنبياء والرسل من قبله ، فلا ينكسر أمام حزنه أو يستسلم أمام فشله ، أو يضعف أمام مصيبة أو بلاء قد يحلان به ، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل ٱلله ليشد عزيمته وأن يكون علىٰ يقين بأن ٱلله يزيد من محبته لعباده الصابرين ، فيكون مضرب مثل بصبره فلا يستطيع أي كان أن يخترق هٰذا الحصن المنيع الذي لا يبنيه ولا يعمّره إلا الرضا والقبول بقدر ٱلله ولا يأتي هٰذا الرضا إلا بحبه جلَّ جلاله .

لذلك فخليفة ٱلله هو عنوان الصبر في الأرض ، يتعامل مع أمور دينه ودنياه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره علىٰ نفسه أولاً وعلىٰ من يؤذيه ثانياً فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها بل أنه يرىٰ في ذلك حب ٱلله له فيكون رده علىٰ هٰذا الحب بالصبر الذي يرتضيه ٱلله لخليفته في الأرض .

الصبور هو الصمد :

ٱلله هو الصمد جل جلاله وهي صفة دائمة لله تعالىٰ ينطوي تحتها علمه وحكمته وصبره وحلمه ، فهو الذي يعطي كل محتاج حاجته بتعجيلها أو بتأخيرها فالعطاء سواء كان عاجلاً أم آجلاً هو دائماً لخير العبد ومصلحته ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (2) ، وبما أنه الصمد الذي لا يشاركه أحد في ملكه

---

(1) آل عمران ، 142 .

(2) الإخلاص ، 1ـ4 .

فهو القادر علىٰ كشف الضر والأذىٰ عن الإنسان ، بالرغم من أن الكثير من البشر يفتقدون إلىٰ الوصول إلىٰ هـٰذا الحد من اليقين الذي يخلق الصبر في نفوسهم قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

وعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يكون معيناً لغيره وملجأ لهم عند حلول الأزمات ، ليستشعر غيره بما للصبر من فضائل وفوائد تعين الإنسان نفسه وتجعله معيناً لغيره .

واسم ٱلله الصبور يعطينا معنىٰ التسليم له عز وجل بكل شيء ، لأن الإنسان حينما يصبر علىٰ مكروه أو أذىً فهو بذلك يسلّم أمره بالكامل لله القوي العزيز ، وهنا تتجلىٰ طاعة العبد لخالقه جلَّ جلاله ، وكذلك لرسله وأنبيائه المكلفين بتبليغ رسالاته للبشرية ، لما كانوا عليه من صبر وحب لله تعالىٰ ويحضرني هنا كمثل لطاعة وحب ٱلله والصبر علىٰ الشدائد قصة سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام مع أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فبمجرد رؤية رآها سيدنا إبراهيم بأنه يذبح ولده بأمرٍ من ٱلله تعالىٰ وبالرغم من حبه الشديد لابنه إسماعيل إلا أنه أخبره بما رأىٰ وامتثل ابنه لأمر ٱلله ، ففي هـٰذا الموقف نستشعر مدىٰ عظمة الصبر والتضحية ، وعظمة مكافأة الصبور لهما جزاء صبرهما علىٰ ذلك الأمر ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى

---

(1) يونس ، 11 ـ 12 .

ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (1) ، أحب سيدنا إبراهيم ولده إسماعيل حباً كبيراً لـٰكنه أحب ٱلله أكثر فصبر علىٰ أمره وأطاعه ، وصبر سيدنا إسماعيل علىٰ مصيره لعلمه برحمة ٱلله وحبه ، فكان ٱلله رؤوفاً رحيماً بهما مكافأً لهما علىٰ صبرهما فهو الكريم الذي لا يظلم أحداً أبداً .

وعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يسلّم أمره لله تعالىٰ ، ليتعلم كيفية الصبر علىٰ البلاء ، لأن نفوسنا البشرية أحياناً تخوننا عند حلول الأزمة أو وقوع البلاء ، فإن لم يستطع الإنسان الصبر فعلىٰ الأقل يجب أن يحاول التصبر ، وأن يدرب النفس علىٰ الصبر ويهيئها لتحمل الشدائد والمصاعب ، فلو أن كل مسلم تعرض للأذىٰ والبلاء علىٰ يد غيره من أعداء الإسلام قد استسلم وانهار لما امتلأت الأرض بالمجاهدين والشهداء والمدافعين عن الإسلام ، فمثلاً لو أن أهل بيت المقدس تركوها من شدة المعاناة والضغط عليهم من اليهود لما وجدنا أثراً للإسلام هناك ولا مطالباً بعودتها للمسلمين ، ولـٰكن بصبر أهلها وجلدهم وإيمانهم بٱلله تعالىٰ جعل الأمر أسهل علىٰ قلوبهم لتسليمهم الأمر لله خالقهم وطاعتهم له في كل شيء .

فلو أن كل إنسان عوّد نفسه علىٰ الاستسلام لله فقط والطمأنينة والراحة في ظله عز وجل لأراح نفسه من مسألة الغير والاعتماد علىٰ بعض الناس في حل أموره ، فيصبح بذلك حراً معتزاً بنفسه راضياً بنصيبه ، ولما كنا سنجد هـٰذه الدرجة من القلق والتوتر اللذين يسودان المجتمعات المسلمة هـٰذه الأيام ، فنجد الخوف يتصاعد في النفوس وعدم الإحساس بالأمان وتصاعد القلق النفسي بين الشباب بصفة خاصة مع أنه لابد أن يكونوا مثالاً للصبر والجلد والقدرة علىٰ الاحتمال .

---

(1) الصافات ، 102ـ111 .

وقد حبا ٱلله عباده المتقين بصفة الصبر ، تلك الصفة النبيلة الكريمة التي إذا انغرست في النفس البشرية تنبِت صفة الإيثار والتضحية ، فالإنسان يصبر أحياناً علىٰ أذىً يأتيه من أحب الناس إلي قلبه وأقربهم إليه ، ويتقبله برحابة صدر وطيبة خاطر ليعلّم هـٰذا المخطئ أن يكون متسامحاً عطوفاً ، فيقابل هو بدوره الأذىٰ بإحسان ، فكثير ممن يسيئون لأقربائهم وفي المقابل حين احتاج أولئك المسيئون للعون وجدوا من أساؤوا إليهم يمدون يد المساعدة والعون لهم علىٰ طبق من الحب والتسامح ، والأمثلة في الدنيا وبين البشر علىٰ ذلك كثيرة ، فمثلاً أروع ما يمكن أن نضرب به المثل في هـٰذه الحالة هي الأم ، فهي تفني أيام عمرها وزهرة شبابها في تلبية متطلبات أبنائها وخدمتهم أطفالاً وكباراً علىٰ السواء ، ولـٰكن في كثير من الأحيان والأحوال يقابل هـٰذا الآن الحب والعطاء والتضحية بالنكران والقسوة والجحود ، فيتجسد الصبر علىٰ هـٰذا الشعور في شخص الأم ، في احتمالها لهـٰذا الأذىٰ النفسي الذي من شأنه مثل هـٰذا الرد أن يسبب صدمة نفسية عليها ، حيث إن ولدها جزءٌ منها لا يمكن الاستغناء عنه ، سواء كان بيولوجياً أو عاطفياً ، فتصبر الأم وتصبر مع اختلاط صبرها بدعواتها بالخير والصلاح والهداية له ، وأن يرزقه ٱلله ويوفقه ويعطيه من نعمه ، فهنا الأم تجسد الصبر علىٰ شديد الاحتمال وصعب التحمُّل فيصبح الصبر هنا قمة العطاء وقمة التضحية ، فبذلك نخلص إلىٰ أن صبر الأم علىٰ أبنائها نابعٌ من شدة الحب الذي يحمله قلبها لأبنائها هو منبع السكينة والرضا علىٰ أذىٰ من تحب ، إذاً الصبر هنا يعكس فوائده الصحية علىٰ نفس الأم التي لولا صبرها الذي منحها ٱلله به لكان عقلها لا يحتمل هـٰذا الجحود ؛ لأنه من الصعب أن تعيش الأم صدمتها في أغلىٰ الناس علىٰ قلبها في الدنيا ، فهـٰذا الصبر أحدث التوازن النفسي الذي منع الضرر الصحي والعقلي أن يصيب أي أم تعاني من هـٰذا الأمر الذي أصبح أكثر شيوعاً في عصرنا هـٰذا .

فالصبر بالأساس هو عنوان التضحية والإيثار علىٰ النفس والدافع هنا راقٍ

جداً ، فكم من صابر في الدنيا علىٰ كثير من أذىٰ الأحبة ؛ لأنه يؤثرهم علىٰ نفسه ، والصبر هو الذي أعطاه هـٰذا الارتياح والرضا ، فيصبح إنساناً متصفاً بالكرم والعطاء اللامحدود ، ويجعله واثقاً بٱلله عز وجل فيستشعر بقربه منه دائماً ودعمه له مما يمنحه القوة والمناعة ضد أي مرض نفسي يؤدي في نهايته للدمار أو الفساد أو الضياع ، كما نلاحظ في المجتمعات الأوروبية بصفة عامة تزايد نسبة الانتحار ، إذ أنهم يصلون لمرحلة يأس وضيق ووحدة لا يمكن أن يشغلها إلا حب ٱلله والقرب منه ، علىٰ عكس عباد ٱلله الصالحين الذين حتىٰ مع ضيق الحال تجدهم أصحاب عطاء وتضحية وتسامح وحب ، مثلما ذكرهم ٱلله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] ، فطبيعة البشر تجعلهم من محبي المال والدنيا ولا يكتفون من حب المال رغم سعة الحال عليهم ، ولـٰكن من كان يبتغي وجه ٱلله وهم عباده المخلصون فإنهم بالرغم من ضيق الحال تجدهم يكرمون غيرهم ويؤثرونهم علىٰ أنفسهم لما تحلوا به من صبر علىٰ ضيق الحال .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن الصبر يجعل الفرد يشعر بقيمة أخيه في المجتمع بعطائه وحبه ، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة منها :

أن أبا بكر الصديق رضي ٱلله عنه كان معطاءاً كريم النفس ، لا يبخل حتىٰ ولو كان ما يعطيه هو آخر ما عنده أو هو بحاجة إليه ، فعندما هاجر مع الرسول ﷺ فسأله الرسول عليه الصلاة والسلام ماذا أبقيت لأهلك ؟ قال رضي ٱلله عنه : أبقيت لهم ٱلله ورسوله . مع علمه بما في نفوس مشركي مكة من حقد وضغينة علىٰ الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلىٰ من اتبعه ، ولـٰكن نفسه الصادقة

---

(1) الحشر ، 9 .

وروحه الطيبة المؤمنة صبرت علىٰ ذلك وتحملت في سبيل حبه لله ورسوله الأذىٰ الشديد .

وخليفة ٱلله في الأرض عليه أن يصل بتفكيره إلىٰ أنه إذا كان ٱلله تعالىٰ هو الصبور مع قدرته وغناه عن الخلق ، ومع هـٰذا فهو الذي يصبر علىٰ أذاهم وعصيانهم وتجبرهم ، فما بالك بالإنسان .

فلو كل إنسان استوعب هـٰذا الاسم بالشكل الصحيح لتخلق بأحسن خلق ولحمل أروع قلب وأصفىٰ نفس ولكان معلماً لغيره ، فيسود الصفاء والنقاء بين الأفراد ولأصبحنا وسط كون فاضل وليس مجرد مدينة فاضلة كالتي نادىٰ بها بعض من الفلاسفة ، ولـٰكن لنقص فهم وإدراك الكثير من البشر لهـٰذا الاسم الفاضل ، فإن اسم الصبور لابد أن يكون موعظة لنا ودرساً في الحياة ، فلو استوعبت الأمة هـٰذا الدرس جيداً وصبر كل فرد علىٰ أذىٰ الآخر فبذلك يعطيه الفرصة للندم والتراجع عن ذلك ، بل وقد يصبح صديقاً له علىٰ مدىٰ الأيام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (1) ، فالفرد هو مخلوق يحمل بين جنباته قلباً ولابد أن يكون في داخل هـٰذا القلب ولو نقطة نور وضياء بجانب الكثير من السلبيات والظلام ، فمن الممكن أن يكون صبرنا عليه بمثابة فرصة لاتساع هـٰذه النقطة إلىٰ أن تعم القلب بأكمله ، ولا ضرر من المحاولة ، ولـٰكن أصبح لدينا نحن المسلمين بفضل هـٰذا الاسم العظيم مجتمع متسامح متحابٌّ لا مكان للعداوة والبغضاء ، فيزرع المسلم الصبر ويحببه في قلوب المسلمين عندما يصبر علىٰ أذاهم ولا يستطيع أن يصل المسلم لهـٰذه الدرجة إلا بالتقرب إلىٰ ٱلله تعالىٰ بالصلاة والطاعات والصدقات ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

(1) فصلت ، 34 ـ 35 .

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [2] ، فمن الأمور التي تعودنا الصبر هي :

أ ـ حب ٱلله :

إذا انغرس حب ٱلله في نفس المؤمن فإنه يستطيع أن يواجه العالم بأسره وينتصر ، وقد بشّر الصبور المطلق الصابرين لعلمه بصعوبة الصبر ، فوعد الصابرين بالجزاء العظيم مكافأةً لهم علىٰ ما كابدوه وعانوه ليصلوا إلىٰ إمكانية الصبر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [3] ، فكم من مبتلىً في هـٰذه الدنيا منحه حبه لله الصبر علىٰ معاناته ومحنته ، وأروع مثال علىٰ ذلك صبر آل ياسر علىٰ أذىٰ وعذاب كفار قريش ، فقد تجلىٰ فيهم أروع صورة للصبر والتضحية في سبيل ٱلله ، إذ أن ٱلله تعالىٰ بشّرهم بموعدٍ في جنة الخلد علىٰ لسان رسوله الكريم حين خاطبهم قائلاً وهم تحت وطأة العذاب : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ! » . فاستحقوا بصبرهم هـٰذا

(1) الأنفال ، 2ـ4 .
(2) الرعد ، 20ـ24 .
(3) البقرة ، 155ـ157 .

الوعد وهٰذا التكريم من الصبور الذي أمدهم بالصبر والثبات في قلوبهم ، فانتصروا بهٰذا الثبات علىٰ جميع كفرة قريش وجبابرتها .

وعندما يصبر الإنسان فمعنىٰ ذلك أنه قد فوّض أمره لله تعالىٰ وتوكل عليه ، ولابد أن يكون الخالق عند حسن ظن عبده به ، فإذا سأله النصر أعطاه ، قال تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (1) .

ب ـ الصلاة :

فالمداومة علىٰ الصلاة من شأنها أن تعوّد المؤمن الصبر ، فلا يتذمر من تكرار الصلاة ولا يتثاقل عنها ولا يكسل بل يقوم إليها بحب ويصبر علىٰ كل أمور الدنيا لكي لا يتلهىٰ عنها ، بعكس المنافق الذي لا يملك حبها أو الصبر عليها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (2) ، فالصلاة من الأمور التي من شأنها أن تعوّد النفس علىٰ الخشوع والطاعة لأمر ٱلله وتقرّب بين العبد وربه ، وهٰذا القرب هو الذي يولّد الصبر في النفس المؤمنة الراضية بقضاء ٱلله ، فالصلاة إذاً هي بمثابة تمرين للنفس علىٰ الصبر والخشوع ، وقد أوصىٰ لقمان ابنه بالمداومة علىٰ الصلاة لما وهبه ٱلله من حكمة وصواب رأي وبعد نظر فكان حكيماً صائب الرأي ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (3) .

ج ـ الصوم :

من المعروف أن الإنسان محب للطعام ومستحق له ، والتنوع في الأطعمة

---

(1) آل عمران ، 150 .

(2) النساء ، 142 ـ 143 .

(3) لقمان ، 17 .

جعلت الإنسان يشتهي ويتلذذ بها ، بل ويكثر من طلبها كحاجة ضرورية له ، وقد فرض ٱلله عز وجل الصيام وهو ترك الطعام من الفجر إلىٰ غروب الشمس ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، وهـٰذا بالتأكيد توقيت طويل بالنسبة للإنسان الذي اعتاد الأكل في أكثر من مرة في اليوم ، وهـٰذا الركن فيه تعوّد وتصبير لشهوة الطعام في الإنسان ، إذ بصبره علىٰ الأكل حبٌّ لله وطاعةٌ لأمره مع الاحتفاظ بهدوء النفس وعدم التذمر والضيق والعصبية ، ففي كلمة (اللهُمَّ إني صائم) عند مواجهتنا لأمر يستفزنا من شأنها أن تعوّد أنفسنا علىٰ مقابلة الإساءة والصبر عليها باللجوء إلىٰ المولىٰ عز وجل ، فننأىٰ بأنفسنا عن الانحطاط الأخلاقي ، ولذا فقول الصائم عندما يرىٰ ما قد يضعفه (اللهُمَّ إني صائم) تعني التمسك بقرار الصبر علىٰ اتباع الحق ، وذلك لأجل الفوز بما هو أعظم .

ففي الصيام تدريب جسدي ونفسي للصبر ، فلابد أن نصبر علىٰ الطعام طاعةً لأمر ٱلله تعالىٰ ، وأن نصبر علىٰ أذىٰ غيرنا يكبح النفس عن رد الإساءة ، وكذلك الصبر علىٰ شهوة الجنس طوال ساعات عديدة ، قال تعالىٰ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [2] ، فالصبر الجنسي من شأنه

---

(1) البقرة ، 183 ـ 184 .

(2) البقرة ، 187 .

أن يعوّد المؤمن علىٰ كبح شهواته والتحكم فيها ، فمن يستطيع أن يكتم ويسيطر علىٰ شهوته ورغبته الجنسية طوال ساعات وأيام يستطيع أن يصبر العمر كله أمام مغريات الشهوة .

الصبور المطلق : هو معطي الفرصة لمن انحرف عما يقول وقوله الحق جل جلاله ، والصبور بالإضافة هو الذي خلقه ٱلله قوة وخلقاً فيه الحاجة التي تضعفه إن لم يتحصَّن بالصبر ، فبالرغم من خلقه له في أحسن تقويم ، إلا أنه خلقه علىٰ الحاجة التي تتعدد وتتنوع وتتطور ، أي خلقه في حاجة للهواء والماء والأكل والجنس ، وغيرها كثير ، ويريده أن يكون صبوراً ، من أجل بلوغه الهواء الذي له الحق فيه ، والماء الذي له الحق فيه ، والأكل الذي له الحق فيه ، والزواج الذي له الحق فيه فسبحانه الصبور الذي جعلنا علىٰ الصبر وبالصبر نبلغ غاياتنا ونحن في عزة وعلىٰ مكرمة منه جل جلاله .

د ـ الصدقات :

في الإنفاق عدة مزايا تعود علىٰ صاحبها وعلىٰ غيره ، فالمتصدق يعوّد نفسه علىٰ حب ٱلله أكثر من أي متاع آخر من متاع الحياة الدنيا ، فيتحرر بالإنفاق والتصدق من سيطرة حب المال والشح عليه ، ومتحرراً من هـٰذا النوع من العبودية كان صابراً في حال فقدانه لما يملك من أموال ومدخرات ، فلا نراه فاقداً للعقل أو متزعزع الثقة بٱلله عند حلول هـٰذا الأمر عليه ، بل نراه ثابتاً محتسباً أمره لله لعلمه أنها أمانة ووديعة تركها الخالق لديه وأراد استرجاعها ، فبتعوّده علىٰ الإنفاق يسهل عليه المال فلا يتعلق به ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، فالخالق يحبّب عباده

---

(1) التغابن ، 16ـ18 .

المخلصين في الإنفاق بأن يضاعف لهم الحسنات ويدخلهم نعيمه الدائم .

فالصدقات وحب الإنفاق من شأنها أن تعوّد الإنسان علىٰ الصبر علىٰ فقدان ما يملكون من مال دون أن يكون ذلك له أثر سلبي في نفوسهم التي امتلأت بحب ٱلله الذي يمنحهم الصبر علىٰ فقدان متاع الحياة الدنيا .

وهناك نوعان من الصبر ، منه الصبر الطيب الذي يملأ القلب بالرضا والطاعة للخالق عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [1] ، فمن شأن هـٰذا النوع من الصبر أن يُشعر الإنسان بالراحة النفسية والطمأنينة ، فيصبر الإنسان علىٰ ما يصيبه وهو راضٍ ومطيع ، فالصبر الطيب هو الذي لا يصحبه حزن أو هم ولا يرافقه اليأس أو الإحباط ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [2] .

وقد كان ٱلله صبوراً علىٰ أفعال البشر الإيجابية والسلبية ، فلو أخذنا مثلاً صبره علىٰ أفعال عباده الإيجابية لوجدنا أنه عز وجل يقابل كل ما هو طيب صادر عن عباده من قول أو فعل بالجزاء الأوفىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [3] ، وذلك درسٌ وعبرة لخليفة ٱلله لكي يصبر فيكون في صبره هـٰذا شكر للمولىٰ عز وجل ، فيجتمع هنا الصبر مع الشكر ، حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [4] ؛ لأنه من الصعب اجتماع الصبر مع الشكر في قلب الإنسان العادي الذي تشغله الدنيا فيسعىٰ خلفها لاهياً غافلاً لا يهمه إلا الحصول علىٰ مبتغاه ، ولـٰكن عند خليفة ٱلله في الأرض يجتمع الصبر مع

(1) المعارج ، 5 .
(2) النحل ، 127 .
(3) هود ، 11 .
(4) سبأ ، 13 .

الشكر فيقوىٰ الإيمان ، حيث أن الخليفة يصبر علىٰ الشدائد وهو شاكر لله فضله يكون بذلك قد نأىٰ بنفسه وارتقىٰ بها إلىٰ أعلىٰ درجات الحب والطاعة للخالق تعالىٰ ، وهـٰذا الأمر الذي يشق علىٰ كثير من المسلمين وخاصة في وقتنا هـٰذا ، ولـٰكن الشكور المطلق يكون أكثر كرماً من الإنسان وأكثر عطاءاً إذ أنه يرد علىٰ شكر الخليفة وصبره بالنعيم الخالد الذي كان يتمناه في الدنيا ، بالرغم من غنىٰ الصبور عن شكر وصبر الإنسان ، لـٰكنه كريم صبور في عطاياه ورد الشكر للخليفة ، فعطاؤه لا ينتهي فهو إذاً صبور في تكرار واستمرار منح وعطاء ورد الشكر والمحبة .

هـٰذا هو النوع من الصبر الذي يجتمع فيه الأمل بالفرج والرغبة في المحاولة للوصول إلىٰ ما يطمح إليه الإنسان ولا سبيل لأن يصل إلىٰ مبتغاه إلا بالتوكل علىٰ ٱلله والصبر الجميل ، قال تعالىٰ : ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [1] ، فقد قرن ٱلله تعالىٰ في الآية الكريمة السابقة بين الاستعانة به والصبر وبين خلافة الإنسان للأرض الذي هو الهدف الأساسي لخلق الإنسان في الأرض ، فبالصبر والتوكل علىٰ الخالق عز وجل نكون قد حققنا الغاية من خلقنا وبذلك تكون حياتنا كما أرادها الخالق عز وجل ، فيكرمنا من عنده بمدنا بالصبر والجلد ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رسول ٱلله ﷺ يَقُولُ : « مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ ٱللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ ٱللهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ ٱللهُ وَمَا أَجِدُ لَكُمْ رِزْقًا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » [2] .

وهناك نوع من الصبر يكون مصحوباً بالتذمر والضيق ، أي يكون علىٰ عدم رضاً من الإنسان فيضيق صدره بما حل به أو نقص عليه ، فتراهم

---

(1) الأعراف ، 128 .

(2) مسند أحمد ، ج 2 ، ص214 .

لا يحتملون الشدائد ولا المحن التي من الطبيعي أن يمر بها الناس في حياتهم الدنيا وكأنهم الوحيدون الذين أصابهم الحزن والهم .

وقد خص ٱلله تعالىٰ الصابرين الراضين والمطيعين بمزايا منها :

1 ـ ينزّل ٱلله رحمته عليهم فيصيبهم بالأمن والطمأنينة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [1] ، فرحمة ٱلله تعالىٰ تكون بمثابة الطمأنينة والسكينة التي تسكن قلوب الصابرين حباً في ٱلله .

2 ـ استحقاق البشرىٰ ، فبصبرهم استحقوا بشراه كهدية لهم جزاء صبرهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [2] ، فطوبىٰ لمن استحق بشرىٰ الخالق جل جلاله ، لما فيها من مكرمة ورفعة للإنسان عند ربه ، فالصبور لا يمنح بشراه إلا لأقرب عباده .

3 ـ مد ٱلله الصابرين بالعون والمساعدة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [3] .

4 ـ الجزاء الكبير المجزي ، فقد خص ٱلله تعالىٰ عباده الصابرين بالجزاء العظيم ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ

(1) البقرة ، 156 ـ 157 .
(2) البقرة ، 155 .
(3) آل عمران ، 146 ـ 148 .

أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

5 ـ تعليمهم الدعاء ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (2) .

فيجب علىٰ خليفة ٱلله أن تكون حياته صبراً جميلاً يملؤه الأمل في أن يكون ممن استحقوا بشرىٰ الخالق بالجنة والنعيم الدائم ، فينتصر علىٰ اليأس بإيمانه بالقدر والقضاء من عند ٱلله تعالىٰ ، فيتقبل الفرح والحزن والضيق والفرج بكل حب وطاعة ، فلا يأخذه الغرور عند العطاء ولا يأخذه الحزن واليأس عند الضيق والنقص ، فيكون ممن ذكرهم ٱلله في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (3) .

6 ـ زرع الطمأنينة في قلب الصابر ، الإنسان بطبيعته عجول لا يحب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما ، وبطبيعته أيضاً أنه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة ولا تنقطع متطلباته في الدنيا ، فلا يقنع بأي شيء ولا يرضىٰ بأي حال ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (4) ، لكنّ المؤمن الحق لا تكون من صفاته الخوف والجزع واليأس بل يهبه ٱلله تعالىٰ الصبر والرضا ويملأ فؤاده بالطمأنينة التي يبحث عنها ملايين الناس الذين يبتعدون عن خالقهم فيبتعد هو

(1) النحل ، 96 .

(2) الأعراف ، 126 .

(3) الرعد ، 21ـ24 .

(4) المعارج ، 19ـ21 .

بالتالي عنهم ، فلا يأتي الشعور بالأمن والطمأنينة من إنسان مشغول قلق كل همه جمع ما يرغب في الدنيا متناسياً أنها زائلة وفانية ، فيتملكه اليأس والجزع لضياع ما كان له وكأنه تناسىٰ أنه من عند ٱلله الخالق القادر علىٰ كل شيء .

وللصبر ثلاثة أنواع هي :

أولاً : صبر علىٰ ممارسة الطاعات والعبادات :

قد يتبادر علىٰ ذهن المؤمن أن في المداومة علىٰ القيام بالعبادات اليومية كالصلاة والاستغفار وقيام الليل والحمد والصيام هو أمر هيّن علىٰ كل النفوس المسلمة ولـٰكن هـٰذا غير صحيح لأن من شأن هـٰذه العبادات والطاعات أن تجعل من بعض المسلمين في ضيق وملل منها ، فنرىٰ البعض يهملها أحياناً أو يقوم بها وكأنها عادة يومية أو غرض عليه الخلاص منه ، فتكون صلاته عبارة عن عبارات وحركات يؤديها في اليوم ويكررها ، ولـٰكن في الوقت نفسه نجد هناك من المؤمنين من يقوم بها بكل صبر وحب في نيل رضا ٱلله تعالىٰ عليه ، فيسارع إلىٰ القيام بكل ما عليه من فروض وواجبات دينية ويتعداها إلىٰ النوافل بل ويداوم عليها حباً في ٱلله ورسوله الكريم ﷺ فلا يؤخره هطول المطر عن الخروج لصلاة الفجر ولا يتكاسل عن قيام الليل بحجة النعاس أو التعب أو البرد الشديد ، وهـٰذه الأعمال تحتاج إلىٰ الصبر الطيب للمداومة عليه وعدم قطعها .

ثانياً : الصبر عن الخطيئة :

حياة البشر في الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدي بالإنسان إلىٰ الهلاك ، وخاصة أنه مخلوق ضعيف أمام الشهوات والأهواء لوجود الشيطان الذي يزيّن له هـٰذه الأمور ويحببها لنفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ

ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [1] ، فمن الناس من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه أو الإنقاص منه ، يفوق حبه في قلب صاحبه عن كل حب ، وأحياناً نجد من يضعف أمام النساء فلا يملك نفسه أمام إحداهن فيقع في الرذيلة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [2] ، مع أنه لو صبر وثبت لكان ٱلله أثابه ووهب له الخير الكثير ، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذهب والفضة وكأن حياته موقوفة علىٰ ذلك ، فلا يبحث عن الأمان والهدوء إلا في ظل وجودها ، لذلك فقد كانت حياة المؤمن تعدداً وتكراراً لامتحانات وابتلاءات عليه تجاوزها بالصبر والجلد عليها ، فيكون الإنسان في جهة ورغبته في جهة أخرىٰ يعارضها ويقف أحياناً ضدها إذا أمرته بالسوء والفساد ، ولا يسيطر المؤمن عليها إلا إذا كان معتاداً علىٰ الصبر ومتمرساً علىٰ الجلد والثبات في وجه كل مفسدة ولا يدعم هـٰذا الموقف الثابت إلا حب المؤمن لخالقه وسعيه لطلب رضاه ومغفرته .

ثالثاً : صبر علىٰ القضاء والقدر :

القضاء والقدر أمر من ٱلله جل جلاله يقع علىٰ الإنسان ، ولكل إنسان قدره وقضاؤه يقدّره ٱلله عليه حسب علمه المسبق وحكمته المطلقة في خلقه ، لذلك لا يجب علىٰ المؤمن أن يوقع نفسه في مقارنة بينه وبين أي مؤمن آخر

---

(1) آل عمران ، 14 .

(2) النساء ، 25 ـ 26 .

أعطاه ٱلله ومنحه من نعمه الكثير الكثير ، فلابد أن يكون الإنسان المؤمن علىٰ يقين بأن ٱلله تعالىٰ عادل في توزيع نعمه وعطاياه علىٰ خلقه ، سواء كانت صحة أو مالاً أو جمالاً أو قوة أو سلطاناً أو غيرها ، فالصبر علىٰ القضاء والقدر يُخلق في نفس المؤمن ويكون من دعائم ثبات الإيمان واليقين بحب ٱلله ورحمته بنا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [1] ، فيكون الرضا هنا نابعاً من طاعتهم لله وإيمانهم بحبه لهم ، آملين في نيل رضاه وجنته ، ونستطيع أن نرىٰ تجسيد هـٰذا النوع من الصبر في أسرىٰ المسلمين الذين يقبعون في سجون الأعداء يلاقون أشد أنواع التنكيل والعذاب ، لا ذنب لهم إلا أنهم يدافعون عن الحق ويتمسكون به ، فنراهم أكثر صموداً من غيرهم وأشد صبراً علىٰ البلاء ، فلا يضيق صدرهم ولا يتنازلون عما آمنوا به ، بل نلاحظ أن إيمانهم يزداد ويكبر في ظل هـٰذه الظروف فيزدادوا شدة وصبراً وقوة منبعها أن هـٰذا هو قدرهم الذي كتبه ٱلله عليهم .

والخليفة يكون صبره لشيئين عما يحب ويرغب ، وصبره عما يبغض ويكره ، وهناك فرق بين النوعين ، لأن الصبر عما نحب يستوجب منا جهداً نفسياً شديداً وجهاداً صعباً لا يحتمله إلا أصحاب القلوب الشديدة الإيمان والمطواعة لله جل جلاله ، كأن يصبر المؤمن علىٰ فقدان أعز أحبابه سواء بالموت أو حتىٰ في الحياة ، وهناك النوع الآخر من الصبر وهو الصبر علىٰ ما نكره إذ لا خيار لنا إلا الصبر كأن نصبر مثلاً علىٰ المرض والنقص وغيرهما ، ولا يمكن للخليفة في الأرض أن يسلك طريق الجنة بسهولة ويسر ذلك لأن طريقها مليء بالشدائد والمصاعب والابتلاءات ، فالمحب لهـٰذه

---

(1) البقرة ، 155ـ157 .

الجنة ومن يرغب في الوصول إليها منحه ٱلله الصبر علىٰ تخطي هـٰذه الطريق ؛ لأنه بدون الصبر والثبات لما استطاع إنسان أن يصل إلىٰ جنة الخلد .

وخليفة ٱلله عليه أن يكون ثابتاً صابراً ، لكي يحيا بسلام وأمن فلا يصاب بأي هزة نفسية أو عقلية عند تعرضه لمحنةٍ ما فيُهْزم أمامها وينحني ، بل عليه أن يسلك طريق الصابرين ويتعلم من الخالق الصبر الحق الذي يملك معه المقدرة والقوة ولـٰكنه يلجأ إلىٰ الصبر في علاج أغلب الأمور ، وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون بعيداً كل البعد عن العجلة والتسرع ؛ لأنهما طريقا الشيطان ينتهيان به إلىٰ الندم والدمار ، فلا مبرر للعجلة ولا مبرر لوقوع ضررها عليه ، كالذي يبرر وقوعه في الزنا لتأخره في الزواج ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ (1) ، فلو كان هناك مبرر لوقوعه فيه لما استحق عقاب ٱلله عليه ، وكذلك من يزهق حياة إنسان بحجة العصبية والتهور والغضب ، وغيرها من الشرور التي يقع الإنسان فيها بسبب التهور والعجلة ، والمتهور دائماً ضعيف بعكس الإنسان الصبور الذي يمتلئ بالقوة والثبات ، لأن الإنسان الضعيف سينتهي حتماً بالفشل والدمار ؛ لأنه لم يستطع التحمل وانسحب من مواجهة الحياة والقدر وحتىٰ من مواجهة نفسه .

من هنا يتضح لنا نتاجه النفسي بأنه يحقق التوازن النفسي بأن يصبح الفرد لديه قدرات هائلة ، لأن الصبر بحد ذاته طاقة جبارة علينا أن نستفيد منها داخل أنفسنا لتشكل في المجتمع النفوس السليمة الصحيحة السوية ، التي تبعد كل البعد عن اليأس والإحباط ، الذي من شأنه أن يدمر الأفراد ويزداد في بعد العبد عن خالقه عز وجل .

وخليفة ٱلله في الأرض هو من أدرك أن الصبر من مكارم الأخلاق

---

(1) الفرقان ، 68 ـ 69 .

ومتمماته ، فلا يكمل الخُلُق إلا إذا تحلىٰ المرء به ، وجعله رأس خُلُقه وبذلك من المستحيل أن تفسد روحه أو تضيع في الحياة الدنيا ، فلا ضير من أن يحبس الإنسان شهوته في غير وقتها أو أن يسيطر علىٰ نفسه فيمتلكها ويستطيع البذل كأن يكون قائداً لها يقودها إلىٰ النصر في كل معركة يدخل فيها مع المحن والشدائد والبلاء .

والصبر في حق الخالق ليس محدوداً في الدنيا ومقتصراً عليها ، بل إنه صبور حتىٰ يوم يقوم الحساب ، إذ أنه سيحاسب كل من خلق منذ بدء الحياة إلىٰ منتهاها ، ولن يكون الحساب جماعياً بل إن كل فرد مسؤول أمام ٱلله عن أقواله وأفعاله مهما صغرت أو كبرت ، قال تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [1] ، أي أنه جل جلاله صبور في حسابه لا يعجّل العقاب علىٰ مذنب إلا بعد حسابه حساباً دقيقاً ، ويُدخل جنان الخلد من وعدهم بها إذ أن وعده هو الحق .

وهو صبور حيث إنه ستَّار يستر زلات المسلمين يوم القيامة ، كما ستره في الحياة الدنيا فكم من عظمة وقوة تتجلىٰ في صبره المطلق !

لذلك لابد أن يكون ذلك دافعاً لخليفة ٱلله في الأرض أن يتميز عن باقي البشر بالصبر الطيب في كل تفاصيل حياته اليومية ، بدءاً من التعامل مع زوجته وأبنائه وجيرانه ورحمه ، وصولاً إلىٰ تعامله مع أصدقائه في العمل ورؤسائه فيه ، فيكون صبره نابعاً حقاً من عمق إيمانه فيعزز ويقوّي الخليفة في كل أوجه الحياة ؛ لأنه يكون قد وصل إلىٰ درجة الإبداع في الأرض لما يملكه من علو الهمة ، ويشكّل صبره وقتها حافزاً ودافعاً قوياً للوصول إلىٰ أهدافه ، فلا تقهره الحياة فلولا الصبر علىٰ التعب لما أحسسنا بروعة الراحة ولما وصلنا إليها ،

---

(1) الأنبياء ، 47 .

ولولا الصبر علىٰ المرض لما أدركنا نعمة الصحة ، ولولا الصبر علىٰ الحزن لما انبثق النور في جنباتنا من مفاجأة الفرحة لنا ، ولولا الصبر علىٰ جهد ومشقة العمل اليومي لما توفر لدينا المعيشة الكريمة ، ولولا الصبر علىٰ نعم الخالق في حياتنا لما استطعنا شكره وحمده علىٰ نعمه التي لا تعد ولا تحصىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، وكلما زادت النعم تطلب ذلك من الإنسان الشكر والحمد الكثير ، علىٰ عكس ما تُحْدثه هـٰذه النعم في نفوس كثير من البشر ، إذ أنها تلهيهم وتجعلهم متجبرين وظالمين بها لغيرهم ، وهـٰذا منبعه الجهل باسم الصبور وبصفة الصبر ، التي هي رأس المكارم فلا يصل المؤمن إلىٰ مكرمة أو مكانة سامية إلا بالصبر الطيب الذي من شأنه اعمار وإصلاح كل نفس فتصلُح بذلك الأرض ونصل إلىٰ رضا المولىٰ عز وجل علينا بتحقيق الغاية السامية من خلقنا .

والصبر لا يكون فقط علىٰ أصحاب الحاجة أو من نقصت عليهم نعمة من النعم ، بل الصبر يكون حتىٰ علىٰ أصحاب النعم والخيرات ، ولعلهم أشد احتياجاً للصبر من ذوي الحاجات ، ذلك مثل ما هو آتٍ :

1 ـ الفقر والغنىٰ :

الفقير الذي يحتاج إلىٰ عون غيره لكي يستطيع العيش فعليه بالصبر علىٰ حاجته للناس ، إذ أنه لا يمكن أن يستغني عنهم لعدم قدرته علىٰ الاعتماد علىٰ نفسه ، وهـٰذا بحد ذاته يتطلب صبراً كبيراً يعينه علىٰ تحمل هـٰذا الوضع ، لأن البشر ليسوا سواء في حب الإنفاق والتصدق ، ومن هنا كان لابد للفقير من أن يصبّر نفسه عن ارتكاب الجرائم أو اللجوء للطرق غير الصحيحة للعيش أو حتىٰ أن يكون حاسداً للغني علىٰ غناه ، بل عليه أن لا يتذلل للخلق ويصبر علىٰ

---

(1) النحل ، 18 .

قدره ، قال تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [1] ، فبالصبر يتمكن حتىٰ الإنسان الفقير المحتاج إلىٰ كسب احترام الناس ورضا ٱلله الكريم الخبير ، في حين أنه في حالة الإنسان الذي أكرمه ٱلله تعالىٰ بالمال والخير الوافر فهو يحتاج إلىٰ الصبر أكثر من الفقير .

لذلك فإن الغني أشد احتياجاً للصبر من الفقير ، نظراً لامتلاكه أسباب التمتع واللهو في الدنيا ، فعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض ولو أنه امتلك المال والجاه والسلطان أن يتذكر صبر ٱلله علىٰ عباده مع امتلاكه القدرة والسلطة والهيمنة عليهم ، فيصبر بذلك الخليفة ويجعل من هٰذه النعم طريقاً ممهداً أخضر يوصله لفضيلة الصبر لا الجبروت والتكبر والظلم .

2 ـ **المرض والصحة :**

في العادة الإنسان لا يشعر بقيمة صحته إلا إذا ألمَّ المرض به ، فيتذكر شكر ٱلله علىٰ ما كان فيه من نعمة كبيرة ، ولا يكون أمام المرء عند نزول المرض به إلا الدعاء لله والرجاء بزوال هٰذا المرض عنه ، وأن يمنحه الصبور الصبر من عنده لتحمُّل الآلام والمعاناة ، فالمرض من شأنه أن يعوّد الإنسان علىٰ الصبر والأمل في فرج ٱلله تعالىٰ ، ولذلك يكون الإنسان الصحيح بحاجة إلىٰ الصبر أكثر من العليل ذاته ، فيكون صابراً علىٰ مداومة شكر ٱلله علىٰ الصحة فلا ينقطع ولا يغفل عن ذلك .

فالمرض والصحة كلاهما بحاجة للصبر والثبات ، وخليفة ٱلله بالإضافة هو من كان صابراً علىٰ الألم مستحضراً سيدنا أيوب ورحلة معاناته مع الألم الذي رافقها الصبر والثبات عليه ، ومستحضراً جزاء الخالق له ، وكذلك أن

---

(1) البقرة ، 273 .

يكون شاكراً للمولىٰ عز وجل علىٰ دوام الصحة وحامداً له عليه ليل نهار .

3 ـ **الضعف والقوة :**

البشر يتفاوتون بين ضعيف وقوي ، سواء كان هـٰذا الضعف في الجسد أو في المكانة الاجتماعية ، فالإنسان الضعيف جسدياً يحتاج إلىٰ الصبر علىٰ من هو أقوىٰ منه علىٰ أن يكون هـٰذا الصبر خالياً من التذلل والمسكنة ، فيستعين بٱلله علىٰ من ظلمه وقهره ، ويصبر علىٰ هـٰذا الأذىٰ حتىٰ يأتيه الفرج من ٱلله تعالىٰ ، وفي حالة الإنسان القوي جسدياً فإنه يحتاج إلىٰ الصبر أكثر من الضعيف نفسه ؛ لأنه يملك القوة التي يستطيع أن يظلم بها ويتجبر ويتكبر ، لذلك فهو بحاجة إلىٰ الصبر لكي لا يستعمل قوته الجسدية في أذية الآخرين حتىٰ دون أن يقصد ، فمثلاً كما نعلم في قصة سيدنا موسىٰ الذي عُرف عنه قوته البدنية فبخطأ دون قصد تسبب في موت إنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (1) ، فالقوة الجسدية أحياناً تجعل من الإنسان إذا أساء استعمالها يصل إلىٰ التعدي علىٰ غيره فهي بذلك بحاجة إلىٰ الصبر الشديد علىٰ كبح جماحها والسيطرة عليها واستعمالها في وجوه الحق والخير .

وكذلك الأمر بالنسبة لمن يملك قوة الجاه والسلطان فالعبء يكون عليه

---

(1) القصص ، 14 ـ 19 .

أكثر من فاقدها ، لأن الأول يكون لديه ما يستطيع أن يكون متحكماً ومسؤولاً عن غيره الذين هم أقل منه سلطة وجاهاً ، ومثال ذلك فرعون ملك مصر الذي أعطاه ٱلله السلطان والملك والمال ، فلم يكن مستوعباً لهـٰذه النعم ولم يستطع الصبر علىٰ استغلالها فظلم نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ (1) ، فقد طغىٰ لوجود كل تلك النعم التي كان عليه أن يكون حامداً شاكراً لله عليها .

ومن مزايا الصبر إذا انغرس في نفس المؤمن أن يجعله متوكلاً علىٰ ٱلله وحده ، الذي لا يخيّب ظن عباده به ، فهناك رابط بين الصبر والتوكل علىٰ الصبور المطلق ، حيث أنه سبحانه وتعالىٰ وكيلنا نحن المسلمين ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (2) ، فهو سبحانه وتعالىٰ وليّنا ووكيلنا الذي نوكله بكل أمورنا ونحن مطمئنون وراضون بحكمه وقضائه ، ولو أن كل مسلم وكّل أمره للخالق وفي نفس الوقت بذل كل طاقاته في الحياة فبالتأكيد سيمدنا البصير المطلق الذي يرانا ويعلم ويقدّر أمورنا بالنجاح والأمل والفرج من كل ضيق .

فهو الوهاب لعباده بصبره ؛ لأنه يعلم ما تكابده نفس العبد وهي صابرة محتسبة أمرها له عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (3) ،

(1) النازعات ، 15ـ26 .
(2) آل عمران ، 173 ـ 174 .
(3) المائدة ، 7 .

فيهب الوهاب لمن استحق كرمه سواء في الدنيا أو في الآخرة ، وعلىٰ قدر صبر المؤمن تكون درجة الرضا في نفسه والسعادة التي أصبحت حلماً يراود الكثير من المسلمين في وقتنا هـٰذا ، إذ أنهم يبحثون عنها وكأنها كنز ثمين وهم لا يدركون أنها قد تكون في ساعة صبر علىٰ ابتلاء أو في توكله علىٰ خالقه والتقرب منه ، فلن يجد السعادة كل من كان بينه وبين ٱلله قطيعة أو جفاء ، أو من كان عجولاً علىٰ متاع الدنيا ولا يعنيه أمر الآخرة ، فكلما حصل علىٰ شيء من أمور الدنيا زادت لهفته علىٰ متاعٍ آخر وتدور حياته داخل دائرة الشهوات والرغبات الفانية التي لا تستطيع أن تغنيه عن رضا المولىٰ عز وجل عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (2) ، فالصبر طريق للوصول للسعادة والطمأنينة والأمان ، وهو جدار أمام التوتر والقلق واليأس ، لأن الصبر الإيجابي الطيب هو الذي لا يشوبه إحباط أو يأس بل يكون مفعماً بالأمل في المولىٰ عز وجل ، ومليئاً بالقوة والعزة .

فكيف يكون صبرنا مختلطاً باليأس ونحن نستمده من الخالق جل جلاله ، ونطيع أمره في التحلي به ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (3) ، فلا يمكن أن يتصف ٱلله بصفة نقص أو عيب ؛ لأنه الكمال والتمام في صفاته وأفعاله .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون صبوراً عن قوة وأمل لا عن ضعف وهزيمة ، فليس من الخلفاء في الأرض من كان مهزوماً مقهوراً بل إن ٱلله مع صبره قوي عزيز ، والخليفة لابد أن يكون مع صبره قوياً ، إذ أنه في بعض

---

(1) البقرة ، 103 .
(2) القصص ، 60 .
(3) النحل ، 127 .

الحالات يكون العقاب فيها مسموحاً كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) ، فقد وضّح ٱلله أنه قد يكون هناك أكثر من طريقة للتعامل ولٰكن الصبر هو أفضلها وفيه الخير للمعاقِب والمعاقَب ، فليكن خليفة ٱلله في الأرض ملازماً للصبر في صغير أموره قبل كبيرها ؛ لأنه من تعوّد الصبر علىٰ صغائر الأمور فقد أدرك الصبر علىٰ كبائرها ، لأن الصبر جزء واحد لا يمكن تجزئته أو الفصل بينه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) ، العجول دائماً قلق ، ولهٰذا لا يدرك الأمور كما هي عليه ، سريع التصرف ، ولهٰذا لا يحسنه ، فكثير من الأمور تحتاج إلىٰ تأنٍ وصبر ، وذلك لأجل التدبر الحسن والتصرف الأحسن ، ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فالذي يكرهه البعض بأسباب الاستعجال والقلق ، قد يكون فيه الخير الكثير ، ولذا قال ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا ﴾ أي لماذا هٰذا الاستعجال الذي بأسبابه قد تضيع ما هو أهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ أي ليس دائماً كل ما تحبونه نافعاً ومفيداً ، فقد يكون ما تحبونه فاسداً أو يؤدي إلىٰ المفاسد ، وقد يكون شراً وأنتم بحكمكم المستعجل ظننتم أنه محبب ومفضل ، ولهٰذا فتبينوا قبل أن تقرروا ، وعليه فالصبر كما يقولون هو (مفتاح الفرج) .

اللهُمَّ يا الصبور اجعلنا من الصابرين بالحق علىٰ الحق ، واجعلنا من

---

(1) النحل ، 125 ـ 126 .
(2) البقرة ، 216 .

الصابرين بالعدل علىٰ العدل ، واجعلنا من الصابرين علىٰ توحيدك وعبادتك واحداً أحداً ، واجعلنا من الطائعين والمصلحين في الأرض ولا تجعلنا من المفسدين فيها وسافكي الدماء بغير حق ! اللهُمَّ اجعل ألسنتنا ناطقة بالحق ، وقلوبنا مؤمنة به ، وجوارحنا فاعلة وعاملة عليه ، واجعلنا صابرين علىٰ نيل العلم وصابرين علىٰ محبة الخير وطاعة الوالدين ورضاك ! اللهُمَّ اجعلنا صابرين علىٰ الكفر بالقول الباطل والفعل العمل الباطل ، بأبالسة الجن والإنس ، ولا تجعلنا لهم طائعين ولا منهم خائفين ، واجعلنا من الراكعين الساجدين لك ولا تجعلنا من الراكعين والساجدين لسواك ! اللهُمَّ صَلِّ وسلم علىٰ صاحب الرسالة الخاتمة للناس كافة !

اللهُمَّ يا الصبور اجعل الصبر فينا رحمة واجعله طاعة لك بها تفرج الكرب وتمحىٰ الخطايا وتغفر الذنوب وتستر العيوب وبها تتطهر أنفسنا وأبداننا وأرواحنا ! اللهُمَّ إنك الصبور علىٰ ما يقول الكفرة والمشركون فاجعل الصبر فينا حتىٰ يؤمنوا ، نسألك اللهُمَّ أن تلهمنا صبراً تحجب به طرفنا عن معصيتك ، وتملؤ قلوبنا بخشيتك ، ولا تجعلنا ممن يشتغل بغير طاعتك ، وامنحنا من الصبر ما نغض به طرفنا عن النظر إلىٰ المحرمات وتمنع به أنفسنا من تناول الشهوات في غير حق ، وتجعلنا نخلو بطاعتك وعبادتك في الليالي المظلمات ! اللهُمَّ ألهمنا الصبر وأعنا عليه ، اللهُمَّ يا الصبور إذا ابتَلَيْتنا اجعلنا من الصابرين ، واجعلنا من الشاكرين بما أنعمت علينا ! اللهُمَّ يا الصبور إننا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك ، ربنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار ، واكتبنا مع الصابرين الذين يرثون الفردوس من الجنة يا الصبور يا أللّٰه !

✍ ✍ ✍

دعاء الموسوعة

الحمد لله بجوامع الكلم والصلاة والسلام علىٰ النبي الأكرم وآله وصحبه وسلم ، الحمد لله الذي أمر بالدعاء فقال : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (1) فدعونا ، ودنا من الداعين فقال : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ﴾ فدنونا ، ووعد بالإجابة فقال : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ ﴾ فاستجبنا وآمنا تصديقاً لقوله تعالىٰ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (2) رجاءَ لا تمنياً أن نكون من الراشدين .

ولا رشد إلا بسبيل ولا سبيل إلا بدليل ولا دليل إلا بخبير ولا خبير إلا وهو أسوة ولا أسوة إلا من عرّفنا طريق الحق وبينه ،وحذرنا من طريق الباطل وعيّنه ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (3) فلا دعاءَ مستجابٌ إلا بالحذو حذوه ، والسير علىٰ منهجه ، والنهل من منهله ، ومعرفة ٱلله به وسؤاله عنه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ فلما سأل العباد رسول رب العباد ، رد الربُّ فقال : (فإني) سرعةً وتوكيداً وتخصيصاً ، وكيف لا والمسئول مَنْ وصفه ربه

---

(1) الإسراء ، 110 .

(2) البقرة ، 186 .

(3) الأحزاب ، 21 .

﴿ حَرِيصٌ ﴾ فقال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) .

فسألنا خير من يسأل ، ودعونا من فيه الرجاء والأمل ، الذي يعلم وسوسة الصدور ، ويرىٰ فينا ما لم نره ، و يحيط ما ستؤول إليه الأمور ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (2) فبدعائه رجوناه أن يقبلنا .

ودنونا تلبية : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ﴾ لأن البعد ـ لا شك ـ منّا ، فهو القريب لمن ناداه ، المجيب بما ينفع الداعي مع طمس الحكمة عن العبد فيما قضاه ، فيا أللّه ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (3) في خلقك وفي حكمك وفي إجابتك .

والخليفة هو الذي يستمد من ربه آداب الدعاء ، ويسلك لذلك سبيلاً لا اعوجاج فيه ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (4) .

---

(1) التوبة ، 128 .

(2) ق ، 16 .

(3) هود ، 10 - 15 .

(4) يوسف ، 108 .

فالسبيل المستقيم واحد ، وسبل التفرق كثيرة ، كما أن ٱلله واحد ومن أشركوهم معه كثر ، فلا نصل للواحد الأحد إلا بسبيل واحدة ، بالبصيرة لا بالبصر وبالتوحيد لا بالشرك ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (1) .

فبالسبيل نصل وبالدعاء نتصل وباليقين والتسليم نستمد نعماً تُمَدُّ ولا تعد ، عطاء ربانياً ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ (2) يُمَدُّ المستخلفُ الذي له بصيرة ، ويملك يقيناً ، ويرجو لقاءً حسناً ، ويؤمن بٱلله رباً فرداً لا شريك له فيثبت في الحياة الدنيا بالعمل الصالح توفيقاً .

ويمد الأعمىٰ الذي آثر الغي علىٰ الرشد بما يبهم رؤيته ، ويغلق أقفال قلبه ، حينئذ يتذكر الإنسان وأنىٰ له الذكرىٰ فيقول ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ (3) .

فلمّا دعونا ٱلله في الموسوعة كان هدفنا تشييد موقف ، لا رص كلمات ، موقف ينطلق من التوحيد مجرداً والإقرار بصدق النبوة الخاتمة ، إذ لا يستقيم توحيدٌ دون إقرارٍ ، مع وحدة القصد لله وقد﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ (4) دعماً لحوار روحي . . . عقلي . . . وجداني . . . إسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة :

علــىٰ ٱلله الكــريــم يكــون قصــدي   رضيـــــت ٱلله والإســـــلام دينـــــا

(1) الأنعام ، 153 .
(2) الإسراء ، 20 .
(3) طه ، 125 ـ 126 .
(4) آل عمران ، 20 .

هــو السنــد الــذي صــرنــا إليــه هــو النــور المعظــم يحتــوينــا [1]

فكان دعاء الموسوعة مؤسساً علىٰ أن كل اسم من أسماء ٱلله له من الخصوصية الذاتية في الدعاء وهـٰذه الخصوصية مستمدة من القرآن الكريم ، فبذا التقىٰ الداعي علىٰ سبيل المدعو(توحيداً ، وإقراراً ، وتسليماً) .

رؤوس مثلث متساو في القيمة ، تنفرج أركانه بالخير كلما آوىٰ إليها الداعي ؛ لأنه لجأ لركن شديد ، بتوحيد ، وإقرار ، وتسليم .

توحيداً : (لا إلـٰه إلا ٱلله) ذاتاً واسماً وصفة .

والتوحيد لا ينفك عن الإقرار فبهما تتحقق العبودية الخالصة التي ترقىٰ بصاحبها أن يكون عبداً للرحمـٰن ، فيجرد قلبه مما سوىٰ خالقه ، وينجذب بالكلية إلىٰ أنس الدعاء ، وينفر فطرياً من وحشة الشرك ليبقىٰ مع ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ .

وهـٰذا المتعلق بربه ، المؤتنس بنوره ، المجبول لتوحيده مدعو ، من أشرف النوع الإنساني الذي لا تعمر الأرض إلا به ، ولم تكن الخلافة إلا له ، وهـٰذا الفرد الكثير له نعوت قد ميزه بها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾ فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [2] .

فقد خص الغني عن الشرك ، الواحد المعبود ، لفظة العبودية وربطها

---

(1) ديوان شراب الوصل لسيدي فخر الدين : 175 .
(2) الفرقان ، 73 ـ 77 .

باسم الرحمـٰن المرتبط باسم الذات (ٱلله) ، وله من رطب الذكر علىٰ ألسن الداعين شؤون(الرحمـٰن) ! !

فأيقنا بدعم من النص القرآني أن هـٰذه الصفة الجامعة (عباد) من أشرف صفات المكلفين بالخلافة ومن نعوتها :

الأول :

قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ وهـٰذا وصف سيرهم نهاراً رفقاً وليناً ومنه قول رسول ٱلله ﷺ : « المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف ، إن قيد انقاد ، وإن أنيخ استناخ علىٰ صخرة » [1] فمشيهم لين وسكينة ووقار وتواضع ، في غير غطرسة ولا خيلاء تفاعلاً مع قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [2] .

الثاني :

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ لا جهلاً بجهل ، ولا إفساداً بإفساد ، وهـٰذا قوة الحلم في مواجهة ضعف الجهل ، والسلام للتوديع لا للتحية ، وهو سلام القوي الذي يملك ويصفح ويعفو ويمنح .

الثالث :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ ففي النهار ينفرون من الأذىٰ بترك الإيذاء ، فـ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ويتحملون التأذي ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ﴾ فهـٰذا نعتهم مع الخلق نهاراً ، أما نعتهم مع الخالق ليلا : فـ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 17 ، ص 169 .

(2) الإسراء ، 37 .

يُنفِقُونَ ﴾ [1] فـ : ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ ﴾ مصلين ليلهم ، يفرشون وجوهاً ، ويجرون دموعاً علىٰ خدود حفرت عليها معالم العبودية .

يفرحون بربهم وبفضله ، يكبرونه لأن السماء ما تزينت إلا لهم ، والأرض ما بسطت إلا لأقدامهم ، ولسان حالهم :

ٱلله أكبر ما تزينت السما والأرض فوق جبينها الأفراحُ
أنعم سويعاتِ الوصالِ ويا لها أيّامُ سعدٍ لُيْلُهُنَّ صباحُ
طوبىٰ لعبد يستقي من راحها طيبَ الوصال فطيبُها فواحُ [2]

فالليل مهبط الأنوار وتجل الأسرار وتنزل الرحمات من رب الأرض والسمٰوات لذا قال لحبيبه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [3] وناشئة الليل قيامه ، روىٰ البخاري في صحيحه : قامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : غَفَرَ ٱللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ! قَالَ : « أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً » [4] فالدعاء ليلاً له من الأسرار التي لا يعلمها إلا من ألصق جبينه بالتي خلق منها ، وروّاها بالذي يجعل كل شيء حي ، هنا تتفجر ينابيع القلوب وتغسل الأعين من قذىٰ الذنوب ، وليس الرائي كالسامع ، ولا من ذاق كمن رأىٰ ، ولا من شهد بالعين كمن شهد بالكل .

---

(1) السجدة ، 16 .
(2) شراب الوصل ، ص97 .
(3) المزمل ، 1ـ9 .
(4) صحيح البخاري ، ج 4 ، ص 292 .

الرابع :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ دعاء ، وإيقان يسبقه عمل ، ويلحقه عمل .

الخامس :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ صفة ملازمة للخليفة الذي يقبل علىٰ الخير عملاً بعلم ، ويدبر عن الشر حلماً بفهم .

السادس :

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ سر أسرار النجاح ، وسبيل أنوار الفلاح .

السابع :

﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ قوة بحق ، وقصاص بصدق ، ليعطي رحم الحياةِ الحياةَ .

الثامن :

﴿ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ ذنب وتوبة ، وباب لا يغلق ، وأمل في إصلاح شرط أن تلجأ لله الذي يقبل التوبة عن عباده ، وليس من .

التاسع :

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ .

العاشر :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣ ﴾ .

عندما يرون آية يدعون وهٰذا من باب أدب الدعاء فلما رأي النبي زكريا عليه الصلاة والسلام خيراً عند العذراء ﴿ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [1] .

فالخير تسأله عند أهل الخير :

إذا فتحت أبواب خير فأقبلوا موائد أهل ٱلله خير الموائد [2]

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [3] .

فلما دعا دنا القاصي وتحقق ـ بعلم أهل الأرض ـ العاصي ، وسمع نداءً ليس من ملك بل من الملائكة . ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [4] .

فخاطب بلغة البشري وعلم الأرضي ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ ﴾ فبلا مناقشة لما ذكره كانت الإجابة﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [5] ولا تعليق ، فمن كانت له حاجة وإن عظمت فليدعُ بتوحيد وإقرار وتسليم .

---

(1) آل عمران ، 37 .

(2) شراب الوصل ، ص 213 .

(3) آل عمران ، 38 .

(4) آل عمران ، 39 .

(5) آل عمران ، 40 .

الحادي عشر :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ .

جزاؤهم عند ٱلله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ بفضل الدعاء الذي هو مخ العبادة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ ﴾ .

إقراراً :

بأن نشهد له ﷺ حتىٰ يشهد علينا﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (1) .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (2) .

والإقرار والشهادة مرتكزا الاستخلاف ، إذ بنفي أحدهما تنتفي الخلافة البتة ، بالإضافة إلىٰ المنهج الذي به تتمة (خليفة) .

والمنهج العملي لـ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ ﴾ (3) محصور في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (4) فالكتاب للمقرين ، للشاهدين ، للمسلمين .

---

(1) النساء ، 41 ـ 42 .

(2) النحل ، 89 .

(3) البقرة ، 30 .

(4) النحل ، 89 .

تسليماً :

بالوثوق فيما عند ٱلله لأن ما عند ٱلله ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

والتسليم قلباً كما عند أبي الأنبياء وصاحب الملة الخالصة ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (1) ، والذي كان نهجه الدعاء ، ومنه نستقي أن سلامة القلب سبب في قبول الداعي ، قال ٱلله عزَّ وجل في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (2) ، وسلامة القلب خلوه من الشرك .

والتسليم الأكمل كما هو عند سيدنا محمد ﷺ في قول ٱلله تعالىٰ :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) .

لذا فالدعاء ضرورة ملحّة لكل مؤمن يدعو هو بنفسه أو يسأل غيره أن يدعو له حتىٰ أن يسأل الأعلىٰ الأدنىٰ أن يشركه في الدعاء كما طلب سيدنا محمد ﷺ أن يذكره عمر في دعائه ، والمعلوم أن دعاء النبي ﷺ مجاب ، ولٰكن ليعلمنا ﷺ أن نسأل ٱلله وأن نسأل من يسأل ٱلله ألا ينسانا في دعائه ،

(1) الصافات ، 84 .

(2) الشعراء ، 84 ـ 89 .

(3) الأنعام ، 161 ـ 165 .

« فعَنْ سُفْيَانَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ عَنْ سَالِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ ، أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْعُمْرَةِ ، فَقَالَ : أَيْ أُخَيَّ أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ وَلا تَنْسَنَا » . قَالَ أَبُو عِيسَىٰ : هَـٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ [1] . فنسأل ٱلله أن يستجيب لنا وينفعنا وإياكم بما دعوناه إنه نعم المولىٰ ونعم النصير المجيب . فكلما قرأتم ؛ أمنوا لعل ٱلله يستجيب لنا بتأمينكم !

✍ ✍ ✍

---

(1) سنن الترمذي ، ج 11 ، ص 474 .

الدعاء

اللهُمَّ إنك أنت ٱلله العظيم في كل مكان وحين ، لا إلـه إلا أنت واحداً أحداً ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، سبحانك عما يصفون . نوحدك يا ألله ونستغفرك ونتوب إليك ، ونتوكل عليك في كل أمر ، فنعم المولىٰ ونعم النصير ، تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير لا شريك لك سبحانك جل جلالك ، الحمد لك علىٰ رحمتك يا الرحيم يا ألله يا مالك يوم الدين ، اللهُمَّ إننا إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اللهُمَّ إننا نتضرع إليك لتهدينا الصراط المستقيم صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ، اللهُمَّ إننا نسألك باسمك العظيم أن تُعَظِّم الإيمان في قلوبنا والطمأنينة في أنفسنا حتىٰ نخشاك ونتقيك ونعمل صالحاً ترضاه ، اللهُمَّ إننا نركع ونسجد إليك واحداً أحداً لا شريك لك فجنبنا الركوع والسجود لسواك ، اللهُمَّ إنك الحق بك آمنا فاجعلنا للحق طائعين .

اللهُمَّ يا ألله أسألك باسمك العظيم أن تبدّل سيئاتنا حسنات وأن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ونبراس دربنا فلا نضل أبداً يا ألله ، اللهُمَّ سدّد خطانا إلىٰ الخير والمعروف والإصلاح ، وأبعدها عن الفساد والرذيلة ، اللهُمَّ إنك اخترت لنا الإسلام ديناً فلا تُمتنا إلا عليه .

اللهُمَّ يا الرحمـٰن عمَّنا بواسع رحمتك في الدارين فاجعلنا من المستخلفين الوارثين ، الذين يكنزون الطاعة ولا يكنزون المعصية ، والذين يكنزون سلامة البصر والبصيرة وسلامة البدن والروح والنفس والمُلك ، اللهُمَّ

يا الرحمـٰن إننا في حاجة لرحمتك فارحمنا بكل ما يرضيك عنا ، اللهُمَّ يا الرحمـٰن قلت وقولك الحق : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ اللهُمَّ بأسمائك الحسنىٰ ندعوك أن ترحمنا في أنفسنا وأزواجنا وآبائنا وأبنائنا وإخواننا ، اللهُمَّ برحمتك اكسُنَا سترة وقوة وقدرة وحكمة ومالاً حلالاً ، اللهُمَّ برحمتك احفظنا وأحطنا من كل سوء وأبعد عنا شرور الوسواس الخناس من الجنة والناس ، إنك أنت الرحمـٰن الرحيم فالحمد والشكر لك .

اللهُمَّ يا الرحمـٰن يا من أنزلت القرآن رحمة ، وبعثت رسولك الكريم رحمة ، وجعلت الطريق إلىٰ الفوز بجنتك رحمة اجعلنا راحمين في أنفسنا وفيمن حولنا ، يا من خلقتنا برحمة وعلمتنا الرحمة ارحمنا في الدنيا والآخرة ، اللهُمَّ يا الرحمـٰن منك الرحمة فلا رحمـٰن سواك اجعلنا من المرحومين برحمتك والراجين والطامعين بها وأن تغلّبنا علىٰ النفس بأن تبعث فيها النقاء والصفاء لتسعىٰ إلىٰ الخير والإصلاح ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين وضعت الرحمة في قلوبهم فنشروها في الأرض كما أردت يا الرحمـٰن ، اللهُمَّ إليك نشكو حالنا وضعفنا فارحم ضعفنا واجعلنا نرحم الضعيف فينا يا الرحمـٰن .

اللهُمَّ أنت الرحيم وأمرتنا بالرحمة ، فنسألك اللهُمَّ أن تجعلنا من الرحماء المرحومين ، ونسألك وأنت الرحمـٰن في السمـٰوات والأرض ورحيمهما ، أن تنزل علينا وعلىٰ والدينا وأزواجنا وذريتنا ومن علمنا ومن أحسن إلينا ومن أسأنا إليه ، شآبيب رحمتك عدد القطر والندىٰ ، اللهُمَّ اجعلنا برحمتك من الرحماء الذين تلين قلوبهم ، وتقشعر جلودهم رحمة للآخرين ، ونسألك بالرحمة المهداة محمد ﷺ أن تدخلنا في رحمتك ، إنك أنت الغفور الرحيم ، اللهُمَّ آتنا كفلين من رحمتك ، واجعل لنا نوراً نمشي به ، وارحمنا رحمة من عندك ننال بها رضوانك ، وتدخلنا بها الفردوس الأعلىٰ من الجنة ، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

اللهُمَّ يا الرحيم أنت ربنا إنا ندعوك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا إنك لا تخلف الميعاد ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) .

اللهُمَّ يا الرحيم يسر لنا من أمرنا رشداً ولا تعسره تعسيراً ، اللهُمَّ يا رحيم إنك بِالنَّاسِ لَرَؤوفٌ رَحِيمٌ فارحم عبادك المؤمنين بالهداية ولا تجعلهم علىٰ معصية ، اللهُمَّ إنك الغفور الرحيم فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا وتجاوز عن سيئاتنا واهدنا إلىٰ الحق ولا تجعلنا من المستضعفين ، اللهُمَّ يا الرحيم ارحمنا بالأعمال الصالحات التي ترضيك حتىٰ ترضىٰ عنا .

اللهُمَّ يا الرحيم اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

اللهُمَّ يا الرحيم يا من سبقت رحمته عقابه اجعلنا سبَّاقين إلىٰ الخير والرحمة ، اللهُمَّ اجعلنا رحماء بأنفسنا فلا نقودها إلىٰ الهلاك حتىٰ نكون رحماء بأمانتك ومحافظين عليها ، اللهُمَّ اجعل من اسمك الرحيم باب استجابة لدعائنا كما أجبت به من قبل نبيك أيوب في قولك تعالىٰ : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ (2) ، ربنا اكشف عنا الغم والهم واجعلنا ممن تستمع لدعائهم فتستجيب لهم .

اللهُمَّ إننا ندعوك باسمك الرحيم الذي يملأ الفؤاد بالأمل والرجاء فالحمد لك علىٰ رحمتك يا الرحيم .

---

(1) البقرة ، 286 .

(2) الأنبياء ، 83 ـ 84 .

اللهُمَّ يا الملك يا رب العرش العظيم ، نسألك الفردوس الأعلىٰ من الجنة مع الأنبياء والصّدّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُن أولئك رفيقاً يا رب العالمين ، لنا ولوالدينا وذرياتنا وللمؤمنين والمسلمين ، اللهُمَّ ملك السمـٰوات والأرض ومليكهما ، نسألك بملكك الكبير واسمك العظيم وسلطانك القدير ، وأنت المجير ، أن تجيرنا من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، وأن تظلنا بظلك يوم النشور ، اللهُمَّ يا الملك يا الوهاب يا الغفور يا التواب ، ويا رب الأرباب ، نسألك أن تجعل بيننا وبين النار حجاباً ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، اللهُمَّ إنا نعوذ بسلطانك ونلوذ بإحسانك ، فلا إحسان إلا وأنت جابره ، ولا سلطان إلا وأنت قاهره ، ولا جبار إلا وأنت داحره ، عنت الوجوه لعزتك ، وخشعت القلوب لهيبتك ، اللهُمَّ إنا نعوذ بعفوك من انتقامك ، وبرضاك من سخطك ، وبغفرانك من معصيتنا ، إنك أنت التواب ، اللهُمَّ أنت الملك الذي لا تضره معصية خلقه ، ولا تنفعه طاعتهم ، فتجاوز عنا اللهُمَّ إنك أنت الملك الوهاب .

اللهُمَّ يا القدوس اجعلنا ممن يقدسون قولك ويطيعونك واجعلنا من الطاهرين المقدسين ، ويا القدوس طهر أعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب ، وقلوبنا من النفاق ، وأنفسنا من الشح والبخل ، واختم لنا بخاتمة السعادة واجعلنا يا القدوس مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين في الفردوس الأعلىٰ .

اللهُمَّ إننا نقدسك طاعة تامة فاجعل أقوالنا وأعمالنا مقدسة بصلاتنا وسلامنا علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام ، ومقدسة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبتجنب ما أمرتنا اجتنابه واتباع ما أمرتنا إتباعه .

اللهُمَّ يا السلام اجعلنا علىٰ السلام بالإسلام ، وسلمنا من الأقوال والأفعال والأعمال التي لا ترضاها وارضَ عنا وعن زوجاتنا وأولادنا وآبائنا وأخوتنا وصحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول ٱلله وأمهاتنا زوجات الرسول ،

اللهُمَّ صل وسلم عليه كما صليت وسلمت وباركت علىٰ سيدنا إبراهيم إنك سميع مجيب .

اللهُمَّ يا السلام سلم عقولنا من الظن فإن بعض الظن إثم ، اللهُمَّ سلم أبصارنا من رؤية مالا ترضاه وسلم أسماعنا من الإنصات إلىٰ ما لا ترضاه ، وسلم أفكارنا من كل ضلالة وأبداننا سلمها يا سلام من عذاب جهنم إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا .

اللهُمَّ يا السلام عمنا بسلامك في الدنيا وفي الآخرة ، واملأ قلوبنا ونفوسنا بالسلام والطمأنينة ، فأنت السلام الذي نحبه ونحتاجه ونرجوه ، اللهُمَّ إنك جعلت تحيتك السلام فاجعلنا علىٰ الإسلام في سلام دائمين ، اللهُمَّ سلّمنا من كل سوء ورذيلة وذنب ، واجعلنا يا السلام من الذين إذا حُيّوا بتحية فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .

اللهُمَّ يا السلام اجعلنا في حياتنا آمنين بالسلام وفي آخرتنا متنعمين بالسلام ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخر دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اللهُمَّ يا السلام اهدنا الصراط المستقيم واجعلنا عندك في دار السلام آمنين أنت ولينا يا نعم المولىٰ ونعم الوكيل .

اللهُمَّ سلمنا من كل داء وكل بلاء وابتلاء ، وسلمنا في حياتنا ومماتنا ويوم بعثنا وسلمنا من الحساب واجعلنا من الفائزين في جنة النعيم إنك بنا رؤوف رحيم يا ألله .

اللهُمَّ يا المؤمن أمِّن لنا الحياة والممات والبعث وأمن لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهُمَّ يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا علىٰ دينك ، اللهُمَّ يا مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك ، اللهُمَّ اجعلنا من المسلمين لك المخبتين لك ،

الأوابين الأواهين التوابين ، وارزقنا ذكرك آناء الليل وأطراف النهار ، اللهُمَّ آمنا في أوطاننا ، وأصلح ذات بيننا ، وتب علينا واجعلنا من المؤمنين الصالحين . اللهُمَّ نسألك أن تؤمّننا يوم تفزع الخلائق ، اللهُمَّ أمنا يوم البعث والنشور فلا ملجأ إلا إليك يا أرحم الراحمين واحشرنا مع الذين قلت عنهم وقولك الحق : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [1] وصلىٰ ٱلله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

اللهُمَّ يا المهيمن علىٰ الروح اجعل أرواحنا طاهرة ، ويا المهيمن علىٰ العقول اجعل عقولنا مستنيرة بذكرك ، ويا المهيمن علىٰ النفس اجعل أنفسنا برحمتك مطمئنة ، ويا المهيمن علىٰ الأبدان اجعل أبداننا مبرأة من العذاب ، ويا المهيمن علىٰ الحياة اجعل حياتنا في طاعتك ، ومماتنا في طاعتك وبعثنا في طاعتك ، إنك أنت المهيمن علىٰ الكون وعلىٰ الخلق وعلىٰ ما نعلم وما لا نعلم بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير ، اللهُمَّ إنك أنت المهيمن ولا مهيمن سواك فلا تجعلنا تحت المسيطرين ، اللهُمَّ يا مهيمن اجعل الخير والصلاح والفلاح والعمار مهيمناً علينا ، واجعل ديننا مهيمناً علىٰ دنيانا فلا نضل سبيلك يا المهيمن يا ٱلله .

اللهُمَّ يا المهيمن اجعل الحق مهيمناً علىٰ الباطل ، والعلم مهيمناً علىٰ الجهل والخير علىٰ الشر والعدل علىٰ الظلم والحب علىٰ البغض ، حتىٰ نكون خير أمة أخرجت للناس كما أردت لنا .

اللهُمَّ يا العزيز نشهد أن لك العزة ، ولرسولك العزة ، وللمؤمنين العزة ، اللهُمَّ يا العزيز عزَّنا بقوتك وقدرتك وغناك وكرمك وعلمك وحكمتك وحفظك وسلامك ، اللهُمَّ إن العزة بالحق فلا تجعلنا يا العزيز من الذين أَخَذَتْهُم الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ واجعلنا يا ٱلله للحق مُحقِّين ، وإذا حكمنا بين الناس نحكم عادلين ،

---

(1) الأنعام ، 82 .

ولا تجعلنا من المطففين الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ .

اللهُمَّ يا العزيز عز الإسلام بزيادة عدد المؤمنين الذين إذا عاهدوا أو نذروا أوفوا والذين يُقِيمُون الصَّلاة وَيُؤتُون الزَّكَاةَ ويقْرِضُون اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ويَدْعُونَ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

اللهُمَّ يا العزيز يا من له العزة وبه العزة ومنه العزة أعزنا ولا تجعلنا أذلاء ، اللهُمَّ يا العزيز يا رافع الشأن ارفع شأننا وقدرنا واجعلنا من حملة راية دينك عزيزة واجعلنا أعزاء بنصرك يا العَزِيزُ يا الرَّحِيم ، اللهُمَّ اجعلنا أعزاء في أنفسنا قبل أن نكون في غيرنا ، اللهُمَّ يا العزيز اجعلنا وبنينا وأهلينا في حماك ورعايتك ، فلا نكون ممن قلت عنهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [1] فلا نطلب سواك ولا نلجأ لغيرك يا العزيز ولا تجعلنا أذلاء خائفين .

اللهُمَّ يا الجبَّار اجبر أنفسنا علىٰ الطاعة التامة والطمأنينة التامة ، ولا تجعلها مع الأهواء والضالين ، اللهُمَّ أجبرنا علىٰ طاعة الوالدين في غير معصيتك ، اللهُمَّ أجبرنا علىٰ الصلاة والصوم والزكاة والحج إننا نلبيك واحداً أحداً لا شريك لك ونصلي ونسلم علىٰ سيدنا محمد الرسول الخاتم بالرسالة الكافة كما نصلي ونسلم علىٰ جميع أنبيائك ورسلك ، اللهُمَّ أجبر خواطرنا وخواطر أبنائنا برضاك ولا تجعلنا في حاجة لسواك ، اللهُمَّ إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك . اللهُمَّ أجبرنا مع العدل علىٰ العدل الحق ، واجعلنا من المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها فنعم المولىٰ ونعم النصير .

نسألك يا ألله يا المتكبر أن تكبر فينا كل ما يقربنا منك فيجعلنا متكبرين بك متكبرين بعبادتك وبالتذلل إليك ، اللهُمَّ أَكْبِرْ العلم فينا عن الجهل وأكبر

---

(1) النساء ، 139 .

الخير في نفوسنا عن الشر واجعلنا متكبرين عن الظلم وعن الإفساد في الأرض وكل ما يقلل من شأننا من أقوال أو أفعال لا ترضىٰ عنها ولا ترضيك واجعلنا متكبرين عن المعصية بفعل الطاعة ومتكبرين بك عمن سواك مما يُعبد بغير حق ، اللهُمَّ يا متكبر لا تجعل الغرور كبرياء في نفوسنا واجعلنا غير متكبرين علىٰ الطاعة والهداية فلا نطغىٰ ولا نتكبر علىٰ من أمرتنا بخفض جناح الذل من الرحمة لهم ولا نظلم أحداً ، اللهُمَّ أجعلنا ليّني القلب رحماء يحبون الرحمة وإذا حيوا بتحية يحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ يرُدُّوهَا إِنَّك عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبٌ .

اللهُمَّ يا الخالق لَقَدْ كَرَّمْتَنَا وَحَمَلْتَنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْتَنَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْتَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْت تَفْضِيلاً فاجعلنا يا الخالق في أحسن تقويم واجعلنا من أبناء أمة يهدون بالحق وبه يعدلون .

اللهُمَّ إنك قَدْ خَلَقْت فَوْقَنا سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنْت عَنِ الْخَلْقِ غَافِلاً فلا تجعلنا يا الخالق من الغافلين ، اللهُمَّ إنك خلقت السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بالحق فاجعلنا علىٰ الحق مصلحين لا ظانين بالإثم ولا مفسدين .

اللهُمَّ إنك قد خلقتنا وَتَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ أَنَفُسنا وما تفكر فيه عقولنا فاجعل أنفسنا بذكرك آمنة مطمئنة وعقولنا بعلمك علىٰ الصراط المستقيم ولا حول ولا قوة إلا بك رب العالمين .

اللهُمَّ إنك خلقت من كل شيء زوجين فاجعلنا وأزواجنا علىٰ حبك وحب رسولك محمد عليه الصلاة والسلام متلاقين متحابين ، واجعلنا من الذين يتذكرون القول فيتبعون أحسنه .

اللهُمَّ يا البارئ الخلق برئنا فلا براءة بعد براءتك ولا فضل إلا فضلك فبرئنا اللهُمَّ بفضلك عن الشرك بك وبرئنا من عبادة غيرك بهدايتك لتوحيدك والانصياع لك عن طيب خاطر .

اللهُمَّ برئنا من الظلم بإلـهامنا العدل ، ومن الخطايا والسيئات بإرشادنا

إلىٰ الطاعات . كما نسألك اللهُمَّ أن تبرئنا من الإفساد في الأرض بالأفعال والأقوال لنستحق بذلك رضوانك ونكون خلفاءك في الأرض .

اللهُمَّ برئنا من سخطك وعقابك بعفوك ورضاك ، وبرئ عقولنا من نسيانك والتلهي عنك بما سواك ، وبرئ قلوبنا وألسنتنا عن الانشغال بغيرك ، اللهُمَّ برئنا من الكذب والإساءة لرسلك ، وبرئ المسيئين إليهم من نعيمك ورحمتك واجعل النار مستقرهم الأخير ، اللهُمَّ برئنا من المرض والهم والغم والفقر والحاجة والبلاء وبرئنا من الهموم والدنس بلطفك ورحمتك أنت الرحمـٰن سبحانك جل جلالك . اللهُمَّ صلِّ وسلم علىٰ سيدنا محمد كما صليت وسلمت علىٰ سيدنا إبراهيم .

اللهُمَّ باسمك المصور جعلت لنا الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَتنا فَأَحْسَنْت صُوَرَنا وَرَزَقْتنا مِنَ الطَّيِّبَاتِ فاجعل لنا الطيبات في كل حين واجعلنا علىٰ أحسن التقويم يا من بيده الأمر والمصير يا ألله .

اللهُمَّ إنك خلقتنا وسويتنا وعدلتنا في أي صورة ما شئت ركبتنا نحمدك ونشكرك فلا تجعل أولادنا من بعدنا من المكذبين وكن بنا وبهم رؤوفاً رحيماً واجعلنا من الأبرار في النعيم ولا تجعلنا من الفجار في الجحيم .

اللهُمَّ إنك المصور فصورت لنا الجنة حقّاً لمن اهتدىٰ وأحسن عملاً ، وأنت المصور فصورت لنا النار حقّاً لمن ضل وأفسد فاجعلنا من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه واجعلنا من المصلحين لا من الضالين والمفسدين فيها وسافكي الدماء .

اللهُمَّ يا الغفَّار أغفر ذنوبنا واستر بالأعمال الصالحات عيوبنا ، أنت مولانا فنعم المولىٰ ونعم النصير ، اللهُمَّ إنك الغفار الكريم فأكرمنا بواسع مغفرتك ، اللهُمَّ إنك تعلم بحالنا وبما يلم بنا وبما تهواه أنفسنا فاغفر لنا في ما نظرنا إن كان لا يرضيك ولِما سمعنا إن كان لا يرضيك وما عملنا إن كان

لا يرضيك فنحن ما قصدنا وإن قصدنا بأسباب غفلة أو ضعف أنت تعلمه فأنت الغفَّار الذي نتضرع إليه أن يغفر لنا فاغفر وارحم واجعلنا من التائبين ، اللهُمَّ يا الغفار إن قصَّرنا في طاعة الوالدين في غير معصيتك فاغفر ، وإن قصرنا في رعاية الأبناء فاغفر ، وإن ارتكبنا الخطايا فاغفر ، وها نحن نعترف أن الكمال لك وحدك فاغفر .

اللهُمَّ يا القهَّار اقهر العصيان فينا بالطاعة ، والضعف بالقوة ، والقلق والاستعجال بالطمأنينة والصبر ، واقهر الجهل بالعلم الذي يؤتىٰ منك وآتنا الحكمة حتىٰ لا نضل ، واقهر الخوف من غيرك بالخوف منك ، اللهُمَّ اقهر المرض بالشفاء والداء بالدواء يا من به آمنا وعليه توكلنا ، اللهُمَّ يا القهَّار اقهر أعداءنا وحاسدينا ، واقهر الظلم بالعدل والإحسان ، واقهر الطغاة بسيادة العباد في البلاد ، واقهر الفساد بالإصلاح ، واقهر سافكي الدماء بغير حق بالقصاص ، واقهر الكره بيننا بالمحبة في غير معصيتك واجعلنا من الوارثين ، اللهُمَّ اقهر الماكرين ومكرهم والكائدين وكيدهم إنك أنت القهار جل جلالك . اللهُمَّ يا القهَّار هب لنا القوة والقدرة التي بها نتمكن من مغالبة وقهر الأعداء ومعرفة الدواء لكل داء ، اللهُمَّ إنك قلت وقولك الحق ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ سبحانك مالك الملك الواحد القهَّار .

اللهُمَّ يا الوهاب هب لنا الرزق الحلال والملك الحلال وهب لنا الصحة والعافية وهب لنا القوة والبركة في كل قول وفي كل فعل وعمل ، اللهُمَّ هب لنا سلطان العلم والحكمة والتقوىٰ والهيبة ، وهب لنا القدرة علىٰ تفادي المخاطر وكيد الكائدين وحسد الحاسدين ومكر الماكرين وسحر الساحرين إنك أنت ربنا الوهاب سبحانك ما أعظم شأنك سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ هب لنا نوراً ينير دروبنا وبصائرنا ، وهب لنا قولاً يكون حُجة لنا لا حُجَّة علينا ، وهب لنا سمعاً لا تضيق به أنفسنا ، وبصراً لا يغفل عن رؤية جمالك ، وعقلاً لا يقصر عن معرفة معجزاتك ، ولساناً يذكرك كثيراً ويسبح

بحمدك وشكرك كثيراً ، اللهُمَّ هب لنا الفطنة التي تمكننا من قول الحق وفعل الحق وتجنب الزلات إنك سميع قريب مجيب الدعوات سبحانك أنت الوهاب جل جلالك ، اللهُمَّ هب لنا الفوز علىٰ وسوسة الشياطين من آبالسة الإنس والجن أجمعين ، وهب لنا حفظة كراماً يحيطون بنا وبما نملك ، اللهُمَّ هب لنا الثقة التي بها نكون ثابتين علىٰ طاعتك وعبادتك وهب لنا من الصالحين أعواناً وهب لنا صحة الأنفس والأبدان وسلامة العقل واللسان وسلامة العمل والفعل . نحمدك يا وهاب يا من جعلتنا من الذين يدعونك واحداً أحداً ولا يشركون بك شيئاً ، وندعوك يا وهاب باسمك الأعظم (ٱلله) أن تجعل في ألسنتنا القوة والقدرة وفي سمعنا القوة والقدرة ، وفي بصرنا القوة والقدرة ، وفي جميع حواسنا ومشاعرنا أنت القوة والقدرة سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ يا الرزاق ارزقنا الطاعة التامة لك ، ولا تجعلنا طائعين لوسوسة الشياطين من الجنة والناس ، وارزقنا العلم والحكمة وارزقنا بحلالك عن حرامك ، وجنِّبنا عمَّا نهيت عنه ، وانزل علينا الحفظة الكرام يحفظوننا من كل شر وضيق وجهل ومرض وفقر ، وارزقنا رضاك ورحمتك لنكون علىٰ ما تحبه وترضاه . اللهُمَّ يا الرزَّاق لا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم من الدنيا ولا تفتنا فيها ، وارزقنا نعيم الجنة ولا تحرمنا منها ، اللهُمَّ إنك قلت وقولك الحق : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ اللهُمَّ يا الرزَّاق إن رزقنا عليك فاجعلنا من الأغنياء الوارثين ولا تجعلنا من الفقراء لغيرك ولا تجعلنا محتاجين ، اللهُمَّ ارزقنا يا الرزاق بالأبناء الصالحين ، واجعلنا في مرضاتك لآبائنا محسنين ، اللهُمَّ إنك ترزق من تشاء بغير حساب ارزقنا يا الرزَّاق كما تشاء بغير حساب عليك توكلنا يا نعم المولىٰ ونعم النصير .

اللهُمَّ أنت الرزاق تهب لمن تشاء ما تشاء ، اللهُمَّ ارزقنا نصراً كبيراً وعلماً مفيداً وصبراً جميلاً .

اللهُمَّ ارزقنا ألسناً شاكرة وقلوباً ذاكرة وعقولاً تتذكر ما كان وتفكر فيما يكون ، وارزقنا حبك وحب رسولك الكريم محمد ﷺ وارزقنا محبة الصحابة والصالحين ، اللهُمَّ ارزق أسرانا فرجاً ميسراً ومرضانا شفاءً عاجلاً وطلابنا علماً نافعاً ومظلومينا نصراً قريباً .

اللهُمَّ إنك الفتَّاح فأنر عقولنا بالعلم النافع وأنر نفوسنا بما تطمئن به ، وافتح علينا أبواب السماء رحمة ، وافتح علينا بالحكمة التي بها نُعمِّر الأرض ونستخلف فيها ونرث الجنة ، قلت يا الفتَّاح وقولك الحق : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ اللهُمَّ يا الفتَّاح افتح علينا رحمة لا ممسك لها إلا أنت وأنت خير الفاتحين ، اللهُمَّ افتح صدورنا للإيمان ، واجعلنا من الذين يَسِيرُون فِي الأَرْضِ ولَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا وآذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، اللهُمَّ اجعلنا من الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، ولا تجعلنا من الضالين وأرضَ عنا إنك أنت الفتَّاح العليم عليك توكلنا والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ يا الفتّاح افتح أبواب الأمل والرجاء في حبك وقربك ، اللهُمَّ إننا ندعوك يا الفتّاح أن تفتح لنا من العلم واليقين ما يكفينا لأن نصل إلىٰ جنتك فترضىٰ عنا ونرضىٰ عن أنفسنا ، يا الفتّاح اجعلنا فاتحين لعمل الخير فلا نغلق أبوابه في وجه عبدٍ من عبادك ، وفاتحين للكلمة الطيبة التي تسعد النفوس ، وفاتحين للعلمِ النافع الذي يرقىٰ بالعقول .

اللهُمَّ يا الفتّاح افتح بيننا وبين من ظلمنا بالحق كما فتحت علىٰ عبادك المؤمنين في قولك : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [1] .

(1) الأعراف ، 89 .

اللهُمَّ إنك العليم بأمر الغيب والشهادة فاجعلنا في الأمرين من المحسنين الوارثين ، اللهُمَّ إنك قلت وقولك الحق ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ فزدنا يا العليم علماً من علمك الواسع به نكسب ولا نخسر وننفع ولا نضر ونخافك ونتقيك ولا نغتر ، اللهُمَّ يا العليم اجعلنا وأبناءنا علىٰ علم من علمك ، اللهُمَّ إنك العليم السميع المجيب فنمد أيادينا إليك ونشد قلوبنا إليك وعقولنا إليك وأنفسنا إليك فأجبنا بعلمك حتىٰ لا تكون لنا حاجة إلا إليك سبحانك لا إلـه إلا أنت جل جلالك لا عزة لنا إلا بك ، اللهُمَّ يا العليم اجعلنا من أولي الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والذين يعلمون الحق فلا يشركون فيه الباطل ، وإذا ما علموا بالباطل دمغوه فإذا هو زاهق سبحانك جلَّ جلالك أنت العليم العظيم .

اللهُمَّ يا القابض أسألك أن تقبض علىٰ كل هم وغم حتىٰ تفرج الكروب عنا وتمحىٰ الذنوب ، اللهُمَّ اقبض علىٰ المرض والألم حتىٰ يأتي الشفاء وتستريح الأبدان وتطمئن الأنفس ، اللهُمَّ إنك القابض علىٰ الظلم فاقبض حتىٰ يعم العدل ، وأنك القابض علىٰ الكره فاقبض حتىٰ تسود المحبة .

اللهُمَّ إنك القابض للحياة الدنيا والباسط للحياة الآخرة فاجعل لنا نصيباً في الدنيا ونعيماً في الآخرة ، اللهُمَّ إنك تقبض لتبسط فاقبض علىٰ أسباب التعب والعناء والضيق وابسط اللهُمَّ لنا العمل الصالح والرزق الحلال .

اللهُمَّ إنه لا قابض للحسد والحقد والكره والضغينة إلا أنت فاقبض لتسود بيننا المودة والمحبة والرضا والتسامح إنك سميع قريب مجيب الدعاء يا ألله .

اللهُمَّ إنك القابض علىٰ الشر والحياة فاقبض علىٰ كل شر وعلىٰ كل حياة شرك وكفر وذل وخيانة إنك أنت القابض سبحانك جل جلالك .

اللهُمَّ يا القابض نسألك أن تقبض ما نهيتنا عنه ، وتبسط لنا ما أمرتنا به ، حتىٰ نفوز برضاك والجنة ، وننجو من غضبك والنار ، اللهُمَّ أنت القابض

فاقبض عنا الفتن والمحن ، اللهُمَّ يا القابض اقبض عنا الكفر والفسوق والعصيان وابسط في قلوبنا محبتك ومحبة رسولك محمد عليه الصلاة والسلام .

اللهُمَّ ابسط لنا ما تحب واقبض عنا ما تكره ، بحق ما بسطت من نعم علىٰ من أحببت من الأنبياء والمرسلين وعبادك الصالحين الذين استخلفت . اللهُمَّ أبسطنا بالإيمان واحفظنا بآيات القرآن ، وابسط أنفسنا بالأمن والاطمئنان ، اللهُمَّ إنك أنت الباسط للحق فاجعل لنا الحق بساطاً لا نحيد عنه ولا يحيد عنا ، واجعل لنا الرزق بساطاً كما تشاء يا من ترزق من تشاء بغير حساب ، اللهُمَّ اقبض عنا العناء والشقاء والبلاء والغفلة عن ذكرك وحبك يا من بعث المرسلين والأنبياء منذرين ومحرضين ومبشرين بما تحب وترضىٰ . اللهُمَّ ابسط مكرك وكيدك بالماكرين والكائدين بغير حق ، اللهُمَّ ابسط النور في أبصارنا وأسماعنا وجميع حواسنا وفي أنفسنا واجعله ربيع قلوبنا إنك أنت الباسط جل جلالك . اللهُمَّ ابسط الرعب والخوف والذل في أعدائنا وحسادنا وابسط في نفوسنا القوة والهيبة في طاعتك أنت ربي سبحانك جل جلالك ، اللهمَّ يا باسط يا ألله لا تجعلنا من الذين نسوا نصيبهم من الدنيا واجعل لنا هـٰذا النصيب مفتاحاً من المفاتيح المدخلة للجنة ، ولا تجعله قفلاً بيننا وبين أبوابها ونعيمها ، أنت ولينا نفوض أمرنا إليك يا ألله يا البصير بالعباد .

اللهُمَّ يا الخافض إنك تملك القوة التي بها تخفض الطغاة والمتجبرين والمتكبرين بغير حق فاخفض جناحهم بقوتك وذلهم وكد كيدهم وامكر بمكرهم إنك الحق الذي يعلو ولا يعلىٰ عليه ، اللهُمَّ اجعلهم في خفضه واجعلنا في رفعة يا ألله .

اللهُمَّ يا من خفضت تجبُّر فرعون وزهو هامان ، أن تخفض كل من طغىٰ وتجبّر علىٰ أمة محمد .

اللهُمَّ إنك الخافض بعدلك فاجعل حكمك في من غدر بخير أمة أخرجت

للناس آية ، اللهُمَّ إنك الخافض للتوتر فاخفض كل توتر بين أبنائها ، اللهُمَّ إنك الخافض لأهل المعصية فاجعلهم أسفل سافلين واجعل المسلمين علىٰ طاعتك عليين .

اللهُمَّ إنك لا تخفض حالاً ولا درجة ولا قوة إلا بسبب فاجعل لنا الأسباب والقوة التي بها تقضىٰ الحوائج وتُرفع الدرجات وتتحسن الأحوال .

اللهُمَّ اجعلنا خافضين جناح الذل من الرحمة لآبائنا واجعلنا محسنين إليهم ، وارحمهم يا ألله علىٰ رعايتهم وحسن تربيتهم لنا ويسِّر لهم ولنا من أمرنا رشداً .

اللهُمَّ يا الرافع ارفعنا محبة في رضاك واجعلنا في عليين ولا تجعلنا مظلومين ، ولا مهمومين ولا محسودين ، ولا تجعلنا في أسفل سافلين ، اللهُمَّ يا الرافع ارفع أعمالنا في موازين رضاك ، ولا تخفضها في موازين غضبك ، اللهُمَّ إنك رفعت السمٰوات العلا بدون عمد نراها فارفع عنا ذنوبنا وخطايانا وارفع عنا المظالم حتىٰ لا نراها ولا بها نُدان ، اللهُمَّ إنك جعلت الحق رافعاً للظلم فاجعلنا في رفعة الحق نُزهِق الباطل ، اللهُمَّ أرفع عنا الابتلاء واجعلنا في الرضا يا باسط الأرض ورافع السمٰوات العلا ، اللهُمَّ ارفع الضيم عن المُضامين والسجن عن المسجونين ، واجعلنا من الطائعين التائبين المستغفرين ، اللهُمَّ يا الرافع ارفعنا قدرة وقوة ولا تجعلنا من المستضعفين ولا المفسدين واجعلنا من المصلحين فيها ولا تجعلنا من سافكي الدماء بغير حق ، اللهُمَّ ارفعنا بالعلم والحكمة في الدارين واجعلنا فيهما من الوارثين ولا تجعلنا من المحرومين إننا نؤمن بك ونتقيك سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ يا الرافع الهم والظلم والبغي ارفع عن عبادك المسلمين كل كرب وغم ، اللهُمَّ ارفع راية أمتنا عالية وارفع فينا الهمة والنخوة ، اللهُمَّ يا الرافع آتنا علماً وارفعنا به درجات إنك سميع قريب مجيب الدعوات ، اللهُمَّ اجعلنا من أولئك الذين رفعتهم بالإيمان فتكون لهم الرفعة في الدنيا والآخرة .

اللهُمَّ إننا ندعوك باسمك الرافع أن ترفع همتنا فنكون من خلفائك الرافعين لكتابك الكريم وسيرة رسولك محمد ﷺ وأن نكون رافعين للجهل عن العقول والغم عن القلوب والضيق عن الأنفس والظلم عن العباد .

اللهُمَّ ارفع مقتك وغضبك وسخطك عنا برضاك وطاعتك ، وارفع عنا الجهل بالعلم ، وارفع عنا المرض بالعافية ، وارفع عنا الكفر بالإيمان ، فنكون بذلك من المترفعين عن كل ما يغضبك ، ويرفع عنا رضاك .

اللهُمَّ يا المعز إنك تعز من تشاء متىٰ ما تشاء فأعزنا كما تشاء بالإيمان والعلم والحكمة والملك والغنىٰ والصحة والعافية يا خالق الأرض والسمٰوات العلا وما بينهما وما تحت الثرىٰ يا ألله .

اللهُمَّ أعزنا بتدبُّر القرآن وطاعة الوالدين في رضاك والإحسان ، واتباع الصدق وتجنب الخذلان ، وأعزنا بقول الحق وفعل الحق وإزهاق الباطل ، اللهُمَّ إنك تعز أهل الطاعة بالطاعة فاجعلنا لك طائعين لا نقدم علىٰ شيء لا ترضاها ولا نتخلف أو نتأخر عن شيء ترضاه .

اللهُمَّ يا المعز أعزنا بصفاء النية والإخلاص في العمل وأداء الفرائض ، اللهُمَّ أعزنا في معاركنا مع الباطل بجند من جندك كما أعززت سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام في معاركه حتىٰ أحق الحق وأزهق الباطل وبلَّغ الرسالة .

اللهُمَّ يا المعز نسألك أن تعزنا في ديننا وفي أوطاننا وفي أبنائنا وأهلنا ، اللهُمَّ يا المعز نسألك أن تعزنا علىٰ أعدائنا بعزك الذي لا يضام ، اللهُمَّ يا المعز أعز في أنفسنا التقىٰ والهدىٰ والطاعة لك والإيمان بك لا إلـٰه إلا أنت المعز سبحانك .

اللهُمَّ يا المذل ذلل لنا السحب بالأمطار والغيث النافع ، وذلل لنا الصعاب من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وذلل لنا العلم حتىٰ نتقيك في كل كبيرة وصغيرة وذلل لنا رضاء الوالدين حتىٰ نفوز برضاك والجنة ، وذلل لنا

الحماية والحفظ من كل شر وفي كل بر ، وقنا من شرور الحادثات وأمطر رحمتك علينا رحمة في الدارين ولا تجعلنا نعمل ما يثير غضبك علينا وقنا عذاب النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، وأستغفر ٱلله العظيم من كل ذنب والحمد لك واحداً أحداً لا شريك لك ، لك الملك ، ولك الحمد ، والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ يا المذل أذل الشرك والمشركين وأعز الإسلام والمسلمين ، اللهُمَّ انصر جنودك في مشارق الأرض ومغاربها ، اللهُمَّ انصرهم نصراً عزيزاً تعز به عبادك المؤمنين ، وتذل به الكفر وأتباعه .

اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل الضعفاء ، اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل المسلمين ، اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل الإسلام ، اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل المصلحين في الأرض ، اللهُمَّ أذل العابثين والمفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق . اللهُمَّ أذل الذل في نفوسنا حتىٰ نكون علىٰ طاعتك أقوياء ، اللهُمَّ إن بعض الظن إثم فاجعله ذليلاً أمام حجَّتك التي بها نتقيك ، اللهُمَّ أذل من يريد بنا ذلاً ، اللهُمَّ أذل المستعمرين الذين يريدون أن يخرجوا العباد من ديارهم بغير حق .

اللهُمَّ يا السميع إنا إليك راجعون ، وعن ذنوبنا تائبون ، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم ، اللهُمَّ يا السميع نسألك باسمك السميع الذي سمعت به يونس في قلب الظلمات ، أن تُسمع عنا دعوة الحق لخلقك ، وتجعل أجر ذلك عفوك ورحمتك وغفرانك لنا ولوالدينا ولأصحاب الحقوق علينا ، ونسألك باسمك السميع الذي سمعت به أيوب إذ مسّه الضر ، أن تسمع دعاءنا ، وتكشف الضر عنا ، وعمّن أحسن إلينا ، وعمّن أسأنا له يا سامع الدعاء ويا ناصر الضعفاء ، أن تنصرنا علىٰ الأعداء ، ونسألك باسمك الذي سمعت به دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء علىٰ الصخرة الصماء ، أن تجعل هـٰذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، وأن لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا من بعده .

اللهُمَّ إنا سمعنا فأطعنا فاغفر لنا وارض عنا لك الحمد والشكر لا إلـٰه إلا أنت سبحانك ما أعظم شأنك نستغفرك ونتوب إليك .

اللهُمَّ يا البصير نسألك أن تبصر حالنا ، وتتقبل دعاءنا وتختم بالصالحات أعمالنا وتتوفانا وأنت راض عنا ، نحن الضعفاء وأنت البصير القوي ، نحن الفقراء وأنت البصير الغني ، اللهُمَّ إننا نسألك يا البصير أن تقلب قلوبنا نحو عبادتك ، وارزقنا الخير كله ، واجعل الحياة لنا داراً للإيمان ، والآخرة داراً للخلود في جنتك يا البصير بنا وبأحوالنا .

اللهُمَّ إنا نسألك النظر إلىٰ وجهك الكريم ، والشوق إلىٰ لقائك فلا تحرمنا يا أرحم الراحمين .

اللهُمَّ يا البصير ، سبحانك وبحمدك ، توكلنا عليك في أمورنا كلها وأنت بصير بها فاغفر لنا وعافنا وارزقنا واقض حاجتنا ويسر أمرنا يا ألله .

اللهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا ، واجعل بصرنا يا البصير مشغولاً بالنظر إلىٰ عظمتك وقدرتك ورحمتك . ومكنا يا البصير بالنظر الذي أنعمت به علينا أن ننظر إلىٰ آياتك العظام حتىٰ نعرف ونحن مؤمنون كيف خلقت الإبل ونصبت الجبال ورفعت السماء وسطحت الأرض ، اللهُمَّ اجعلنا مذكِّرين ومتعظين بكل أمر أمرتنا به واجعلنا من العاملين عليها ولا تجعلنا من الجاهلين ، واجعلنا من الطائعين ولا تجعلنا من العاصين ، ومن المسبحين بحمدك الذاكرين لأسمائك وصفاتك الحسان لا من الغافلين .

اللهُمَّ إنك الحكم ونحن الطائعون لحكمك فاجعلنا بحكمك علىٰ الصراط ثابتين ، اللهُمَّ إنك الحكم العليم بما أعلنّا وما أخفينا ، والمحيط بما لم نأت وما أتينا ، اللهُمَّ لا تسلّط عدوّك وعدوّنا علينا ، وأنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا ، فالحمد لك يا أحكم الحاكمين الذي خلق كل شيء فأحسن التقدير ، ودبر الخلائق فأكمل التدبير ، وقضىٰ بحكمته علىٰ العباد بالسعادة والشقاوة فريق في الجنة وفريق في السعير ، ربنا إليك أنبنا وإليك المصير .

اللهُمَّ إنك الحكم وسعت كل شيء عِلْمًا عليك تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا فافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ، اللهُمَّ إنك الحكم تفصل بين الحق والباطل فاجعل الحق لنا حُجَّة وتفصل بين الخير والشر فاجعلنا من أهل الخير ولا تجعلنا من أهل الشر ، وتفصل بين الحلال والحرام فاجعلنا من أهل الحلال ولا تجعلنا من أهل الحرام ، وتفصل بين الجنة والنار فاجعلنا من أهل الجنة ، اللهُمَّ يا الحكم بحكمك عمَّرت الأرض رزقاً وخلقاً فاجعلنا فيها أغنياء مطمئنين آمنين ومصلحين لا مفسدين ، اللهُمَّ وَعْدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ فاجعلنا من الذين يحتكمون بشريعتك ويطيعون أمرك طوعاً لا كرهاً ، اللهُمَّ إنك الحكم وحكمك نافذ فاجعلنا من المقسطين الذين يخافونك ويتقونك ولا تُسلِّط علينا ظالماً لا يخافك ولا يتقيك ، اللهُمَّ إننا عبادك وأنت اللطيف الخبير .

اللهُمَّ إن اسمك العدل وقولك العدل وفعلك العدل وغايتك العدل ، فاجعلنا باسمك وقولك وفعلك وغايتك علىٰ العدل ثابتين واهدنا صراطك المستقيم إنك بنا رؤوف رحيم يا ألله .

اللهُمَّ إننا نشهد أن العدل حق ، فاجعله لنا حقّاً حتىٰ لا نُظلم ، واجعله بيننا حقّاً عنه لا نغفل ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين يؤدون الأمانات إلىٰ أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، واجعلنا علىٰ طاعة قولك : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (1) .

---

(1) النحل ، 90ـ92 .

اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين المصلحين وغير سافكي الدماء فيها بغير حق واجعلنا للمتقين إماماً واجعلنا من الوارثين في الجنة أنت مولانا بك آمناً وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فالحمد لك .

اللهُمَّ إنك اللطيف بودِّك وعفوك ورحمتك فاعفُ عنا وارحمنا بلطفك وودّك ، اللهُمَّ إننا نعلم يقيناً أنك تعذب من تشاء وتعفو وترحم من تشاء وتحاسب وتعاقب من تشاء ، اللهُمَّ اجعلنا من عبادك الذين أنت بهم لطيف ولا تجعلنا من المعذبين في النار يا اللطيف يا القهار يا عالم الأخبار والأسرار ، سبحانك ما أعظم شأنك لطيف بالجنين في بطن أمه ترزقه من أحشائها ولطيف به رضيعاً تغذيه من لبنها ، ولطيف بشبابه تمده برزق وقوة من رزقك وقوتك ، ولطيف بعجزه تمده بالرعاية والعناية من غير ما يحتسب ، اللهُمَّ الطف بنا وأبنائنا وأزواجنا رعاية وعناية تامة ورزقاً حلالاً ، اللهُمَّ إنك اللطيف تعلم ما تخفي صدورنا وما تبديه وتعلم مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ فالطف بحالنا وأحوالنا وارزقنا وارحمنا إنك عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سبحانك يا من لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . اللهُمَّ يا اللطيف اجعلنا من الذين يقيمون الصَّلاةَ وَيأْمُرْون بِالْمَعْرُوفِ وَينهون عَنِ الْمُنْكَرِ واجعلنا من الصابرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

اللهُمَّ يا الخبير بأحوال العباد ، يا من لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، اجعلنا متواضعين بعلم مفيد وبخبرة تفيد ، إننا نخافك ونخجل منك لعلمك السر والعلن ، اللهُمَّ اجعل خبرتنا وعلمنا المحدودين منبهاً لنا لخشيتك وحبك .

اللهُمَّ يا الخبير يا من لا يخفىٰ عليه ضعفنا وفقرنا وحاجتنا إليه ارحمنا بواسع رحمتك ، ويسر لنا أمورنا واقضِ عنا دَيننا وبارك لنا يا الخبير في أولادنا وأزواجنا وأهلنا وعقولنا وصحتنا وأمتنا يا الله علىٰ دين الإسلام إنك بنا رؤوف خبير .

اللهُمَّ يا الحليم يا من كان حلمه رحمة ووداً يمده معيناً لنا علىٰ التوبة والاستغفار ، استر عيوبنا بحلمك علينا ورحمتك بنا ، واجعل من قلوبنا وعقولنا مواطن الحلم والصبر ، اللهُمَّ اجعلنا نتملك من الحلم ما نطفئ به نار الغضب والتهور فلا نكون من النادمين .

اللهُمَّ يا الحليم اجعل لنا من صفتك نصيباً نترفع به عن الصغائر والرذائل والنقائص والعيوب فنكون من عبادك الطائعين المتقربين إليك بالخيرات والمكارم .

اللهُمَّ يا ألله يا الحليم اجعلنا ممن يحلمون في التعامل مع الآخرين ، فلا نتسرع في أحكامنا علىٰ من نتعامل معهم ويسيئون إلينا ، ومكِنّا اللهُمَّ من الصبر حتىٰ نمتلك القدرة علىٰ الحلم علىٰ من يظلموننا فنقابل أذاهم بإحسان فنكون بذلك ممن يتصفون بصفاتك ويدعون إلىٰ سبيلك بالقول والفعل ، ومن أرادنا بعد ذلك يا الحليم بمكر فامكر به ومن أرادنا بكيد فكده وكد كيده ، ومن أخطأ فينا وندم واستغفر فأنت التواب الرحيم .

اللهُمَّ باسمك العظيم نسبِّحُك ونحمدك ونشكرك كثيراً ، اللهُمَّ يا العظيم عظّم أقوالنا بالحُجَّة التي تحق الحق وتدمغ الباطل حتىٰ يزهق ، وعظّم أعمالنا بكل ما يسبب إصلاحاً في الأرض ويقضي علىٰ الفساد ويحرِّم سفك الدماء بين الناس بغير حق ، اللهُمَّ إنك العظيم بوحدانيتك فنشهد أنك ٱلله لا إلـٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك جل جلالك ، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك فنصلي عليه ونسلم تسليماً ونشهد أنك العظيم بخلقك فخلقت الإنسان في أحسن تقويم فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، ونشهد أنك العظيم بعذابك فالويل للكافرين الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ .

اللهُمَّ إنك الغفور العظيم بمغفرتك تغفر الذنوب لمن تشاء من عبادك

فاغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا وفرج كربنا وأنر دربنا وارحمنا بدوام المغفرة يا ألله .

اللهُمَّ إننا نستغفرك ونعوذ بك من كل شر ومن كل بلاء فاغفر ، اللهُمَّ إنك الغني بالمغفرة ونحن الفقراء فاغفر ، اللهُمَّ إنك مالك الرحمة فلا تجعل ذنباً من ذنوبنا يحول بيننا وبينها وأنت الغفور الرحيم .

اللهُمَّ إننا نعلم أنك أنت الغفور الرحيم فلا نلتجئ إلا إليك ، ونؤمن أنك أنت الغفور الرحيم فلا نركع ولا نسجد إلا إليك ، ونعلم أنه من ظلم نفسه وأستغفرك تغفر له ، اللهُمَّ إننا نسألك المغفرة فاغفر .

اللهُمَّ يا الغفور يا من جعلت الملائكة يسبحون بحمدك ويستغفرون لمن في الأرض فاجعل بيننا وبين استغفار ملائكتك صلة واجعلنا من المسبحين والمستغفرين في الأرض باسمك الغفور .

اللهُمَّ يا الغفور قلت وقولك الحق : ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ اللهُمَّ إننا نسألك بأسمائك الحسنىٰ أن تغفر جميع ذنوبنا يا الغفار يا ألله .

اللهُمَّ يا الغفور إنَّ بطشك لشديد وإنك تُبْدِئ وتُعيد وإنك الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد فاغفر لا غفار للذنوب إلا أنت .

اللهُمَّ يا الشكور اجعلنا من الحامدين الشاكرين الذين يقولون الحق ويعملون عليه ويعملون به ، ويجتنبون الباطل ويعملون علىٰ إزهاقه ، ويصلحون في الأرض ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق ، وأستغفر ٱلله العظيم عن أية مخالفة أو خطأ أو ذنب ولا حول ولا قوة إلا بٱلله .

اللهُمَّ لك الحمد والشكر علىٰ ما خلقت وأنعمت وحفظت وهيمنت ورحمت وعفوت وسلَّمت من الشرور والأضرار ومن الحاجة والفاقة ومن الألم والعناء يا خالق الأرض والسمٰوات العلا وما بينهما وما تحت الثرىٰ ، اللهُمَّ

لك الشكر علىٰ خلقك وإحيائك وإماتتك وبعثك لنا مسلمين مؤمنين بك واحداً أحداً لا شريك لك سبحانك جل جلالك ، اللهُمَّ لك الشكر علىٰ خلقك للجنة والنار ليكون الفوز للمتقين بالجنة وتكون لهم عقبىٰ الدار ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [1] .

اللهُمَّ يا الشكور إننا نشكرك علىٰ استخلافك لنا في الأرض ونشكرك لخلقك لنا في أحسن تقويم ، ونشكرك علىٰ أمرك لنا بطاعة الوالدين في غير معصيتك ، ونشكرك علىٰ وحدانيتك واحداً أحداً لا شريك لك ، ونشكرك علىٰ كل ما فرضت لنا وفرضت علينا ، إنك أنت الشكور فلا تجعلنا جاحدين نعمك ، اللهُمَّ يا من تفضّلت علينا بالكثير تفضل علينا بنعمة شكرك ؛ لأنه ما من فضلٍ أصابنا إلا منك ، واجعل شكرنا في الضرّاء والسراء علىٰ السواء ، فلا نطلب شكراً من سواك بل نطلب رضاك عنا ، اللهُمَّ اجعلنا شاكرين لك ولآبائنا كما أمرتنا في كتابك الكريم : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [2] .

اللهُمَّ إنك العلي الذي يُدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار والذي يعلم الغيب ولا غيره يعلم الغيب ، فاجعل أبصارنا مدركة لمعجزاتك وشاهدة عليها ، اللهُمَّ إنك العلي وكل شيء هو دونك ، فاجعل إيماننا يعلو في علاك وبالحق أقوالنا تعلو وبالصالحات أعمالنا تعلو ، فنعدل ولا نظلم ونكون من الصادقين والمتصدِّقين والمُحسنين والبارين بوالديهم ، اللهُمَّ إنك العلي في القول والحق والفعل والعظمة فاجعلنا في عليين مع الأبرار في النعيم الذين هم

---

(1) الرعد ، 23ـ25 .

(2) لقمان ، 14 .

عَلَىٰ الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ والذين تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ والذين يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ ، اللهُمَّ اجعلنا من المتنافسين في هٰذا الأمر وكل أمر ترضىٰ به عنا ، اللهُمَّ إنك العلي فاجعلنا نعلو في الحياة الدنيا بأخذ نصيبنا منها وأن لا نسرق ولا نزني ولا نتكبَّر ولا نطغىٰ ولا نظلم أحداً ، حتىٰ نكون في الآخرة من العليين في جنة الفردوس سبحانك لا إلـٰه إلا أنت العلي جلَّ جلالك .

نسأل ٱلله تعالىٰ الكبير المتعال ، الذي ثبت الأرض بأوتاد الجبال ، وروّىٰ نباتها من السحاب الثقال ، أن يرزقنا التواضع لكبريائه ، ويرفعنا به إلىٰ الدرجات العلا ، اللهُمَّ اجعلنا من المتقين الوارثين الجنة ، ولا تحرمنا رفدك ورحمتك يا عظيم المنة ، اللهُمَّ أنت الكبير ، ذو الفضل الجزيل ، والعز الجليل ، نسألك الأمن والأمان ، اللهُمَّ يا كبير يا واسع الرحمة والمغفرة نسألك أن تتغمدنا برحمتك في الدنيا والآخرة ، وأن ترحم ضعفنا بقوتك ، وتجبر كسرنا بكبريائك ، وتشد أزرنا باعتصامنا بك ، وترحم ذلنا بعزتك ، وتهدينا سبلنا برشدك ، وتسدل علينا ثوب الستر في الدنيا والآخرة ، ولا تكلنا لأنفسنا فنشقىٰ ، ولا إلىٰ الناس فنضل ، اللهُمَّ اجعل توكلنا عليك ، فأنت الكبير الذي لا تدركه البصائر ، ولا تحيط بكنهه الأبصار ، تباركت ربنا وتعاليت ، لا ملجأ منك إلا إليك ، لك الحمد حتىٰ ترضىٰ ، ولك الكبرياء في الآخرة والأولىٰ ، فاغفر لنا ما نعلم ، وتجاوز لنا عمّا لا نعلم ، إنك سميع مجيب .

اللهُمَّ إنك الكبير الذي يَكنُّ في الصدور وتطمئن به الأنفس ويعلو في المآذن فيربط علاقة بين الأرض والسماء نشهدك ونوحدك ولا نشرك بك شيئاً ، اللهُمَّ إنك خلقت كل شيء فيه إعجاز كبير وأنت الأكبر فلا تجعلنا نسجد ولا نركع لكبير سواك ، ونشهد أنك الأول الكبير الذي ليس قبله شيء وكل شيء منه أصغر ، وأنك الآخر الأكبر الذي ليس بعده شيء أكبر ، وأنك الكبير

الذي لا بداية له ولا نهاية سبحانك جلَّ جلالك . اللهُمَّ إن عقابك كبير وحسابك عسير ورحمتك ومغفرتك تيسير فنحمدك علىٰ شدة عقابك للكافرين والمشركين والفاسقين ونحمدك علىٰ واسع رحمتك ومغفرتك للمهتدين إنك أنت الرحمـٰن سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ إنك الحفيظ من كل شيء في الأرض وفي السماء فاحفظنا من كل شيء يضر في الأرض أو في السمـٰوات العلا ، واحفظ ألسنتنا من الزلات وأفعالنا من المفسدات وأعمالنا من الخطايا إنك سميع قريب مجيب الدعوات ، اللهُمَّ احفظ أولادنا من الانحراف عن اتباع الحق ولا تجعلنا ولا تجعلهم من المبذرين فإن المبذرين إخوان الشياطين ، اللهُمَّ إنك كما مكنت ليوسف في الأرض وجعلته حفيظاً علىٰ خزائنها مكنا في الأرض لنتبوَّأ منها أماكن خير وفلاح وإصلاح وأحِطنا بحفظك ورعايتك كما أحطته بها ، وأحِطنا بحفظك في الدارين إننا متقون ، اللهُمَّ إن اسمك الحفيظ اسم دائم فاحفظنا يا حفيظ علىٰ الدوام بكلماتك التامة واجعلنا من الطائعين الحامدين الشاكرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

اللهُمَّ احفظنا من كل شر في كل بر ، واحفظنا برعايتك مؤمنين صالحين يُصلِحونَ في الأرض ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق ، وأرضىٰ عنا وارحمنا وارحم أباءنا ، وأجدادنا الكرام ، واحفظ أبناءنا ، وزوجاتنا وأخوتنا الأعزاء ، وارضَ عن صحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول ٱلله وأمهاتنا زوجات النبي ﷺ .

اللهُمَّ يا الحفيظ احفظنا من الوقوع في الزلات والخطايا ، واحفظ عقولنا من فقدان الذاكرة ، واحفظ أجسادنا من المرض والعاهة والعذاب ، واحفظنا من وسوسة وأعمال شياطين الجن والإنس ومن كيد الكائدين ومكر الماكرين والغادرين . اللهُمَّ احفظ أبصارنا وبصائرنا من تتبع ما نهيت عنه وحرمته ، واحفظ ألسنتنا من الزلات واجعلها لا تقول إلا صواباً .

اللهُمَّ أجعلنا من الناجين من النار والفائزين بالجنة ، واحفظنا بعينك التي لا تنام وعزك الذي لا يرام لنصل محفوظين إلىٰ دار السلام بالتمام .

اللهُمَّ يا مقيت قتنا دائماً أبداً بواسع رحمتك وفضلك وجودك وكرمك وعطائك ورزقك ، اللهُمَّ إنك يا مقيت قد خلقت القوت سابقاً علىٰ خلقنا فكان قوتك لخلقك رحمة في الدار الدنيا وجعلت الجنة قوتاً واسعاً لمن آمن بربه واحداً أحداً ولا يشرك به شيئاً فاجعلنا يا مقيت من الوارثين في الجنة ولا تجعلنا محرومين في جهنم : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ اللهُمَّ اجعلنا من أصحاب الجنة الذين نادوا أصحاب النار : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ والحمد لله رب العالمين ، اللهُمَّ إننا علىٰ بينة منك نتبعها ولا نتبع الهوىٰ فقتنا في الجنة بأنهار مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىٰ ، اللهُمَّ قتنا فيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ واغفر لنا إنك المقيت ولا تجعلنا كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

اللهُمَّ يا الحسيب اجعلنا من الذين هم علىٰ الصراط المستقيم واجعلنا من الذين رضيت عنهم فزدتهم ثقلاً في الموازين . اللهُمَّ يا الحسيب يا من خَلَقْتَ الإنْسَانَ وعَلَّمتَهُ الْبَيَانَ وخلقت الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ بِحُسْبَانٍ وجعلت النَّجْمَ وَالشَّجَرَ لك يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعْتَهَا وَوَضَعْتَ الْمِيزَانَ فاجعلنا من الطائعين المقسطين ولا تجعلنا من المطففين للكيل والميزان ، اللهُمَّ إنك جعلت الحق بحسبان فاجعلنا من عبادك الطائعين للحق بحسبان ، ولا تجعلنا من الذين يميلون عنه كل الميل ، اللهُمَّ يا الحسيب يا من رفعت السماء عن الأرض بغير عمد نراها ارفع درجاتنا لك طاعة واجعل حسابك لنا تيسيراً لا تعسيراً ، واجعلنا من

الفائزين بثوابك ولا تجعلنا من الخاسرين في العقاب ، اللهُمَّ يا الحسيب اجعل في أقوالنا موازين الرحمة ولا تجعلنا من الذين يأكلون أموال اليتامىٰ إسرافاً وظلماً ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين إذا حيوا بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ ردوهَا سبحانك جلَّ جلالك إِنَّك عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبٌ .

اللهُمَّ يا الجليل يا صاحب العزة والجلال ، أنت أعلم بحالنا وغني عن سؤالنا ، نسألك أن نكون من عتقائك يوم تتجلىٰ لخلقك ، اللهُمَّ أنت الجليل العظيم ، نسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك ، أن تسدل علينا من نعمتك ثوب المهابة والجلال في الدنيا والآخرة تواضعاً لعلوّ شأنك ، وأن تجلّنا عن النار وعذابها وتربأ بنا عنها نحن ووالدينا وأزواجنا وذريتنا إنك غني حميد ، اللهُمَّ أنت الجليل فاجعلنا من الأجلاء عما نهيتنا عنه من المعاصي ، واجعلنا من الأجلاء بما أمرتنا به من الطاعات ، فسبحان الجليل الذي تعطف بالمجد وتكرم به ، وسبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا بحمده ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي العزة والكرم ، سبحان الذي أحصىٰ كل شيء بعلمه ، وسبحان الذي خضع كل شيء لعزته ، وسبحان الذي عنت الوجوه لجلال هيبته ، نسألك اللهُمَّ أن تلبسنا ثوب الجلال في الدنيا والآخرة ، والحمد لك علىٰ ما رزقت ووهبت لنا من خيرات حسان والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ بجلالك العظيم أن تجعل الرحمة علينا وتجعلنا من الأقوياء الراشدين لا من الضعفاء ، واجعلنا من العلماء والحكماء لا من الجاهلين ، ومن المؤمنين الصالحين المستخلفين في الأرض والمصلحين لا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق .

اللهُمَّ يا الكريم ما لدينا من فضل وكرم هو من فضلك وكرمك فاجعل أنفسنا كريمات الدعاء سخيات العطاء فنكون ممن كرّمتهم بالجنة ، اللهُمَّ اغفر لنا واجعلنا من المكرمين ، اللهُمَّ يا الكريم أكرمنا بعلمٍ مفيد وعقلٍ سديد ونفسٍ

مطمئنة آمنة مستقرة ، وأسبغ علينا كرمك فما من فضلٍ إلا منك وما من كرمٍ يفوق كرمك يا الكريم . اللهُمَّ أكرمنا في الدنيا والآخرة كرماً نكون فيه من السعداء أنت ولينا سبحانك فلا نطلب ولا نسعىٰ إلا إليك متيقنين أن كرمك سيصيبنا لأنك أنت الكريم سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ إنك الكريم نسألك أن تكون حياتنا مكرَّمة بكرمك وجودك وفضلك وعزتك وغناك وقدرتك وعلمك وحكمتك ، اللهُمَّ يا الكريم إننا نتوجّه إليك بالمطالب فلا تجعلنا من الذين يتوجهون إلىٰ سواك ، اللهُمَّ أجب مطالبنا بواسع رحمتك فنرفع أيادينا إليك فلا تردها خائبة ، وتتوجه قلوبنا إليك فاجعلها راضية مسرورة ، وتتوجه أنفسنا إليك فاجعلها آمنة مطمئنة ، ونتوجه بحاجاتنا إليك فاجعلها بما يشبعها مجابة .

اللهُمَّ إنك الكريم نسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبدك ونبيك . اللهُمَّ إنك الكريم فنسألك الجنة ، ونعوذ بك من النار ، ونسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لنا خيراً ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين أكرمتهم في الدنيا والآخرة ولا تجعلنا من الخاسرين .

نسألك يا الكريم مغفرة كل ما أحاط به علمك من ذنوبنا ، والتجاوز عن كل ما كان منا إنك الجواد تحب الجود ، اللهُمَّ بك نعوذ وبك نلوذ ، اللهُمَّ اجعل لنا في اللهف إلىٰ جودك والرضا بضمانك مندوحة عن منع البخلاء ، وغنىً لا عوز من بعده إلا الفوز بالجنة .

اللهُمَّ إنك الرقيب الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [1] اجعلنا يا رقيب تحت

---

(1) الأنعام ، 59 .

رقابتك محفوظين مما يعمله لنا شياطين الجن والإنس وأحطنا بعنايتك وحفظك .

اللهُمَّ يا الرقيب إننا نؤمن بك واحداً أحداً ولا نشرك بك شيئاً ونؤمن بثوابك ونرتقبه فلا تجعلنا خائبين ونؤمن بعقابك فنخشاك ونتقيك فجنبه عنا إنك أنت الرحمـٰن الرحيم .

اللهُمَّ يا الرقيب اجعلنا علىٰ الفطنة كي لا نغتر واجعلنا علىٰ الطاعة كي لا نعصي ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهُمَّ يا الرقيب اجعلنا وآباءنا وأولادنا ونساءنا وإخوتنا تحت رعايتك مسلمين خاشعين لك طائعين وألحقنا بالصالحين الأبرار الذين بروا بما وعدوا من الاستقامة علىٰ هـٰذا الإيمان إلىٰ أن قبضتهم إليك وأنت راض عنهم . ﴿ وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ اللهُمَّ ارحمنا ولا تعذبنا ، ووفقنا ، فإنه لا ملجأ لنا إلا إليك ، ولا معول لنا إلا عليك .

اللهُمَّ إنك الرقيب لا تخفىٰ عليك خافية فطهّر أنفسنا من ضعفها وطهرها من وساوس الشيطان ، اللهُمَّ يا الرقيب اجعل بيننا وبين الحفظة المكلفين بنا خير علاقة ، واجعلنا من الذين ثقلت موازينهم ولا تجعلنا من الخاسرين الذين خفت موازينهم .

اللهُمَّ يا الرقيب لا ملجأ لنا إلا إليك ، ولا معول لنا إلا عليك ، ولا حافظ ، ولا نافع ، ولا رؤوف وعفو وغفور إلا أنت ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك !

اللهُمَّ يا رقيب ارحمنا وأكرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا ، إنك علىٰ كل شيء قدير .

اللهُمَّ يا المجيب إنك تعلم ما في أنفسنا ولا تغيب عنك غائبة وتعلم مَا

نُسِرُّ وَمَا نعْلِنُ إِنَّك عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فاجعل رحمتك لنا في الدارين هي الإجابة .

اللهُمَّ يا المجيب إنك تملك القوة والقدرة والملك والأمر والموت والحياة وتملك كل شيء فأجب سؤالنا بالرزق الحلال والعلم النافع والصحة الطيبة والزوجة التقية والأبناء الصالحين .

اللهُمَّ إنا نسألك يا فارج الهم ويا كاشف الغم يا المجيب لدعوة المضطرين يا رحمـٰن الدنيا يا رحيم الآخرة ارحمنا برحمة تغننا بها عن رحمة من سواك يا أرحم الراحمين .

اللهُمَّ آت أنفسنا تقواها وزكها يا خير من زكاها أنت وليها ومولاها يا رب العالمين ، اللهُمَّ إنا نسألك ألا تجعلنا بدعائك أشقياء وكن بنا رؤوفاً رحيماً يا مجيب الدعاء يا ألله .

اللهُمَّ يا المجيب اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا سبحانك جلَّ جلالك أنت المجيب عليك توكلنا وأنت رب العرش العظيم .

اللهُمَّ يا الواسع النعم يا مزيل النقم نسألك أن تُطهِّر قلوبنا وأن تغفر ذنبنا وأن توسِّع ديارنا بالخير والرزق الحلال ، وأن تجعل غنانا في قلوبنا ، اللهُمَّ بواسع رحمتك اجعلنا نعظِّم شكرك ونكثر ذكرك ونتبع أمرك ونجتنب ما نهيت عنه ونتقيك .

اللهُمَّ يا الواسع وسّع صدورنا بذكر أسمائك الحسنىٰ وبالإيمان بك واحداً أحداً لا شريك لك ، اللهُمَّ يا الواسع وسع عقولنا بالتفكر والتذكر فيما أنزلت واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهُمَّ يا الواسع وسع علينا برزقك الحلال وارزقنا طاعتك وطاعة رسولك والعمل بكتابك .

اللهُمَّ يا الواسع بخلقك الروح والنفس والبدن قد وسعت علينا كثيراً

فلا تجعلنا في ضائقة ، وخلقت لنا الرزق فلا تجعلنا فقراء إلا إليك ، ووسعت برحمتك كل شيء فارحمنا .

اللهُمَّ يا الحكيم حبب إلينا الإيمان والحكمة التي تعظنا إلىٰ ما يجب القيام به وتنهانا عما يجب الانتهاء عنه ، اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين في الأرض لنصلح لا لنفسد فيها ونسفك الدماء ، واهدنا في من هديت بجاه أسرار البيت ومن فيه صلىٰ وصليت .

اللهُمَّ إنك الحكيم فاجعلنا من الحكماء ، واجعلنا من الوارثين ، اللهُمَّ صل علىٰ سيدنا محمد وسلم صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكرب وتصلح بها الأمور ، اللهُمَّ نسألك يا أحكم الحاكمين أن تهب لنا حكماً وأن تلحقنا بالصالحين وأن تجعل لنا لسان صدق في الآخرين وأن ترزقنا جنة النعيم .

اللهُمَّ يا الحكيم ، فبحكمة منك خلقتنا وهديتنا ورزقتنا فاجعلنا في أحسن تقويم حتىٰ نقوم بحق عبادتك علىٰ الوجه الذي يرضيك عنّا ، ويا الحكيم نسألك بحكمتك ألا تجعلنا في أسفل سافلين ، أو أن نضل بعد أن كنا من المهتدين ، وأن تلهمنا الحكمة في كل قول وعمل ، فمن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

اللهُمَّ أحمدك يا الحكيم علىٰ خلقك لنا في أحسن تقويم ، وجعلك فينا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين مبشرين ومنذرين وداعين للخير فاجعل لنا الخير في كل حين ، والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ يا الودود يا مصدر كل ودٍّ نحن فقراء إلىٰ ودك فلا تحرمنا ودك فيه نحيا وبه نموت وبه نبعث وبه ننجو من العذاب .

اللهُمَّ ألق في نفوسنا وداً من ودك حتىٰ تطمئن ، واجعل بيننا وبين قومنا وداً ورحمة ، اللهُمَّ اجعلنا بودك نغنىٰ ونفوز في الدارين وبودك نعمل ونصلي ونسلم علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين ، اللهُمَّ يا الودود حببنا في الطاعات

ونفرنا من المعاصي ، اللهُمَّ اجعل بيننا وبين أولادنا وأزواجنا وداً من ودك لا ينقطع ما حيينا ، اللهُمَّ اجعل بيننا وبين ذكرك وداً واجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك ﴿ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

اللهُمَّ يا الودود يا ذا العرش المجيد يا المبدئ يا المعيد يا الفعَّال لما تريد نسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك وبقدرتك التي قدرت بها علىٰ جميع خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء لا إلـٰه إلا أنت أن تغفر ذنوبنا وسيئاتنا وأن تبدلها لنا بحسنات إنك جواد كريم رؤوف رحيم .

اللهُمَّ يا الودود حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، اللهُمَّ يا الودود إننا نسألك حب العمل الذي نبلغ به حبك ، اللهُمَّ زد أعمالنا بحسنات ودك يا ألله !

اللهُمَّ يا الودود إنا نسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب توحيدك وحب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج بيتك المحرم فبلغنا يا الودود ما نوينا .

اللهُمَّ يا ودود ألف بين قلوبنا ، وفرج كروبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات واجعل لنا نوراً نهتدي به ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا ، وأبصارنا ، وقلوبنا ، وأزواجنا ، وذريتنا ، وتب علينا إنك أنت الودود .

اللهُمَّ يا المجيد يا فعّال لما تريد بالشكل الذي تريد ، افعل بنا ولنا الخير الذي تريد ، واجعلنا يا المجيد نفعل ما تريد بالوجه الذي تريد ، واقضِ لنا الخير حيث كان في الأرض لنقيم عليها ما أردت من خلافة ، وفي السماء وما يغيب فيها لنتوجه إليك فتفيض علينا من مجدك الشامخ وملكك الباذخ ، اللهُمَّ بمجدك يا المجيد نسألك قلوباً أواهة مخبتة منيبة في سبيلك ، ونسألك

عزائم مغفرتك ومنجيات أمرك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهُمَّ إنك باعث الحياة ، وباعث لنا الحياة فيها بعد أن خلقتنا من طين لازب ، ثم من نطفة مصداقاً لقولك تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [1] اللهُمَّ يا الباعث يا عالم الأسرار يا من خلقتنا من تراب ابعثنا في الجنة ولا تبعثنا في النار ، اللهُمَّ إنك من تدخل النار فقد أخزيته فلا تدخلنا فيها حتىٰ لا نكون مع المخزيين وأدخلنا الجنة حتىٰ نكون مع الوارثين ، ولا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أَتَىٰ ٱلله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

اللهُمَّ يا الباعث قد مننت علينا برسول من أنفسنا يتلو علينا آياتك فبه آمنَّا وعليه صلينا وسلمنا كما أنت عليه صليت وسلمت .

اللهُمَّ يا الشهيد نشهد أنك أنت ٱلله وأنك علىٰ ما نعمل شهيد ونسأل أن تكون أعمالنا خير شاهد علىٰ استخلافنا في الأرض وفوزنا في الجنة إنك بنا رؤوف رحيم .

اللهُمَّ يا الشهيد إنك علىٰ كل شيء شهيد ، نية تكمن في الصدور ، أو تذكُّر لماضٍ ، أو تفكُّر في مستقبل ، أو قول ينطقه اللسان في الحاضر أو عمل تؤديه الحواس ، فاجعل كل ذلك خالصاً لوجهك الكريم يا الشهيد يا ألله .

اللهُمَّ يا الشهيد اجعلنا شهداء بالحق ولا تجعلنا من الشاهدين بالباطل ، واجعلنا مؤمنين بقول الحق والشهادة به ولو كان علىٰ أنفسنا ، اللهُمَّ إنك أنت

---

(1) المؤمنون ، 12ـ16 .

خير شاهد فإن نسينا أو أخطأنا فاغفر . اللهُمَّ إن الشهادة بك تحق الحق فنشهد أنك أنت الحق شاهداً سبحانك .

اللهُمَّ يا الشهيد إنك جعلت علينا ألسنتنا شاهدة وأيدينا شاهدة وأرجلنا شاهدة فلا تجعلنا من مرتكبي المعاصي والزلات والخطايا والذنوب والعيوب والكبائر حتىٰ تكون ألسنتنا وأيدينا وأرجلنا شاهدة لنا لا شاهدة علينا يا ألله .

اللهُمَّ يا الحق لك الحمد كما ينبغي لك ، أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، اللهُمَّ إنا آمنا بكتابك الحق ، وبكل ما نزل فيه ، فالجنة حق ، والنار حق ، ولقاؤك حق ، فأغفر لنا يا الحق ما بدر منا من الذنوب والزلل والخطأ والتقصير والعصيان ، وألهمنا الحق الذي ينقلنا لطاعتك ومحبتك ورضاك ، نحن آمنا بك ، أنت ربنا مالنا رب سواك يرحمنا ويغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسررنا وما أعلنا ، اللهُمَّ يا الحق نوِّر بصائرنا بالحق فلا نرىٰ فيها إلا رحمتك ومغفرتك وكرمك وعطفك ، فنحن الفقراء وأنت الغني ، ونحن الضعفاء وأنت القوي ، تباركت وتعاليت يا الحق ، يا محق الحق وزاهقاً للباطل ، اللهُمَّ إن رسولك محمداً حق عليه نصلي ونسلم كما صليت يا حق علىٰ سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

اللهُمَّ يا الوكيل علىٰ كل شيء في هـٰذا الكون الكبير لا توكل علينا من لا يخافك ولا يخشاك ، واجعل اللهُمَّ يا وكيل الخير وكيلاً فينا علىٰ الشر فلا يعتري أفعالنا نقص أو تقصير أو ضعف أو ظلم أو أي تصرف من التصرفات التي لا ترضيك ، واجعلنا يا الوكيل ممن وكلتهم علىٰ الأرض بالخلافة فيها لا للإفساد .

وسدد يا الوكيل أمرنا إلىٰ ما فيه خيرنا وخير البلاد والعباد ولما فيه عزة ورفعة الإسلام والمسلمين في كل مكان واجعلهم ممن ينصرون دينك الحنيف

ضد الشرك والمشركين . اللهُمَّ يا الوكيل أعزنا بعزك وانصرنا بنصرك ولا تكلنا لأحد غيرك .

اللهُمَّ يا الوكيل بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فاجعلنا ممن تحققوا بمعنىٰ الخلافة فأقاموها متوكلين عليك منيبين إليك مقتدين بكتابك عاملين بسنة نبيك مخالفين من خالفك موالين من والاك ، اللهُمَّ يا الوكيل لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك ، اللهُمَّ يا نعم المولىٰ ونعم الوكيل والنصير تولنا في الأمور كلها ، إنك ولينا والحمد لك .

اللهُمَّ يا الوكيل إننا نركع ونسجد لك فلا تجعلنا من الراكعين والساجدين لغيرك ، إنك وليُّنا لا إلٰه إلا أنت خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ نعْبُدُك وأنت عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لا تُدْرِكُك الأَبْصَارُ وَأنت تُدْرِكُ الأَبْصَارَ خالق الأشجار والليل والنهار وعالم الأسرار إنك الواحد القهار وإنك اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وإنك بنا وكيل .

اللهُمَّ يا القوي أنت القوي وحدك ولا قوي غيرك فأنت القادر علىٰ كل شيء ولا شيء خارج عن نطاق قدرتك فلا متصرف في الكون إلا أنت ، اللهُمَّ اجعلنا أقوياء بقوتك ولا تجعلنا مستضعفين في الأرض ولا ضعفاء يوم اللقاء .

اللهُمَّ اجعل لنا حظاً من قوتك حتىٰ نصبر علىٰ طاعتك وعبادتك فنتقوىٰ بفضلك من أجل طاعتك فيما أمرتنا والابتعاد عما نهيتنا .

اللهُمَّ قوِّ الفطنة فينا علىٰ الغفلة والعقل علىٰ السفه والحمق وقوِّ الحلم فينا علىٰ التسرع والتهور الذي لا يليق .

اللهُمَّ يا القوي قوِّ هيبتنا وقوِّ حجتنا وفرج كربتنا ، وانهض غلبتنا وتوّجنا بفرحتنا أنت القوي سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ يا المتين يا من جعلت صلاتك رحمة علىٰ سيدنا محمد اجعلنا عليه دائماً من المصلين والمسلمين ، اللهُمَّ أنت المتين ذو الاقتدار الكامل وذو القوة التامة ، وأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب ، سبحانك رزقك ما له

من نفاد ، بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير ، فارزقنا قوة منك نكون بها عوناً علىٰ الخير ، ودرءًا للشر ، واجعلنا في الخير بنياناً مرصوصاً وسداً محفوظاً ندفع بأهل الخير إلىٰ الخير ، ونمنع أهل الشر عن الشر ، حتىٰ تتحقق خلافتك علىٰ الأرض .

اللهُمَّ يا المتين متن الإيمان في قلوب المسلمين حتىٰ تطمئن قلوبهم ، ومتّن القول الحق في ألسنتهم حتىٰ يدمغ الباطل ، ومتن العلم في عقولهم حتىٰ تُنار دروبهم وتستقيم أعمالهم ، ومتن اسمك في عقولهم ، وقولك في إنصاتهم حتىٰ يرشدوا ، إنك أنت المتين جلَّ جلالك .

اللهُمَّ يا الولي أنت تتولىٰ الأنبياء والأولياء والخلفاء والصالحين ، فكن بنا يا ربنا باراً ولياً وحفياً ، اللهُمَّ إنّا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك ، اللهُمَّ لا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين أو أقل وتولنا في الأمور كلها ، ويا الولي أصلح لنا شئوننا في الأمور كلها ، وتولنا من وساوس النفس ومن أرق الضمير ومن غلبة فساد القلوب ، ورقّنا إلىٰ منازل من اتخذوك ولياً وتولّيْتَ أمورهم في الظاهر والباطن ، أنت يا ألله يا ولي قلت : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (1) فأخرجنا يا ألله من ظلمات الجهل إلىٰ نور الإيمان والعلم ، وتولنا بعنايتك وبواسع رحمتك .

اللهُمَّ إنك وليُّنا في الدارين فاجعلنا من المستخلفين الصالحين المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين الضالين ، وتولنا وأولادنا وزوجاتنا ووالدينا ومن لهم الحق علينا تولنا يا ألله بالرعاية والعناية واجعلنا من الفائزين ، وأستغفر ٱلله من كل ذنب ، والحمد لله رب العالمين !

اللهُمَّ يا الحميد لك الثناء والحمد والشكر ، اللهُمَّ إنك أحسنت خلقنا فحمداً لك ، وأسبغت علينا نعمك فحمداً لك يا الحميد .

---

(1) البقرة ، 257 .

اللهُمَّ أعنا علىٰ حمدك وشكرك كما ينبغي ولا تجعلنا من الغافلين ، اللهُمَّ اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ويقولون : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ .

اللهُمَّ إنك خلقت كل شيء يسبح بحمدك فاجعلنا من المسبحين بحمدك ولا تجعلنا من الضالين الغافلين المغضوب عليهم منك المكتوب عليهم سخطك وعقابك .

اللهُمَّ لك الحمد علىٰ نعمة العقل الذي وهبته لنا وحسن التقويم الذي خلقتنا عليه ، والرسول الخاتم الذي اصطفيته لنا ونحن نصلي ونسلم عليه كما أمرت ، ولك الحمد علىٰ استخلافك لنا في الأرض ، ولك الحمد علىٰ نعمك التي أنعمت بها علينا وأكرمتنا بها ، ولك الحمد علىٰ الجنة التي وعدتنا بها .

اللهُمَّ يا المحصي اجعل أعمالنا كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وضاعفها لنا يا أرحم الراحمين إنك علىٰ كل شيء قدير .

اللهُمَّ يا المحصي لك الحمد والشكر علىٰ ما أنعمت به علينا من نعم لا تعد ولا تحصىٰ ، أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

اللهُمَّ يا المحصي اجعل صحائفنا يوم العرض عليك رحمة لنا وكل إحصاء فيها اجعله حسنة بقدرتك ورحمتك يا المحصي يا ألله .

اللهُمَّ يا المحصي اجعل آخر كلمة نقولها ونحن خروج من هٰذه الدنيا لا إلـٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله ﷺ .

اللهُمَّ يا المبدئ جعلت بدايتنا علىٰ الإيمان بك واحداً أحداً اجعل خير

أعمالنا خواتمها ، وجعلت بدايتنا حمْل الرسالة فاجعلنا من المبشرين بها ولا تجعلنا من الغافلين ، اللهُمَّ إنك تبدئ وتعيد اجعلنا كما خلقتنا من المستخلفين فيها في أحسن تقويم ، اللهُمَّ يا المبدئ للروح اجعل أرواحنا طاهرة وأنفسنا مطمئنة وأجسادنا محفوظة من عذاب النار .

اللهُمَّ يا من جعلت لكل بداية نهاية ولكل نهاية بداية وكتبت علىٰ العاقل أن ينظر بعين عقله وقلبه وقلت وقولك الحق : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (1) فيا المبدئ يا ألله يا من تسمع كلامنا وترىٰ مكاننا وتعلم سرنا وعلانيتنا ولا يخفىٰ عليك شيء من أمرنا ونحن الفقراء المستغيثون المستجيرون الوجلون المشفقون نسألك لا تجعلنا بدعائك أشقيا وكن بنا رؤوفاً رحيماً يا خير الحافظين ويا خير المعطين . وابدأ بالخير أعمالنا وإذا أذنبنا أبدئ في قلوبنا توبة يعقبها قبول وعمل يتممه توفيق إنك المبدئ والمعيد والفعَّال لما يريد سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ يا المعيد أعد للإسلام مجده وللمسلمين العزة والهيبة ، وألبسنا ثوب الخيرية الذي ألبسته أجدادنا وقلت فيهم وفينا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (2) فأعدنا إلىٰ العمل بكتابك والاقتداء بهدي رسولك محمد عليه الصلاة والسلام ، فنعيد الحق بالحق لأهل الحق ، ونبطل الباطل بالحق ليعلو الحق ، اللهُمَّ يا المعيد أعيد الحق لأهله وانتصر لعبادك المؤمنين فإنك تعلم ما حلّ بأمة نبيك وليس لها من دونك كاشف للبلوىٰ ، واجعلنا ممن حملوا الأمانة وأقاموا الخلافة طاعة لك واقتداءً بأنبيائك وأوليائك .

اللهُمَّ اجعلنا من الذين يعودون إليك فيما قلت وبما أمرت حتىٰ نهتدي

---

(1) العنكبوت ، 19 .

(2) آل عمران ، 110

إلىٰ الصراط المستقيم ، اللهُمَّ يا المعيد يوم تعيدنا للتراب لا تعيدنا معذبين ، ويوم تبعثنا للحياة من جديد فاجعلنا في جنان الفردوس والنعيم إنك بنا رؤوف رحيم .

اللهُمَّ يا المحيي اجعل الطمأنينة ملء نفوسنا ومحبتك ملء قلوبنا . اللهُمَّ يا المحيي ازرع فينا طاعة الوالدين في غير معصيتك واجعلنا من المحسنين إليهم .

اللهُمَّ اجعلنا من الذين يُحيون الأرض بإصلاحها وفلاحها وإعمارها وزرع الخير والأعمال الحسان فيها ولا تجعلنا من المفسدين والعابثين .

اللهُمَّ يا المحيي أحينا علىٰ الإيمان وأمتنا عليه ، وأحي في قلوبنا طاعتك وأمت معصيتك ، اللهُمَّ أحينا حياة طيبة في الدنيا والآخرة ، واجعلنا من أصحاب الحياة في الجنة ولا تجعلنا من أصحاب النار ، اللهُمَّ أحي في قلوبنا ما تحب وترضىٰ ، واجعلنا من الساعين في إحياء ما تحب وترضىٰ ، اللهُمَّ أحينا علىٰ طاعتك ولا تحينا علىٰ معصيتك إنك مجيب الدعاء محي القلوب .

اللهُمَّ أحينا علىٰ الإيمان وأمتنا علىٰ الإيمان وابعثنا أحياء علىٰ الإيمان سبحانك يا المحيي أنت الرحمـٰن الرحيم .

اللهُمَّ يا المحيي أحينا علىٰ ملة الإسلام وأمتنا عليها ، وأحينا إن كانت الحياة خيراً لنا ، وأمتنا إن كانت الحياة شراً لنا ، اللهُمَّ يا المحي أحي قلوبنا بالإيمان وبنور معرفتك ، اللهُمَّ أحي بصائرنا بنورك العظيم لنتبع خطوات عبادك من الأنبياء والشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقاً .

اللهُمَّ يا المحيي اجعلنا من الذين تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقتهم ينفقون ، اللهُمَّ أكرمنا بعفوك ورحمتك وفضلك يا المحي للنطفة الميتة فتخرج منها النسمة الحية ، والمحي للأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها عند البعث ، والمحي للأرض بعد موتها بإنزال

الغيث وإنبات الرزق ، أحينا برحمتك يا المحيي يا ألله .

اللهُمَّ يا المحيي الأموات ويا مميت الأحياء نتوسل إليك بأسمائك الحسنىٰ ما نعرف منها وما لا نعرف أن نكون من عبادك الطائعين وخلفائك المخلصين المتصفين بصفاتك الحسان .

اللهُمَّ أمت فينا روح الإفساد والظلم وأمت شهواتنا لمعاصيك ومعصيتك واجعل لنا الموت راحة لنا وخلاصاً من كل شر واجعل الحياة زيادة لنا من كل خير .

اللهُمَّ أمت فينا شعور الذل والضعف بعزتك وقوتك وقدرتك ، وأمت فينا شعور الحقد والكره برحمتك وعفوك وحبك ، وأمت فينا النقائص بالتكبر عليها وتركها بحبك وحب ما يقرب إليك من طاعات ، وأمت فينا اللهُمَّ جهلنا بنور علمك وهدايتك ، وأمت فينا الخوف من غيرك بالخوف منك ، وأمت فينا الرجاء في غيرك بالرجاء فيك ، وأمت فينا الطمع في غيرك بالطمع في رحمتك ومغفرتك .

اللهُمَّ اجعلنا مميتين لكل ما يغضبك وما لا ترضاه في نفوسنا وفي أقوالنا وأعمالنا واجعلنا من الشاهدين .

اللهُمَّ يا الحي إننا نصلي ونسلم علىٰ سيدنا محمد فاجعل صلاتنا وسلامنا عليه يحيا بها الإيمان والخير في صدورنا ، ويموت بها الكفر والشر في أنفسنا وأعمالنا ، اللهُمَّ يا الحي حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعل يا الحي يا الدائم أجمل أيامنا يوم لقاك فنحيا حياة لا نموت بعدها أبداً في ملكك الذي لا يبلىٰ ونعيمك الذي لا ينفد ، اللهُمَّ يا الحي يا القيوم برحمتك نستغيث لا إلـه إلا أنت ، أصلح لنا الأمور كلها ولا تكلنا إلىٰ نفوسنا طرفة عين أو أقل وتولنا في الأمور كلها .

اللهُمَّ يا الحي أحي في قلوب عبادك الرحمة والمودة والألفة والمحبة ،

وأحي في نفوسهم طاعة الوالدين في غير معصيتك ، والإصلاح والفلاح في الأرض التي استخلفتهم فيها إنك رؤوف رحيم ، فارحم .

اللهُمَّ إنك الحي القيوم فاجعل أعمالنا شاهدة قائمة بالحق يوم لقاك ، اللهُمَّ إنك الحي الذي أحيانا من لا شيء وجعلنا مستخلفين فارحم وكفِّر واغفر إنك قريب سميع مجيب لا إلـه إلا أنت سبحانك .

اللهُمَّ يا القيوم أكفنا مفتوحة ، وأبصارنا شاخصة ، وقلوبنا ترتجف خوفاً من عقابك ، وطمعاً في رحمتك ، أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، اللهُمَّ يا القيوم سخر لنا الحياة الدنيا في طاعتك ، واجعلها لنا داراً للإيمان وباباً ندخل منه واسع رحمتك في جنتك التي وعدت بها عبادك الذين استخلفتهم في الأرض وجعلتهم الوارثين ، اللهُمَّ يا القيوم أصلح لنا شأننا كله ، أنت أعلم بحالنا مالنا رب سواك ، أنت القائم علىٰ كل شيء هيئ لنا أسباب المغفرة والرحمة ولا تجعلنا من القانطين .

اللهُمَّ لك الحمد أنت نور السمـٰوات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السمـٰوات والأرض ولك الحمد أنت رب السمـٰوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق ورسولك محمد عليه الصلاة والسلام حق ، والجنة حق والنار حق والساعة حق ، اللهُمَّ لك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا واحتكمنا فاغفر لنا ما قدمنا وأخرنا وأسررنا وأعلنا أنت القيوم جل جلالك لا إلـه إلا أنت .

اللهُمَّ يا الواجد يا من أوجدت الوجود من لا شيء اجعل لنا في كل شيء أوجدته خيراً ، واحفظنا من كل الشرور ، اللهُمَّ إنك أنت الواجد للرحمة فارحمنا بفضائها ، وأنت الواجد للمحبة فاجعلنا علىٰ حبك كما أحبك نبيك محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنت الواجد للمغفرة فاغفر اللهُمَّ خطايانا وذنوبنا ، وأنت الواجد للأرزاق فارزقنا من نعمك الكثيرة ، وأنت الواجد

للأرض التي أوجدتنا منها فاجعلنا من المستخلفين فيها والمصلحين ولا تجعلنا من العابثين والمفسدين .

اللهُمَّ يا الواجد إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار .

اللهُمَّ يا الواجد للخلق احشرنا مع أحب الخلق إليك سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، واجعلنا من الفائزين بالجنة بجودك ولطفك وكرمك ورحمتك يا ٱلله .

اللهُمَّ يا الماجد اجعل حياتنا علىٰ أمجاد ولا تجعلها ساكنة مذلة ، واجعلها علىٰ الرفعة والرضا ولا تجعلها في هاوية مهانة ، اللهُمَّ إننا نشهد أنه لا مجد إلا بك ، ولا عزة إلا بك ، ولا علم إلا بك ، ولا حكمة إلا بك ، ولا غنىً إلا بك ، ولا قوة ولا قدرة إلا بك ، ولا شيء يمكن أن يكون إلا بك ، فارحمنا .

اللهُمَّ يا الماجد أكرمنا المنزلة الرفيعة والدار الآمنة في الدنيا والآخرة ، واحشرنا مع عبادك أصحاب الدرجات العالية من النبيين والشهداء والصالحين .

اللهُمَّ يا الماجد إنّا نسألك رضاك والجنة وما يقرّب إليهما من قول وعمل ، ونعوذ بك من سخطك والنار وما يقرّب إليهما من قول وعمل ، اللهُمَّ زين قلوبنا بزينة الإيمان ، وطمئن نفوسنا بزنة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين ، اللهُمَّ أكرمنا بحبك وحب من يحبك يا أرحم الراحمين .

اللهُمَّ إنك الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ، اللهُمَّ إنك الواحد الذي تتعدد صفاته الحسان ولا يتعدد ، وتتعدد معجزاته وهو الواحد لا يتعدد .

اللهُمَّ إنك الواحد الذي لا بداية إلا منه والآخر الذي لا نهاية إلا له ، وإنك الواحد قبل الآحاد والآخر بعد الجموع ، والواحد قبل الحياة والواحد بعد الممات والواحد بعد البعث سبحانك لا إلـه إلا أنت الواحد الأحد .

اللهُمَّ إنك الواحد الذي لا شريك له في الملك ، والواحد الذي لا شريك له في العرش ، والواحد الذي لا شريك له في الخلق ، والواحد الذي لا شريك له في البعث ، والواحد الذي لا شريك له في الأمر .

اللهُمَّ يا الواحد نشهد أنك أنت الواحد القهار ، وأنك الواحد العزيز الجبار ، وأنك الواحد الملك المتعال ، وأنك الواحد الرحمـٰن الرحيم الذي كلما دُعي بأسمائه الحسنىٰ استجاب ، اللهُمَّ يا الواحد ندعوك بأسمائك الحسنىٰ أن ترحمنا وتطهرنا من كل دنس وتفتح لنا السبل للإصلاح والفلاح والإعمار والكسب الحلال يا ألله !

اللهُمَّ يا الصمد يا مستغنياً بذاتك عن الصاحبة والولد اجعلنا وزوجاتنا وولداننا ووالدينا صامدين علىٰ طاعتك ووحدانيتك واجعلنا منزهين عن الإفساد في الأرض التي خلقتنا منها وارتضيت لنا الاستخلاف والإصلاح فيها .
اللهُمَّ أنت قاضي الحوائج فاهدنا إلىٰ ما يُمكِّننا من قضاء حوائجنا وبكل ما يفيد وينفع ، وبما فيه رضاك عن أقوالنا وأفعالنا وأعمالنا ، اللهُمَّ يا الصمد نفوض لك الأمر في الظاهر والباطن وفي السر والعلن ، فأنت الصمد الذي تُطعِم ولا تُطعَم وأنت تقضي بالحق حتىٰ يحق ، وتدمغ الباطل حتىٰ يُزهق ، فأطعمنا من لذيذ رزقك وارونا من سائغ رحمتك وأقر عيوننا ببديع نورك .

اللهُمَّ يا الصمد نسألك أن تغفر لنا ذنوبنا ، وتستر عيوبنا وتجعلنا صامدين علىٰ الحق واتباعه ، وصامدين علىٰ الإحسان واتباعه ، وصامدين علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اللهُمَّ يا الصمد اجعلنا مؤمنين طائعين لكتابك الحكيم ولرسولك الكريم الذي صليت وملائكتك عليه وقلت وقولك

الحق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ اللهُمَّ صلِّ وسلم علىٰ سيدنا محمد في كل مكان وزمان وسراً وعلانية .

اللهُمَّ يا الصمد إنا أطعناك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد ، فأكرمنا بالجنة وأبعدنا عن النار وأزح عن صدورنا كل هم وغم .

اللهُمَّ يا القادر اجعلنا علىٰ قدرة نكون بها قادرين علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وتجعلنا من الموفين للكيل والميزان إذا اكتلنا أو وزنا وقدرة تجعلنا عادلين إذا حكمنا بين الناس ، واجعل لنا قدرة تُمكِّننا من مغالبة أي قوة ظالمة أو فاسقة أو فاجرة فاسدة ، اللهُمَّ أجعلنا علىٰ قدرة تحفظنا من الضعف الذي يسببه أبالسة الجن والإنس واجعل بيننا وبينهم سداً واجعلنا مصلحين لا مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حق إنك أنت القادر سبحانك لا إلـٰه إلا أنت .

اللهُمَّ يا القادر اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهُمَّ متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوانا ما أحييتنا ، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا ، وانصرنا علىٰ من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا أحداً إنك القادر .

اللهُمَّ يا القادر قدّر لنا الخير كله واجعله أمامنا حيثما نسير يكون معنا في الدنيا والآخرة .

اللهُمَّ يا القادر إنا نسألك الجنة وما يقرّب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما يقرّب إليها من قول وعمل . اللهُمَّ أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهُمَّ يا القادر إنك علىٰ كل شيء قادر فقدر لنا أرزاقاً تغنينا في دنيانا وجنات تغنينا في آخرتنا ، اللهُمَّ إنك قدَّرت لنا الحياة بماضيها وحاضرها

ومستقبلها الذي لا نعلمه فاجعله كله لنا علىٰ خير ولا تجعل لنا فيه كدرة ولا غفلة ولا ضلالاً ولا شراً .

اللهُمَّ إنك القادر الذي لم يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً . اللهُمَّ اجعلنا بقدرتك قادرين علىٰ مغالبة من لا يريد بنا خيراً ، وقادرين علىٰ اتباع أوامرك وتجنب نواهيك ، وقادرين علىٰ التوجه إليك دون وسائط وأنت السميع المجيب ، اللهُمَّ أجبنا وكن بنا رؤوفاً رحيماً . اللهُمَّ إنك القادر الظاهر والباطن فأظهرنا بقدرتك علىٰ علم من علمك الظاهر وعلمك الباطن .

اللهُمَّ إنك القادر العظيم فاجعلنا بقدرتك العظيمة من عبادك الصالحين الذين لو أقسموا بك لأبريتهم .

اللهُمَّ يا المقتدر هب لنا القدرة التي تُمكِّننا من الطاعة التامة والاستماع للقول واتباع أحسنه والاحتكام به ، اللهُمَّ بقدرتك اهدنا في من هديت وهيئنا لما ارتضيت لنقوم به ونحن قادرون ولا تجعلنا من الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ولا تجعلنا يا المقتدر عاجزين عن إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

اللهُمَّ يا المقتدر اجعل لنا من قدرتك حظاً نستعين به علىٰ عبادتك وطاعتك وندفع به حب الشهوات الدنيوية فلا تكون أكبر همنا ولا تكون مخالفة لأوامرك فنكون بذلك مقتدرين علىٰ الدعوة إلىٰ سبيلك بالحق وقادرين علىٰ الثبات علىٰ شرعك ومنهاجك القويم أمام كل مفاتن الزمان ومغرياته وفتنه فنكون ظاهرين بالحق علىٰ الباطل مظهرين له وللعدل في كل أفعالنا وأقوالنا .

اللهُمَّ يا المقتدر اجعل لنا القدرة التي بها نتحدىٰ الصعاب ونتجنب الوقوع في الخطايا ونقدم علىٰ أفعال الخيرات إنك قريب سميع مجيب الدعاء يا خالق الأرض والسمـٰوات العلا وما بينهما وما تحت الثرىٰ .

اللهُمَّ يا المقتدر اجعلنا من المتخلقين المتحققين باسمك المقتدر ، فنكون ممن يُقدِّر الأمور بقدرها الصحيح فلا يكون في أعمالنا إفراط ولا تفريط ، ولا في أقوالنا زلات وخطايا ، ولا في أنفسنا غلظة علىٰ من تحب وعلىٰ من يجب الإحسان إليهم في غير معصيتك .

اللهُمَّ يا المقدم اغفر لنا ما تقدم منا من خطايانا وما جهلنا وما نسينا ، وما أسرفنا في أمرنا ، وما أنت أعلم به منا ، اللهُمَّ يا المقدم قدم لنا من الخير الباقيات والأفعال الصالحات والأعمال المنجيات ، اللهُمَّ أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت علىٰ كل شيءٍ قدير ، فنسألك أن تقدم لنا الحسنات وفعل الخيرات والنجاة من كل ذنب في الحياة ويوم الممات ويوم البعث إنك قريب سميع مجيب الدعوات ، اللهُمَّ يا المقدم قدم لنا ما قلنا من كلمات مصلحات وأفعال صالحات ونوايا طيبات وتجاوز لنا عن الزلات ، اللهُمَّ يا مقدم إليك قدمنا عملنا ، ولك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا وبقولك احتكمنا فاجعلنا من المتقدمين لا من المتخلفين عن الفوز برحمتك ورضاك . اللهُمَّ يا المقدم اجعلنا بتوحيدك نتقدم وبذكرك نتقدم وبتسبيحك نتقدم ، وبطاعتك نتقدم وبأخذ ما أمرت الأخذ به نتقدم وبالانتهاء عما نهيت عنه نتقدم ، اللهُمَّ اجعلنا بذلك نتقدم حتىٰ بلوغ الجنة ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إلـه إلا أنت سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ اجعل حسناتنا مقدمة لطاعتك ، واجعل طاعتنا مقدمة لرضاك ، واجعلنا علىٰ ما يرضيك حتىٰ ترضىٰ عنّا ، وأن نكون في رضاك خالدين في جنة الخلد ، وقدّم حمل أعمالنا ثقلاً في موازين رحمتك ، نستغفرك ونتوب إليك حتىٰ ترحمنا وتغفر لنا ، سبحانك لا إلـه إلا أنت المقدّم جل جلالك واحداً أحداً لا شريك لك .

اللهُمَّ يا المؤخر لا تؤخر عنا المغفرة والفلاح ، واجعلنا من الغانمين

الفائزين ، اللهُمَّ أخر عنا العناء والتعب والألم والجهل والمرض والفقر وقدم يا المقدّم لنا الخير في الدارين .

اللهُمَّ يا المؤخر إنك تؤخر العقاب ليوم الحساب فلا تجعل لنا من الأقوال والأفعال والأعمال ما يؤدي إلىٰ ذلك ، اللهُمَّ يا المؤخر برحمتك تؤخر الحساب علىٰ الخطايا والذنوب لأجل نيل الرحمة والمغفرة قبل الموت فاجعلنا برحمتك ومغفرتك من الفائزين ، اللهُمَّ يا المؤخر اجعل لنا الفوز بالجنة هو الفوز المؤخر بعد الممات ، ولا تجعلنا من المعذبين بالنار ، اللهُمَّ يا المؤخر اجعل لنا في ميزانك الحسنات ولا تجعل لنا فيه شيئاً من السيئات ، إننا نسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلىٰ وجهك الكريم ، وشوقاً إلىٰ لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، ونعوذ بك من الظلم والظالمين والحسد والحاسدين والنفاق والمنافقين والشرك والمشركين والكفر والكافرين والفساد والمفسدين واجعلنا من عبادك المصلحين المعمرين والمفلحين في الأرض ، اللهُمَّ يا المؤخر نسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، ونسألك قلباً خاشعاً سليماً وخلقاً مستقيماً ، ولساناً صادقاً وعملاً متقبلاً ، ونسألك من خير ما تعلم ، ونعوذ بك من شر ما تعلم ، ونستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ما لا نعلم وأنت علام الغيوب ، اللهُمَّ اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا ، وما أنت أعلم به ، فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت علىٰ كل شيء قدير وعلىٰ كل غيب شهيد ، فاجعل اللهُمَّ خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائك .

اللهُمَّ يا الأول يا محبّاً للأوائل وأنت تقول فيهم : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (1) ، اجعلنا

(1) التوبة ، 100 .

من أوائل المطيعين ومن أوائل المخلصين ومن أوائل الساعين في إعمار الأرض وإحقاق الحق عليها إنك مجيب الدعاء .

اللهُمَّ يا الأول اجعلنا من الأوائل في قول الحق ، ومن الأوائل في فعل الحق ومن الأوائل في الاستماع للحق واتباع أحسنه ، ومن المسبحين الأوائل باسمك العظيم ومن المصلين والمسلمين علىٰ رسولك الكريم محمد رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام .

اللهُمَّ إنك الأول الذي لا أول قبله ، والآخر الذي لا آخر بعده ، نعبدك ونتوكل عليك ونولي أمرنا لك نستغفرك ونتوب إليك ، اللهُمَّ اجعلنا من الأولين الفائزين بما يرضيك ولا تجعلنا من الضالين ولا الغافلين ولا المنافقين ولا المجرمين والمنحرفين إنك بنا لطيف خبير سبحانك لا إلـٰه إلا أنت الأول والآخر .

اللهُمَّ إنك الآخر الذي منه البداية وإليه النهاية ، فاجعل بدايتنا طاعة وتوبة وآخرتنا مغفرة ورحمة ، اللهُمَّ أنت الآخر الذي لا أول قبله ولا آخر بعده فأنت قبل القبل وبعد البعد سبحانك لا إلـٰه إلا أنت ، فيا آخر اجعل خير أعمالنا آخرها وخير أيامنا يوم لقاك ، ولا تلهنا بما في الدنيا عن خير باق أخرته لنا في الآخرة ، ولا تجعلنا ممن قلت فيهم ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (1) فاملأ قلوبنا إيماناً بك يا آخر ونجنا من كل كرب ومن كل عذاب ، واجعلنا ممن يقومون الليل الساجدين الذين يحذرون الآخرة ويرجون رحمتك الذين علموا أنك الآخر فعملوا للقائك وعلموا بأنك الآخر الذي لا ينسىٰ ما قدمنا في الأولىٰ .

اللهُمَّ إنك الآخر الذي آمنا به الأول ، فلا أول نؤمن به غيرك يا الآخر ، اللهُمَّ إننا نشهد في اليوم الأول بأنك الآخر الذي له الملك فاجعلنا من الشاهدين

(1) الإسراء ، 10 .

بملكك في اليوم الآخر يوم تطرح سؤالك : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؟ ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

اللهُمَّ يا الظاهر علىٰ كل شيء وفي كل شيء ومظهر لكل شيء أردته اجعل الحق ظاهراً فينا علىٰ الباطل والعدل علىٰ الظلم وعبادتك علىٰ الشرك بك وطاعتك فينا ظاهرة علىٰ معصيتك حتىٰ نكون بذلك ظاهرين بخلافتك في أرضك مظهرين لشرعك وحكمك وكل صفاتك في أنفسنا .

اللهُمَّ يا الظاهر أظهرنا علىٰ آياتك العظام في الظاهر والباطن ، واجعلنا من الناظرين إليها حتىٰ نراك فيها ، ومن المفكرين فيها حتىٰ اليقين ، ومن المتذكرين حتىٰ تكون لنا العبر .

اللهُمَّ يا الظاهر اجعلنا في كل مواقيت الصلاة ظاهرين ، وبالمعروف آمرين وعن المنكر ناهين ومنتهين ، واجعلنا بالصبر ظاهرين ولك طائعين عابدين .

اللهُمَّ يا الباطن يا رب العرش العظيم ، يا من لا تراه العيون ولا تدركه الظنون ، نسألك بأن تُطهِّر قلوبنا وما يكن في الصدور ، ونسألك أن تصلح لنا فساد أنفسنا ليكون في باطنها ما تطمئن به .

اللهُمَّ يا الباطن اجعل قلوبنا تنير بنور اسمك الذي لا يخالفه الظاهر فننجو من النفاق في الاعتقاد والرياء في العمل ، ونسألك يا ألله أن تكون باطناً في قلوبنا بمعرفتك وخشيتك ، وظاهراً في أعمالنا بمراقبتك والإخلاص لك ، فيكون كل عمل لنا ظاهراً أنت يا ربنا من ورائه الباطن .

اللهُمَّ إنك الباطن الذي يعلم ما نسر ونجهر فلا تجعل شيئاً مما نسر ونجهر في غير طاعتك ، اللهُمَّ إنك الباطن الذي يعلم الغيب فاجعل لنا في علم غيبك المكارم والفضائل وما تطمئن به الأنفس إنك أنت الباطن سبحانك جلَّ جلالك .

اللهُمَّ إنك الوالي الذي ليس لنا من دونه والٍ ، تنعم بالعطاء وتدفع البلاء فأنعم علينا بواسع نعيمك وادفع عنا كل بلاء وكل عناء وكل شقاء وارزقنا من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب يا ألله .

اللهُمَّ تولنا بالرعاية والعناية والهداية والحفظ من الدس والحسد والحقد والظلم والكيد والمكر فأنت ولينا وأنت خير الماكرين .

اللهُمَّ إنك الوالي الذي لا والي سواه فحل بيننا وبين كل سوء واجعل بيننا وبينه سداً ، اللهُمَّ إنك الوالي القوي ونحن عبادك نحب القوة ونحب النصر فمدنا بالقوة التي بها ننتصر علىٰ الظالمين والكافرين والمشركين ، اللهُمَّ يا الوالي إننا عبادك نكره الضعف فلا تجعله لنا رفيقاً ، واجعل لنا بالحق مع القوة صحبة .

اللهُمَّ إنك الوالي الراعي للصادقين المصدقين بالحق فاجعلنا علىٰ الصدق ولا تجعلنا وأولادنا وأزواجنا من الكاذبين والمكذبين بالحق ولا تجعلنا من المنافقين .

اللهُمَّ إنك الوالي الذي يخرج من يشاء من الظلمات إلىٰ النور اجعلنا علىٰ نور من نورك به نهتدي إلىٰ سبل الصلاح ولا تجعلنا في ظلمة بها تغم الأنفس .

اللهُمَّ اجعلنا مع الذين قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [1] .

---

(1) فصلت ، 30 ـ 34 .

اللهُمَّ إنك المتعالي رفيع الدرجات تعلو فوق كل علو فتمتد الأيدي إليك سبحانك لا إلٰه إلا أنت ، نسألك أن تجعلنا علىٰ الدرجات الحسان نعلوا ولا تجعلنا في أسفل سافلين في ظلمة وغمة وكدر وهم .

اللهُمَّ إنك المتعالي بعظمتك وكبريائك فاجعلنا من المتعالين عن اتباع ما نهيت عنه واجتناب ما أمرتنا اجتنابه واجعلنا من الطائعين إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل والآخذين بما آتانا الرسول الكريم محمد صلواتك وسلامك عليه والمنتهين عما نهانا عنه إنك السميع المجيب .

اللهُمَّ إنك خلقتنا أزواجاً وتعاليت عن الصاحبة والولد فاجمع بيننا وبين أزواجنا تعالياً عن الشرك بك واجعل بيننا مودة ورحمة .

اللهُمَّ إنك تعاليت عن الصورة وخلقتنا في أحسن صورة وتقويم ورزقتنا من الطيبات واستخلفتنا في الأرض فتبارك ٱلله أحسن الخالقين .

اللهُمَّ إنك المتعالي عن الشبيه والصورة والمثال نسألك أن ترحمنا علواً بالحق ولا تعذبنا بعلوٍ عليه ، إننا نتقيك ونستغفرك ونتوب إليك .

اللهُمَّ يا البرّ اجعلنا من المستخلفين الأبرار الأخيار ، واجعلنا البارين بوالديهم وبكل ما يرضيك ، وارضَ عنا وعن البنين ، واجعلنا في الدنيا من المتقين الذين يذكرونك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وهم يقولون : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ ، واجعلنا يا البرّ من الحامدين الشاكرين المسبحين باسمك الأعظم واجعلنا في الجنة من الوارثين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

اللهُمَّ يا البرّ افتح علينا أبواب الخير في كل بر ، واحفظنا من كل شر ويسر لنا الأمر وأنت راض عنا في كل ما يفيد وينفع واجعلنا من الطامعين في فضلك وجودك وكرمك والفائزين به ولا تجعلنا من الطامعين في سواك ، اللهُمَّ إنك أنت البرّ الواسع فلا تجعلنا في ضائقة .

اللهُمَّ إننا نعلم يقيناً أنك أنت التواب الرحيم ، فنستغفرك من كل ذنب وغفلة أنت لا ترضاها لعبادك الصالحين ، ونتوب إليك ، بك آمنا رباً واحداً أحداً لا شريك لك في الملك ولا في كل شيء مما يذكر أو يعد أو يسمىٰ ، عليك توكلنا فلا تجعلنا من الخائبين ، وأولينا أمرنا إليك فتقبله يا تواب رعاية وعناية وحفظاً وسلامة ، والحمد لله عليك توكلنا .

اللهُمَّ يا التواب اقبل توبتنا واجعلنا من التائبين وطهر نفوسنا من الرياء وطهر قلوبنا من النفاق وألسنتنا من الكذب ، وجوارحنا من المعاصي ، اللهُمَّ وفقنا للتوبة إليك فاجعل لكل ذنب توبة ولكل توبة مغفرة ورحمة ، وتب علينا فأنت التواب الرحيم ، واجعل أعمالنا وصلاتنا وسلامنا علىٰ محمد طمأنة للقلوب ومغفرة للذنوب وسترة عن ارتكاب الخطايا والعيوب ، ويسر لنا عمل الخير في الغيب والشهادة ، وارض عنا وتب علينا واقبلنا يا تواب .

اللهُمَّ طهرنا من الذنوب إنك أنت التواب الرحيم ، واجعل لنا مع كل شروق توبة ومع كل غروب توبة وتب علينا بنومٍ سباتٍ وليل لباسٍ ونهارٍ معاشٍ ، وأملأ قلوبنا بفرحة مغفرتك لذنوبنا .

اللهُمَّ لا تغلق باب رحمتك ومغفرتك في وجهنا فإنه لا سبيل للنجاة إلا برضاك عنا وقبولك توبتنا ، وبدل يا التواب سيئاتنا حسنات إنك سميع مجيب الدعاء يا ألله .

اللهُمَّ يا المنتقم اجعلنا علىٰ الانتقام من المفسدين في الأرض ، واجعلنا قادرين علىٰ الانتقام من الذين يريدون الانتقام منا ، اللهُمَّ يا المنتقم اجعلنا علىٰ القوة التي بها نتمكن من الانتقام من ضعفنا وجهلنا وهفواتنا وما يوسوس به الشيطان لنفوسنا ، اللهُمَّ أنت بيدك الملك ، ونحن صنعتك ، تعلم ما فيه الخير لنا ما لا نعلمه لأنفسنا ، وترىٰ منّا ما لا نراه في أنفسنا ، ليس في صفاتك الحسنىٰ شر تعاليت علىٰ ذلك علواً كبيراً ، فسميت نفسك المنتقم ، ونحن نثق

أن انتقامك عين نفعك ، فنسألك يا ألله أن تنتقم لنا ممن بغىٰ علينا وأراد بالإسلام وبنا وبخلقك سوءاً ، اللهُمَّ إن أعداءك يكيدون كيداً فكد بهم كيداً ، وأبطل كيدهم ، واجعل تدبيرهم تدميرهم ، ونعوذ بك من فجورهم وشرورهم ، ونجعلك ربنا في نحورهم ، وبانتقامك اسلبهم مدد الإمهال ، وأرسل عليهم ألوان الوبال إنك أنت المنتقم سبحانك عليك توكلنا ولك الحمد جل جلالك .

اللهُمَّ يا العفو اعفُ عن غفلتنا بالرحمة ولا تجعلنا من الضالين ، واعفُ عن كل ما يشبع حاجاتنا في رضاك واجعلنا من المتصدقين المتطهرين والمتزكين ، ولا تجعل في رزقنا رِباً ولا تجعل في أبنائنا شقاء ولا ضعفاً ولا فاقةً ، اللهُمَّ اجعلهم علىٰ طاعتك أغنياء أقوياء علىٰ سنة رسولك محمد عليه الصلاة والسلام يحقُّون الحق ويزهقون الباطل حتىٰ ترضىٰ ، يا من خلقت الأرض وجعلت فيها خليفة طائعاً لك وخلقت السمٰوات العلا ، اللهُمَّ بعفوك ترحم وتغفر فارحمنا بطاعتك واغفر لنا خطايانا ولا تجعلنا من الغافلين . اللهُمَّ اعفُ عن أبصارنا وأسماعنا أن ترىٰ أو تسمع ما نهيت عنه ، واجعل قلوبنا مطمئنة بما أمرت به ، وعقولنا كافرة بما حرَّمت ونهيت .

اللهمَّ يا الرؤوف برأفتك أن تفك عنَّا كل هم وغم وتفتح علينا أبواب الخير لطاعتك وللعمل الذي ترضىٰ به عنَّا ، ووفقنا يا الرؤوف بما يغنينا عن سواك ، ٱللهمَّ يا الرؤوف بحالنا أصلح أحوالنا ولا تشمِّت أحداً فينا ، واحفظنا من الخائنين والحاسدين والضالين ، عليك توكلنا يا رب العالمين . إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك ، اللهُمَّ يا الرؤوف اجعلنا من المصلحين في الأرض واجعلنا من الوارثين في الدارين واجعل الرأفة تملأ قلوبنا بالرحمة والمغفرة واجعلنا من المتوكلين عليك في حركتنا ومعاشنا وسكوننا وراحتنا ، إنك قريب سميع مجيب الدعاء والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ يا الرؤوف كن بأحوالنا وأحوال آبائنا وزوجاتنا وأولادنا رؤوفاً

رحيماً ، وكن بأمتنا رؤوفاً حتىٰ تكون بحق خيرَ أمةٍ أخرجت للناس ، تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُ بِك واحداً أحداً لا شريك لك ، اللهُمَّ يا الرؤوف إننا نسألك أن ترأف بنا وترحمنا ، ونسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، اللهُمَّ يا الرؤوف كن بنا رؤوفاً وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَكن بنا رؤوفاً فلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِين .

اللهُمَّ أسألك أن تحفظنا برأفتك من بين أيدينا ومن خلفنا وعن يميننا وعن شمالنا ومن فوقنا ومن تحتنا ، وإننا نعوذ بكلماتك التامة من شر خلقك ، اللهُمَّ أسألك باسمك الرؤوف ألا تنزع عنا سترك ، ولا تُنسينا ذكرك ، ولا تجعلنا من الغافلين ، اللهُمَّ يا الرؤوف أنت ربنا سبحانك لا إلـه إلا أنت خلقتنا ونحن عبادك ونحن علىٰ عهدك ووعدك ما استطعنا ، اللهُمَّ أنت الرؤوف وسعت كل شيء رأفةً ورحمةً ، اللهُمَّ إننا نلتجئ إليك من التجرؤ عليك ، ونعتصم بك من تحليل حرام أو تحريم حلالٍ ، يا ذا العفو والإفضال والعظمة والجلال ، يا الرؤوف يا الرحيم يا ألله !

اللهُمَّ مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير وبالإجابة جدير ، وأنت ربنا المجير ، نسألك أن تجيرنا من عذاب السعير ، اللهُمَّ يا مالك أنفسنا نسألك أن تؤتي نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، فالحمد لك يا مالك الملك يا من تواضع كل شيء لعظمته وملكه ، وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء لملكه واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه ، اللهُمَّ فاطر السمـٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه نشهد أنه لا إلـه إلا أنت ونعوذ بك من شرور أنفسنا ومن شرور شيطان الجن والإنس ، اللهُمَّ أنت مالك الملك وخالق الخلق وباسط الرزق ،

ما من شيء إلا وأنت آخذ بناصيته ، فنسألك أن تأخذ بنواصينا التي تملكها إلىٰ الخير ، وتُملكنا نفوسنا وجوارحنا بكل خير ، اللهُمَّ أنت مالك الملك ، فإننا وجهنا وجوهنا إليك ، وفوضنا أمورنا إليك ، وألجأنا أنفسنا إليك ، لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك ، آمنا بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، لا إلـه إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين ، اللهُمَّ لا تملّك علينا من لا يخافك ولا يرحمنا يا ألله يا مالك الملك .

اللهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام أجلنا بعظمتك وأكرمنا بجودك وكرمك ، اللهُمَّ إن جلالك هيبة فاجعلنا مهابي الجانب ولا تجعلنا من السفهاء ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين تُبدَّل سيئاتهم حسنات ومن الذين يتوبون إلىٰ ٱلله متاباً ، وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ، اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين الوارثين الذين يجلونك طاعة بالوحدانية والصلاة والزكاة والصيام والحج إلىٰ بيتك الحرام والجهاد في سبيلك عبادة ، ونشهد أن جلالك إعجاز وإكرامك إعجاز فآمنا طائعين والحمد لله رب العالمين .

اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا عادلين مقسطين مع أبنائنا ووالدينا وزوجاتنا ومن لهم حق علينا ، ولا تجعلنا ممن يظلمون الناس ويعتدون علىٰ ممتلكاتهم وحرماتهم ، اللهُمَّ يا المقسط من مكر بالناس فأنت كفيل بالمكر به ومن يكيد للناس أنت كفيل بكيده ، اللهُمَّ إنك أمرت بالقسط فاجعلنا من المقسطين الذين يوفون الكيل ولا يطففون الميزان .

اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا من الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا شهداء بالقسط واجعلنا من الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ .

اللهُمَّ يا المقسط اجعلنا من الْقَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ والشُهَدَاءَ لك بالحق وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .

اللهُمَّ إنك تحب المقسطين فاجعلنا من أحبائك واجعلنا إن حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل ولا نظلم ولا نميل .

اللهُمَّ اجعلنا من الذين يوفون الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وهم لعهدك من الموفين . وَلا نبْخَسُ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا نعْثوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

اللهُمَّ باسمك الجامع اجمع شمل أمتنا علىٰ الحق وإحقاقه ، واجعلنا من العاملين المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء بغير حق ، اللهُمَّ باسمك الجامع اجمعنا علىٰ التقوىٰ واجعلنا علىٰ الهداية والصراط المستقيم ولا تجمعنا علىٰ الفتنة ولا تجعلنا من الضالين ، اللهُمَّ إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك .

اللهُمَّ يا الجامع للأقوال والأعمال اجمع أقوالنا مع أعمالنا علىٰ أفعال الخيرات ، اللهُمَّ يا الجامع للروح مع البدن مع النفس اجمعها فينا علىٰ الرحمة والمودة والمحبة ولا تجمعها فينا علىٰ الشقاء يا خالق الأرض والسمٰوات والعلا ، اللهُمَّ اجمعنا علىٰ الحق ولا تجمعنا علىٰ الباطل ، واجمعنا علىٰ الشهادة بوحدانيتك وطاعتك وطاعة رسولك الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ولا تجمعنا علىٰ الكفر والشرك بك .

اللهُمَّ يا الجامع اجمع بيننا وبين الصالحين من عبادك لنكون من خلفائك الذين يصلحون ويأخذون علىٰ يد المفسدين ، واجمع الخير في قلوبنا وأعمالنا ، واجمع بيننا وبين ما تحب ، وباعد بيننا وبين ما تكره كما باعدت بين المشرق والمغرب ، واجمع بيننا وبين من ساروا في طريق الهداية في الجنة ، وباعد بيننا وبين الكافرين والمنافقين الذين ستجمعهم النار الذين قلت

فيهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (1) ، اللهُمَّ أبعدهم عنّا وأبعدنا عنهم في الدنيا وفي الآخرة .

اللهُمَّ إنك جمعت الماء في قلب السماء سحاباً وسقته حيث تشاء لمن تشاء فلا تحرمنا من غيثك النافع واجمعنا في الأرض أخوة متحابين حتىٰ ننال رضاك ، اللهُمَّ إنك جمعت في نفوسنا مشاعر الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وذوي القربىٰ فاجعلنا بحبلك معتصمين غير متفرقين ، اللهُمَّ إنك جعلت صلاة الجمعة صلاة جامعة فاجعلنا من الذين يدرؤون البيع ويسعون إلىٰ ذكرك واجعلنا من بعدها من الذين ينتشرون في الأرض إصلاحاً ولا تجعلنا من المفسدين ، اللهُمَّ إنك جمعت الأحرف في الكلمة فاجمعنا علىٰ الشهادة والطاعة ويسر لنا من أمرنا رشداً . اللهُمَّ يا الجامع إنك جمعتنا يوم العيدين فلا تجعلنا من بعدهما مفتونين ، وجمعتنا علىٰ جبل عرفات نشهد لك بالوحدانية فاكتب لنا حَجَّة واجعلنا من بعدها معصومين من الوقوع في الخطيئة .

اللهُمَّ يا الجامع قد اجتمعنا في بيتك المحرم الذي جعلته للناس مثابة وَأَمْنًا واتخذنا من مقام إبراهيم مصلىً فاجعلنا آمنين مطمئنين وجمعتنا نسعىٰ بين الصفا والمروة إظهاراً للحق فاجعلنا قوة مجتمعة علىٰ الحق .

اللهُمَّ يا الغني اجعلنا بغناك علىٰ القوة ولا تجعلنا علىٰ الوهن والضعف ، واجعلنا من الذين حاجاتهم مشبعة ولا تجعلنا من المحتاجين لأحد سواك ، اللهُمَّ اجعل الغنىٰ والطمأنينة في أنفسنا ، واجعل العلم يملأ صدورنا ، وآتنا الحكمة من خيرك الكثير ، وازرع المحبة بيننا أخوة متلاقين علىٰ توحيدك يا واحد يا أحد يا مغنٍ عن كل أحد ، وارو ظمأنا بمائك العذب الطاهر ، الذي تنهمر به السماء علىٰ الأرض وتثور به الينابيع وتفيض ، وتجري به الأنهار

---

(1) النساء ، 140 .

والوديان ، اللهُمَّ يا الغني إننا في حاجة إليك لا تجعلنا نلتجئ إلا إليك ، توكلنا عليك ، توكلنا عليك ، توكلنا عليك ، أنت الغني جل جلالك واحداً أحداً ، لك الحمد ولك الشكر يا نعم المولىٰ ونعم النصير .

اللهُمَّ إنك الغني عنا وعن أعمالنا ونحن الفقراء إليك وفي حاجة لأن نعمل ما يرضيك حتىٰ ترضىٰ عنا ، اللهُمَّ يا الغني بالعلم والحكمة والقوة والقدرة والملك والعظمة يا علام الغيوم أغننا بواسع فضلك ونعمك ورحمتك في كل شروق وغروب ، وأغننا بشكرك وحمدك في كل حركة وسكون ، فإن حمدك وشكرك يزيدنا غنىً ، وإن رضاك عنا يجعلنا من المستخلفين ويجعلنا من أصحاب الجنة فلك الحمد والشكر يا الغني يا من لا غني غيرك .

اللهُمَّ يا المغني أغننا بحلالك عن حرامك ، وبك عمن سواك ، واجعلنا من المستعففين الذين تعفهم ، واكتبنا من المستغنين الذين أغنيتهم ، اللهُمَّ لا غنىٰ لنا عن رزقك ورحمتك وإحسانك، وأنت الغني عن العالمين، والمغني للأولين والآخرين ، فنسألك أن تغنينا بكل خير وتمنع عنا كل شر في كل سماء وبحر وبر ، اللهُمَّ يا الغني أغننا بتوحيدك وبالصلاة والسلام علىٰ رسولك محمد عليه الصلاة والسلام ، واحشرنا في زمرته غير ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين فنسألك هٰذا الغنىٰ يا المغني ، واجعل اللهُمَّ غنانا من لدنك في نفوسنا ، واغرسه في قلوبنا ، فمن كان غناه في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا ، إنك الغني الحميد ، اللهُمَّ يا الغني يا الحميد يا المبدئ يا المعيد يا الرحيم يا الودود أغننا بحلالك عن حرامك وبفضلك وجودك وحلمك وحكمتك وعلمك وكرمك وقوَّتك ومقدرتك وعزتك إنك أنت الغني سبحانك، وأسألك يا المغني أن تغنينا بالقرآن، فوٱلله ما دون القرآن من غنىً ولا بعده من فاقة، اللهُمَّ أغننا به إنك الغني الحميد .

اللهُمَّ يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا ، وطهِّر قلوبنا من الغل والحسد والبغض والنميمة والتكبر والحقد ، وامنع عنا شرور الناس ، واحفظنا منهم

واهدهم واهدنا سبل النجاة والفلاح ، اللهُمَّ يا المانع امنع عنا الاغترار بالدنيا وحبها والوقوف عند بابها والتشبث بها ، ولا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم منها ، اللهُمَّ امنع عنا عذابك وارحمنا إنك أنت الرحمـٰن ، اللهُمَّ امنع عنا نار جهنم وامنع عنا كل ما يقربنا إليها ، وحبب وزين لنا كل ما يقربنا منك يا المانع يا الحفيظ يا ألله !

اللهُمَّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، اللهُمَّ امنع عنا شياطين الإنس والجن ، وأرسل علينا حفظة يحفظوننا من كل سوء وشر ، اللهُمَّ إننا نسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ ، فلا تمنع ذلك عنا ، ولا تحرمنا منه ، اللهُمَّ امنع عنا الظمأ والجوع والألم والحسد والضرر واجعلنا في نعيمك نعيش الرحمة ، اللهُمَّ يا المانع لا تمنع عنا التواد والتراحم والإصلاح وامنع عنَّا كل فساد ، اللهُمَّ إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوّل عافيتك ، وجميع سخطك ، اللهُمَّ أنت المانع فامنع عنا جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، اللهُمَّ أنت ربنا لا إلـٰه إلا أنت ، عليك توكلنا وأنت رب العرش العظيم ، اللهُمَّ إننا نعوذ بك من شر أنفسنا ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها فامنع عنا شرورها يا المانع إنك بنا رؤوف رحيم .

اللهُمَّ يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا واهدنا فيمن هديت بجاه من رفع قواعد البيت وبجاه من طاف حوله وصلىٰ وصليت ، اللهُمَّ يا المانع امنع عن قلوبنا وأنفسنا الغل والحسد والبغض والنميمة والحقد واجعلنا إخوة متحابين في محبتك ، وامنع عنا شرور الناس ، واحفظنا منهم واهدهم واهدنا سبل النجاة والفلاح يا أرحم الراحمين .

اللهُمَّ يا الضار اجعلنا بضرك ضارين لمن يريد إلحاق الضرر بالأرض والعباد ، واجعلنا من مبطلي السحر الذي يفرق بين المرء وزوجه ، واحفظنا وأولادنا وزوجاتنا وأخوتنا من كل ضر وكيد ومكر وحسد ، وأنر عقولنا

بما ينفع يا النافع يا ذا الجلال والإكرام ، فأنت بضرك يا ضار لما يضر ولمن يضر تُمكِّن عبادك المستخلفين فيها من الإصلاح والفلاح ، اللهُمَّ اجعلنا من المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق ، اللهُمَّ إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك فهب لنا القدرة والقوة التي بها نُحفظ من كل ضرر ، ونتمكن من إلحاق الضر بكل مارد ضار ، يا ألله يا الضار يا عزيز يا غفار يا عالم الأسرار والأجهار يا خالق الليل والنهار والشجر والثمار وكل ما يعد ويحصىٰ وكل مالا يعد ولا يحصىٰ ، فبرحمتك ارحمنا بالقوة والقدرة والحكمة والعلم النافع يا نافع يا لله ، واحفظنا يا الضار من كل ضرر ، ومن كل الشرور ، إنك أنت النافع ولا نافع سواك سبحانك لا إلـه إلا أنت الضَّار جل جلالك .

اللهُمَّ يا النافع انفعنا في الدارين نعمة ويقيناً ، ومغفرة وجنة نعيم ، وارضَ عنا أجمعين ، اللهُمَّ إنك في السماء أنت ربٌّ نافعٌ ، وفي الأرض أنت ربٌّ نافع ، وفي أنفسنا ربٌّ نافع ، وفي الظاهر أنت وفي الباطن أنت ربٌّ نافعٌ ، أنت في سمعنا الحق ، وفي بصرنا الحق ، وأنت في حواسنا التامة حركة وسكون الفعل الحق ، لا تشرق الشمس ضياء إلا بك ، ولا يظهر القمر نوراً إلا بك ، وأنت النافع لا يهدأ الليل ويسكن إلا بك ، فأنت جل جلالك مَالِكُ الْمُلْكِ وأنت النافع تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، وأنت النافع بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فأنت النافع الذي تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وأنت النافع تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، سبحانك جل جلالك أنت في الدارين أنت النافع لا ملجأ منك إلا إليك ، سبحانك أستغفرك وأتوب إليك .

اللهُمَّ يا هادي اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، اللهُمَّ إنك الهادي بالحق للحق اهدنا للحق

بالحق واجعلنا من الراشدين ، اللهُمَّ يا هادي اهدنا في من هديت ، واهدنا يا هادي لنتعاون علىٰ محبتك ونهتدي بهداك ونستقيم لأمرك ، وننتهي عما نهيت ، نعدل ولا نظلم ، نُصلح ولا نُفسد ، نصدق ولا نكذب ، اللهُمَّ يا هادي اهدنا للعلم ولا تجعلنا من الجاهلين ، واهدنا للقسط ولا تجعلنا من المطففين ، واهدنا للصلاة والزكاة وحج بيتك المحرم واجعلنا في شهرك المكرم من الصائمين ، اللهُمَّ يا هادي اجعلنا من المتذكرين والمتفكرين ولا تجعلنا من الغافلين ، اللهُمَّ يا هادي اهدِ أبناءنا لما تحبه وترضاه واجعلنا لهم من الراعين واجعلهم لنا في غير معصيتك من الطائعين وارضَ عنا وعنهم وارحمنا إنك أنت الرحمـٰن الرحيم .

اللهُمَّ يا البديع لا تجعلنا علىٰ بدعة واجعلنا من المبدعين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في كل حين ، اللهُمَّ يا البديع للسمـٰوات والأرض والبديع للروح والنفس والجسد قد خلقت الشيء وخلقت من الشيء أشياء ، فاجعلنا من المتدبرين في آياتك وهم مطمئنون ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ ، اللهُمَّ يا البديع للجمال والأقوال والأفعال والأعمال والأزواج اجعل أقوالنا علىٰ الحق وأفعالنا علىٰ الحق وأعمالنا علىٰ الحق وأزواجنا علىٰ الحق إنك أنت البديع سبحانك محق الحق رب العالمين .

اللهُمَّ يا الباقي أجعلنا علىٰ الإيمان باقين ، وبتوحيدك متمسكين ثابتين ، وبالشرك كافرين ، وعلىٰ طاعتك مهتدين ، اللهُمَّ أبقنا علىٰ العدل والرحمة ، والصدق وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، اللهُمَّ اجعلنا يا الباقي علىٰ الإصلاح

عاملين لا مفسدين ، ولا تجعلنا من سافكي الدماء فيها بغير حق ، ولا تجعلنا من الضالين ولا المغضوب عليهم ولا تجعلنا من الفاسقين الجاحدين لفضلك وكرمك وجودك سبحانك جل جلالك أنت ربُّ العالمين ، اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين الوارثين في الدارين .

اللهُمَّ إنك أنت الباقي الدائم فاجعلنا علىٰ الحق باقين وعلىٰ توحيدك وشكرك مداومين بك متصلين غير منقطعين ، اللهُمَّ إنك الباقي مالك الملك الباقي وكل شيء غيرك هالك فاجعلنا علىٰ الإصلاح والفلاح ولا تجعلنا علىٰ الهلاك ، اللهُمَّ يا الباقي نسألك أن تعصمنا من فتن الدنيا وتوفقنا لما تحب وترضىٰ ، وأن تبارك لنا في الصالحات الباقيات من أعمالنا ، تصلح لنا شأننا كله وتبقي علينا الصحة والعافية حتىٰ نؤدي حق طاعتك وعبادتك علينا ، ولا تضلنا وإن كنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا سيئاتنا وأبقنا علىٰ الحسنات وضاعفها لنا ، اللهُمَّ أنت الباقي الذي سبَّحت له السمٰوات بأكنافها ، وسبَّحت له البحار بأمواجها ، وسبَّحت له الجبال بأصدائها ، وسبَّحت له الحيتان بلغاتها ، وسبَّحت له النجوم في السماء بأبراجها ، وسبَّحت له الأشجار بحفيفها وأصولها وثمارها ، وسبَّحت له السمٰوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن ، وسبَّح له كل شيء من مخلوقاته ، تباركت وتعاليت سبحانك ، سبحانك يا الحي يا الدائم يا الباقي ، كل شيء هالك إلا وجهك الكريم .

اللهُمَّ يا الوارث اجعلنا من الوارثين المستخلفين الفائزين في الدارين ولا تجعلنا من المحرومين والمغضوب عليهم ولا تجعلنا من المعذبين ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين ملكوا الشهادة لك بالوحدانية وهم طائعون لما جاء به رسولك الكريم وبه مبشرون ومنذرون ومحرضون وفاتحون كل سبيل من أجل السلام ، اللهُمَّ يا الوارث اجعلنا من العالمين ولا تجعلنا ولا تجعل أبناءنا من الجاهلين ، اللهُمَّ اجعلهم وارثين للحُجَّة التي بها يحق الحق ويزهق الباطل ، ومالكين للحكمة التي بها تصلح أحوالهم وفيها ما يحقق لهم طموحاتهم

وآمالهم في طاعتك لا في معصيتك ، اللهُمَّ اجعلهم الوارثين للعلم الذي ينفع والعمل الذي يرفع والقلب الذي يخشع والعين التي تدمع والدعوة التي يستجاب لها والحُجَّة التي يُنْساقُ إليها ، اللهُمَّ أورثنا من ميراث النبوة العلم والنور وشفاء الصدور ، واجعلنا في الآخرة من ورثة جنة النعيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً ، وصلىٰ ٱلله وسلم علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

اللهُمَّ يا الرشيد يا ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، نسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك الرحيم الودود ، وأنت تفعل ما تريد ، اللهُمَّ إن هـٰذا اليوم من خلقك جديد ، فافتحه علينا بطاعتك واختمه لنا بمغفرتك ورضوانك ، وأرشدنا فيه إلىٰ حسنة تقبلها منا ، وزكها وضاعفها لنا ، وما عملنا فيه من سيئة فاغفرها لنا ، إنك الرشيد ، والودود الكريم ، اللهُمَّ أرشدنا إلىٰ حسن دعائك الذي أمرتنا به ، ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا ، فأجبنا كما وعدتنا ، اللهُمَّ بلغنا سبل الرشاد بهديك ، وامنن علينا بمغفرة ليس بعدها ذنب ، ورشاد ليس بعده ضلال ، اللهُمَّ أرشد قلوبنا إلىٰ طريق الصلاح ، ونوّر عقولنا بسبل الهدىٰ ، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وهيئ لنا من أمرنا رشداً .

اللهُمَّ يا الصبور اجعلنا من الصابرين بالحق علىٰ الحق ، واجعلنا من الصابرين بالعدل علىٰ العدل ، واجعلنا من الصابرين علىٰ توحيدك وعبادتك واحداً أحداً ، واجعلنا من الطائعين والمصلحين في الأرض ولا تجعلنا من المفسدين فيها وسافكي الدماء بغير حق ، اللهُمَّ اجعل ألسنتنا ناطقة بالحق ، وقلوبنا مؤمنة به ، وجوارحنا فاعلة وعاملة عليه ، واجعلنا صابرين علىٰ نيل العلم وصابرين علىٰ محبة الخير وطاعة الوالدين ورضاك . اللهُمَّ اجعلنا صابرين علىٰ الكفر بالقول الباطل والفعل والعمل الباطل ، بأبالسة الجن

والإنس ، ولا تجعلنا لهم طائعين ولا منهم خائفين ، واجعلنا من الراكعين الساجدين لك ولا تجعلنا من الراكعين والساجدين لسواك . اللهُمَّ صلِّ وسلم علىٰ صاحب الرسالة الخاتمة للناس كافة .

اللهُمَّ يا الصبور اجعل الصبر فينا رحمة واجعله طاعة لك بها تفرج الكرب وتمحو الخطايا وتغفر الذنوب وتستر العيوب وبها تتطهر أنفسنا وأبداننا وأرواحنا ، اللهُمَّ إنك الصبور علىٰ ما يقول الكفرة والمشركون فاجعل الصبر فينا حتىٰ يؤمنوا ، نسألك اللهُمَّ أن تلهمنا صبراً تحجب به طرفنا عن معصيتك ، وتملأ قلبونا بخشيتك ، ولا تجعلنا ممن يشتغل بغير طاعتك ، وامنحنا من الصبر ما نغض به طرفنا عن النظر إلىٰ المحرمات وتمنع به أنفسنا من تناول الشهوات في غير حق ، وتجعلنا نخلو بطاعتك وعبادتك في الليالي المظلمات . اللهُمَّ ألهمنا الصبر وأعنّا عليه ، اللهُمَّ يا الصبور إذا ابتليتنا اجعلنا من الصابرين ، واجعلنا من الشاكرين بما أنعمت علينا ، اللهُمَّ يا الصبور إننا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك ، ربنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار ، واكتبنا مع الصابرين الذين يرثون الفردوس من الجنة يا الصبور يا ألله !

✍ ✍ ✍